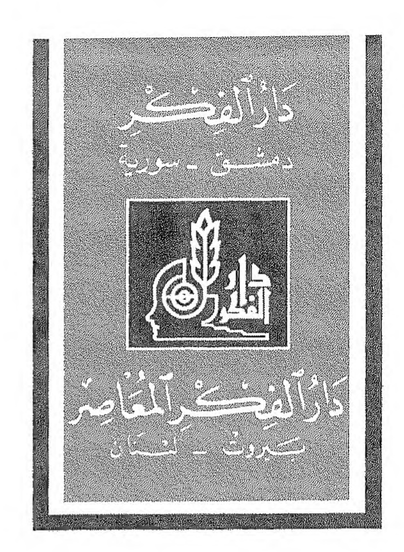
الدكتور فايز الداية

علم الدلالة العربي

النظرية والتطبيق

دراسة تاريخية، تأصيلية، نقدية





الدكتور فايز الداية

مواليد : دوما ـ دمشق ١٩٤٧ م .

نال الإجازة في اللُّغة العربيَّة وآدابها ١٩٧٠ م من جامعة دمشق .

نال الماجستير في موضوع (المؤثرات الفلسفيَّة والمنطقيَّة في شروح التلخيص البلاغيّة) ، جامعة القاهرة ، كلية الآداب ١٩٧٦ م .

نال الدكتوراه في موضوع (الجوانب الدلالية في نقد الشعر في القرن الرابع الهجري) ، جامعة القاهرة ١٩٧٨ م وقد أرسى أوّل صورة علميَّة لعلم الدلالة العربي .

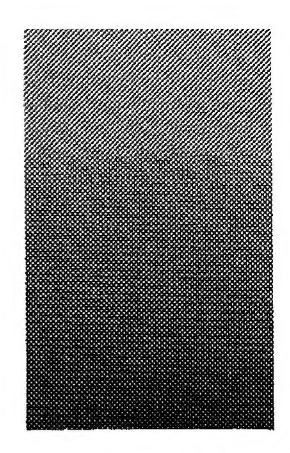
أُستاذ البلاغة وفقه اللُّغة في قسم اللُّغة العربيَّة وآدابها بجامعة حلب .

يعمل حالياً في كلية التربية الأساسيَّة في الكويت ١٩٩٦ م (قسم اللُّغة العربيَّة وآدابها) .

عضو اتحاد الكتاب العرب بدمشق .

عضو الجمعية السُّوريَّة لتاريخ العلوم عند العرب بجامعة حلب .

له دراسات بلاغيَّة وأُسلوبية ، ودراسات وأعمال لغوية ، وأعمال جامعية عامَّة ، تجاوزت العشرة .



بسم الله الرحمن الرحيم



علـم الدلالـة العـــربي : النظرية والتطبـــيق : دراســـة
تاريخيـة-تأصـيليـة- نقـدية/ فـايز الـداية . - ط٢ . -
دمشق : دار الفكر، ١٩٩٦ . - ٥١٤ص؛ ٢٤سم .
١- داي ع ٢- العنوان ٣- الداية
ع- ١٩٩٦/٩/٢٠٨٣ مكتبة الأسد

الدكتور فايز الداية

علم الدلالة العربي

النظرية والتطبيق

دراسة تاريخية ، تأصيلية ، نقدية

دار الفكر المعاصر
بيروت - لبنان

دار الفكر
دمشق - سورية



الرقم الاصطلاحي: ٠١١, ٦٨٥

الرقم الدولي: ISBN: 1-57547-307-0

الرقم الموضوعي: ٤١٠

الموضوع: اللغة العربية

العنوان: علم الدلالة العربية بين النظرية والتطبيق

التأليف: د. فايز الداية

الصف التصويري: دار الفكر - دمشق

التنفيذ الطباعي: المطبعة العلمية - دمشق

عدد الصفحات: ٥١٦ ص

قياس الصفحة: ١٧×٢٥ سم

عدد النسخ: ١٠٠٠ نسخة

دار الفكر بدمشق

برامكة مقابل مركز الانطلاق الموحد

سورية - دمشق - ص.ب (٩٦٢).

برقياً: فكر

فاكس ٢٢٣٩٧١٦

هاتف ٢٢٣٩٧١٧، ٢٢١١١٦٦

http://www.Fikr.com/

E-Mail: Info @Fikr.com

الطبعة الثانية

1417هـ = 1996 م

الطبعة الأولى 1985م

أعيدت عدة مرات

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

١ ـ علم الدلالة عربي

نشطت الدراسات الدلالية على نحو بارز في السنوات الثلاثين الأخيرة ، وهذا أمر تعرفه الثقافة الإنسانية إذ تتبلور جوانب في المعرفة وتتكامل لتغدو علماً له قِوامه ، ويلحظ هنا أن العلماء والباحثين في العلوم الإنسانية إنما يستمدون أصولاً قديمة ، فينظرون فيها بمناهج جديدة وبرؤى تتطلع إلى استفادة تخدم العصر وتحرّك فاعلية تلك الأصول من خلال فروعها المتولدة منها .

بدأت منذ أعوام قليلة حركة الترجمة والكتابة العربية في الدلالة سواء في الأطر العلمية أو الصحفية وما يقرب منها ، لكنّ الموقف تجاه علم الدلالة يحتاج إلى إيضاح ، ذلك أنه سيقوم بمهمة بالغة الأثر في الجوانب العلمية والأدبية وأساليب الاتصال في الحياة اليومية .

إننا نتجه في الدراسات اللغوية العربية ـ وأخصّ الدلالة ـ إلى الاستفادة من الثقافات على أن تكون أدوات لنا تعين على إضاءة الأصول العربية وتساعد على تنمية قدراتها في عصرنا ، وهنا نحن نأخذ ما يفيد ونردّ ما يجافي ماهية لغتنا ومسارها التاريخي ، وهكذا كان الشأن لدى علمائنا وفلاسفتنا فهم تملّكوا ناصية العلوم فأغنوها برؤاهم ، وبالثقافة الأجنبية التي لم تكن حرفية ، وإنما غدت لديهم متميّزة بطابعها العربي .

تقدم هذه الدراسة البرهان على أصالة « علم الدلالة العربي » عند الباحثين العرب من اللغويين والفلاسفة والأصوليين والفقهاء والنقاد والأدباء ، ذلك أننا درسنا معالم هذا العلم كما يبحثه العلماء في اللغات المعاصرة (الفرنسية والإنكليزية والألمانية ...) وفتشنا عما يقابلها

في الكتابات العربية ، فوجدنا أعمالاً أصيلة ودقيقة نظمناها وأعطيناها نسقاً له تكامله فتشكلت بنياناً متماسكاً قادراً على النماء والتفاعل في مجالات العلم والأدب والحياة عامة .

البحوث الدلالية العربية تمتد من القرون الثالث والرابع والخامس الهجرية إلى سائر القرون التالية لها ، وهذا التأريخ المبكّر إنما يعني نضجاً أحرزته العربية وأصّله الدارسون في جوانبها ؛ وغايتنا من تناول الدرس الدلالي على هذا النهج التأصيلي هي : أن نشكّل الدلالة علماً عربياً له شخصيته مما يساعد على إنجاز تطبيقات حديثة بوضوح ووعي لدى اللغويين والنقاد ، فهم يتأملون أمثلة وشواهد من النصوص العربية ، ويتابعون تجارب موصولة بمناهج العربية الفصحى وطبيعتها ، وهذا أمر له تأثيره في استيعاب المنهج الدلالي وإغنائه بالمعارف العربية التي يحصّلها هذا الباحث في مراحل دراسته السابقة . نستطيع القول ههنا : تلتقي في فصول هذا الكتاب معالم أصيلة للدلالة العربية (في ماهية الدلالة ، والمنهج المعياري ، والتطور التأريخي للدلالة ، والمجاز) مع ترتيبها وبنائها في ضوء معارفنا الحديثة ، وإضافة هي تطبيقاتنا في المعجم الشعري .

٢ ـ مصطلح الدلالة وأبعاده

تبلور مصطلح علم الدلالة في صورته الفرنسية Sémantique لدى اللغوي الفرنسي بريال Bréal في أواخر القرن التاسع عشر ١٨٨٣ م ليعبّر عن فرع من علم اللغة العام هو « علم الدلالات » ليقابل « علم الصوتيات » الذي يعنى بدراسة الأصوات اللغوية .

اشتقت هذه الكلمة الاصطلاحية من أصل يوناني مؤنث Sêmantiké مذكرُهُ Semantikos أي : يعني ، يدل ، ومصدرُه كلمة Sêma أي : إشارة ؛ وقد نقلت كتب اللغة هذا الاصطلاح إلى الإنكليزية وحظي بإجماع جعله متداولاً بغير لبس Semantics[١]

الإشكالية اللغوية في هذا العلم هي الوقوع على قوانين المعنى[٢] التي تكشف أسراره ، وتبيّن السبل إليه وكيفية حركته ، لترقى الدلالة ؛ فتؤدي وظائف حضارية عالية في الحياة

---

(١) Dic. étym. P. 682 , Larousse , Paris 1968 .

(٢) Lyons , J. ling. génèrale , P. 307 , Larousse , Paris 1970 . Guiraud , P. La Sémantique , P. 7 , P. U. D. F. , Dic. de linguistique P. 427 , Larousse , Paris 1975

اليومية ، وميادين العلوم ، وآفاق الفن ، وتغدو أداة طيّعة بين أيدي البشر .

لم تنتظر المجتمعات البشرية نهاية القرن التاسع عشر كيما تدرس قضايا الدلالة ، وتوليها اهتمامها ؛ ومن ثمّ لتوظّفها في إطار الفاعلية المميّزة لعلم اللغة ، ولكن العلماء في ميدان النحو وسواه من جوانب الدرس اللغوي أعطوا نتاجاً ساعد على معالجة مشكلات دلالية منذ الآماد المبكرة ، سواء في المعجمات التي بزغت مع الحضارات العربية القديمة في سورية وبلاد الرافدين ومصر والهند وبلاد الإغريق ، أو في أعمال اللغويين والنحويين ثم الفلاسفة وأصحاب الفكر(١) .

إننا نفصل بين مرحلتين أساسيتين في هذا المجال الأولى [١] هي التناول الدلالي ضمن اهتمامات لغوية أخرى ، أو على نحو مشتجر بضروب الثقافة الأخرى من غير أن يحمل عنواناً مميّزاً له استقلاله ومصنفاته ومعاييره الموثقة ، وقد امتد هذا قروناً إلى أن التفت الباحثون في المرحلة الثانية إلى التركيز على قضايا الدلالة ووضع المصطلح Sémantique [٢] وفي هذه المرحلة أفاد علم الدلالة من نتائج المناهج اللغوية سواء في الاتجاه التاريخي والمقارن historique والمعتمد على الجانب التأصيلي الاشتقاقي étymologiquc ، أو في اتجاه وصفي تزامني له أسسه النابعة من نظرات تحليلية اجتماعية ونفسية وفكرية إضافة إلى البنى اللغوية ذاتها كما جاء لدى دو سوسير F. de Saussure فيما تركه في (محاضرات في علم اللغة العام) تحت عنوان : Synchronique(٢) .

استمد الدلاليون ما كان لدى البلاغيين منذ أرسطو ، وفسروا تغيرات المعنى لغوياً في المجاز والاستعارات ، كما أنهم تابعوا تحليل التصوّرات فلسفياً وربطها بالحقيقة وبالأشياء ، ثمّ ركّزوا بحوثاً لهم في علاقات الرموز بمدلولاتها(٣) ، وقد زوّدت الجهود الدلالية الحديثة المصادر القديمة بنتائجها الدقيقة كما في الاشتقاق التأصيلي ، وقد ظلّت المعاجم العامة تحمل

---

(١) مونان ، جورج ، تاريخ علم اللغة ص / ٤٨ ـ ٤٩ / وزارة التعليم العالي بدمشق ١٩٧٢ م .

(٢) Saussure , F. , Cours de linguistique génèrale P. 141 , Payot , Paris 1975

(٣) Guiraud , La Sémantique , P. 6 , Lyons , ling. génèrale , p. 308

أخطاء في مواضع منها تتعلق بهذا الضرب من العمل اللغوي إلى أن أفادت من الدرس الدلالي المفصّل[1] .

وظاهر في الدراسات الدلالية أنها أغفلت جهود الدلاليين العرب القدامى فلم تأت على ذكرهم في سلسلة تطور الاهتمام الدلالي القديم .

ينبّه دارسون دلاليون محدثون إلى ضرورة تحديد المصطلح وتأطيره بالدلالة اللغوية[2] ، ذلك أن (الدلالة) دخلت مجالات عديدة فيها عموم قد يجعل الباحثين يحملونها إلى اللغة ، وهي ألصق بعلم الرموز Sémiologie . أمّا اختيارنا للمصطلح العربي المقابل فهو « الدلالة » ذلك أنه ينتشر في مصنفات عربية قديمة تتصل بمجالات تقرب من ماهية هذا العلم في صورته المعاصرة فابن خلدون يذكر في مقدمته علمَ أصول الفقه وما يلزم دارسيه فيقول : « يتعيّن النظر في دلالة الألفاظ ، ذلك أن استفادة المعاني على الإطلاق من تراكيب الكلام على الإطلاق يتوقف على معرفة **الدلالات الوضعية** مفردة ومركّبة ... ثم إن هناك استفادات أخرى خاصة من تراكيب الكلام ، فكانت كلّها من قواعد هذا الفن ولكونها من مباحث الدلالة كانت لغوية »[3] .

أما السيد الشريف الجرجاني (٧٤٠ ـ ٨١٦ هـ) فإنه يورد في تعريفاته كلاماً جامعاً عن الدلالة في الثقافة الأصولية فيقول « **الدلالة** هي كون الشيء بحالة يلزم من العلم به العلم بشيء آخر ، والشيء الأول هو **الدالّ** ، والثاني هو **المدلول** ، وكيفيّة دلالة اللفظ على المعنى باصطلاح علماء الأصول محصورة في عبارة النص ، وإشارة النص ، واقتضاء النص »[4] ،

---

(١) Matoré , Georges . Histoire des dictionnaires françaises , P. P. 254 - 255 , Larousse , Paris 1968 .

(٢) Mounin , Georges , La Sém . P. 9 , Seghers , Paris 1975 , Martinet , Jeanne , La Semiologie P.P. 7 - 8 , Seghers , Paris 1975 .

(٣) ابن خلدون (عبد الرحمن) المقدمة ٤١٩ ، ط دار الشعب بالقاهرة .

(٤) الجرجاني (السيد الشريف) ، التعريفات ٢١٥ ، ط مصطفى البابي الحلبي القاهرة ١٣٥٧ هـ / ١٩٣٨ م . وينظر أيضاً في : الكليات لأبي البقاء الكفوي ٣٢٤/٢ ، ط . عدنان درويش ومحمد المصري وزارة الثقافة بدمشق ١٩٧٢ م .

وكان درس الدلالات في البلاغة طرفاً استعارته من المنطق ، ويهمنا في هذا المجال الاشتقاق اللغوي للمصطلح الذي ركّزه الجرجاني كذلك في التعريفات « فالدلالة الوضعية : هي كون اللفظ بحيث متى أطلق أو تخيّل فهم منه معناه للعلم بوضعه ، وهي المنقسمة إلى المطابقة والتضمن والالتزام ، لأن اللفظ الدال بالوضع يدلّ على تمام ماوضع له بالمطابقة ، وعلى جزئه بالتضمن ، وعلى ما يلازمه في الذهن بالالتزام كالإنسان فإنه يدلّ على تمام الحيوان الناطق بالمطابقة ، وعلى جزئه بالتضمن وعلى قابل العلم بالالتزام » .

لقد تركنا مصطلح (المعاني) لأنه عنوان قسم من الدراسات البلاغية الجمالية التي تعنى بقيم التركيب اللغوي وتفيد من نظرية السياق على النحو الذي اكتملت فيه لدى عبد القاهر الجرجاني في (دلائل الإعجاز) ، ويقدّم (علم المعاني) نتائج تفيد الباحث الدلالي لكننا نؤثر عدم اضطراب المصطلح المستقر تاريخياً في جانب من جوانب الثقافة العربية .

آثرنا كذلك ترك مصطلح (المعنى) لأن فيه عموماً من جهة ، ومن جهة أخرى لا يعين على اشتقاقات فرعية مرنة نجدها في مادة (الدلالة : دَلَّ ، الدالّ ، المدلول ، المدلولات ، الدلالات ، الدلالي ...) : وأمّا مصطلح (الرموز) فهو خاص بعلم قائم بذاته وله أبعاده العامة .

٣ ـ المحاور الدلالية

يهتم الدلاليون في هذا العلم بمجموعة من المحاور الرئيسية تتطلب ربطاً بجوانب من الدراسات اللغوية ، ثمّ تتفرع إلى وجهات تطبيقية وتحليلية يكثر فيها الاجتهاد ، وتتعدد الآراء .

[١] تشكل **المحور الأول** العلاقة الرمزية بين الدالّ والمدلول ، والمنعكسات الاجتماعية والنفسية والفكرية (signifiant ، signifié ، reference) .

[٢] **والمحور الثاني** يدور حول التطور الدلالي : أسبابه وقوانينه Changements des sens : والعلاقات السياقية والموقعية في الحياة والعلم والفن contexte ، situation .

[٣] **المحور الثالث** يتصل بالمجاز وتطبيقاته الدلالية وصلاته الأسلوبية .

لقد تناولتُ في « **علم الدلالة العربي** » هذه المحاور مشتجرة بما يجعلها ذات تكوين أصيل إذ فُصّلت الصلاتُ بينها وبين المعجم العربي ، والاشتقاق بخصائصه المميّزة ، وماهيّة الفصحى وبعض ملامحها التحليلية والتاريخية .

وركّزتُ معالم **نظرية التطور الدلالي** عند الباحثين اللغويين والنقاد العرب ، وههنا تناول نظري وتطبيق عملي من خلال النصوص اللغوية والأدبية يفتح الأبواب واسعة لرؤية تتعمق تراثنا القادر على العطاء في هذا الميدان بعد أن تتابعت مقولات غير مدقّقة في طبيعة الدراسات اللغوية العربية القديمة .

وأذكر أنني إضافة إلى استجلاء النظرية الدلالية العربية عند الفلاسفة والمفكرين واللغويين والأدباء قد قمت برصد التطور الدلالي في بيئة غنية بالآثار الدلالية وهي الكتب النقدية والشروح الشعرية ، وأدّى هذا العمل نتيجة هي التأكيد على **الأهمية العملية والتطبيقية للدلالة** .

أمّا عملي في المعجم الشعري والتحليل الدلالي **للعربية الفصحى الحديثة** فقد تطلعت من خلاله إلى توضيح سبل تنوير الدلالة الحديثة ، والبرهنة على حيوية الرصيد اللغوي المعاصر ، والتمهيد لأعمال تطبق فيها قوانين الدلالة مع مفهوم **علم المصطلح** بما يعطي ثمرات في عالم **التعريب العلمي** الذي يحتاج إلى تمرّس حقيقي بماهية الفصحى ومعالم التطور الدلالي والمجاز ؛ وليس الأمر كما قد يتبدّى على البعد وضعاً لكلمات تقابل الألفاظ الأجنبية من أقرب الطرق !

إن هذه الدراسة تشكل جهداً يبذل في (علم الدلالة العربي) ولا بد من البحوث والدراسات التي تستكمل الجوانب التفصيلية ، ولكنّ ينبغي التأكيد على ضرورة اعتماد أيّ دراسة دلالية عربية على التطبيقات والتحليلات القائمة على النصوص الأدبية والعلمية قديمة أو حديثة .

حلب ـ حي السبيل ١٤٠٤ هـ ١٩٨٤ م **د . فايز الداية**

الفصل الأول

الدلالة والدالّ والمدلول

١ ـ ماهية الدلالة

أبعادها النفسيّة والاجتماعية ومساحاتها

١/١ التصوّر والذاكرة : دورهما في العملية اللغوية والاتصال .

شرح ابن سينا (٣٧٣ ـ ٤٢٧ هـ) العملية الدلالية اللغوية على نحو يثير الفضول العلمي المعاصر اليوم ؛ ذلك أنه وقف على دقائق الأبعاد النفسية اعتماداً على درايته بعلم النفس ، وبراعته في التحليل العقلي المقترن بالنزعة التشريحيّة ، فقد كان الفيلسوف والطبيب في آن معاً :

حدّدت في العملية الدلالية [١] الأشياء المادية الحاضرة ، أو الغائبة عن الحس والأفكار والمجرّدات [٢] وأشير إلى المثيرات السمعية واستحضارها لصور الأشياء ومعانيها [٣] وصنّفت الرموز الدلالية ، وهي : الألفاظ المثيرة ثم الكتابة التي تنوب عن اللفظ والصوت .

ونلاحظ وضوح الفصل بين العالم الخارجي عن اللغة ثم العالم النفسي أي الذهن والتصوّر مع تميّز الذاكرة ، وبعد ذلك الأدوات اللغوية والأصوات في ألفاظ تربط بين العالمين : المادي ـ بعلاقاته وتعاليه التجريدي فيما بعد ـ والنفسي ، فتساعد على ترسيخ صور العالم الخارجي على هيئة معانٍ تحتفظ بها الذاكرة ، تثور مع أسمائها عند مشاهدتها ، أو عند غيابها بفضل تحريكها بسماع الرموز الصوتية الخاصة بها .

يقول ابن سينا في (العبارة) من كتاب الشفاء تحت عنوان : (فصل في معرفة التناسب بين الأمور والتصوّرات والألفاظ والكتابات ، وتعريف المفرد والمركب فيما يحتملها من ذلك) ـ ولنلاحظ أن الحديث هنا يدور عامة عن اللغة

البشرية ومنها اللغة العربيـة ـ : « إن الإنسـان قـد أوتي قوةً حسيّـة ترتسم فيهـا صور الأمور الخارجية ، وتتـأدى عنهـا إلى النفس ، فترتسم فيهـا ارتسـامـاً ثـانيـاً ثابتـاً ، وإن غـاب عن الحس . ثم ربمـا ارتسم بعـد ذلـك في النفس أمور على نحو مـاأدّاه الحس . فـإمـا أن تكـون هي المرتسمات في الحس ، ولكنهـا انقلبت عن هيئاتها المحسوسة إلى التجريد ، أو تكون ارتسمت من جَنْبَةٍ أخرى .

فللأمور وجود في الأعيان ، ووجود في النفس يكوّن آثـاراً في النفس . ولّمـا كانت الطبيعة الإنسانية محتاجة إلى المحاورة لاضطرارها إلى المشاركـة والمجـاورة ، انبعثت إلى اختراع شيء يُتـوصـل بـه إلى ذلـك ... فمـالت الطبيعـة إلى استعمال الصوت ، ووفقت من عند الخالق بآلات تقطيع الحروف وتركيبها معاً ، ليُدَلَّ بهـا على مـا في النفس من أثر . ثم وقع اضطرار ثـانٍ إلى إعلام الغـائبين من الموجودين في الزمان ، أو من المستقبلين إعلاماً بتدوين ماعلم ... فاحتيج إلى ضرب آخر من الإعلام غير النطق ، فاخترعت أشكال الكتابة[1] » .

وإثر هذا العرض المجمل للتكوين الدلالي ، يعود ابن سينا شـارحـاً على نحو تفصيلي قريب كيف تتمّ الحركة بين الصور المحفوظة في الذاكرة للمدلولات الماديـة أو المجرّدة ؛ وهي المسماة بـالآثـار أو المعـاني ؛ **والألفـاظ والكتـابـة التي هي أدوات** دلالية [١] فما يخرج بـالصوت يـدلّ على مـا في النفس ، وهي التي تسمّى آثـاراً [٢] والتي في النفس تدل على الأمور ، وهي التي تسمى معاني ، أي مقاصد للنفس (إذ يقصـد الإنسـان إلى التعبير عن العـالم الخـارجي بمعطيـاتـه أو عن الانفعـالات والرغبات في حيـاتـه الاجتماعيـة وروابطهـا) ، كما أن الآثـار أيضـاً بـالقيـاس إلى الألفاظ معـانٍ . [٣] والكتـابـة تـدل على اللفـظ إذ يحـاذى بهـا تركيب اللفـظ ، واختير ذلك للسهولة[2] . « **ومعنى دلالـة اللفـظ** أن يكون إذا ارتسم في الخيـال

---

(١) العبارة من (الشفاء) لابن سينا ١ ـ ٢ الهيئة المصرية العامة ـ القاهرة ١٣٩٠ هـ ١٩٧٠ م .

(٢) العبارة ٢ ـ ٤ .

مسموع اسم ارتسم في النفس معنى ، فتعرف النفس أن هـذا المسموع لهـذا المفهوم . فكلما أورده الحسّ على النفس التفتت إلى معناه[1] . »

ثم يلتفت ابن سينـا إلى نقطـة ذات أهميـة في تبيّن الـوعي العلمي الـذي يستوعب آفاق البحث الدلالي العـام ، ثم يخصص مـا يكون بَعْـدً متصلاً بكل لغـة بشرية عند انفرادها وتميّزها الذاتي ، فالإنسان لديه القـدرة التصوّريـة اللغويـة ، وهي قاسم مشترك عند البشر ، والحركة الذهنية واحدة ـ مع النظر إلى اختلافهـا درجة وإتقاناً ـ في طبيعتها ، أمّا الوسائل والرموز فهي مختلفة بين الأمم في لغاتها المتباينة الدالاّت مع أن المدلولات في العالم الخارجي وفي المجرّدات المعروفة واحـدة « وأمّا دلالة مافي النفس على الأمور فدلالة طبيعية لا تختلف لا الـدال ولا المـدلول عليه ، كما في الدلالة بين اللفظ والأثر النفساني ، فـإن المـدلول عليـه وإن كان غير مختلف فإن الدالّ مختلف ، ولا كما في الـدلالـة بين اللفـظ والكتـابـة ، فـإن الـدالّ والمدلول عليه جميعاً قد يختلفان[2] » . ويوجز الإمام الغزالي هذه المسألة الـدلاليـة الأخيرة بكلمة موجزة : « والوجود في الأعيان والأذهان لا يختلف بالبلاد والأمم ، بخلاف الألفاظ والكتابة ، فإنها دالتان بالوضع والاصطلاح[3] »

وقد انتشر هذا التحليل الدلالي في أوسـاط الـدارسين والفقهـاء وعلمـاء الأصول إضافة إلى المهتمين بـالمنطق والفلسفـة . ونشير إلى اثنين من رجـال الثقـافـة العربيـة الإسـلاميــة عرفـا مكانـة تشريـح العمليـة الـدلاليـة وأهميتهـا ، فـالغـزالي (٤٥٠ ـ ٥٠٥ هـ) يتملّك ناصية اللغة والفلسفـة أدوات في بحوثـه وينبـه إلى ضرورة الأخذ بالمنطق ومسائله في علم أصول الفقه ، فالحملة التي حملها على الفلاسفـة لم تمنعـه من تداول مصطلحاتهم ومن أخذ بعض الأساليب التحليلية النـافعـة من كتب هؤلاء ودراساتهم ، فيفرد الغزالي بحثاً في كتـابـه (معيـار العلم) لبيـان رتبـة الألفـاظ من

(١) العبارة ٤ .

(٢) العبارة ٥ .

(٣) معيار العلم ، للإمام محمد بن محمد أبي حامد الغزالي ٧٥ ـ ٧٦ دار المعارف بمصر ١٩٦٩ م .

مراتب الوجود ، ويقول فيه بأسلوب ميسّر يذلل مامررنا به قَبْلُ عند صاحب الشفاء : « اعلم أن المراتب فيما نقصده أربع ، واللفظ في الرتبة الثالثة ، [١] فإن للشيء وجوداً في الأعيان [٢] ثم في الأذهان [٣] ثمّ في الألفاظ [٤] ثم في الكتابة . فالكتابة دالّة على اللفظ ، واللفظ دال على المعنى الذي في النفس ، والذي في النفس هو مثال الموجود في الأعيان[1] » ويتردّد صدى ذلك عند عبد الرحمن بن خلدون (٧٣٢ ـ ٨٠٨ هـ) في مقدمته ، مما يعني رسوخه وتداوله بين مشرق الأمة العربية ومغربها فيقول : « ثمّ من دون هذا الأمر الصناعي الذي هو المنطق مقدمة أخرى من التعلّم ، وهي معرفة الألفاظ ودلالتها على المعاني الذهنية تردها من مشافهة الرسوم بالكتاب ، ومشافهة اللسان بالخطاب . فلابد أيُّها المتعلّمُ من مجاوزتك هذه الحجب كلها إلى الفكر في مطلوبك :

فأولاً دلالة الكتابة المرسومة على الألفاظ المقولة وهي أخفُّها . ثم دلالة الألفاظ المقولة على المعاني المطلوبة ، ثم القوانين في ترتيب المعاني للاستدلال في قوالبها المعروفة في صناعة المنطق[2] » .

ونجد في كلمة ابن خلدون دراية بأهمية الدرس اللغوي الدلالي بصورة مستقلة لها قوامها ، ثم تربط بعد ذلك بالتصنيف المنطقي وترتيب قضاياه ، وهذا يؤكد ماننذهب إليه من أهمية الجهود اللغوية العربية في كتب المنطق والفلسفة وعلم أصول الفقه وكتب الكلام والفقه عامة ، ذلك أنها ليست مخصوصة بوظائف محدودة في تلك الكتب ، بل لها فاعليتها في الثقافة اللغوية والنشاط الفكري فيما تداولت أبواب الثقافة والمعرفة[3] .

---

(١) معيار العلم للغزالي ٣٥ ـ ٣٦ .

(٢) مقدمة ابن خلدون ٥٠٤ ط . دار الشعب ـ القاهرة .

(٣) يمكن أن تستقصى مواضع تناولت هذه القضيّة الدلالية في التراث العلمي العربي . ومن المواضع : المزهر للسيوطي (١/٤٢ ـ ٤٣) تحقيق محمد أحمد جاد المولى والبجاوي وأبو الفضل ط . دار إحياء الكتب العربية ـ القاهرة . ودلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني ٤٦ تحقيق د . رضوان الداية ود . فايز الداية ـ دمشق ١٩٨٣

٢/١ الاصطلاح في الدلالة اللغوية ، ونظرية الاعتباطية في الدلالة :

استقر لدى العلماء العرب مفهوم اجتماعية الدلالة اللغوية وعرفيتها ، أي اكتسابها حركتها وفاعليتها بفضل (الاصطلاح) بين أبناء المجتمع اللغوي ، وقد مرّ بنا قول ابن سينا : « إنّ الطبيعة الإنسانية محتاجة إلى المحاورة لاضطرارها إلى المشاركة والمجاورة[١] » . وعرّف ابن جني (٣٢٠ ـ ٣٩٢ هـ) اللغة بأنها : « أصواتٌ يعبّر بها كلٌّ قوم عن أغراضهم[٢] » .

وقد رأى أبو حاتم الرازي (ت ٣٢٢ هـ) « أن كلّ شيء يعرف باسمه ، ويستدل عليه بصفته من شاهد يدرك أو غائب لا يدرك . وربّما دُعِيَ الشيء باسم لا يعرف اشتقاقه من أي اسم هو ، بل يكون مصطلحاً عليه ، قد خفي على الناس ماأريد به ، ولأي شيء سمّي بذلك الاسم كقولك : الفرس والحمار والجمل والحجر وأشباه ذلك[٣] » .

يشير ابن سينا إلى السمة الاجتماعية والقيمة الاصطلاحية إذ يقول : « والدلالة بالألفاظ إنما هي بحسب المشاركة اصطلاحية[٤] » . ونذكر أن الجدل قد طال في أمر الدلالة ، هل هي توقيف وإلهام أم هي اصطلاح وعرف ؟ وأسهب السيوطي[٥] في المزهر في عرض آراء المتحاورين الذين كان يذهب جمهورهم إلى عرفيّة الدلالة ، ففي (باب القول على اللغة أإلهام هي أم اصطلاح ؟) يقول ابن جني : « هذا موضع محوج إلى فضل تأمّل ، غير أن أكثر أهل النظر على أن أصل

---

(١) العبارة لابن سينا ١ ـ ٢ ، وينظر كذلك في العبارة ٤ ـ٥

(٢) الخصائص لابن جني (٣٣/١) ، تحقيق محمد علي النجار ـ دار الكتب المصرية .

(٣) الزينة ، لأبي حاتم الرازي أحمد بن حمدان (١٣٢/١) ، تحقيق حسين فيض الله الهمداني بالقاهرة ١٩٥٧ .

(٤) العبارة لابن سينا ٤ .

(٥) المزهر في علوم اللغة العربية ، لجلال الدين السيوطي (ت ٩١١) ج (١٠/١ ـ ٤٧)

اللغـة إنمـا هو تواضع واصطلاح ، لا وحي وتوقيف[1] » وقـد وضع تفسيراً للـوضـع اللغوي يوافق الآية الكريمة ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ﴾ [البقرة ٣١/٢] بـأن الله سبحـانـه أقـدر آدم على أن واضَعَ عليهـا[1] . ويفصّـل الإمـام الغـزالي في كتـابـه (المنخـول[2]) هـذه المسـألـة بمـا يقرب من تـأويـل ابن جني ، ممـا يجعـل قضيـة (الاصطلاحية) قائمة في آفاق الباحثين في اللغة والفكر والاجتماع .

أمّا اعتباطية الدلالة فهي ظاهرة في جانبين في البحوث العربية القديمة :

١ ـ ذلك أن هـذه الرموز اللغويـة (لفظيـة وكتـابيـة) لا صلـة بينهـا وبين مدلولها بشكل مادي أو لازم طبيعي ، وإنما تقوم الصلة على أسـاس العرف اللغوي الاجتماعي ، وقد أورد عبد القاهر الجرجاني عبارة دقيقة في هذا المجال عندمـا قـال في دلائل الإعجاز « مما يجب إحكامه أن نظم الحروف هو تواليها في النطق فقط ، وليس نظمها بمقتضى عن معنى ولا الناظم لها بمقتفٍ في ذلك رسماً من العقل اقتضى أن يتحرّى في نظمه لها ما تحرّاه . **فلو أن واضعَ اللغة كان قد قال « رَبَضَ » مكان « ضرب » لما كان في ذلك ما يؤدي إلى فساد[3]** » ويرى في موضع آخر أن الدلالة تغدو متـداولـة في كل لغـة بهـذا الترابـط الـذهني القـائم علي العرف بين الدالّ والمدلول ، وعندها لا تفاضل بين دلالة لفـظ (رجل) على الآدمي في اللغـة العربية والكلمة الدالة عليه في الفارسية مثلاً ، لأن كلاً منهما تؤدي وظيفتهـا ولهـا شرعيتها اللغوية في مجتمعها اللغوي[4] .

٢ ـ وأما الجهـة الأخرى التي تؤكـد أخـذ جمهور البـاحثين بمفهوم اعتبـاطيـة

---

(١) الخصائص لابن جني (٤٠/١ ـ ٤١) .

(٢) المزهر للسيوطي (٢/١ ـ ٢٣) . وانظر (المنخول) للإمام الغزالي (٧٠ ـ ٧١) بـاب القول في اللغات . تحقيق الدكتور حسن هيتو ـ دمشق ١٩٨٠/١٤٠٠ دار الفكر .

(٣) دلائل الإعجاز ، لعبـد القـاهر الجرجـاني ٤٢ تحقيق د . رضوان الـدايـه و د . فـايز الـدايـة ـ دمشق ١٩٨٣

(٤) الدلائل ، عبد القاهر ٣٩

الدلالة فهي متمثلة برفضهم وردّهم لقولة عباد بن سليمان الصيمري : « بأن الألفاظ تدل على المعاني بذواتها » . فالمحققون ـ كما يقول السيوطي في المزهر ـ متوقفون في الكلّ إلاّ في مذهب عبّاد . ودليل فساده أن اللفظ لو دلّ بالذات لفهم كلٌّ واحد منهم كلّ اللغات لعدم اختلاف الدلالات الذاتية واللازم باطل ، (أي النتيجة ، وهي أننا لا نفهم الألفاظ الأجنبية العديدة للأمم رغم أنها تدلّ على أشياء نعرفها ، فمن لا يعرف الفرنسية أو الإنكليزية أو الإيطالية يسمع l'enfant و boy و Bambino ويكون أمامه أطفال أو هو إن لم يرهم مباشرة يعرفهم ولا يستطيع الربط بين هذه الأصوات (الكلمات) ومدلولها (الطفل) ، إذ لا علاقة طبيعية بين الصوت في كلمة وما يدل عليه ، وإنما هو عرفي ، لذا اختلفت الكلمات أصواتاً وكتابة بين لغات الأمم . وههنا نذكر الإشارة الهامة التي أوردها ابن سينا وأكّدها الغزالي ، وهي أن الأشياء في العالم متماثلة ، وكذلك انطباع صورها في التصوّر الإنساني والخيال لدى كلٍّ منا ، أما الألفاظ والكتابة فهي مختلفة . وأعتقد أن إيراد هذه الحقائق العلمية في كتب القرنين الرابع والخامس يضع ركيزة نظرية واعية عند علمائنا العرب في مجال التحليل الدلالي وإرساء مفهوماته الجوهرية[(١)]) ، فالملزوم كذلك[(٢)] .

ويحاور السيوطي فكرة عبّاد الصيمري في موضع آخر من المزهر نورده لنظهر العلائق التي تربط الاهتمامات الفكرية بالمسائل اللغوية والدلالية ، خاصّة في هذا المجال من الدرس ، وإثر عرضنا للمحاورة الجدلية ننتقل إلى زاوية من البحث تلتبس بفكرة العلاقة بين الدال والمدلول مادةً وصوتاً .

يقول السيوطي : « نقل أهل أصول الفقه عن عباد بن سليمان الصيمري من

---

(١) ينظر في الفقرة السابقة ١/١ ، وابن سينا (العبارة) ٥ ، والغزالي (معيار العلم) ٧٥ ـ ٧٦ .

(٢) المزهر ، السيوطي (١٦/١) ، والعبارة الأخيرة تعني نقض قول ابن عباد : الملزوم وهو الدلالة الذاتية للألفاظ على المدلولات .

المعتزلة أنه ذهب إلى أن بين اللفظ ومدلوله مناسبةً طبيعيّة حاملة للواضع على أن يضع ، قال (عباد) : وإلاّ لكان تخصيص الاسم المعيّن بالمسمّى المعيَّن ترجيحاً من غير مرجّح . وكان بعض من يرى رأيه يقول : إنه يعرف مناسبة الألفاظ لمعانيها ، فسئل ماسمّى لفظة (إذغاغ) وهو بالفارسيّة : الحجر ، فقال : أجد فيه يبساً شديداً ، وأراه الحجر .

وأنكر الجمهور هذه المقالة وقال : لو ثبت ماقاله لاهتدى كلٌّ إنسان إلى كلِّ لغة ، ولما صَحَّ وضع اللفظ للضدين : كالقرء للحيض والطهر ، والجون للأبيض والأسود[1] » .

وقد التبس أمر الدلالة الصرفية بتصوّر لدلالة طبيعية للأصوات على المسميات (المدلولات) أو على أجزائها لدى عالم جليل له آراؤه الفذّة في درس العربية ، إلاّ أنه في متابعته للرغبة العقلية لسبر أغوار اللغة وقع في هذا اللبس ؛ ونقدنا له ههنا يتطلع إلى تنقية مبنيّة على البراهين العلمية التي أوردناها في الفقرات السالفة .

نحن نقول بتحليل للدلالة يجعلها

(١) دلالة أساسية أو معجمية

(٢) دلالة صرفية

(٣) دلالة نحوية

(٤) دلالة سياقية موقعية

وهذه الدلالات تأتلف في كل متكامل يتأدى إلينا : فالدلالة الأساسية هي جوهر المادة اللغوية المشترك في كل مايستعمل من اشتقاقاتها وأبنيتها الصرفية ؛ فـ (طحن) تدلّ على حركة وضغط لتحويل الحبوب إلى مسحوق ناعم بالرَّحَى

---

(١) المزهر للسيوطي (٤٧/١) . وكان ابن جني قد ناقش هذه المسألة وأورد ماذكره السيوطي ، ينظر الخصائص (١٥٧/٢) .

ويكون حقيقياً مباشراً ومن ثمّ حمِّل الدلالات المجازية المتعددة . ويدخل هذا المفهوم في أبنية صرفية كثيرة ، ونلحظ فيها إضافة إلى هذه الدلالة أمراً مكتسباً من الوزن نفسه أي معنى الوزن . فالأفعال تحدد بحسب أوزانها الحدث والزمن وتقرن بالفاعلين بعد (طحن ، يطحن ، سيطحن ، اطحَنْ) ، و (طحّان) دالة على اسم الفاعل بصيغة المبالغة المتأدية إلى تحديد الحِرْفة ، و (مطحون) اسم المفعول للشيء المطحون ، و (الطاحونة ، والطحّانة) تدلاّن على آلات الطحن التي تدور بالماء (أو بسواه من حركة للثيران ، أو في العصور الحديثة بوساطة المحرّكات النفطية والكهربية) ؛ وبعض الصيغ خصصت دالّة على أجزاء من الجسم ترتبط بوظيفة التحويل من خشن إلى ناعم ، فـ (الطواحِن) كما يقول صاحب لسان العرب : الأضراس كلّها من الإنسان وغيره على التشبيه ، واحدتها طاحنة (قال) الأزهري : كلّ سن من الأضراس طاحنة[1] .

نلحظ من خلال الكلمات التي أوردناها أن القيمة الصرفية توجّه المادة الأساسية وتضعها في مجال وظيفي معيّن ، وهذا أمرٌ نستطيع متابعته وتقصيه في المصنفات الصرفية وكتب اللغة ، وفيما تورده المعجمات في أثناء بسطها لاستعمالات فروع كل أصل من الأصول .

وأمّا الإضافة الثانية فهي الدلالة النحوية ، أي أن الكلمة تكتسب تحديداً وتبرز جزءاً من الحياة الاجتماعية والفكرية عندما تحلّ في موقع نحوي معيّن في التركيب الإسنادي وعلاقاته الوظيفية : الفاعلية ، المفعولية ، الحالية ، النعتية ، الإضافة ، التمييز ، الظرفية ، فمثلاً : « خاطبت الطحّانَ في شأن تحسين عمله وزيادة مقدار إنتاجه » فكلمة « طحّان » في موقع المفعول به تبرز في جهة من العلاقة الاجتماعية هي موقع المحاسبة والمسؤولية . وهناك من يحاسبها أو يسألها .

---

(١) اللسان مادة (طحن)

والإضافة الثالثة وهي الدلالة السياقيّة ، أي ما يكون قد طرأ على الكلمة من تطوّر دلالي بحسب القوانين التي ترصد حركة الألفاظ والدلالات في الزمان المتتابع بين العصور ، وفي المجالات المختلفة من علمية واجتماعية وفنية ، فالكلمة تكتسب أبعاداً جديدة ، أو تُحصر في إطار خاص ، أو تنتقل إلى مواقع لم تألفها قبل ، وهذا كله يتّناول في الفصول التالية في كتابنا هذا ، ولكننا نورد شواهد سريعة ههنا ، فقول بعضهم : « إن الأزمة الطاحنة في سوق الأوراق النقدية تجعل أصحاب رؤوس الأموال يحجمون عن تداول جزء من أرصدتهم فيها » يستوقفنا عند (الطاحنة) ، وندرك مجازيتها التي غدت منتشرة ودالّة دلالة معرفية هي (الشديدة) .

وكذلك عندما يتحدث أرباب الصناعة فيقولون : « إن عدداً من المصانع المخصصة لصنع الحديد تشتمل على مطحنة للسيارات القديمة والآلات المعطّلة ، وإن إنتاجها قد يختلف نوعياً عن المؤسسات الصناعية التي لا تدخل في مصنوعاتها الحديد القديم بعد تحويله » ندرك أن (المطحنة) تدل على أجهزة حديثة تستخدم في عمل صناعي حديث مواده الحديد مما لم يكن مألوفاً قديماً لعمل الطحن .

خصص ابن جني باباً لدراسة العلاقة بين الألفاظ والمعاني وتبيان المناسبة بينهما ، وكان التركيز الأوّل على القيم الصرفية ودلالاتها ، فقال في (باب إمساس الألفاظ أشباه المعاني) :

« هذا موضع شريفٌ لطيف ؛ وقد نبّه عليه الخليل وسيبويه ، وتلقته الجماعة بالقبول له ، والاعتراف بصحّته .

قال الخليل : كأنهم توهّموا في صوت الجندب استطالة ومدّاً فقالوا : صَرَّ ، وتوهّموا في صوت البازي تقطيعاً فقالوا : صرصر .

وقال سيبويه في المصادر التي جاءت على « الفَعَلان » : إنها تـأتي للاضطراب والحركة نحو : النقزان ، والغليان ، والغثيان . فقابلوا بتوالي حركات المثال توالي حركات الأفعال .

ووجدت أنا (ابن جني) من هذا الحـديث أشيـاء كثيرة على سمت مـا حـدَّاه ومنهاج مامثَّلاه . وذلك أنك تجد المصادر الرباعيـة المضعّفـة تـأتي للتكرير نحو : الزعزعة والقلقلة ، والجرجرة ، ووجدت (الفَعَلَى) في المصادر والصفات إنما تـأتي للسرعة نحو : البشكى والجمزى .

ومن ذلك ـ وهو أصنع منه ـ أنهم جعلوا (استفعل) في أكثر الأمر للطلب ، نحـو استسقى ، واستطعم ، واستـوهب ... فرتبت في هـذا البـاب الحروف على ترتيب الأفعال[1] » .

وعنـدمـا يتـوجـه إلى زاويـة (مقـابلـة الألفـاظ بمـا يشـاكل أصواتهـا من الأحداث[2]) يقع في اللبس ، وينسب إلى الأصوات (الحروف) دلالة تؤديهـا في الكلمـة التي تـدخل في تركيبهـا ، وهـذا مردود لأن قيمـة الرمـز اللغـوي : الكلمـة الدلالية عرفية بـاتفـاق اجتماعي متتـابع ، ولا نستطيع أن ننسب قـدرة دالّـة لكل حرف يؤلف هذه الكلمة ، ذلك أن العبقرية العربية تجلَّت في النضج الأبجـدي في أوغـاريت[☆] ، إذ غـدت الحروف (الأصـوات) التسعـة والعشرون أدوات مجرّدة تدخل في تركيبات صرفية كثيرة ، ومنذ الألف الثاني قبل الميلاد استقر هذا النهج اللغوي .

---

(١) الخصائص ، ابن جني (١٥٢/٢ ـ ١٥٣) ، والمزهر (٤٨/١ ـ ٤٩) .

(٢) الخصائص (١٥٧/٢ ـ ١٦٥)

(☆) إننا نقول ـ اعتماداً على الوثائق التاريخية والدلائل اللغوية ـ بصلة النسب العربيـة بين الأصول القديمة على امتداد أرض العروبة ومنذ الألف الرابع ق . م . والفصحى . فالبابلية والآشوريـة والإيبلائية والأوغاريتية واليمنية ، والمصرية القديمة ، وسائر فروعها موصولة بالفصحى .

لابد لنا في هذا المقام أن نميّز بين حالتين لا يستوي الأمر فيهما . وقد تغيب الفروق عن بعض الدارسين وهما :

(١) الدلالة اللغوية بحسب العرف اللغوي مع كل التطورات التي تطرأ عليها في السياقات المتعددة . وهذه مرصودة في المعجم وفي الاستعمال ، ولا ينطبق عليها أي حديث عن صلة طبيعيّة بين الدالّ والمدلول .

(٢) الدلالة الفنيّة ، والسياقية عامة ، وههنا نجد أن كثرة استعمال كلمات بأعيانها في مجال اجتماعي أو علمي أو فني تورث انطباعاً يربط بين هذه الأجواء والرمز اللغوي توهماً أن هذا الصوت من الأصوات في الكلمة له صلة طبيعية بالحدث أو بالصفة أو الشيء من الأشياء . ومردّ الأمر كما نرى إلى الاعتياد لا إلى حقيقة طبيعيّة كانت الدافع إلى تشكيل الكلمة وتأليفها ، واستعمالها في حالة الوضع اللغوي ، إذ أن هذا الوضع يعتمد (الاعتباطية) كما رأينا وتابعنا في أحاديث العلماء : ابن سينا ، الغزالي ...

٣/١ الفروق والمساحات الدلالية :

قدّم أبو هلال العسكري (ت ٣٩٥ هـ) عملاً دلالياً متميّزاً له طرافته العلمية ، إضافة إلى جهوده اللغوية والنقدية التي منها معجمه (التلخيص في معرفة الأشياء) المرتّب بحسب أبواب المعاني ، فقد صنّف مؤلفاً بعنوان (الفروق اللغوية[1]) رغب في أن يظهر من خلال أبوابه الثلاثين المساحات الدلالية لعدد من الألفاظ التي تتقارب وتتداخل عند أهل اللغة والعلماء ، وهو يقول في مقدمة الكتاب :

« إني ما رأيت نوعاً من العلوم وفناً من الآداب إلا وقد صنف فيه كتبٌ تجمع أطرافه ، وتنظم أصنافه إلا الكلام في الفرق بين معانٍ تقاربت حتى أشكل

(١) الفروق اللغوية ، لأبي هلال العسكري ، ط مكتبة القدسي (حسام الدين القدسي) بمصر القاهرة ١٣٥٣ هـ .

الفرق بينها نحو العلم والمعرفة ، والفطنة والذكاء ، والإرادة والمشيئة ، والغضب والسخط ، وماشاكل ذلك ، فإني مارأيت في الفرق بين هذه المعاني وأشباهها كتاباً يكفي الطالب ويقنع الراغب ، مع كثرة منافعه فيما يؤدي إلى المعرفة بوجوه الكلام ، والوقوف على حقائق معانيه ، والوصول إلى الغرض فيه ، وفرقت ماأردت تضمينه إياه من ذلك[1] » .

يبدو من هذه الكلمة الموجزة لأبي هلال أنه قصد إلى درس تحليلي للدلالة اللغوية له خصوصيّة ، ووظيفة في الاستعمال العلمي والفني واليومي . ونثبت بعض الإشارات إلى ماهية العمل في الفروق . فهي أولاً لم تدخل في فروع المناقشات الدائرة حول : الترادف ومايكون من شأنه بصورة مباشرة ، وإن يكن الموضوع قريباً من هذه المشكلة اللغوية ، وانصرف الاهتمام في الفروق إلى التحليل وشرح المعاني وبسط المساحة الدلالية التي يحددها الرمز الخاص بها ، وماهي الحدود الفاصلة بينها وبين جارتها . وهناك أمر آخر هو أن الثقافة المفترضة عند المؤلف للقيام بمثل هذا العمل هي : الفلسفة والمنطق خاصة في بحوثه المتناولة للتعريفات والحدود ومايكوّنها ، ولكنّ أبا هلال لم يستخدم مصطلحات أهل المنطق ، بل كان شارحاً لغوياً دلالياً ، كما سنرى في عدد من الشواهد نستقيها من هذا الكتاب .

يقول أبو هلال :

« الفرق بين الدعاء والنداء : أن **النداء** هو رفع الصوت بماله معنى ، والعربي يقول لصاحبه : نادِ معي ليكون ذلك أندى لصوتنا ، أي : أبعد له . **والدعاء** : يكون برفع الصوت وخفضه ، يقال : دعوته من بعيد ، ودعوت الله في نفسي ، ولا يقال : ناديته في نفسي . وأصل الدعاء طلب الفعل يدعو وادّعى ادعاء ، لأنه يدعو إلى مذهب من غير دليل ؛ **وتداعى البناء** يدعو بعضه

---

(١) الفروق ١٧ .

بعضاً إلى السقوط ، والدعوى : مطالبة الرجل بمال يدعو إلى أن يعطاه[1] » .

« الفرق بين النجوى والسرّ : أن **النجوى** اسم للكلام الخفيّ الذي تناجي به صاحبَك كأنك ترفعه عن غيره ، وذلك أن **أصل** الكلمة : الرفعة ، ومنه **النجوة** من الأرض ، وسمّي تكليم الله تعالى موسى عليه السلام مناجاة : لأنه كان كلاماً أخفاه عن غيره . **والسرُّ** : إخفاء الشيء في النفس ، ولو اختفى بستر أو وراء جدار لم يكن سرّاً . ويقال في هذا الكلام سرٌّ : تشبيهاً بما يخفى في النفس ، ويقال سرّي عند فلان : تريد ما يخفيه في نفسه من ذلك ، ولا يقال نجواي عنده .

والنجوى تتناول جملة ما يتناجى به من الكلام ، والسرّ يتناول معنى ذلك ، وقد يكون السرّ في غير المعاني مجازاً ، تقول : **فعل** هذا سرّاً . وقد أسرّ الأمر ، والنجوى لا تكون إلا كلاماً[2] » .

وأعتقد أن (الفروق اللغوية) تفتح باباً للتحليل الدلالي ، أو هي ينبغي أن تنوّر طبيعة الجهود الدلالية العربية القديمة ، خاصة وأننا نلتمس توظيفاً للبحوث الدلالية التطبيقية على نحو واسع في حياتنا العلميّة . ويبرز ههنا دور التعريب وقضايا المصطلحات ، وكذلك التوجّه إلى التطبيقات الدلالية الفنية في الأدب ونقده .

لقد تميز أبو هلال العسكري في أنه أفرد مصنفاً خاصاً « للفروق » ، وقد وصلنا مع آثاره اللغوية والأدبية ، إلاّ أن مؤلفاً آخر كان معاصراً له دوّن كتاباً في هذا الشأن ، ألا وهو أبو الطيب اللغوي عبد الواحد بن علي (٣٥١ هـ) ، ونقل عنه السيوطي في المزهر ما توصف به اليد عند لمسها كلّ صنف من الملموسات ما يجعلنا نتأمل بحث علمائنا عن الدقة في التعبير ، مما يرفع اللغة العربية إلى

---

(١) الفروق اللغوية ، أبو هلال العسكري ٢٦ .

(٢) الفروق اللغوية ٤٨ .

مرتبة عالية في صلاحيتها لأداء مكنونات النفس ودقـائق الأمور المادية ، وبـذا ترفع اللبس عن المتحـاورين ، وتوصل جزئيـاتِ العلوم مثلمـا يكون التوصيل في كلياتها .

يقول السيوطي : « وقال أبو الطيب اللغوي في كتاب الفروق : يقـال يـده من اللحم غَمِرة ، ونَدِلة ، ومن اللبن وَضِرة ، ومن السمك والحديد أيضـاً سَهِكـة ، ومن البيض ولحم الطير زَهِمــة ، ومن العســل لثقــة ، ومن الجُبْن نَسِمــة ، ومن الـوَدَك وَدِكـة ، ومن النقس طرسـة ، ومن الـدهن والسمن نَمِســة ، ومن الخـلّ خمِطة ، ومن الماء لَثِثَة ، ومن الخضـاب رَدِعـة ، ومن الطين رَدِغـة ، ومن العجين لَوِثـة ، ومن الـدقيق نثرة ، ومن الرطب والتمر حمتـة ، ومن الزيت وصئـة ، ومن السويق والبزر رغفة ، ومن النجاسة نَجسة ، ومن الأشنـان حرضـة ، ومن البقل زهرة ، ومن القـار حلكـة ، ومن الفرصـاد قنئـة ، ومن الرطـاب مَصِعــة ، ومن البطيخ نضخـة ، ومن الـذهب والفضـة قتِمـة ، ومن الكامخ شهرة ، ومن الكافـور سَطِعة ، ومن الدم شحطة ، ومن التراب تربة ، ومن الرماد رمدة ، ومن الصِّحناء صحنة ، ومن الخمْط مَسِيسَـة ، ومن الخبز خبزة ، ومن المسـك ذفرة ، ومن غيره من الطيب عَطِرة ، ومن الشراب خَمِرة ، ومن الروائح الطيّبة أرجة[1] » .

وممن تنبّهوا إلى قيمـة النظر في الفروق ابن قتيبـة في (أدب الكاتب) إذ أفرد فصلاً عرض فيه للمسألة . وحض على دراية هذا الجانب في عمل الكاتب[2] .

ونذكر ههنا عناية مؤلفي المصنفـات[3] المشـابهـة والمقـاربـة لعمل ابن قتيبـة بإيراد الألفاظ الخاصة بجوانب النشاط الاقتصـادي والفكري والعسكري ، لتكون دليلاً للعاملين في الدواوين ، فلا يخطىء واحدهم في تعبيره عن قضية هامة تتبدل

---

(١) المزهر ، السيوطي (١/٤٤٧) .

(٢) أدب الكاتب ، ابن قتيبة ، ٥٥ فما بعدها ، ٢٠٨

(٣) من هؤلاء مثلاً ابن السيد البطليوسي في (الاقتضاب في شرح أدب الكتاب) .

الأحكام فيها بحسب دقة دلالاتها . ونصل حديثنا نحن في هذا الموضع من الدراسة بالجهود اللغوية فيما نسمّيه بمعجمات المعاني من مثل فقه اللغة للثعالبي ، والتلخيص في معرفة الأشياء للعسكري ، والمخصص لابن سيده ، ذلك أنها يمكن أن توظف في التحليل الدلالي وفي ربط مجموعات الدلالات في حيّز معين مكاني أو زماني أو متصل بوجه من وجوه النشاط ، وهذا ما يفرد له الباحثون المحدثون في علم اللغة الحديث والدلالة خاصة باب (الحقول الدلالية[1]) .

ونورد ملامح من اهتمام اللغويين العرب بهذه الظاهرة ، فقد كانوا يتناولونها في مصنفاتهم من غير إفرادها بأبواب وفصول مستقلة ، إلى أن اجتمعت بقدر نبّه أبا الطيب اللغوي وأبا هلال العسكري إلى ضرورة اتخاذ الكتب الخاصة بها .

فمما جاء عن ابن دريد صاحب جمهرة اللغة قوله في الجمهرة : « الشُّنداخي : طعام الإملاك ، والعقيقة : ما يذبح عن المولود ، والوضيمة : طعام المأتم ، والنقيعة : طعام قدوم المسافر ، والمأدبة والمدعاة : طعام أي وقت كان » .

وقال ابن دريد : « قال أبو عثمان عن التوّزي عن أبي عبيدة عن أبي الخطّاب الأخفش ، وهو في نوادر أبي مالك ، قال : الشّبر : من طرف الخنصر إلى طرف الإبهام . والفِتْر : من طرف الإبهام إلى طرف السبّابة ، والرَّتب : بين السبابة والوسطى ، والعتب : مابين الوسطى والبنصر ، والوصيم : مابين الخِنصر والبنصر ، وهو البُصْم أيضاً . ويقال : مابين كل إصبعين فَوْت ، وجمعه أفوات[2] » .

وقال ابن الأعرابي في نقل لثَعْلب أحمد بن يحي أورده صاحب (فقه

---

(١) Lyons, J. Eléments de Sémantique, P. 202, Larousse, Paris 1978.

(٢) المزهر ، السيوطي (١/٤٤٥) .

اللغة) : الصباحة في الوجه ، الوضاءة في البشرة ، الجمال في الأنف ، الملاحة في الفم ، الحلاوة في العينين ، الظَّرف في اللسان ، الرشاقة في القدّ ، اللباقة في الشمائل ، كمال الحُسْن في الشعر[1] » .

وقال أبو علي القالي في أماليه : « حدثنا أبو بكر بن الأنباري قال : حدثني أبي عن أحمد بن عبيد قال : يقال للقطعة من الشَّعْر : الفليلة ، وللقطعة من القطن : السبيخة ، وللقطعة من الصوف : العمتة[2] » .

وهناك نقول عن ابن خالويه والفرّاء ، والزجاجي ، والأصمعي ، والكسائي وأبي زيد في هذا المجال التحليلي[3] .

---

(١) المزهر ، السيوطي (١/٤٤٥)

(٢) المزهر (١/٤٤٣) .

(٣) ينظر في المزهر (١/٣٣٥ ـ ٤٤٩) .

- ٢ -

١/٢ مشكلة اللفظ والمعنى في الدراسة اللغوية

لقد حظيت مشكلة اللفظ والمعنى بمواضيع عديدة في الدراسات الحديثة التي تناولت تاريخ النقد العربي القديم ، أو عرضت لجوانب فنية سعت إلى تحليلها ، ومع هذا نجد أن الحاجة إلى تبيّن هذه المشكلة وأبعادها لا تزال قائمة في بحثنا وذلك لأمرين : أولهما أن الدرس الدلالي يتطلب مناقشة لهذين العنصرين : اللفظ والمعنى ، اللذين يكونان صورتين للكلمة لا انفصال للواحدة منهما عن الأخرى ، ويعد تحليلهما منطلقاً لمعالجة المشكلات الدلالية الأخرى ، وفي مضمار كدراستنا للدلالة تستكمل وجوه القضايا بهذا التناول للفظ والمعنى وما يتصل بهما .

وثاني الأمرين هو أننا نرغب في تطبيق العرض العلمي للمشكلة ، وذلك بتأصيلها في نصوصها الأصلية بعيداً عن التأويلات المتأخرة ، والمناقشات التي قد يكون مسوَّغاً لأصحابها اختيارُهم للزوايا المدروسة لديهم ، ولكن لا يقبل - فيما أرى - التركيز على تلك الزوايا بحيث تُغطّي الملامح الأولى . إننا نستطيع القول - مع كل ما يستوجبه الحذر العلمي - بأن الحركات الأدبية التي تلت الجاهلية والعصر الإسلامي الأول ، إنما هي تنويعات على الألحان والنغمات الأساسية القديمة ، ولا تشكل كسراً حاداً تتغير معه الفنون والقواعد الكبرى فيها ، وكذلك الشأن في النشاط النقدي ، فنحن نرى النقد بعد القرن الرابع يدور في مجالات سابقيه ، ويصدق عليه ماذكرناه من تنويع الأنغام القديمة ، لذا يغدو مهماً أن نذهب بعيداً لنرسم الأصول بأكبر قدر ممكن من التفصيل والتدقيق ، وبكل

ماتفتحه لنا أدوات البحوث العلمية الحديثة أو تساؤلاتها إن لم تكن القضايا متطابقة بين الجوانب الفنية العربية وتلك الأجنبية .

٢/٢ مشكلة اللفظ والمعنى في النقد وصلتها بالسياق

إنّ العملية النقدية تستهدف إبراز جماليات النص الشعري من حيث هو فن لغوي ، أي أنه يستخدم أداة معينة هي الكلمات ونظام اللغة ، والبحث الدلالي يتقصّى العلاقات الدلالية بين الرموز اللغوية ومدلولاتها وما يترتب عليها من نتائج في سلامة الأداء للغرض المقصود ، وفي وضوح الرسالة الموجهة من المتكلم إلى المتلقي ، وهذا يعني أننا عندما ندرس نقد الشعر لدى نقاد القرن الرابع ، نحاول الوقوف على مدى تحليلهم للجانب الدلالي في اللفظ والمعنى وهم يقدمون الأحكام الجمالية والعروض الذوقية .

إن الناقد القديم يحدثنا عن ألفاظ الشعر ، وعن عبارة الشاعر في نص محدد ، ويصف معانيه ، وتختلط ههنا مسائل فرعية عدة ، إذ تمتزج الأغراض والفنون بالفكرة التي يحملها بيت واحد أو جزء من هذا البيت الشعري ، وكذلك يتداخل الإيقاع الصوتي للكلمات والحروف بخفتها أو ثقلها وزناً صرفياً ، وقد يكون لتحليل المفردات ثم الإفادة من ثمرة هذا التحليل آثار كبيرة في توجيه الأحكام ، ذلك أن معرفة حدود اللفظة ودلالتها تجعلنا نقدر اختيار الشاعر لها مقابلة بالمترادف أو المشترك ، وموازنة بالمجال اللغوي الذي تدور فيه أعداد من المشتقات التي قد تناسب الموقف إلا أن ضرورات أو متطلبات فنية ألزمت صاحب النص باستعماله ، والفن في واحد من وجوهه انتقاء ، وتبنى مهمة الناقد على تفسير تعامل الشاعر مع مادته في سبيل التعبير عن موضوعه .

تتكامل في هذا الفصل صورة نقد الشعر من حيث تناولها الدلالي مع جهود النقاد في الشروح الشعرية لتحليل الدلالة وإظهار تطورها ، وكذلك مع دور

اللغة الفصحى والدرس اللغوي في توجيه النقد نحو المعيارية ، وإن واحدة من أهم نتائج البحث الدلالي وهي هنا نظرية السياق ـ كما يدعوها أولمان وأضرابه من المعاصرين ـ تتبدى لنا عناصر متفرقة هنا وهناك في كتب النقد وشروحه ، فهم عندما يهتمون بأطوار اللفظة ومادتها اللغوية عامة إنما يمهدون لإعطائها بُعدها في النص ، ومايحيط به من ظلال يفاد في بعضها ويترك ماليس مفيداً في إطار النص أو الموقف ، وإننا نجد أيضاً تعليلات لإفادة المعنى ترجع إلى ماهو أبعد من المفردات منعزلة ، أي بارتباطها فيما بينها ، فتحرز التكامل مع غيرها من الألفاظ في نسق تركيبي خاص يضفي عليها هالات ماكانت تفهم لولا هذا الاستعمال في نص معين .

وسنتبع في الأجزاء التالية منهجاً يسمح لنا بالتعرف على بعض الملامح السابقة على القرن الرابع في مسألة اللفظ والمعنى ، ثم نلجأ إلى عرض المصطلحين في المعجمات التي صنفت في هذا القرن ، وكذلك في الجانب المنطقي .

٣ ـ مشكلة اللفظ والمعنى في القرن الثالث

إن القرن الرابع يتصل بما كان من آراء حول المشكلات اللغوية والنقدية في القرن الثالث ، لذا فإننا سنستعين بعدد من المؤشرات التي بزغت وتعد ممهدة للاتجاهات المختلفة في تحليل اللفظ والمعنى ، ونحترز هنا فننص على أن أمثلتنا ليست استقصاء لكل رأي عرفه النقاد وأهل اللغة ، بل إنها تظل في إطار الاختيار الوظيفي المرتبط بمادة موضوعنا .

ولعل أقدم صور التعبير عن المقابلة بين : اللفظ والمعنى كانت لدى صاحب (الكتاب) سيبويه ، فهو يضع الرمز الصوتي وصيغته الصرفية في جهة ، ويمثل في الجهة الأخرى مدلوله الجزئي ، ذلك أن الكلم ينصرف إلى « اسم وفعل وحرف

جاء لمعنى ليس باسم ولا فعل[1] » وكل واحد من هذه الأقسام يمكن تسميته « اللفظ » مما يتفرع إلى مسألة : « أن من كلامهم (العرب) اختلاف اللفظين لاختلاف المعنيين واختلاف اللفظين والمعنى واحد ، واتفاق اللفظين واختلاف المعنيين[2] » ، ولا يعنينا هنا مناقشة قضايا الترادف والاشتراك ، وإنما نقصد من الاستشهاد بكلام سيبويه إلى معرفة واحد من المواضع التي ربطت بين الشكل والمحتوى للمفردة الواحدة ، وهو هنا (النحو وعلوم العربية عامة) ، حيث اقتضى الدرس أن يبدأ المصنف بالبسائط لينتقل إلى المركبات والعبارات ، وإن (المعجمي) يتفق في نقطة البداية في درسه مع النحوي إلا أن مهمة كل منهما تختلف عن الآخر ، إذ ينظر الأول إلى المفردة وخصائصها صيغة لها أحكام بحسب موقعها من التركيب ، ويلتفت الثاني إلى مدلول هذه المفردة في وضع أقرب إلى أن يكون سكونياً ، وأما عن تشكلها في تآلف معنوي مع سواها في شروط خاصة ندعوها في مصطلحنا الحديث (بالسياق) ، فهذا أمر حشد له المعجمي القديم مواد تحتاج إلى مزيد من التمحيص لنجد فيها خطوطاً قد تساعد في رسم سياقات للكلمات .

وإن أهمية هذا التحديد تكمن في أنه المنطلق الأول ، الذي كان ينبغي أن تحرص عليه النظرات النقدية والتحليلية بأكثر مما تلقي أحكامها حول صفات الألفاظ والمعاني بمفهوم عام لا يقف عند التفصيلات المؤدية إلى كلية واضحة .

والمستوى الآخر لمشكلة اللفظ والمعنى يلتمس في كتابة الجاحظ ، ومرجع ذلك إلى مكانته مفكراً وأديباً ورجل ثقافة موسوعية عرفها له القدماء والمحدثون ، وبذا فإن معالجته للأدب ومسائل النقد تجتذب الانتباه إليها وتثير الأفكار بين متابع لها ومنتقد ؛ أو شارح يبحث عن مخرج إن رأى فيها ما لا يستقيم مع ظاهر كلماتها .

(١) (الكتاب) ، سيبويه ٩ ، مكتبة الأعلمي بيروت ١٩٧٦ .

(٢) (الكتاب) ، سيبويه ١٥ .

ولقد ترك لنا الجاحظ نصاً يمثل موقفاً يفاضل فيه بين مضمون الشعر الفكري وخصائصه الشكلية والتصويرية ، وإنه يشرح العمل الشعري بعد أن أثاره اهتمام بعض العلماء بمضمون أبيات دون أن تكتسب الروح الشعرية فيقول إن « المعاني مطروحة في الطريق يعرفها العجمي والعربي ، والبدوي والقروي ، وإنما الشأن في إقامة الوزن وتخير اللفظ وسهولة المخرج وكثرة الماء ، وفي صحة الطبع وجودة السبك ، وإنما الشعر صياغة وضرب من التصوير[1] » ، ويبدو لكثير من القدماء والمعاصرين أن الجاحظ يريد تغليب اللفظ على المعنى إلا أن المغزى في النص لا يحتاج إلى التأويلات ، فالرجل يقابل بين المضمون ومجموعة من العناصر المكونة للإبداع الشعري لا تقف عند اللفظ أي الكلمات ، فلدينا ههنا إضافة إلى اللفظ : السبك والصياغة ، والوزن والتصوير ، فيدخل التركيب اللغوي بكل علاقاته النحوية المتفرعة إلى خصائص مؤثرة في الدلالة ، وكذلك الإيقاع الموسيقي في تخير الأوزان واستقامتها ، وتلاؤمها مع الغرض والموضوع أي أنها تصل ما بين النغمات المحسوسة بالوزن ، وتلك الخفية ممثلة بجو الموقف المراد أداؤه ، وفوق هذا كله تضاف القدرة الإبداعية في الأساليب المجازية والاستعارية وما يمكن أن يدرج فيها وصف التصوير ، وهذا يؤدي إلى أن لا يقبل فهم تفضيل الشكل للألفاظ على المضمون ، بل يمكن إيجاز المؤدى بأنه فهم الغرض والمضمون من خلال أدوات الشعر الفنية وهي تلك التي ذكرها الجاحظ في كلمته .

وفي مقابل انسياق أبي هلال العسكري لنصرة الألفاظ على المعاني بسبب من توهم إرادة الجاحظ لهذه الفكرة ، نجد عبد القاهر الجرجاني يفسر القضية على نحو ينأى بالجاحظ عن أن يقصد إلى غلبة اللفظ على المعاني ، ذلك أن (أبا عثمان) اضطر إلى هذا أمام تيار يذهب إلى أن مزايا الكلام شعره ونثره مردها إلى تلك

---

(١) دلائل الإعجاز ، عبد القاهر الجرجاني ١٨٠ ، والحيوان (١٣١/٣ ـ ١٣٢) ط هارون القاهرة .

الأفكار التي يحملها ، وهنا يجر عبد القاهر النقاش إلى أرضه فيقول إننا إذا ماتابعنا هؤلاء فالأمر يفضي بالمرء إلى « أن ينكر الإعجاز ويبطل التحدي من حيث لا يشعر[١] » ويفصّل الحديث فيقول : « إن كان العمل على ما يذهبون إليه من أنه لا يجب فضل ولا مزية إلا من جانب المعنى ، وحتى يكون (صاحب الكلام) قد قاله حكمة أو أدباً واستخرج معنى غريباً ، أو شبيهاً نادراً فقد وجب اطراح جميع ماقاله الناس في الفصاحة والبلاغة ، وفي شأن النظم والتأليف ، وبطل أن يجب بالنظم فضل وأن تدخله المزية ، وأن تتفاوت فيه المنازل ، وإذا بطل ذلك فقد بطل أن يكون في الكلام معجز[٢] » وهذه الإطالة في نقل حوار حول رأي الجاحظ تنعكس على موضوعنا بإضاءة مفهوم كل من المصطلحين اللذين يدور عليهما الكلام ، فالمعنى هنا إنما هو المضمون والغرض أو الأغراض الجزئية ، وعند الحديث عن معنى بيت فنحن نهدف إلى ما فيه من أفكار أو فكرة جزئية واحدة ، وظاهر من هذا أن حدود المصطلح تختلف عما كان من مدلول لفظة مفردة اسماً كانت (أو صفة) أو فعلاً أو حرفاً ، فكل هذه الجزئيات تشكل ما يسمى بالمعنى لدى الجاحظ وسواه عندما يبسطون الحديث على النحو الذي مرَّ بنا ، وأما اللفظ فيستعمل (هنا اسم جنس) ليدل على مجموع الأفراد مرادفاً مصطلح (الألفاظ) ، إلا أن اسم الجنس (في النص) يحمل أيضاً إيحاء الحدث ، بل يكاد ظل (القائل) يُلحظ فيه ، فاللفظ هو الملفوظ بفعل قائل الكلام ، ولا يستبين الاهتمام بمدلول اللفظة الواحدة وكيفية الانتقال من هذا المستوى إلى الذي يعلوه من اندغامها في فكرة أو أفكار مسلسلة .

ويؤكد مذهب الجاحظ في غلبة الإلحاح على المعنى بمفهوم (الغرض أو القصد) أنه يتحدث في مواضع أخرى عن الألفاظ والمعاني فيهتم بكيفية إخراج

---

(١) الدلائل ، عبد القاهر ١٨٠

(٢) دلائل الإعجاز ، عبد القاهر الجرجاني ١٨٠

« المعاني القائمة في الصدور ، والمتصورة في الأذهان والمتخلجة في النفوس[1] » ، ويعبر عن تحقيقها بالألفاظ والعبارات بأنه « يحيي تلك المعاني ذكرهم لها وإخبارهم عنها واستعمالهم إياها[2] » ، بل يورد اصطلاحات (هي أجدر باللفظ والرمز اللغوي) ، كالدلالة والإشارة مريداً بها عموم الأداء وخصائص أسلوب تناول الأفكار وعرضها ، وكما يذكر « فعلى قدر وضوح الدلالة وصواب الإشارة وحسن الاختصار ، ودقة المدخل يكون إظهار المعنى الخفي هو البيان الذي سمعت الله (عز وجل) يمدحه ، والبيان اسم جامع لكل شيء كشف له قناع المعنى[2] » .

ويخصص ثعلب النحوي الكوفي بعضاً من جهوده ليعالج « قواعد الشعر » ، ونستطلع ماكتبه متصلاً بمسألة اللفظ والمعنى من خلال آرائه في الشعر وصناعته ، فهو يشرح جزالة اللفظ « بأنه لم يكن بالمغرب البدوي ، ولا السفساف العاميّ ، ولكن ما اشتد أسره ، وسهل لفظه ، ونأى واستصعب على غير المطبوعين مرامه وتوهم إمكانه[3] » ، وعلى الرغم من عدم وضوح الصفات التي يوردها ثعلب ، لنسبية المقاييس عدا سهولة اللفظ التي تؤول بالقصر وعدم اقتران الأحرف المتنافرة بحيث يتعثر اللسان وجهاز النطق في إخراجها دون لجلجلة واضطراب ، فإنه يمكن الكلام على تصور اللفظة المفردة بفضل بعض النعوت ، فهي تكون غريبة أو عامية ، وبذا لا ينصرف الذهن إلى عموم مطلق في استخدام أبي العباس لمصطلح (اللفظ) .

ويدل مصطلح (المعنى) في (قواعد الشعر) على فكرة أو غرض جزئي للكلام كأن يكون في بيت شعري ، وأن المؤلف يتحدث عن ضرب من الأبيات يدعوها (المرجلة) وهي التي يكمل معنى كل بيت منها بتمامه ، ولا ينفصل الكلام

(١ و٢) البيان والتبيين ، الجاحظ (١/٧٥ - ٧٦) ط ٣ هارون ١٩٦٨ .

(٣) قواعد الشعر ، أبو العباس ثعلب ٥٩ ، تحقيق محمد عبد المنعم خفاجي ، القاهرة ١٩٤٨ نشر مصطفى البابي الحلبي .

منه ببعض يحسن الوقوف عليه قافية ، فهو أبعدها من عمود البلاغة ، وأذمها عند أهل الرواية كقول الطائي :

عــذلاً شبيهـــاً بـــالجنـون كأنَّما قرأتْ بـه الـورهـاءُ شطر كتـاب[1]

ويفرِّع فرعاً يتصل بالمعنى ، ويدل به على الأساليب الكنائية التي يبعد القائل فيها عن التصريح إلى التعريض ، وهو كذلك « كل ما يدل على الإيماء لمن يحسن فهمه واستنباطه[2] » .

ولقد اشتهر ابن قتيبة برأيه الذي بسطه في مقدمة مؤلفه (الشعر والشعراء) وهو يوازن بين اللفظ والمعنى ، ولكننا لن نكتفي بتبين موقع هذا الرأي في تقسيمنا الذي ينشعب إلى مستويين لمشكلة الألفاظ والمعاني ، بل سنطّلع على آراء يأتي بها ابن قتيبة في (كتاب العلم والبيان) ضمن موسوعته : (عيون الأخبار) منسوبة إلى آخرين ، ولكنها ترتبط به بصورة من الصور وتعبر في الوقت نفسه عن تصورات أقدم لكتاب ومفكرين يتعرضون لذكر البلاغة والبيان والفصاحة .

ونبدأ بما يمثل رؤية ابن قتيبة المباشرة في (الشعر والشعراء[3]) ، فلديه أن الشعر يمكن أن يوزّع على أربعة أضرب ، وكل من هذه الضروب فيها ركنان هما اللفظ والمعنى ، وبحسب صفات الجودة أو الرداءة لهذين العنصرين يعطى الكلام مرتبته ، فثمة (١) ضرب حسن لفظه وجاد معناه ، (٢) ضرب حسن لفظه وحلا ، فإذا أنت فتشته لم تجد هناك فائدة في المعنى ، (٣) ضرب جاد معناه ، وقصرت ألفاظه عنه ، (٤) ضرب تأخَّر معناه ، وتأخر لفظه .

---

(١) قواعد الشعر ٧٩ ـ ٨٠

(٢) قواعد الشعر ٤٤ .

(٣) الشعر والشعراء ، ابن قتيبة ٦٤ ـ ٦٩ ، تحقيق أحمد محمد شاكر ، القاهرة ١٩٦٦ دار المعارف بمصر .

ويستعمل المصنّف الناقد اللفظ مع مرادف له (الألفاظ) يورده في أثناء شرحه وأمثلته ، وفي الحالتين يقصد إلى مجموع المفردات دون تعيين الآحاد ، ولا يستقيم له مفهوم شامل للعناصر الشكلية يحصرها تجاه المعنى ، فهو يعلق على مثال الضرب الثالث (جاد معناه ، وقصرت ألفاظه عنه) فيقول « هذا وإن كان جيد المعنى والسبك فإنه قليل الماء والرونق » فالسبك مصطلح يقرب من (الصياغة والتركيب) وهذا ألصق بالألفاظ إذ تحلل مفردة ثم مركبة . ونلحظ أن سائر الصفات (التي يضمها التقسيم العام : الجيد ، والرديء) من الحسن والحلاوة والتقصير والتأخر لا يراد بها اللفظ الواحد وماقد يتبادر إلى الذهن من دلالته ، بل إنّ الناقد يربط أجزاء العبارات بالغرض أو الفكرة التي يدور عليها الكلام ، وهذا ما يدعوه بمصطلح (المعنى) ويستوي هنا معنى بيت واحد ، أي فكرته العامة التي يعبر عنها بالصياغة الشعرية وإن اشتمل على أفكار جزئية كما في قول لبيد :

ما عاتبَ المرءَ الكريمَ كنفسه   والمرءُ يصلحه الجليسُ الصالحُ

وكذلك مجموعة الأبيات التي تعبر عن فكرة مكونة من جزئيات فإنها تنضوي جميعها تحت كلمة (المعنى) ، ولا نجد ابن قتيبة حريصاً على ذكر مصطلح فرعي هو (المعاني) ، ذلك أنه تشغله النظرة العامة إلى الألفاظ والنتيجة الكلية ، أي الغرض أو المغزى كما في الأبيات المشهورة في كتب النقد القديمة :

ولما قضينا من منى كلَّ حاجةٍ   ومسّح بالأركان من هو ماسحُ
وشُدّت على حدب المهارى رحالنا   ولا ينظر الغادي الذي هو رائحُ
أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا   وسالت بأعناق المطيِّ الأباطحُ

ويهدر الناقد (هنا) قيمة الألفاظ ومدلولاتها الفردية عندما ينقل (مغزاها[1]) بعبارات أخرى تختلف بدرجات متباينة عن العبارات المذكورة في

(١) الشعر والشعراء ، ابن قتيبة ٦٦ ـ ٦٧ .

الأبيات الشعرية ، فبذا تضيع الملامح الخاصة بأدوات الشاعر التي يكونها ، وهي اللغة بكل مافيها من قيم أساسية للألفاظ ثم مكتسباتها السياقية وخصائصها المجازية ، وتآلفها مع جوِّ الحديث بحيث يغدو موقع كل جزء هو ما ينبغي وليس لتعديل أن يحل عقده الخاص . إن البحث الدلالي ينطلق من المفردات ، فيدرس الحالة المعجمية ثم يلتفت إلى تاريخها اللغوي مستعيناً بمناهج التطور وتعدّد المعنى واحتمالات السياق والموقع (بما في ذلك دراسة الأصوات وعلاقات التركيب المؤثرة) ، ليخلص إلى الأفكار والأحاسيس مع سماتها الفنية الخاصة فناً لغوياً ليعين القارىء والمتلقي عموماً في معايشة العمل الأدبي .

ونعرض من ثم لبعض ماجاء في (عيون الأخبار) حول البلاغة التي تؤدي إلى حديث عن الألفاظ والمعاني ، فمن القرن الثاني يستحضر ابن قتيبة موقفاً[1] يفسر فيه عمرو بن عبيد المعتزلي البلاغة بأنها « تخيّر اللفظ في حسن إفهام » ، ويدعو إلى أن يؤتى بالألفاظ المستحسنة في الآذان المقبولة عند الأذهان رغبة في سرعة استجابة المستمعين ، أي أن الإشارة تظل عامة تشمل مجموع الألفاظ ، لكنها توضح المراد وهو الانتقاء للأقصر من الصيغ وللأكثر تداولاً من بين المترادفات والمتقاربات في الموضوعات المطروقة ، وإنّ المعاني لدى هذا المعتزلي هي الأفكار كموضوعات العقائد (تقرير حجة الله في عقول المكلفين ، والموعظة الحسنة من الكتاب والسنة) . وإنّ الناقد ينقل ما في كتاب الهند من تعريف للبلاغة ، وكذلك قولة لجعفر بن يحيي البرمكي الكاتب ، وكلاهما لا يخرج مضمونه عما ورد من حدود للمعنى واللفظ في كلمة عمرو بن عبيد وآراء ابن قتيبة[2] .

وفي مصنف يرجع تاريخه إلى أواخر القرن الثالث وهو (البرهان في وجوه البيان) ، يتناول صاحبه إسحاق بن وهب الكاتب مسألة اللفظ والمعنى ، ولا يخرج عن الأبعاد التي رأيناها في كلام ابن قتيبة ، « فما يزيد في حسن الشعر

(١) عيون الأخبار ، ابن قتيبة (١٧١/٢) .

(٢) عيون الأخبار (١٧٣/٢) .

ويمكن له حلاوة في الصور حسن الإنشاد وحلاوة النغمة ، وهو أن يكون الشاعر قد عمد إلى معاني شعره فجعلها فيما يشاكلها من اللفظ فلا يكسو المعاني الجدية ألفاظاً هزلية فيسخفها ، ولا يكسو المعاني الهزلية ألفاظاً جدية فيستوخمها سامعها ، ولكن يعطي كل شيء من ذلك حقه ويضعه موضعه[1] » فالمعاني هنا هي الأغراض وأسلوب الحديث من جدّي أو هزلي ، وما يتشقق إليه كل من هذين المحورين من فروع وأغراض جزئية عدة ، والألفاظ هي ما يندرج تحت اللفظ من مفردات وتراكيب ، بل قد يذهب بعيداً إلى أنماط الصور على أنها ألفاظ خاصة .

ولقد تعددت في هذه المدة مصنفات تُعنون بـ (معاني الشعر) ، وهي نمط من الكتب يغلب أن يكون البحث فيه دائراً حول (غامض المعاني) ، ومنها كتاب معاني الشعر للأشنانداني المرجَّح أنه عاش في القرن الثالث الهجري[2] .

إننا بهذه المطالعة لوجوه من الاستعمالات لمصطلحي اللفظ والمعنى فيما قبل القرن الرابع ، نمهد لاستيعاب ما جاء في المصنفات التالية ، ولمعرفة مدى الإفادة من الإنجاز السابق وتوجيهه على نحو أكثر إيغالاً في المادة الشعرية لتقرب من الأفهام والإحساس .

ـ ٤ ـ

١/٤ المصطلحات (لفظ ، عنى ، قول) في المعجمات

يُعَدُّ المعجم في واحدة من زوايا النظر إليه المرجع الذي يحتوي على ألفاظ اللغة ، أو ما يستطاع تدوينه منها ، ويصف أحوالها الدلالية ، والتراث المعجمي العربي يعطينا هذه الخصيصة ، فبمقدورنا استجلاء الألفاظ وما يدور حولها من

---

(١) البرهان في وجوه البيان ، أبو الحسن إسحق بن إبراهيم بن سليمان بن وهب الكاتب ١٨٦ . تحقيق أحمد مطلوب وخديجة الحديثي . بغداد ١٩٦٧ .

(٢) معاني الشعر للأشنانداني . تحقيق عز الدين التنوخي . دمشق وزارة الثقافة ط ٢ ، ١٩٦٩ .

دلالات ، ونغض الطرف عن مسألة التطور وإمكانية التعرف عليه في مصادرنا القديمة [لأننا سنعرض لها بعد] ونحاول الاستعانة بما أورده عدد من المعاجم في القرن الرابع متصلاً بالمصطلحين (اللفظ والمعنى) ، وذلك لنسهم في إيضاح مفهومها لدى النقاد عندما يتخذونها ضمن أدوات نقدهم .

ولا يبعد عنا أنّ الحالة المعجمية للألفاظ تمثل الصورة الأساسية لمحيطها الدلالي ، أو هكذا ينبغي أن تكون ، وهي المعين لنا في تفسير جنوح النقاد إلى فهم خاص للمصطلح ، وهي تشكل أيضاً عنصراً يكشف المغايرة إن وجدت لدى هؤلاء ، فنحن نسعى إلى معرفة ما إذا كان الناقد يفصل دلالة المفردة ثم يسعى إلى ربطها بالمعنى المتأدي في اجتماعها بغيرها وعندئذ نميّز بين هذه العملية التحليلية ، وذاك النمط من التحليل الذي يحمل النظر إلى الألفاظ ، ومن ثم إلى الأفكار التي هي عندهم .

والمعجمات التي نقف عندها هي : الصحاح للجوهري ، ومقاييس اللغة لأحمد بن فارس ، وتهذيب اللغة للأزهري ، وسنتبعها بمصنفين آخرين قريبين من المضمار المعجمي هما : متخيّر الألفاظ لابن فارس ، والألفاظ الكتابية لعبد الرحمن الهمذاني ، لنرى تداول المصطلح في تلك الكتب التي تدرج في (معاجم المعاني) .

ونبدأ بالمادة اللغوية المتصلة بالمصطلح (اللفظ) : فالجوهري يقدم :

(١) أولاً الدلالة العامة للمادة (لفظ) وهي (الرمي من الفم) : « لفظت الشيء من فمي ألفظه لفظاً رميته » (٢) ثم يعدد الدلالة المخصصة إذ يكون الملفوظ من الفم كلاماً : « لفظت بالكلام وتلفّظت به أي تكلمت به » ، وبعدها يعين المفردة بأنها « اللفظ واحد الألفاظ » ، ويذكر أن الصيغة ذاتها تستعمل مصدراً للفعل : لفظ ، وجلي أنّ اهتمام الجوهري انصب على الناحية الصوتية في

المادة ولم يعر مضمون هذا الصوت أي انتباه[1] .

أما ابن فارس في المقاييس فهو يقول إن المادة (لفظ) تعني (١) أولاً الدلالة على الطرح المطلق ، ثم هي (٢) يغلب عليها أن تكون من الفم ، ثم (٣) يخصص الفعل ، فتقول : « لفظ الكلام يلفظ لفظاً » ، وبعدها يورد واحداً من المشتقات ، ومايحتمله من دلالات « اللافظة : فهو الديك ، ويقال : للرحى ، والبحر » ، وظاهر لنا معنى الصوت في الديك والطرح في الرحى للحبوب المطحونة ، وكذلك في البحر إذ يخرج أشياء كثيرة من جوفه . ولا يختلف منحى (المقاييس) عما هو في (الصحاح) ، إذ لا ربط بين هذا الصوت : اللفظ ومدلوله : معناه[2] .

وأما الأزهري في التهذيب[3] فيأتي (١) بدلالة (الرمي من الفم) على أنها الأولى « فاللفظ هو أن ترمي بشيء كان في فيك ، والفعل لفظ يلفظ لفظاً » ، (٢) ثم يخصص المادة بالكلمات « واللفظ لفظ الكلام قال الله جلّ وعَزّ ﴿ مَا يَلْفِظُ مِن قَولٍ إلاّ لَدَيْهِ رَقِيْبٌ عَتِيد ﴾ [ق ١٨/٥٠] » (٣) وبعد ذلك يورد عبارة كنائية هي (لفظ فلان عصبه) إذا مات . وعصبه : ريقه الذي عصب بفيه أي غري به فيبس . ويؤكد صنيع الأزهري ماذهب إليه صاحبا الصحاح والمقاييس ، فبحثنا عن المقابلة بين لفظة ومدلولها لا يجدي في صريح نصوصهم للمادة (لفظ) .

---

(١) الصحاح ، لأبي نصر إسماعيل بن حماد الجوهري . تحقيق أحمد عبد الغفور العطار القاهرة ١٩٥٦ ستة أجزاء ، دار الكتاب العربي .

(٢) مقاييس اللغة ، أحمد بن فارس . تحقيق عبد السلام هارون القاهرة ١٣٧١ هـ ستة أجزاء ، دار إحياء الكتب العربية .

(٣) تهذيب اللغة ، لأبي منصور محمد بن أحمد الهروي ، ج ٣ ، تحقيق عبد الحليم النجار ، ج ١٠ ، تحقيق علي حسن الهلالي ، ج ١٤ ، يعقوب عبد النبي ، القاهرة ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ١٩٦٤ .

ونتتبع مادة (المعنى ، وعنى) ، ويطالعنا الجوهري بدلالة عامة واوية اللام هي الإخراج والإظهار ، « عنوت الشيء : أخرجته وأظهرته » ، ثم يلتفت إلى التخصيص فيورد الفعل اليائي اللام ، « عنيت بالقول كذا أعني عناية ، أي أردت وقصدت » ، ثم يحدد الصيغة (معنى) أي الفحوى ، ومعنى الكلام ومعناته واحد ، تقول « عرفت ذلك في معنى كلامه ، وفي معناة كلامه أي فحواه » ، ونلحظ هنا أن ربط القصد والإرادة يتم في حالة الجمع (القول ، والكلام) ، أي مجمل ما يتحدث به المتكلم .

وابن فارس يسرد في أول المادة دلالتها سواء أكانت واوية الاعتلال أو يائيته فثم : « القصد للشيء بانكماش فيه ، وحرص عليه ، والثاني دال على خضوع وذل ، والثالث ظهور الشيء ، وبروزه ، ومنه عنيان الكتاب وعنوانه ، وتفسيره أنه البارز منه إذا ختم » ، ويردف بقوله : « ومن هذا الباب (معنى الشيء) » . ويذكر أن الخليل لم يزد على أن قال في هذا المجال : « معنى كل شيء محنته وحاله التي يصير إليها أمره » .

ويعود ابن فارس ليحدد ما يدل عليه قياس اللغة بشكل عام أولاً « فالمعنى هو القصد الذي يبرز ويظهر في الشيء إذا بحث عنه » ، ثم يشرحه بعبارة أخرى : يقال : هذا معنى الكلام ، ومعنى الشعر ، أي الذي يبرز من مكنون ماتضمنه اللفظ . وأخيراً يذكر أن عنوان ، وعنيان - كما يقول الخليل - مشتق من المعنى . وهذا الشرح اللغوي يظل غائماً فيما يتعلق بالمفردات ، فالحديث يدور حول (معنى الكلام) و (معنى الشعر) .

وأما الأزهري فيذكر (١) نقلاً عن الليث ، الذي يتصل بالخليل ، اشتقاق عنوان الكتاب من المعنى ، (٢) ثم يورد دلالة العناية في المادة (عنى) : عناني هذا الأمر يعنيني عناية فأنا معنيٌّ به ، وقد اعتنيت بأمره ، (٣) يقول (عن الليث) ومعنى كل شيء محنته ، وحاله التي يصير إليها أمره ، وبعدها يقول

الأزهري (٤) والمعنى والتفسير والتأويل واحد . وههنا نجد الإجمال السريع في العبارة الأخيرة الشارحة (المعنى) .

وإذا ماقلّبنا ماأورده هؤلاء المعجميون في المادة اللغوية (كلم) ، فإننا واجدون أقرب الصور إلى ذاك التقابل بين المفردة ومعناها أي ماتدل عليه هي أولاً ، والجوهري في الصحاح يميز بين ماتنطبق عليه الصيغتان : الكلام ، والكلم ، فالأولى اسم جنس يقع على القليل والكثير ، أما الأخرى فلاتكون أقل من ثلاث كلمات ، ويستشهد باستعمال سيبويه لها إذ قال في (الكتاب) : هذا باب علم ما الكلم من العربية ، لأنه أراد نفس ثلاثة أشياء : الاسم والفعل والحرف ، وترك ما يمكن أن يقع على الواحد والجماعة ، ونحن نفيد الإشارة إلى أفراد الكلمات ههنا ، أي الكلمة التي ينبيء الجوهري أنها تدل كذلك على (القصيدة بطولها) .

وابن فارس في المقاييس يعرض دلالتين (١) الجراح ، و (٢) الدلالة على نطق مفهم وهو الكلام ، فتقول « كلمته أكلمه تكليماً وهو كليمي » ، ثم إنه يفصّل لنا عدة مراتب لصيغة (كلمة) ، فهي « اللفظة الواحدة المفهمة ، ثم إنهم يسمون القصة كلمة ، والقصيدة بطولها كلمة » ، وأخيراً يحدثنا عن جمع الكلمة : كلمات ، وكلم ، قال تعالى : ﴿ يُحَرِّفُونَ الكَلِمَ عَن مَواضِعِهِ ﴾ [النساء ٤/٤٥] .

وينقل الأزهري عن الليث دلالة (كلم) على الجرح ، ثم يذكر (الكليم) الذي تكلمه ويكلمك ، ويورد صيغة (الكلام) مكتفياً بأنه (معروف) ومتبعاً إياه بالمفردة (كلمة) حجازية وتميمية ، وبعد هذا نرى عنده المراتب التي تحتلها (الكلمة) ، فهي تقع على الحرف الواحد من حروف الهجاء ، وتقع على لفظة واحدة مؤلفة من جماعة حروف لها معنى ، وتقع على قصيدة بكمالها ، وخطبة بأسرها . وبذا نجد تحديداً واضحاً للعلاقة بين مجموعة حروف تكوّن لفظة ، أي كلمة لها دلالة على معناها .

ولقد عرف القرن الرابع عـدداً من المصنفـات تشكل حلقـة وسطى في تتـابع الكتب التي انتهت إلى صورة المعاجم المتكاملة للمعاني (معاجم المعاني) ، وأبرزها (فقه اللغـة) للثعـالبي ، و (المخصَّص) لابن سيـده ، ونستحضر من هـذه الحلقـة مصنفين همـا (الألفـاظ الكتـابيّـة) للهمـذاني ، و (متخيّر الألفـاظ) لأحمـد بن فـارس ، وذلـك لنطلـع على تـداول مصطلحي اللفـظ والمعنى فيهما ، فنجمـع إلى المعجمات السابقـة الصحـاحِ ، مقـاييس اللغـة ، التهـذيب (وهي التي تنطلق من اللفظ لتظهر معناه) ضرباً مقابلاً لها يهتم بالمعنى أساساً ومنطلقاً .

أما (الألفاظ الكتـابيـة) فهو مصنف قسمـه صـاحبـه الهمـذاني إلى عـدد من الأبواب تمثل الأغراض الجزئيـة للحـديث والتعـامـل والتفكير ، التي تصب اللغـة فيها معبرة عنها ليتم التواصل الإنساني وممارسة الحيـاة العمليـة والفكريـة ، ولكن الهمذاني اتجه بعمله وجهة خاصة هي : خدمة الكتاب في دواوينهم ، وكذلـك من شابهم ، وقد اهتم بإيراد الجمل والعبـارات الـدائرة حول فكرة أو غرض (الشكر ، الإسراع ، النصر ، التبـاطـؤ ، الأمر والنهي ، وانتشـار الخبر) ، ولم يجعـل وكـده الألفاظ المفردة أسماءً أو صفاتٍ ولم يَرد منها إلاّ القليل النادر .

ونرى في (الألفـاظ الكتـابيـة) أن استعمال مصطلـح (معنى) إنما يراد بـه (الفكرة) أو (الغرض الجزئي) ، وهذا بيِّن في تسميـة الأبواب مثل : (بـاب في معنى لا يستطـاع إصـلاح الأمر)[1] ، وبـاب بمعنى سلـك طريقتـه ، وبـاب بمعنى أصل الشر[1] ، إضافة إلى ماقدم به الهمـذاني في صـدر مؤلفـه من أنـه قصـد إلى أن يستطيـع الكاتب أن يعبِّر عن (المعنى) ، أي الفكرة بـألفـاظ متعددة مرة بعـد مرة ، فإن كَتَب ـ الكاتب ـ عدة كتب في معنى تهنئة أو تعزية أو فتح أو وعـد أو

---

(١) الألفـاظ الكتـابيـة ، عبـد الرحمن بن عيسى الهمـذاني ، بيروت ١٩١١ نشرة لـويس شيخـو اليسوعي/مطبعة اليسوعيين ٤ ، ٥ ، ٨٠ .

وعيد أو احتجاج أو غير ذلك أمكنه تغيير ألفاظها مع اتفاق معانيها وأن يجعل مكان (أصلح الفاسد) : (لَمّ الشعث) ، ومكان (لَمّ الشعث) : (رتق الفتق) ، و (شعب الصدع) ، وهذا قياس فيما سواه من أبواب ألفاظ هذا الكتاب[1] .
وهذا النص يعطينا مفهوم الألفاظ عند المؤلف إذ تدل على عموم المفردات في العمل الكتابي ، وتظل في هذا الإطار عندما يسرد عدداً من الجمل يقابل فيها اللفظ المعنى مثل : اللفظ زينة المعنى والمعنى عماد اللفظ[2] .

ولا نلحظ تحليل اللفظة والكلمة والاهتمام بالحالة المفردة إلا في لمحة عابرة يذكر فيها اللفظة الغريبة ، والحرف الشاذ[3] .

أما (متخيَّر الألفاظ) لابن فارس ، فيفارق صنيع الهمذاني بأنه يورد في أبوابه : الألفاظ المفردة السهلة ، ويختمه بالألفاظ المركبة الجارية مجرى الأمثال والتشبيهات والمجازات والاستعارات[4] . ورغم أن الجهد سخِّر لخدمة الألفاظ فإننا لا نستخلص إلا أوصافاً عامةً لا تقف لتربط اللفظة ومدلولها ، ومن ثم تصلها بالمعنى (الفكرة) العام الذي تنضوي تحته هذه الألفاظ متجاوزة الفروق الدقيقة مادامت في حيز دلالي عريض . إن ابن فارس في هذا الكتاب يكتفي بمثل : « محاسن كلام العرب ، ومستعذب ألفاظها ، والكلام الوحشي ، والكلام الذي هو أحسن في السماع وألذ على الأفواه ، وأزين في الخطابة ، وأعذب في القريض ، وأدلّ على معرفة من يختاره[5] » ، وإذا ما بحثنا عن مصطلح « المعنى » فلا نعثر عليه حتى في رأس الأبواب ، فالمؤلف يذكر أن هذا « باب متخيّر ألفاظهم في

---

(١) الألفاظ الكتابية ، الهمذاني VII من المقدمة .
(٢) الألفاظ الكتابية ، الهمذاني IX من المقدمة .
(٣) الألفاظ الكتابية . الهمذاني VI من المقدمة .
(٤) متخير الألفاظ ، أحمد بن فارس ٤٣ ـ ٤٤ .
(٥) متخيّر الألفاظ ٤٣ .

وصف الكلام الحسن[1] » أو « هـذا بـاب الرجل المحمود الخلق[2] » ، إلا أن تكـون عبـارة في خضم من الشروح كأن يخبرنـا بـأن « العرب تقـول : عرفت في فحـوى كلامه وفي لحن كلامـه ... قـال قطرب يقـال : عرفتـه في معراض قولـه ، ومعنى كـلامـه[3] » ، ويعسر إذاً أن يلحـظ المصطلـح أو أن يثير الاهتمام لـدى مطـالعي متخير الألفاظ ، فينعكس في تطبيقات وأعمال أدبية .

٢/٤ المصطلحات في الكتب اللغوية الخالصة

ومن جوانب البحث التي شهـدهـا القرن الرابع تلـك الـدراسـات التي عكف عليها ابن جني ،وكان الدرس اللغوي ركنـاً أسـاسيـاً فيهـا ، وقـد يسـاعـد في رسم تصور أكثر دقـة لاستعمال المصطلحـات اطلاعنـا على مـؤشرات في « الخصـائص » للفظ والمعنى ، وعلى الرغم من تناولنا لأعمال ابن جني في الشروح الأدبيـة ، فـإننـا نفرد جهده اللغوي ، في قسم منه ، لأنه يمثل تداولاً خاصاً ألصق بـالمـادة اللغويـة وقوانينها ، وأقرب إليها مما يفتح باب المقارنة بالمجال النقدي ، حيث ينحو الناقـد نحواً يحاول فيه أن يعرض الجماليات بأكثر مما يعرض الخصـائص اللغويـة ، وههنـا مكمن الوعي الدلالي لدى الواحد من هؤلاء النقاد .

أ ـ إن ابن جني يقوم بتحليـل عـدد من المسـائـل الفرعيـة في « الخصـائص » معتمداً على العلاقة بين اللفظة المفردة ودلالتها (معناها) . ومن ذلك الباب الذي عنونه (بتصاقب الألفاظ لتصـاقب المعـاني) ، ويعرض فيـه نماذج من الكلمـات المتقاربة في عظم حروفها ، وذلك لتقارب مدلولاتها وهي على أضرب :

- اقتراب الأصلين الثلاثيين : كضياط وضيطار ، ولوقة وألوقة ، ورخو ورخود .

---

(١) متخيّر الألفاظ ٤٧ .

(٢) متخيّر الألفاظ ٧١ .

(٣) متخير الألفاظ ٥٣ .

• اقتراب الأصلين ثلاثياً أحدهما ورباعياً صاحبه ، أو رباعياً أحدهما وخماسياً صاحبه : كدمث ودمثر ، وسبط وسبطر ، ولؤلؤ ولآل ، والضبعطي والضبعطري ، وقد دردبت والشيخ دردبيس .

• ومنها التقديم والتأخير في تقليب الأصول : ك ل م (ك م ل ، ل ك م ، ل م ك ، م ل ك ، م ك ل[1]) .

وفي موضع آخر يوازن بين الاسم والمعنى ليخلص إلى أنهما كل واحد ، وماتفصيله هنا إلا طريقة شارحة لهذا التآلف ، فالاسم هو سبيل إلى المعنى الكامن وراء ، ويتطرق ابن جني في حديثه إلى فكرة قديمة هي : أن الاسم جزء حقيقي من المسمى ، وهي قولة إغريقية قديمة ترجع إلى ماقبل سقراط ، وقد يكون في بعض المذاهب الفلسفية الحديثة صدىً لها ؛ يقول ابن جني « لمْ تخاطب الملوك بأسمائها إعظاماً لها إذا كان الاسم دليل المعنى ، وجارياً في أكثر الاستعمال مجراه حتى دعا ذلك قوماً إلى أن زعموا : أن الاسم هو المسمى ، فلما أرادوا إعظام الملوك تجافوا وتجانفوا عن ابتذال أسمائهم التي هي شواهدهم وأدلة عليهم إلى الكناية بلفظ الغيبة (نسأله حرس اللهُ ملكه[2]) » .

وفي حديث لابن جني عن الترادف يشير إلى المعنى على أنه دلالة اللفظة أو الكلمة ، ويبدي تعليلاً رئيسياً هو أن مَردَّ هذا التعدد في الألفاظ الملتقية على مدلول واحد إنما هو تعدد القبائل « فإذا كثر على المعنى الواحد ألفاظ مختلفة فسمعت في لغة إنسان واحد ، فإن أحرى ذلك أن يكون أفاد أكثرها أو طرفاً منها من حيث كانت القبيلة الواحدة لا تتواطأ في المعنى الواحد على ذلك كله ، وكلما كثرت الألفاظ على المعنى الواحد كان ذلك أولى بأن تكون لغات لجماعات اجتمعت

---

(١) الخصائص لابن جني (١٤٥/٢ ـ ١٥٢) ، والخصائص (٤٩/١) .

(٢) الخصائص لابن جني (٢٤/٣) .

لإنسان واحد من هنـا ومن هنـا ، وتورد هنـا قصـة الرجلين اللـذين اختلفـا على تسميـة الطير الجـارح (الصقر) ، فـواحـد يقـول بهـذا اللفـظ والآخر ينطقـه (السقر) ، فاحتكما إلى ثالث فقال إنه لا يعرفه إلا أنه (الزقر)[1] » .

وفي موضع من (الخصائص) يقرر ابن جني قـاعـدة ، هي أن المفردات التي تسمع من عربي فصيح منفرداً بروايتـه تبلـغ مرتبـة المتـواتر مـادامت السليقـة والفصـاحـة غير مشكوك فيهما لـدى هـذا الراوي ، والطرف الـذي يخص موضوع الـدرس إنمـا هو الوقوف عنـد الألفـاظ المفردة وهـو يطلـق عليهـا (الحروف) ثم يجمعها في صيغة مغايرة (الكلم) ، وخلال ذلك يردف كلاً منها بمعناهـا الخـاص بها ، فعن الأصمعي أنه ذكر حروفاً من الغريب ، فقال : « لا أعلم أحداً أتى بهـا إلاّ ابن أحمر البـاهلي منهـا الجبر وهـو الملـك ، وإنمـا سمي ذلـك ـ أظن ـ لأنـه يجبر بجوده ، ومنها قوله كأس (رنوناة) أي دائمة ، ومنها المـأنوسـة وهي النـار والقول في هذا الكلم وجوب قبولها ، وذلك لما ثبتت به الشهادة من فصـاحـة ابن الأحمر . فإما أن يكون شيئاً أخذه عمن نطق بلغة قـديمـة لم يشـارك في سماع ذلـك منـه ، وإما أن يكون شيئاً قد ارتجله ابن الأحمر[2] » .

ب ـ وأما المنحى الثاني الـذي يظهر في ثنـايـا أبحـاث ابن جني اللغويـة فهو يمتزج بالأدب وأمثلته ، فالمصنف يبيّن المكانة العالية للمعاني لدى العرب ، ويحدد قيمة الألفاظ بـأنهـا أداة للوصـول إلى الغـايـة الأصليـة ، ونلحـظ هنـا القصـد إلى الأفكار والأغراض بمصطلح (المعاني) ، وكذلك نجد أن الإيماء إلى (اللفظ) إنما هو عـام لا تستوقفـه المفردة ، بل يهدف ابن جني إلى تقرير مسألة اللفظ بمجملها إلى الـدرجـة التي يحتمل إيراد التركيب فيها . ونتابع أولاً المسألة بصورة عامـة ، ثم نقف وقفـة سريعـة عنـد مثـال تعـاقب عليـه النقاد يرى فيه ابن جني رأياً مخالفاً لابن قتيبة .

---

(١) الخصائص (٣٧٣/١ ـ ٣٧٤) .

(٢) الخصائص (٢١/٢ ـ ٢٥) .

« فإذا رأيت العرب قد أصلحوا ألفاظها وحسنوها ، فلا تريدن أن العناية إذ ذاك إنما هي بالألفاظ ، بل هي عندنا خدمة للمعاني ،ونظير ذلك إصلاح الوعاء وتحصينه . وإنما المبغي بذلك منه الاحتياط للموعى عليه وجواره بما يعطر بشره ولا يعر جوهره . كما قد نجد من المعاني الفاخرة السامية ما يهجنه ويغض منه كدرة لفظه وسوء العبارة عنه »[1] . ويلتفت المصنف إلى بعض المتحاورين الذين يرون في قول الشاعر :

ولّما قضينا من منىً كلّ حاجة ومسّح بالأركان من هو ماسحُ
أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا وسالت بأعناق المطيّ الأباطحُ

ألفاظاً مؤنقة قد صقلت وزخرفت ، وبالغ أصحابها في العناية بها إلا أنها لاتتأدى إلى المعاني الشريفة ، بل إن المرء لا يجد فيها قصداً ، وكأنما يشير ابن جني إلى ابن قتيبة وأضرابه ، ويردّ على هؤلاء بأن العيب والخلل لا يكمنان في الأبيات وخلوها (هنا بيتان من ثلاثة مشهورة) من المضمون والأفكار ولكنه راجع إلى جفاء طبع الناظر ، وخفاء غرض الناطق ، أي يحتاج مثل هذا العمل الأدبي وهذه الطريقة في عرض الأحاسيس لدى الشاعر إلى التفهم وتقصي أسراره[2] .

ج ـ والمنحى الثالث الذي كان لابن جني في استخدام مصطلح (المعنى) هو الذي جاء في باب عرض لأسماء العلم ، وفيه رأى المصنف أنها تقع على الماديات في معظم الحالات ، والقليل منها هو الذي ترتبط فيه الأعلام بالمجردات الذهنية ، وههنا يورد مصطلح (المعاني) قاصداً بعدها الصرفي والنحوي ، وذلك أن المشتغل بهذين العلمين يحتاج إلى التفرقة بين المادي والمجرد في باب الاشتقاق

(١) الخصائص (٢١٧/١ ـ ٢١٨) .
(٢) الخصائص (٢١٧/١ ـ ٢١٨) .

وبعض الأبواب الأخرى ، يقول ابن جني « إن الأعلام أكثر وقوعها في كلامهم إنما هو على الأعيان دون المعاني ، والأعيان هي الأشخاص نحو زيد وأبي محمد ، والوجيه ، ولاحق ، وعمان ونجران ، والثريا ، وكما جاءت الأعلام في الأعيان قد جاءت في المعاني نحو قوله :

أقول لما جاءني فخره سبحان مِنْ علقمة الفاخر

فـ (سبحان) اسم علم لمعنى(البراءة والتنزيه) بمنزلة عثمان وحمران[1] » .

٣/٤ مصطلحات المشكلة في الكتب المنطقية

ونقف عند الفارابي ونتفحص تناوله لمصطلحي (اللفظ والمعنى) في كتبه المنطقية أو ماكان متصلاً منها بسبب ، فالمنطق متداخل في علوم العربية ، وأوجه النشاط الثقافي بعامة في القرن الرابع وماسبقه ، وكنا أشرنا إلى ذلك قَبْلُ ، وإن نظرة في استعمال واحد من أئمة الفكر لبعض المصطلحات المشتركة بين ضروب ثقافية ، تفيد في متابعة التأثير المتبادل ومعرفة درجات الوضوح في كل طرف تبعاً لمنطلق المصطلح وللاتساع الذي يحدث في فن أو علم دون سائر العلوم المتعاصرة .

١) ولعل كتاب (العبارة) أكثر ملاءمة لدراسة العناصر اللغوية الأساسية ، ونحن نلحظ تحديد الفارابي للدلالة الإفرادية للفظ سواء كان واحداً أو مركباً ، وكذلك ترتيب أصناف الكلمات كما هي عليه في النحو « فالألفاظ الدالة منها مفردة تدل على معان مفردة ، ومنها مركبة تدل أيضاً على معان مفردة .. والألفاظ الدالة على المعاني المفردة ثلاثة أجناس : اسم وكلمة (فعل) ، وأداة (حرف) ، وهذه الأجناس الثلاثة تشترك في أن كل واحد منها دال على معنى

---

(١) الخصائص لابن جني (١٩٧/٢) .

مفرد[1] » . ويخصص الفارابي قسماً لعلوم اللسان في مصنفه (إحصاء العلوم) وهي سبعة عند كل أمة ، « علم الألفاظ المفردة ، وعلم الألفاظ المركبة ، وعلم قوانين الألفاظ عندما تكون مفردة ، وقوانين الألفاظ عندما تركب ،وقوانين تصحيح الكتابة ،وقوانين تصحيح القراءة ، وقوانين الأشعار » ، ويعطي تصوراً لدراسة الألفاظ هو أقرب ما يكون إلى المعجمية وما يلحق بها من دراسات تفصيلية ، فهذا العلم يُعنى بما تدل عليه « لفظة من تلك الألفاظ المفردة ، الدالة على أجناس الأشياء وأنواعها وحفظها وروايتها كلها ، الخاص بذلك اللسان والدخيل فيه ، والغريب عنه ، والمشهور عند جميعهم[2] » ، ويكرر هذا العرض موجزاً في « مقالة في قوانين صناعة الشعراء[3] »

٢) والدرجة الثانية هي التي يشير الفارابي إلى المعنى فيها على أنه مؤلف من عناصر الجملة النحوية ، أو ما هو أكثر من الجملة مرتبطاً بعضه ببعضه الآخر ، فإثر النص على الألفاظ المركبة الدالة على معان مركبة يذكر المعلم الثاني « القول وهو لفظ مركب دال على جملة معنى ، وجزؤه دال بذاته لا بالعرض على جزء ذلك المعنى[4] » . ويشرح الاحتراز الأخير ؛ فـ (عبد الملك) اسم علم مركب لا يدل الجزء منه على جزء مسماه ، على العكس من العبارة المركبة من أجزاء (أسماء أو أفعال) كل منها مفهومة دلالته على مسمى أو حدث .

وتتحول هذه الجمل التي يعرض لها الفارابي إلى أنماط من الأقيسة في الفن الشعري ، وههنا تتعادل القضية المنطقية والجملة النحوية ، ولقد دفع الفهم

---

(١) العبارة (كتاب في المنطق) لأبي نصر الفارابي ، تحقيق محمد سليم سالم ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٧٦ م .

(٢) إحصاء العلوم ، الفارابي ١٥٩ .

(٣) رسالة في قوانين صناعة الشعراء ١٥٠ ضمن كتاب فن الشعر لأرسطوطاليس ، تحقيق بدوي .

(٤) الفارابي ، العبارة ١٦ .

المغلوط للفن الشعري والخطابة إلى تحليل الصناعة الشعرية بصورة منطقية ، ذلك أن السريان القدامى والمسلمين حملوا هذا التفسير عن الشراح المتأخرين الذين جمعوا هذين الفنين ضمن أقسام المنطق ، وبذا لم يدرس الكلام على أنه لغة تعبر عن وجدان وانفعال وما يتبعه من التمعن في التفصيلات الفنية ، ولكن أخذت العبارات بحسب قرب مادتها من اليقين (والصدق) أو بعدها عنه ، فعن أعلى الدرجات يقيناً يؤخذ البرهان ، ثم نصل في نهاية التقسيم إلى القياس الشعري المركب من قضايا مكونة من أوهام الشعراء ، بل أكاذيبهم في بعض الأحيان ، وهذه أبعد المراتب (في ميزان المنطق) عن الصواب ، وعلى الرغم من المجال الفني الذي يدرس (قوانين صناعة الشعراء) ، فنحن نجد تناول المعنى لا يوظف خدمة للمستوى اللغوي والجمالي ، وإنما خدمة للمنهج العقلي فالأقاويل منها ما هي جازمة ، ومنها ما هي صادقة ، ومنها ما هي كاذبة ، والكاذبة منها ما يوقع في أذهان السامعين الشيء المعبر عنه بدل القول ، ومنها ما يوقع المحاكي للشيء ، وهذه هي الأقاويل الشعرية[1] . والفارابي في هذه الزاوية من الدرس يستخدم مصطلحاً منطقياً خالصاً (الأقاويل) بعد أن كنا وقفنا عند مرحلة تداخلت فيها هيئة الجملة النحوية مع أركان العبارة المنطقية التي هي بالتحديد (القضية) ، ولذا يلحظ أن نقطة الالتقاء هذه يمكن تصور تفرعها إلى قسم آخر من التداول تبرز فيه المصطلحات الأخرى : الألفاظ والمعاني . فالمصنف المنطقي يوجز مسألة المحاكاة في الشعر فيذكر أن ثمة مضموناً مؤدى بألفاظ على هيئة خاصة ، ويقابل بين الطرفين مقابلة عامة تختلف عن تلك التي سبق لنا التعرف عليها قبل ، إذ كانت اللفظة اسماً أو فعلاً أو حرفاً في جملة ، أو هي لفظة في نسق معجمي « فإذن إنما يصير (الشعر) أكمل وأفضل بألفاظ ما محدودة إما غريبة ، وإما مشهورة ، وبأن تكون المعاني المفهومة عن ألفاظها أموراً تحاكي الأمور التي

---

(١) رسالة في قوانين صناعة الشعراء . الفارابي ١٥٠ .

منها القول ، وأن تكون بإيقاع ، وأن تكون مقسومة الأجزاء[1] » .

وفي المضمار الشعري يعبر الفارابي كذلك عن الأغراض الشعرية بأنها (المعاني) ، فهو يظهر أن اليونانيين هم الذين أفردوا لكل غرض وزناً خاصاً ، « فجل الشعراء في الأمم الماضية والحاضرة الذين بلغنا أخبارهم ، خلطوا أوزان أشعارهم بأحوالها ولم يرتبوا لكل نوع من أنواع المعاني الشعرية وزناً معلوماً إلا اليونانيون فقط : فإنهم جعلوا لكل نوع من أنواع الشعر نوعاً من أنواع الوزن ، مثل أن أوزان المدائح غير أوزان الأهاجي ، وأوزان الأهاجي غير أوزان المضحكات وكذلك سائرها[2] » .

٥ ـ مشكلة اللفظ والمعنى لدى نقاد الشعر

لقد بيّنا في الفقرات السابقة من هذا الفصل المواضع التي تتضح فيها الدلالة الفردية للفظ مميزة من (القصد) المجمل لعبارة مؤلفة من عدد من الكلمات ، ومن الغرض الجزئي لمجموعة أبيات ، وهذا الصنيع هو ما نهدف إليه من تفصيلنا لمشكلة اللفظ والمعنى ههنا لدى نقاد القرن الرابع ، فنتبين إدراكهم للحدود المعجمية أو ما فوقها من ظلال المعنى في مصطلح المحدثين ، أو أحوال تطورية للدلالة في اللفظ المفرد ، ونضيف إلى هذه الصورة من الاستخدام للمصطلح الآفاق التي تصل إليها تفريعات الاصطلاحات الدائرة في فلك اللفظ والمعنى في نقد الشعر .

١/٥ وقد أولى الآمدي دراسة الألفاظ المفردة وتحليلها عنايته ، وخصص لها جهداً بارزاً بالقياس إلى النقاد الآخرين ، وكان الدافع إلى هذا الاهتمام هو تتبع أخطاء أبي تمام خاصة ، وماقد يلحظ من حالات مشابهة عند الشعراء قديمهم ومحدثهم ، وينفرد الآمدي في هذا المجال بأمر يؤدي النظر فيه إلى استجلاء قضايا

---

(١) جوامع الشعر . الفارابي ١٧١ .

(٢) رسالة في قوانين صناعة الشعراء . الفارابي ١٥٢ .

دلالية ذات أهمية كبيرة في الموروث النقدي ، فهو يقوم بعمل تطبيقي يدأب فيه على تفصيل جوانب دلالة اللفظة ويبحث في الوضع الصحيح لها ، ويقارن بينها وبين مرادفات لها ، أو يقرن حكمه بالسياق ومدى الملاءمة بين هذه اللفظة بحدودها الدلالية الفردية والسياق الذي يتشكل من مفردات أخرى تضم إليها في قصد معين ، ولكن الآمدي لا يحرص على ضبط المصطلح في كل مرة يعرض لهذا الضرب من التحليل ، ونحن نقف على أمثلة يستعمل فيها اصطلاحات اللفظ والمعنى في حدود الدلالة الفردية ، إلا أن عدداً كبيراً من الشواهد يفتقد النص على الاصطلاح ، وقد رأيت أن أدرج المجموعة كلها في إطار واحد مادامت الخصائص المميزة لها ، عن طرق تناول الدلالة ، موجودة ضمنها بقدر متقارب . ويثير هذا النهج لدى الآمدي قضية وعي النقاد بمسائل الدلالة وتحليلها من غير استخدام كلمات اصطلاحية ، وسنعرض لنماذج مما جاء لديهم بعد أن نمر بأمثلة من الموازنة .

أ) ومن المواضع التي صرح فيها الآمدي بمصطلحي اللفظ والمعنى قاصداً الدلالة المفردة تعليقه على بيت أبي تمام :

هنَّ عَوادي يوسُفٍ وصواحِبُهْ ... فعَزماً فَقِدْماً أدرَكَ النّأيَ طالِبُهْ

فقول الشاعر « عوادي يوسف » معناها : صوارف . يقال : عداني عنك كذا أي صرفني ، أراد هُنَّ صوارف يوسف وصواحبه ، وصوارف ههنا : لفظة ليست قائمة بنفسها ، لأنه يحتاج أن يعلم صوارفه عن ماذا ، واللفظة القائمة بنفسها أن لو قال : « هواتن يوسف » أو « شواعف يوسف » أو نحو ذلك ، وكأنه أراد صوارف يوسف عن تقاه ، أو عن هواه ، أو عن صحيح عزمه حتى هم بالمعصية ،وإنما يتم معنى الكلمة بمثل هذه الألفاظ أنْ لو وصلها بها[1] » . وفضلاً عن التنبيه إلى المصطلح يوضح الناقد في هذا المثال أن دلالة اللفظة في بعض الأحيان لا تكون

---

(١) الموازنة ، الآمدي ١٧ ـ ١٨ .

وافية مالم تخصص ، فهي تصلح لأكثر مِنْ وَجْهٍ دلالي بحسب الموقف الـذي يجري فيه الحديث كما في (صوارف) ، بينما نجد ألفاظاً أخرى تفي بـالمراد بنفسهـا ، أي أن الظلال ليست بـالتعـدد والتـداخـل بحيث تلغـز أو تضفي على اللفظـة تعتيمـاً لا يبين معه المراد (هواتن ، شواعف) .

وتتضح مصطلحات اللفظ والمعنى عندما يناقش الآمدي استخدامـاً لأبي تمـام يرى أنـه أخطـأ فيـه ، وتعتمـد المنـاقشـة على حـدود دلالـة اللفظـة المحـوريـة في تركيب ؛ ذلك أن بيت الشاعر :

مـا لامرىء خـاضَ في بحرِ الهـوى عُمرٌ ... إلاّ وللبينِ فيـــه والسَّهْـلُ والجَلـــدُ

يشتمل على تركيب « مـا لامرىء .. عمر إلا » ، واللفظـة المستعملـة في مثل هذا المقام ينبغي أن تدل على ماهو أكثر من واحـد ،وهو خطـأ « إن كان الشـاعر أراد بالعمر مدة الحياة ، لأنه اسم واحد للمدة بـأسرهـا فهو لا يبعّض ، فيقـال لكل جزء منه عمر ، كما في التعبير الصحيح : ماله ضلع إلا مكسور » فلفظـة ضلع تـدل على متعدد .

وثمة احتمال يسوغ فيه عمل أبي تمام ، وهو أن يكون « أراد بالعمر منزله الذي يتـوطنـه ويعمره » ، وينكر الآمـدي على الشـاعر إعطـاء هـذه الصيغـة (عمر) مـدلول(دلالـة) المنزل ؛ فـالصيغـة المقبـولـة والمشهـورة هي (معمر) ، ويقـول « وماعلمت أحداً سمى المنزل عمراً إلا أن يكون دير النصارى فـإنهم يسمونـه عمراً ، ومـا كان يمنعـه أن يقول (وطن) مكان (عمر) لأن لفظهما (الوزن) ومعنـاهمـا واحد ، وقد يكون للإنسان عدة أوطان يوطنها[1] » .

وهكـذا يتخـذ النـاقـد تحليل دلالـة كل لفظـة أداة لتصحيح التركيب ولفهم القصد بكلام أبي تمام .

ونعرض مثـالاً لـدرس الألفـاظ تعـالـج فيـه الصيغـة بـأكثر ممـا يلتفت إلى

---

(١) الموازنة ، الآمدي ٢٢٦ ، وينظر أيضاً الموازنة (١٦٧/١) .

السياق ، فالإشكال متمثل في مدلول اللفظ أساساً ، فقد درج العامة لعهد أبي تمام على استعمال (الصلف) بمعنى التيه والكبر ، مما جعل الشاعر يقع في الخطأ عندما جارى العامة إذ يقول :

مـــامقرب يختـــال في أشطـــانـــه   مـــلآن من صلفٍ بـــه وتلهـــوق

فالعرب لا تستعمل (الصلف) على هذا المعنى ، بل هنـاك عـدد من المواقف لا يتفق أي منها مع هذه الدلالة (١) فيقال قد صلفت المرأة عند زوجها ، إذا لم تحظ عنده ، وصلف الرجل كذلك إذا كانت زوجته تكرهه ، (٢) والصليف في الصيغة الاسمية : الذي لا خير فيه ، (٣) وثمة مثل يضرب يقول (رب صلف تحت الراعدة) يعنون به الرعد بغير مطر[1] . ويرى الآمدي أن الإتيان بهذه الكلمة في بيت الشاعر يغدو (بعد معرفة بعدها الدلالي المأثور عن العرب) ذماً للفرس من حيث أريد مدحه .

ويبدو لي أن الناقد قد ذهب بعيداً في تشدده ومنعه لقبول التطور الذي يحتمل وقوعه في اللفظة (بل المادة كلها) ، خاصة وأن عصر أبي تمام كان لا يزال قريباً من عصور الاحتجاج والاستشهاد ،وبنظرة مدققة يُلاحظ الرابطُ بين مدلول (الكبر والتيه) في (الصلف) والمترتب على تعدُّد الصور ، التي يظهر فيها شخص كارهاً الآخرين(الزوج والزوجة) سواء أكانت الأسباب مقنعة الناس أو كانت واهية .

وتتّابع عملية التحليل في إطار السياق الذي يتطلب لفظة ملائمة له ، ولا يمكن لنا أن نفترض مدلولاً معيناً للفظ لا يتأثر عند الاستعمال بما حوله من كلمات وهيئة تركيبية ، فيقف الآمدي أولاً[2] عند بيت لأبي تمام يذكر فيه صنيعةً لممدوحه :

وليسَتْ بـــالعَـــوانِ العَنسِ عِنـــدي   ولا هيَ منـــكَ بـــالبِكْرِ الكَعـــابِ !

---

(١) الموازنة (٢٤٦/١ ـ ٢٤٧) .

(٢) الموازنة (١٧٠/١ ـ ١٧٤) .

ويعيب الشاعر في استخدامه صيغة (عنس) في البيت ؛ لأنها لاتدخل في الأصل إلا على (الناقة التي انتهت في شدتها وقوتها) ، وهذا المعنى لا يتوافق مع كلمات هي أوصاف مستعارة من أوصاف المرأة ، فالعوان والبكر - وإن كان قد وصف بهما غير المرأة من البهائم وغير البهائم - فإن البكر (في البيت) لاتكون مستقاة إلا من أوصاف النساء من أجل ماقترن بها من لفظ الكعاب ، التي هي مخصوصة بوصف (الفتاة) التي قد كعب ثديها ، فلا تكون العوان في صدر البيت من أوصاف النوق والبكر في آخره من أوصاف النساء ، وبذا يظهر لنا أن أبا تمام أراد بالعنس دلالة صيغة أخرى قريبة هي (العانس) ، وهي التي يحبسها أهلها عَن التزويج حتى جاوزت حدَّ الفتاة ، ولكن الشعر تحكم بصاحبه فأرسلها إرسالاً دون مراجعة أو تصحيح .

ويدفع الناقد محاولات التأويل لمعنى كلّ من (العوان) موصوفة بها الناقة ، والعنس محدداً فكرة السياق ، فإنه يستدل ببعض الألفاظ على بعض ، كما يستدل على المعنى بما يقترن ويتصل به فيكون في ذلك بيان وإيضاح[1] .

ويعترض الآمدي على اشتمال بيت يمدح فيه أبو تمام الخليفة الواثق بالله ، على لفظة غير مناسبة للسياق إذ يقول :

فيهم سكينةُ ربّهم وكتابهُ وإمامَتاهُ واسمهُ المَخزونُ

فالسكينة من السكون وهو الوقار ، وهذه لفظة لاتلائم البيت كل الملاءمة ، لأنه لا وجه لأن يقول : فيهم وقار ربهم ، لاسيا وقد قال : كتابه وإمامتاه (النبوة والخلافة) واسمه المخزون (يعني اسم الله الأعظم الذي إذا دعي أجاب) ، فالوقار ليس من هذه الأشياء في شيء[2] ، ولكننا لانستطيع قبول مارآه الناقد

(١) الموازنة (١٧١/١) .

(٢) الموازنة (٣٤٦/٢) .

من تعارض بين دلالة (سكينة) ومجمل كلمات البيت ، فأبو تمام إذ يمدح الخليفة العباسي ، يريد أن يستجمع له ما يدعم وظيفته الدينية فيذكر القرآن والنبوة ، ويوحي بأن هذا المتسنم سدة الحكم يتحلّى بصفات الحلم المستمد من عمق إيمانه ، فيضفي الهدوء ، ويمنح الطمأنينة للناس ، هذا إذا حملنا (السكينة) على الاطمئنان كما في الآية ﴿ هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم ﴾ [الفتح ٤٨/٤] .

وفي سياق آخر يجد الآمدي أن الدلالة رغم تقاربها واشتراكها بين لفظين لا تصح إلا بواحد منهما ، فأبو تمام يقول :

كانت لنا صنماً نحنو عليه ولم　　نسجد كما سجد الإفشين للصنم

فقوله (كانت لنا صنماً) أراد أن يقول : نعكف عليه « فلم يستقم له ، فقال : (نحنو عليه) ، وهي لفظة غير مستعملة في هذا الموضع ، وإن كان لها اقتراب من (نعكف) ومشاركة[1] » ، فالموقف يتطلب لفظاً دقيقاً في أدائه لدلالة ترتبط بسائر أطراف السياق .

ويناقش الآمدي مسألة أداء اللفظة لدلالتها العامة ، وللدلالات الفرعية التي تجنح إليها في حالات خاصة ، فلا يصح تداول اللفظ وهو في صورته العامة لنشير به إلى حالة معينة ، فقول أبي تمام[2] :

لو كان في عاجلٍ من آجلٍ بدلٌ　　لكانَ في وعْدِهِ من رفدِهِ بَدلُ

يثير عدداً من التأويلات لفكرة البيت بسبب إيراده لفظي (عاجل ، وآجل) بصورة مطلقة دون إضافة إلى اسم آخر يحدّد المقصود لتقوم المفاضلة بين

---

(١) الموازنة (١/٥٢) .

(٢) الموازنة (١/١٩٣ ـ ١٩٤) .

مرتبتين من التعجيل والتأجيل ، « وكان وجه الكلام الذي يصح به المعنى ويستقيم أن يقول : لو كان في عاجل قول بدل من آجل فعل لكان في وعده من رفده بدل » ، ونستطيع أن نرى في كلام الآمدي الذي يوجهه إلى أنصار أبي تمام خلافاً في تصور لقدرة السياق على تحديد دلالة اللفظين ؛ فالناقد يعتقد أن الاضافة تفيد المطلوب ، وثمة آخرون يجدون في الشطر الثاني من البيت قرينة قد تغني عن التفصيل ، الذي يبدو لازماً إذا ماكان النص بلا قرينة كالتي يشتمل عليها بيت الشاعر ، ويريد الآمدي أن يؤكد ما يذهب إليه ، فيذكر أن الأصمعي قد تنبه إلى هذه المسألة عندما أنكر على ذي الرمة استخدامه لفظة (حلقوم) بصورة مطلقة دون تحديد إضافتها إلى مايبين الغرض منها في الصورة التي يقول فيها الشاعر :

كأنّه في نياطِ القَوس حُلقومُ

وكان يجب أن يقول : حلقوم طائر ، أو حلقوم قطاة ، ونحوهما مما يشبه الوتر في الدقة وإلا فقد يكون الحلقوم حلقوم فيل ، أو حلقوم بعير ، ويحرص الآمدي على القاعدة العامة في هذا المجال ، فيعقب على حكم الأصمعي بأنه (إنكارٌ صحيح) على الرغم من أن حالة ذي الرمة بالقياس إلى أبي تمام أخفّ وطأة لتقدمه ، ولأن العرب لاتشبه الوتر إلا بحلقوم طائر كقول الراجز :

/ لأمٍ كحلقوم الحباري /

وقول آخر : / لأمٍ ممرّ مثل حلقومِ النَغَر /

وقال آخر : / لأمٍ كحلقومِ القطاةِ يعرف /[1]

ومن قبيل الموازنة بين الدلالة العامة ، والدلالة الخاصة في نص شعري تعليق الآمدي على لفظة (عكاظ) في بيت أبي تمام :

قدْ عَهدنا الرُّسومَ وهيَ عُكَاظٌ للصِّبا تزدَهيكَ حُسناً وطِيبا

(١) الموازنة (١/١٩٥ ـ ١٩٦) .

إذ هو يقترح استبدالها بلفظة أخرى تحمل الدلالة المشتركة إلا أنها تحقق المراد على نحو أكثر شمولاً من جهة ، وأقرب إلى المألوف من جهة أخرى ، وهي (السوق) مادام الشاعر يقصد (قد عهدنا الرسوم وهي معدن للصبا ، أو مألف أو وطن فقال (عكاظ) أي سوق للصبا يجلب إليها ، ولأنها من أعظم الأسواق التي تجتمع إليها العرب) .

ويتساءل الناقد عن سبب اختيار أبي تمام للفظة معينة ، فالسوق قد تكون عظيمة آهلة وعكاظ أيضاً سوق ، فما وجه التخصيص في موضع العموم والعموم أجود وأليق[1] ؟ وتتحكم في هذه المسألة أفكار الناقد التي تطغى على تذوقه ، وتجعل من التحليل الدلالي أداة قاصرة عن تبين ما تحمله اللفظة الخاصة (الجزئية) من إيماءات وظلال تزيد على مجرد اجتماع الناس وكثرتهم للبيع والشراء ، إن عكاظ لا تعني الشاعر في بيعها ولا في بضائعها ، وإنما يريد الإشارة إلى الموسم وإلى تلك الجماعات من الفتيان والصبايا في أطراف المحفل الكبير وهي تمرح ، وتنمو أواصر وصلات تلونها الأحلام والأماني بسعادة بريئة ، وحب يدرج في مرابعه العشاق والمحبُّون . إن اللفظة تحمل عند اختيارها كل ما يمكن أن تزودها به التجارب الشخصية أو تخيلها كما في حالة الشعراء المحدثين العباسيين أحياناً .

ويسهم القاضي الجرجاني في واحدة من مناقشاته في مسألة تحليل دلالة اللفظة المفردة وذلك عندما يعرض لبيت المتنبي :

حَلَّت محلّ البكر من معطىً وقد زُفَّت من المعطي زفاف الأيِّم

فالشاعر قابل بين البكر ، والأيم بما ينبىء بالتضاد ، إلا أن لفظة الأيم عامة بحيث تتضمن البكر فهي (التي لا زوج لها) ، والناقد يذكر رأي أهل اللغة في

---

(١) الموازنة (١/٥٠٩) .

هذه الكلمة لنقف على صحة كلام الشاعر واستوائه ، وهم يذهبون إلى أن ثمة دلالتين تختلفان اتساعاً وضيقاً : الأولى (أن المرأة قد تكون أيماً إذا لم يكن لها زوج ، وإن لم تكن نكحت قط) ، وبهذا لا يستقيم التضاد بين الأيم والفتاة البكر ، أما الثانية من الدلالتين فهي « أن المرأة لا تكون أيماً إلا وقد نكحت ، ثم خلت بموت أو طلاق بكراً كانت أو غير بكر بنى عليها الزوج ، أو لم يبن . ويقال : تأيَّمت المرأة إذا لم تنكح بعد موت زوجها[1] » وعلى هذا المعنى يحمل بيت المتنبي .

ب) ونلحظ كثرة تداول النقاد لمصطلحات (الألفاظ ، والمعاني) في المجال العام للدلالة أي بعيداً عن الدلالة الفردية ، وهذا يجعلنا بحاجة إلى النص على الأعمال التي تبرز فيها العناية بالمفردة الواحدة في إطار تحليل النصوص وشرحها ، وفي المناقشات النظرية أو ما يقرب منها (١) فهناك ضروب من التحليلات اندرجت في مفهوم الصواب والخطأ كان الناقد فيها يشرح دلالة لفظة ، أو أكثر من لفظة واحدة ، ويبين كيف حاد الشاعر عن الدقة في استخدامها ، أو يبين هذا الناقد حكمه على أساس من معرفة مجال اللفظة الدلالي ، وإننا سنقف عند هذه الظاهرة في فصل آخر من دراستنا ، ونورد أمثلة عليها تظهرنا على مشاركة عدد من أصحاب التآليف النقدية في تتبع ألفاظ يظن أنها من أخطاء الشاعر أو مشكلاته التي تسبب انحرافاً في فهم الغرض ، أو غموضاً يضطرب معه الكلام ، مما يحوج إلى تلك المناقشات والمحاورات الدلالية التي لم يحرص هؤلاء النقاد على

---

(١) الوساطة ـ القاضي الجرجاني ٧٩ ـ ٨٠ ، وينظر في ٣٢ : جآذر جاسم ووحش وجرة .

● وينظر في مسألة تحليل الدلالة الفردية : الموازنة (١/١٤٣ ـ ١٤٧) ، ١٥٨ ، ١٦٦ ـ ١٦٧ ، ١٦٩ ، ١٧٥ ـ ١٧٧ ، ١٨١ ـ ١٨٢ ، ٢٣٨ ـ ٢٣٩ ، ٣٧٦ ، ٣٩٥ ، ٤٩٤ ، ٥٦٦ ، ٥٣٤ ، ٥٣٤ ـ ٥٣٥ . والموازنة (٢/٢١) ، ٥٤ ـ ٥٥ ، ٢١٤ ، ٢٤٦ ، ٣٥٧ . ويستخدم الأصفهاني صاحب الواضح في مشكلات المتنبي مصطلح المعنى للدلالة الفردية ٦٥ ، حول لفظ (القيام) .

تصنيفها بالمصطلح المميز : اللفظ والمعنى . (٢) وهنـاك نمـط درس المفردات من حيث التطور الذي طرأ عليهـا ، والأحوال التي عـاشتهـا وبيـان الفروق بين هـذا الوضع الأخير الذي يستعمل فيه الشاعر الكلمة إذ ينشيء قصيدتـه ، وذاك الأصل الذي كانت عليه من قبل ، وفي مثال هـذا النمـط من التحليل الـدلالي يقـدم لنـا الناقد حلقات من الدلالات للفظـة فيما بينهـا في الجوانب إذا مـا فسرت على النحو المنطقي ، اتضح لنا أن كل واحدة من الدلالات أي الحدود يزاد فيها فتغـدو أكثر تخصيصـاً أو ينقص من أطرافهـا فتصبح أكثر عمـومـاً ، وقـد يكـون التبـديـل في وحدات التعريف أو الحدّ فتنتقل اللفظـة من مجـال إلى آخر ، وهكـذا نجـد اهتمام النقـاد وأخص هنـا الشراح ينحـو منحى دلاليـاً ويتنـاول الـدلالـة المفردة بشكل واضح من غير العناية بترتيب المواد ضمن اصطلاحات خاصة للفظ والمعنى .

ج) ولقد كان للنقاد مذهب آخر يغاير ماعرفناه في تحليلهم مـدلول الكلمـة المفردة ، ذلك ما يمكن إدراجه تحت عنوان (صفات الألفـاظ) ، وفي هـذا البـاب من الـدرس يـأتلف جـانبـان من العمـل النقـدي خـلال مصطلحـات (اللفـظ والألفاظ) ، فليس المقصود ههنا إبراز تفصيلات الدلالة لكل لفظـة ومن ثم تقصّي استعمالاتها ومجالاتها ، والقيام بمقارنات وتقويمات لها ، بل يتجه الناقد إلى إصدار أحكام جمالية تستحسن اللفظ أو تستهجنـه في سلسلـة من النعوت بحسب المقـام ، ومـا ينـاسبـه من ضروب التعبير ، أي أن القضيـة ذوقيـة إمـا محـدودة بشخصيـة الناقـد ، ومـا يـذهب إليـه ويتخيَّره من الخصـائص الفنيـة ، أو ترجع إلى الـذوق العربي القديم المتوارث من خلال أحكام وآراء مبثوثـة في المصنفـات ومحفوظـة عن الرواة والأدباء وعلماء العربية ، ويتجلى الجانب الدلالي لـ (صفات الألفاظ) فيما تشف عنـه من سمات تتعلق بـأصـوات اللفظـة وتشكيلهـا الصرفي وحـدة مميَّـزة في الكلام ، فالعـذوبـة والحلاوة والسهولـة إنمـا تكون في الحرف وائتلافـه مع حروف متناسبة فيما بينها ، وكذلك نلحظ في النعوت في اللفظة المنتقاة من بين مقاربـات

لها في الدلالة ، فهي مفضلة لدى الشاعر ومستحسنة من القراء والنقاد لدقة أدائها المدلول ، والجمال شكلي فيها ، وعندما نقرر أن عملاً كهذا يشمله مفهوم (الدلالة) فإننا نستند إلى أن مدلول اللفظة يعد محصلة مجموعة من العوامل منها الإيقاع الصوتي وإيحاؤه ، ومن ثم مدى قدرته على الانتظام في العبارة الواحدة وفي السياق اللفظي والغرض المعبر عنه ، وندرك كذلك أننا أمام أحكام عامة غير تفصيلية تتناول العلاقات بين الأصوات وما ينتج عنها ، أو تتبع الصيغة الصرفية وتؤرخ لها أو تناقش تأثيرها واختلافه عن الصيغ الأخرى ، وجهد هؤلاء النقاد هنا أقرب إلى أن يحتسب في إطار عام للحس الدلالي ـ بلغة عصرنا ـ الذي كان سيؤتي ثماره فيما لو تُوبِعَ بقدر أكبر من الاهتمام والتركيز العلمي .

وقد عبر النقاد عن صفات الكلمة المفردة بصورة مباشرة ، إذ كانوا يستعملون مصطلح (اللفظة) أو ما يقوم مقامه من مثل (الاسم) أو (الكلمة) أو اللفظ منصرفاً إلى الأفراد لا إلى اسم الجنس ، وكذلك تنوولت المفردة من خلال مصطلح (الألفاظ) الذي يتوجه إلى الواحدة من الجنس رغم عموميته الظاهرة ، وسنرى أمثلة لهذين الأسلوبين عند النقاد في القرن الرابع :

أ) يعترض الآمدي على لفظة (اللائين) في بيت البحتري :

قفا في مغاني الدار نسأل طلولها عن النفر اللائين كانوا حلولها

فهي تسبب فساد ابتداء في القصيدة لأنها ليست (بالحلوة) وليست (مشهورة)[1] ، أي اجتمع نعتان يحولان دون قبولها : الوقع غير المستحب صوتاً ، وقلة دورانها في الشعر والكلام صيغة في بابها (موصولية) .

ويدفع إيثار النغمة اللطيفة هذا الناقد إلى أن يطلب من الشاعر تصرفاً فنياً يتجاوز الواقعية المباشرة ، التي تحرص على ذكر أسماء المواقع والأماكن رغم

---

(١) الموازنة (١/٤٤٠) .

غرابتها وثقلها في السمع أحياناً ، ويريد ليؤكد فكرتـه هـذه فيروي عن القـدمـاء نحواً مما يذهب إليه ، وكان الباعث على الحوار بيت أبي تمام :

يقـول أنـاس في حبينـاء عـاينـوا عمـارة رحلي من طريف وتـالـد

ويرى الآمدي أن (حبيناء) ، وهو اسم موضع في غـايـة القبح والهجـانـة ، فإنهم وإن كانوا قالوا ماقـالوا لـه في هـذا الموضع فـإنـه لم يـكُ مضطراً إلى ذكره ، والقاعدة التي ينبغي أن تتبع في الصيـاغـة الشعريـة هي : ألاّ يـذكر الشـاعر إلا مـا حسن من أسماء المواضع ، وأن يعتمـد أسماء المواضـع الغريبـة المتكررة في أشعـار الفصحاء ، والشهادة في هذا المقام لواحـد من الشعراء المبرزين هو الفرزدق ، فقـد أنكر على (مالك بن أسماء بن خـارجـة) ذكر (بَوَنَّـا) في شعره : « حَبّـذا لَيلتي بِتَلّ بَوَنَّا » ، وعندما علل (مالك) صنيعه بقوله : « في بونّا كان ذلك » ، أجابـه الفرزدق : « وإن كان[1] » . ويؤدي مطلب الآمـدي والفرزدق قبلـه إلى مسـألـة دلاليـة ، أشرت إلى واحـدة من صـورهـا (السـوق وعكاظ) ، والموقف مختلف (هنا) في أن البديل المقترح عن اللفظة الواقعية هو الرمز الأدبي ، فـإلى أي حـدٍّ يستطيع هـذا الرمز الوفـاء بإيحـاء الأصل الجزئي ، الـذي يمكن أن يتصور بؤرة لتجربـة الشـاعر ومشعـاً الظـلال الـدلاليـة التي تنقـل إلى المتلقي جـوهر العمـل الشعري ؟ وإننا نقف ههنا في صف أبي تمام ومـالـك ، فـاللفظـة تكسب قيمـة من روح النص كما تعطي هي بدورها قيماً داخلة .

وقد كان مما يأخـذه الصـاحب بن عبـاد على المتنبي أنـه ـ رغم بعـد مرمـاه ، وكثرة الإصابة في نظمه ـ ربما يأتي بالفقرة المجودة والمشهود بحسنهـا ، وقـد أُتبعت بالكلمة (اللفظة) العوراء الشائنة ، ويورد على ذلك أمثلة كقول الشاعر :

رواق العـزّ حـولـــك مسبطر وملـــك عليٍّ ابنـــك في كمال

---

(1) الموازنـة (٢/٣٢٥ ـ ٣٢٦) ، وينظر في الموازنـة (١/٣٠٤ ، ٤٤٩ ، ٥٢١) ، والموازنـة ٢/٣٢٤ ، ٣٣٤ ـ ٣٣٥ .

مشيراً إلى لفظة (المسبطر) منكراً استخدامها في سياق خاص هو (مراثي النساء[1]) ، وكذلك يستثقل (الآخاء) التي تضم إلى مثيلاتها من لغات المتنبي الشاذة وكلماته النادّة في قوله :

كل آخائه كرام بني الدنـ ... ـيا ولكنه كريم الكرام

« فلو وقع الآخاء في رائية الشمّاخ لاستثقل[2] » .

ب) وفي رأي الأصفهاني صاحب (الواضح في مشكلات المتنبي) « أن التجويد إنما يتم بعد اختيار الفكرة وذلك بأن يُعنى الشاعر بمفرداته ، وبالسمات الصوتية المقبولة ، إضافة إلى الهيئات الصحيحة للتركيب ، فالمعاني مطروحة نصب العين ، وتجاه الخواطر يعرفها نازلة الوبر وساكنة المدر ، والقرائح تشترك فيها ، وإنما المعنى في سهولة مخرج اللفظ وكثرة الماء وجودة السبك[3] » .

ومن أمثلة تناول الكلمة المفردة وخصائصها من خلال مصطلح (الألفاظ) ماجاء لدى الآمدي في تعقيبه على ابتداء لأبي تمام :

(قَدْكَ اتَّئِبْ أَرْبَيْتَ في الغُلَواءِ)

« فهذه ألفاظ فصيحة صحيحة من ألفاظ العرب ، مستعملة في نظمهم ونثرهم ، وليست من متعسف ألفاظهم ولا وحشي كلامهم ، ولكن العلماء بالشعر أنكروا عليه أن جمعها في مصراع واحد ، وجعلها ابتداء قصيدة[4] » ، والصفات

---

(١) الكشف عن مساوىء المتنبي ، الصاحب بن عباد ٢٤٢ ، ٢٥٣ .

(٢) الكشف عن مساوىء المتنبي ، الصاحب ٢٥٧ ـ ٢٦٣ .

(٣) الواضح في مشكلات المتنبي ، الأصفهاني ٥١ ، وينظر في الوساطة ١٨٦ ، والصناعتين ٢٠ وفيه (الاسم) في موضع (اللفظة) .

(٤) الموازنة (١/٤٧٠ ـ ٤٧١) ، ويعرف الآمدي « حوشي الكلام المرادف للوحشي بأنه : اللفظ الغريب الذي لا يتكرر في كلام العرب كثيراً » ، الموازنة (١/٢٣٩) ، وينظر في الموازنة (٢/٢٥٥ ـ ٢٥٦) .

التي تضاف إلى الألفاظ في حكم الناقد تجد تحقيقها في اللفظة الواحدة ، ولا يتجه الكلام إلى السبك أو التأليف في مجموعة تكون جملة أو تركيباً ، وكان الأجدر ، طلباً للدقة ، أن يخصص المؤلف الاصطلاح ههنا ، لأننا سنطالع مدلولاً آخر لـ (الألفاظ) لا يقف عند المفردة ، وإنما ينطلق في التعبير ليشمل عدة أمور تدور حول ما يتعلق بمجمل علاقات أجزاء الكلام المقابلة لطرف آخر هو : الفكرة .

ولابن طباطبا نهجٌ مماثل يسرد صفات : الأناقة والجزالة ، والزخرفة ، مضافة إلى الألفاظ ، وكذلك حين يتحدث عما يستلذ في السمع من العمل الشعري ، فنحن نقابل أحكاماً نلتمس تطبيقها على المفردة الواحدة ، فمن الأشعار أشعار محكمة متقنة ، أنيقة الألفاظ ، حكيمة المعنى ، عجيبة التأليف إذا نقضت ، وجعلت نثراً لم تبطل جودة معانيها ، ولم تفقد جزالة ألفاظها ، ومنها أشعار مموهة ، مزخرفة عذبة ، تروق الأسماع والأفهام إذا مرت صفحاً ، فإذا حصلت ، وانتقدت بهرجت معانيها ، وزيفت ألفاظها ومجّت حلاوتها[1] . ويعود إلى توكيد القضية في موضع آخر من عيار الشعر فيتحدث عن (السّلاسة في الألفاظ ومما يستكره منها وعن النافر والشائن[2]) .

وبعد أن رأينا الصاحب بن عباد يستعمل مصطلح (الكلمة) للتعبير عن اللفظة الواحدة ونقدها جمالياً نجده يورد صيغة الجمع (كلمات) ، وكذلك (ألفاظ) مريداً بها الألفاظ المفردة لا الجمل ، فأطمّ ما يتعاطاه المتنبي : التفاصح بالألفاظ النافرة ، والكلمات الشاذة حتى كأنه وليد خباء أو غذي لبن ولم يطأ الحضر ولم يعرف المدر ، ومن ذلك قوله :

---

(١) عيار الشعر ، ابن طباطبا ٧ .

(٢) عيار الشعر ٣٢ .

أيفطمه التوراب قبل فطامه ويأكله قبل البلوغ إلى الأكل

ويحدد الصاحب رأيه في اللفظة (المشكلة) بعبارة انفعالية « ومأأدري كيف عشق (التوراب) حتى جعله عوذة شعره ؟ [(١)] »

ويعالج القاضي الجرجاني مشكلة الشاعر المحدث الذي يصعب عليه الابتكار والتجديد بعد تاريخ طويل حفل بأشكال وأفكار كثيرة ، فهو « يقف محصوراً بين لفظ قد ضيق مجاله ، وحذف أكثره ، وقلّ عدده ، وحظر معظمه ، ومعان قد أخذ عفوها ، ونريد من قولة الناقد استخدامه لاسم الجنس (اللفظ) ، فهو يقصد أن الموضوعات والأفكار التي يخوض في بحارها المبدعون عرفت لها ألفاظ لا يسهل تجاوزها ، واختراع المفردات الجديدة ، ويشير الناقد إلى السمات الصوتية الإيقاعية في المفردة ، فإن افْتَرع المحدث معنى بكراً أو افتتح طريقاً مبهماً لم يرض منه إلا بأعذب لفظ وأقربه من القلب ، وألذه في السمع[(٢)] » .

ويطلب القاضي الجرجاني من الشاعر أن يراعي فروق ما بين الموضوعات والأغراض التي يطرقها ، وذلك ليعطي كلاً منها ما يناسبه من المفردات ، فيقسم الألفاظ على رتب المعاني ويخاطبه بقوله « تلطف إذا تغزلت ، وتفخّم إذا افتخرت ، وتصرف للمديح تصرف مواقعه ، فإن المدح بالشجاعة والبأس يتميز عن المدح باللباقة والظرف ، ووصف الحرب والسلاح ليس كوصف المجلس والمدام[(٣)] » ، وتتراءى لنا اللفظة المفردة في توجيه الناقد ، فهو يستند إلى أن الشاعر يعرف الرصيد اللغوي في كل جانب من جوانب الحياة والسلوك والخبرة الإنسانية ، وخصائص مكونات هذا الرصيد من حيث الدقة في الدلالة على الزاوية الجزئية التي يقصد إلى التعبير عنها ، وكذلك يدرك المميزات الصوتية في

---

(١) الكشف عن مساوىء المتنبي ، الصاحب بن عباد ٢٥٤ .

(٢) الوساطة ٥٢ ، وكذا ٩٨ ، والصناعتين ٨ ، ٥٨ ، ١٣٦ ، ١٥٤ ، ١٩٦ .

(٣) الوساطة ٢٤ ، وكذا في ١٩ ، ٣٣ ، ١٨٠ ، ٤١١ ، ٤١٣ .

تأليف الحرف ووقع الصيغة الصرفية ، ومدى تلاؤمها في السياق الذي سيشكلانه مع سواهما ، وههنا يجمع اقتراح القاضي الجرجاني مميزات نفسرها بأنها تعكس القدرة على فهم دلالي عميق ، ممتزج بمتطلبات جمالية أيضاً .

٢/٥ دلالة المعنى على (الغرض ، الفكرة ، الأفكار الجزئية)

قدمنا في الجزء السابق (١/٥) الوجوه التي تبدو فيها دراسة الدلالة المفردة لدى النقاد ، وتمثل تلك الوجوه ضرباً من الاستخدام للمصطلحين (اللفظ والمعنى) ، وهي أقرب إلى التصور اللغوي الحديث عندما نشير إلى دلالة الكلمات ، فنحن نبدأ عادة بمعرفة حدود الدلالة في اللفظة ومن ثم تتبع أبحاث التركيب وعلاقات السياق ، وبالرغم من أن الدلالة ستكون محدودة بالسياق فإننا نحتفظ خلال عملية الاستيعاب بالدلالة العامة المشتركة (المعجمية) ، ولابد من الوضوح في المنطلق لفهم النص بكامل ما يصل بين أطرافه وما يحيط به من أجواء .

ونخصص هذه الفقرة لاستجلاء معالم مصطلح (المعنى) في استعمالات أخرى مختلفة عما كان قبل في نقد الشعر ، ذلك أن النقاد أطلقوا المصطلح على عدد من المسائل تتقارب فيما بينها ، فتشكل دائرة تناظر الدلالة المفردة ، (فالمعنى) يدل على الفكرة العامة لنص شعري ، وما تتفرع إليه من أفكار جزئية مكونة لها ، ويدل على ما يشتمل عليه بيت واحد من أفكار عدة أو فكرة واحدة ، ومن الوصف والتشبيه ، والمصطلح يستعمل أحياناً مرادفاً للأغراض الشعرية ولما تتشعب إليه من صفات ومواقف فرعية . ونلحظ هنا أن الناقد عندما يتداول (المعنى) يقصد إلى مجمل الدلالة سواء في فقرة قصيرة تمثل جملة نحوية ، أو في بيت شعري أو في عدد من الأبيات يصل إلى حد المقطوعة أو القصيدة ، وبذا لانستطيع رَدَّ الأحكام إلى اللفظة الواحدة لأنها اندغمت وسائر ما يجاورها في كل يؤدي الغرض والقصد ، وهذا الاتجاه لا يرادف (السياق) الذي يكون بمقدورنا

تلمس روحه العامة وجزئياته بحسب ما يسودها من صلات ، وتبادل التأثير .

أ) ولقد كان قدامة بنهجه المنطقي من أكثر النقاد وضوحاً في تقسيمه للمعاني ، ذلك أنها عنده هي الجزئيات التي يبنى منها الشعر ، « فعلى الشاعر إذا شرع في أي معنى كان من الرفعة أو الضعة والرفث والنزاهة والبذخ والقناعة والمدح وغير ذلك من المعاني الحميدة أو الذميمة أن يتوخَّى البلوغ من التجويد في ذلك إلى الغاية المطلوبة[1] » . وهذه الصفات أو الأفكار هي التي يتكامل بها الغرض الشعري ، كالمديح والهجاء والنسيب ، والمراثي ، والوصف والتشبيه[2] ، ونرى أنها تتفرع إلى ماهو أصغر منها ، فثمة فضائل للناس هي : العقل والشجاعة والعدل والعفة ، وكان القاصد إلى مدح الرجل بهذه الأربع الخصال مصيباً والمادح بغيرها مخطئاً[3] ويذكرون من أقسام العقل : ثقابة المعرفة ، والحياء ، والبيان ، والسياسة ، والكفاية والصدع بالحجة والعلم والحلم عن سفاهة الجهلة وغير ذلك مما يجري هذا المجرى[4] ، ويتم تركيبٌ وتداخل للمعاني في أي مستوى لها فتنتج معانٍ أخر نجدها في شعر الشعراء[5] .

ويوافق مالدى ابن طباطبا ماجاء به قدامة من أن المعاني هي الأغراض الشعرية وفروعها المنضوية تحتها ، وفي (عيار الشعر) حديث عن الأبيات التي يخلص بها قائلوها إلى المعاني التي أرادوها من مديح أو هجاء أو افتخار أو غير ذلك ، ولطفوا في صلة مابعدها بها فصارت غير منقطعة عنها[6] .

---

(١) نقد الشعر ، قدامة بن جعفر ٤ .
(٢) نقد الشعر ١٧ .
(٣) نقد التعر ٢٠ .
(٤) نقد الشعر ٢١ .
(٥) نقد الشعر ٢١ ـ ٢٢ .
(٦) عيار الشعر ١١١ .

ويتحدث الآمدي عن فكرة جزئية (هي المعنى) ضمن (باب الفراق) في شعر أبي تمام الذي يقول :

دعا شوقُه يا ناصرَ الشوقِ دعوةً   فلبّاه طلٌّ الدمع يجري ووابله

« فهذا خطأ من الشاعر إذ أراد أن الشوق دعا ناصراً ينصره فلباه الدمع ، بمعنى أنه يخفف لاعج الشّوق ويطفىء حرارته . وهذا إنما هو نصرة للمشتاق على الشوق ، والدمع إنما هو حرب للشوق لأنه يثلمه ويتخونه ويكسر حده[1] » . ويشير الناقد إلى الأفكار بمصطلح (المعاني) عند إبراز ما يميِّز به امرؤ القيس عن أقرانه « فلولا لطيف المعاني واجتهاد امرىء القيس فيها وإقباله عليها لما تقدم على غيره ، ولكان كسائر الشعراء من أهل زمانه ، إذ ليست له فصاحة توصف بالزيادة على فصاحتهم ، ولا لألفاظه من الجزالة والقوة ما ليس لألفاظهم[2] » .

والمعاني الشعرية بهذا التفسير الذي يوجهه النقاد تتردد على أنها (معاني العرب) ، ويقصد بها ما استقر عليه العرف من قيم اجتماعية ، وفنية تعبيرية ، أو يكون مثلاً من الأمثال ، فقد زعم بعضهم أن فكرة أبي تمام في قوله (لو كان ينفخ قين الحي في فحم) مأخوذة من قول الأغلب .

قد قاتلوا لو ينفخون في فحم   ما جبنوا ولا تولّوا من أمم

إلا أن الآمدي يردف قائلاً بأن « هذا معنى شائع من معاني كلام العرب وجارٍ في الأمثال : قد فعلت كذا واجتهدت في كذا لو كنت أنفخ في فحم[3] » .

وينصرف مصطلح (المعاني) في الشعر المحدث إلى الاهتمام المبالغ فيه بالأفكار المعقدة العويصة ، وهي التي يستعين فيها الشاعر بالفلسفة ليجعل مقاصده

---

(١) الموازنة (٢٢١/١) ، ٢٠٧ ـ ٢٠٨ .
(٢) الموازنة (٤٢٠/١ ـ ٤٢١) .
(٣) الموازنة (١٢٥/١) ، وينظر في الموازنة (٢٠٩/١) ، والموازنة (١٤٥/٢ ـ ١٤٨) .

بعيدة ، وذات سبل لا تسهل إلا على كل ضارب في الثقافة الرفيعة بسهم وافر . إن أصحاب هذا الاتجاه في التعبير الفني يتطلبون من المتلقي عناء يبذله ليبلغ مرتبة المتعة الفنية . فالأمر هنا يتجاوز كونه بضاعة مبذولة هينة ، وإنه يذكرنا بمراتب الصوفية والانتقال من دنى إلى أخرى بالمكابدة والتطلع إلى المقصود .

وقد يعلل بعضهم المنحى الذي يمزج الفكر والفلسفة بالشعر بأنه حالة اضطر إليها الشعراء بعد أن ضاقت مسارب الأفكار (والآراء) والأغراض بعد أن طوف القدماء في أرجائها ، وتفصيلاتها ، فما أبقوا للتالين الشيء الكثير ، لذا فالمحدثون يحتالون ويتسورون كيا يكتسب شعرهم شخصيته المميزة بل شرعيته ، فما جدوى تُعْرَف في المكرور المعاد من آثار الأقدمين .

ومن مشكلات المصطلح عند النقاد أنهم خصصوا الكلام على هذا الضرب من الأفكار المركبة ، والتي تتصل بالفلسفة في الشعر المحدث ، مستخدمين اصطلاح (المعاني) ، وهكذا تستوي الإشارة إلى الأغراض الجزئية والعبارات الدالة على فكرة عادية ، او الصور التي تصف هذا أو ذاك من الناس أو مظاهر الحياة وتلك الشطحات والأغراض المصنوعة بعناية وتركيز من الشاعر ، ولقد يكون السياق الذي يتحدث فيه الناقد واضحاً فيزول اللبس إلى حين ، وفي مرات أخرى تتداخل المسائل أو التوجيهات مما يجعل الأداة النقدية (المصطلح) بحاجة إلى مزيد من التفصيل والتمييز .

ومن الأمثلة البيّنة في مناقشات النقاد حول مدلول (المعاني) متصلة بالفكر والصنعة ماأتى به الآمدي موازناً بين أبي تمام وصحبه ، والبحتري ومن هم على شاكلته ؛ فأصحاب حبيب إنما ينسبون تقدمه وفضله إلى « غموض المعاني ودقتها ، وكثرة ما يورده مما يحتاج إلى استنباط وشرح واستخراج ، وهؤلاء أهل المعاني والشعراء أصحاب الصنعة ومن يميل إلى التدقيق وفلسفي الكلام[1] » ، وإن من

---

(١) الموازنة (٤/١) .

يميلون إلى البحتري يرون في شعره « حلاوة اللفظ وحسن التخلص ، ووضع الكلام في مواضعه ، وصحة العبارة ، وقرب المأتى وانكشاف المعاني ، وهم الأعراب والكتاب والشعراء المطبوعون وأهل البلاغة[1] » .

ويتابع القاضي الجرجاني نهج الآمدي فيدفع عن المتنبي وإغرابه أقوال معترضيه ، فلو كان « التعقيد وغموض المعنى يسقطان شاعراً لوجب ألا يرى لأبي تمام بيت واحد ، فإنا لا نعلم له قصيدة تسلم من بيت أو بيتين قد وفر من التعقيد حظها ، وأفسد به لفظها ، ولذلك كثر الاختلاف في معانيه ، وصار استخراجها باباً منفرداً ينتسب إليه طائفة من أهل الأدب[2] ، وصارت تتطارح في المجالس مطارحة أبيات المعاني وألغاز المعمّى . وليس في الأرض بيت من أبيات المعاني لقديم أو لمحدث إلا ومعناه غامض مستتر[3] » ، وهذه العبارة الأخيرة يمكن وصفها بالفساد والخلل المنطقيين ، إذ يشرح المعاني بالمعنى فالمصطلح مهتز وغير مفصولة أطرافه عما يداخله .

ويصف لنا القاضي الجرجاني أيضاً بعض المعترضين على المتنبي والمنقصين حقه في الشاعرية والتميز عن الأقران : ويكاد يكون هذا الرجل (النموذج) واحداً من مثقفي العصر الذين متحوا من الثقافة الفلسفية والعلمية واطلعوا على فنون الشعر وأفانين أخرى ، إلا أن حظهم من اللغة والإلمام بخصائصها وأسرارها غير وافر ، والمصطلح الذي تخيره الناقد هو (معنوى) مدقق لا علم له بالإعراب ولا اتساع له في اللغة ، فهو ينكر الشيء الظاهر (لولعه بالتعقيد وإلفه لقضايا الفلاسفة والمتكلمين وجدلهم) ، وينقم الأمر البين كفعل بعضهم في قول المتنبي :

لأَنْتَ أسودُ في عَيني من الظُّلَمِ

---

(1) الموازنة (٤/١) ، وينظر في الموازنة (٣٦٠/١) ، ٥٢٥ ، ٢٤٢ - ٢٤٣ ، ٤٢٤ - ٤٢٥ ، والموازنة (٣٣٢/٢ - ٣٣٣) ، وفي سائر المواضع التي يتتبع فيها الآمدي مذهب أبي تمام .

(2) يذكر هذا بكتاب (معاني الشعر) للأشناندانى وأضرابه ، وسبق أن عرضنا له في هذا الفصل .

(3) الوساطة ٤١٧ - ٤١٨ .

فإنه أنكر أسود من الظلم ، ولم يعلم أنه قد يحتمل هذا الكلام وجوهاً يصح عليها ، وأنّ الشاعر لم يرد (أفعل) التي للمبالغة[1] .

ونعرض أمثلة لإطلاق مصطلح (المعنى) على البيت الشعري الواحد ، فمن أخطاء أبي تمام الذي يشرحه الآمدي قوله :

يدي لمن شاء رهن لم يذق جرعاً من راحتيك درى ما الصَّابُ والعسل

فألفاظ البيت وعلاقاتها مبنية على فساد (لكثرة ما فيه من الحذف) ؛ فقد أراد بقوله « يدي لمن يشاء رهنٌ » أي أصافحه وأبايعه معاقدة أو مراهنة إنْ كان لم يذق جرعاً من راحتيك درى ما الصَّابُ والعسلُ ، (وبنقص إنْ الشرطية ومن الموصولية) اختل البيت وأشكل (المعنى) أي مؤداه ، وفكرته العامة[2] .

وفي الموضحة يبيّن الحاتمي كيف قصرت أدوات المتنبي عن أداء غرضه في بيت له ، فمن المستعجم قوله :

وكم وكم حاجَةٍ سمحت بِها أقربُ مني إليّ موعِدُها

وهذا من مستهجن الكلام ، ومستكره التركيب ، وإنما ذهب إلى قصر عمر موعده ، وقرب موعده في إنجازه ، فأساء العبارة عن هذا المعنى كل الإساءة[3] .

ويعلّق القاضي الجرجاني على بيت المتنبي :

أَتُراها لكثرةِ العُشّاقِ تحسبُ الدمعَ خِلقةً في المآقي ؟

بأنه ابتداء ما سمع مثله ، ومعنى انفرد باختراعه[4] .

---

(١) الوساطة ٤٣٠ ـ ٤٣٩ ، وكذا ٣٢ ، ٤٧١ ـ ٤٧٢ .

(٢) الموازنة (١/١٩٠) وكذا ١٢٧ ، والموازنة (٢/١٩١) ، وفي الصناعتين ٥٨ ـ ٥٩ ، ٤٧ .

(٣) الموضحة ، الحاتمي ٤٧ ، ٦٤ ، ١٠٤ ، ٤٠ ، وفي الرسالة الحاتمية ٢٧٧ .

(٤) الوساطة ١٥٨ و ١٣ ، وفي (الواضح) للأصفهاني ٣٣ ، ٣٢ .

ومن المواضع التي عبر فيها عن مجموعة من الأبيات بـ (المعنى) حديث العسكري عن أهمية الألفاظ وصياغتها في العمل الشعري ، فالكلام إن كان لفظه حلواً عذباً وسلساً سهلاً ، ومعناه وسطاً دخل في جملة الجيّد ، وجرى مع الرائع النادر كقوله :

ولما قضينا من منى كل حاجة ومسّح بالأركان من هو ماسح
وشدت على حدب المهارى رحالنا ولم ينظر الغادي الذي هو رائح
أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا وسالت بأعناق المطيّ الأباطح

وليس تحت هذه الألفاظ كبير معنى[1] ، والناقد يحرص على إيراد الدليل فيبرهن على صحة ما يذهب إليه من أحكام ، فيسرد نثراً مؤدّى الأبيات ، أي يورد الأفكار الجزئية للموقف الذي يصوره الشاعر . ويتجلى مراد الناقد بـ (المعنى) في المرة الأولى حيث يقول « المعنى الوسط » ، أي الأفكار العادية المألوفة غير المثيرة لجدتها وغرابتها ، وبالتالي ليس لها فاعلية الدهشة والاستغراب مما يشد القارىء والسامع إليها ، وكذلك في المرة الأخرى حيث ينص على (كبير معنى) .

ب) وثمة ظاهرة تلحظ عند استخدام النقاد لمصطلحي : المعنى والمعاني ، على أنهما دالان على الأغراض والأفكار العام منها والجزئي ، وهي أنّ المصطلح المقابل الذي يجري تداوله في الكتب النقدية متصلاً باللفظ يحمل كذلك مفهوماً عاماً عن الألفاظ ، أي أنّ ما يفهم منه لا يخرج عن الصورة المجملة التي تشتمل على عناصرها المتعددة ضمنها دون أن يقصد إلى الأفراد منها ، أو إلى التركيب الرابط فيما بينها .

ومن أمثلة ذلك النهج ما نراه لدى ابن طباطبا ، فللمعاني ألفاظ تشاكلها

(١) الصناعتين ، أبو هلال العسكري ٥٩ .

فتحسن فيها وتقبح في غيرها ، فهي كالمعرض للجارية الحسناء التي تزداد حسناً في بعض المعارض دون بعض ، وكم من معنى حسن قد شين بمعرضه الذي أبرز فيه ، وكم من معرض حسن قد ابتذل على معنى قبيح ألبسه[1] .

ويتحدث الحاتمي في الموضحة عن البحتري ، فيعجب بـ « ألفاظه الرطبة العذبة ومذهبه فيما يحتذيه ، ويشير إليه ، فإنه كان لا يستدعي من الكلام نافراً ، ولا يستعطف معرضاً ... وكانت ألفاظه فوق معانيه ، وأعجازه غير منفكة عن هواديه[2] » .

وقد دأب الآمدي على أن يعلق على أبيات في الموازنة بقولة موجزة « البيت جيد لفظه ومعناه » ، أو يشقق منها تفريعات أخرى تكون أحياناً نقيضاً للجودة في الطرفين ، أو تقسم الجودة والرداءة ، وفي أحيان يقتصر الناقد على شطر بيت في أحكامه ، ومثال ذلك وقوفه عند بيت أبي تمام :

يابرق طالع منزلاً بالأبرق ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ واحدُ السحاب له حداء الأينق

فهو ينكر الشطر الأول بسبب كلمة (طالع) ، فهي لفظة رديئة في هذا الموضع قبيحة ، أما الشطر الآخر (واحد ... الأينق) فلفظه ومعناه جيدان فصيحان[3] .

ومن ذلك إلحاح أبي هلال العسكري بين اللفظ والمعنى كقوله : « ولا خير في المعاني إذا استكرهت قهراً والألفاظ إذا اجترت قسراً ، ولا خير فيما أجيد لفظه إذا سخف معناه ، ولا في غرابة المعنى إلا شرف لفظه مع وضوح المغزى وظهور المقصد[4] » .

---

(١) عيار الشعر ، ابن طباطبا ٨ ، وينظر في ١٩ ـ ٢١ ، ٣٢ ، ١٢١ .

(٢) الموضحة ، الحاتمي ١٩٣ ، وفي الكشف عن مساوىء المتنبي للصاحب بن عباد ٢٥٩ .

(٣) الموازنة (٤٦٤/١) ، وكذا ٤٦٥ ، ٤٥١ ، ٤٥٦ ، ٤٥٧ ، ٤٦٠ ، ٤٦١ ، والموازنة (٧٣/٢) ، ٣٣٢ .

(٤) الصناعتين ٦١ ، وكذا ٨ ، ٥٨ ، ٦٩ .

٦ ـ تعدّد المعنى واللفظ (المشترك ، الترادف ، التضاد)

١/١/٦ أثار التقابل بين الدالّ والمدلول عند علماء اللغة العربية نشاطاً لغوياً لترصد بعض الظواهر ، التي اتخذت لها أسماءً ذهب معها بعض الدارسين بدلاً من أن ترتّب لديهم وتتصاعد في درس دلالي ، وهي قضايا الترادف والأضداد والمشترك اللفظي .

وقد ركّز ابن فارس في عبارات العلاقات بين الأسماء والمسميات ، ذلك أنه يسمّى الشيئان المختلفان بالاسمين المختلفين ؛ وذلك أكثر الكلام ، كرجل وفرس . وتسمّى الأشياء الكثيرة باسم واحد (المشترك اللفظي) نحو عين الماء ، وعين المال ، وعين السحاب . ويسمّى الشيء الواحد بالأسماء المختلفة (المترادفة) نحو السيف والمهند والحسام[1] » .

الوضوح المطلوب في هذا المجال من التعامل مع التراث اللغوي هو في تقدير ذاك الرصيد الدلالي ، الذي يمكن أن نفيد منه اليوم بشيء من التحليل الحديث ، إضافة إلى عدم الاضطراب في جزئيات المناقشات بين بعض علمائنا القدامى ، فإن ماقدّمه هؤلاء الأسلاف ثمين ويمثل خطوة في العمل الدلالي ، ولا يفترض فيه كذلك أن يسمّي القضايا بما نصطلح عليه اليوم . فالمصطلح يتشكل مع نمو الاهتمام في أبواب العلم وبالاحتكاك الثقافي من مثل ما جَدَّ في درس الدلالة العربية .

سنستعرض بكلمات مفهوم المشترك اللفظي والأضداد والترادف كما ورد عند الباحثين العرب القدامى ، ثم نقف عند ظاهرة منها ذات أثر كبير في التحليل الدلالي وهي المشترك اللفظي ، وبعد ذلك نتابع عدداً من النقاد في تعاملهم مع تلك الظواهر في الأدب (فقرة ٢/٦) .

« فالمشترك حَدّه أهل الأصول بأنه اللفظ الواحد الدالّ على معنيين مختلفين

---

(١) المزهر ، السيوطي (٣٦٩/١) .

فأكثر دلالة على السواء عند أهل تلك اللغة واختلف الناس فيه ، فالأكثرون على أنه ممكن الوقوع[1] » .

وأما التضاد فقد عدّ جزءاً من مفهوم المشترك ، ذلك أن « المشترك يقع على شيئين ضدين ، وعلى مختلفين غير ضدين ، فما يقع على الضدين كالجون (للأبيض والأسود) وجَلَل (للعظيم وللحقير) ؛ وما يقع على مختلفين غير ضدين كالعين[2] » .

وفي المزهر تعريف مختصر للترادف « فهو الألفاظ المفردة الدالة على شيء واحد باعتبار واحد[3] » ، وتفصيل لآراء اللغويين والأصوليين فيه غنى للباحث . ثم قال السيوطي : « ممّن ألف في المترادف العلامة الفيروزآبادي صاحب القاموس فله كتاب سماه : الروض المسلوف فيما لـه اسمان إلى ألوف . وأفردَ خلقٌ من الأئمة كتباً في أسماء أشياء مخصوصة[4] » .

٢/١/٦ لقيت ظاهرة المشترك اللفظي الدلالية عناية الفلاسفة والمفكرين ، عندما ناقشوا المسائل اللغوية في إطار بحث (العبارة) المنطقي ، كما في جهود ابن سينا في (الشفاء) و (النجاة) ، ومن قبله وقف (الفارابي) مشيراً إليها ، وقدّم الغزالي عرضاً في (معيار العلم) و (المستصفى) .

وصنّفتْ جمهرة من اللغويين والكتّاب مصنفات تجمع فيما يشبه (المعجم) ألفاظ المشترك اللفظي تفاوتت اتساعاً واختصاراً ، نذكر منها : رسالة للأصمعي ٢١٥ هـ (ما اتفق لفظه واختلف معناه) وكتاباً لأبي العميثل (٢٤٠) ، وكتاباً صغيراً للمبرّد (٢٨٥ هـ) حَدَّده (بالقرآن المجيد) ، وكتاباً مفصّلاً لكُراع (٣١٠ هـ) ، ومصنفاً

---

(١) المزهر ، السيوطي (٣٦٩/١) .
(٢) المزهر ، السيوطي (٣٨٧/١)
(٣) المزهر ، السيوطي (٤٠٢/١)
(٤) المزهر ، (٤٠٧/١)

بعنوان (الوجوه في اللغة) ، يقع في ألفي ورقة لإسحاق بن محمد الآسي وصلنا مختصره لأبي يوسف محمد بن أحمد بن يوسف الخوارزمي الكاتب .

وفي (المزهر) حديث يظهر اهتمام عدد كبير من اللغويين العرب بالمشترك وشرحه والتمثيل له من الكلام العربي[1] .

حاول هؤلاء المهتمون بالمشترك تفسيره ظاهرةً لغوية فقارنوها بمصطلحين هما (المنقول) و (المستعار) ، وإننا نرى أن التطور الدلالي ينطبق على عظم ماورد من حالات المشترك اللفظي ، وماتردُّدُ الدارسين أمامه إلاّ لأنه موغل في الماضي ، فبعدت العلاقات الرابطة بين أصل وفرع نقل إليه ، أو خُصِّصَ فيه فهم يعبرون عن هذا الإشكال بقولهم : إن التعدد في الدلالة كان في أصل الوضع اللغوي . والمنطق العلمي لا يقبل هذا إلا في حالات محدودة لالتقاء اللهجات العربية القديمة ، وسائر الألفاظ المشتركة إنما اكتسبت دلالاتها الإضافية في أثناء مسيرتها الاجتماعية والفكرية والاقتصادية في أزمنة متلاحقة .

ولأهمية هذه القضية الدلالية سأورد آراء للفارابي وابن سينا والغزالي ، ثم آتي بشواهد للمشترك موجزة مع إشارات موجهة إلى صلتها بحالات التطور الدلالي .

يقول الفارابي في كتاب (العبارة) :

« الفرق بين المنقول والمشترك : أنَّ المشترك إنما وقع الاشتراك منذ أول ما وضع من غير أن يكون أحدهما أسبق في الزمان بذلك الاسم .

والمنقول هو الذي سبق به أحدهما في الزمان ، ثمّ لقّب به الثاني ، واشترك فيه بينهما بعد ذلك .

والاسم المشترك : منه ما يقال على أشياء كثيرة بأن اتفق ذلك فيها اتفاقاً ،

---

(١) المزهر ، (١/٣٦٩ ـ ٣٨٦) .

مثل اسم العين الذي يقال على العضو الذي به يبصر ، وعلى ينبوع الماء ، ومنه ما يقال على شيئين لأجل مشابهة أحدهما الآخر ، لا في المعنى الذي دلّ عليه ذلك الاسم من أحدهما ، بل في عرض ما مثل الإنسان والفرس ، يقال عليهما جميعاً (الحيوان)[1] .

ويتناول ابن سينا الاصطلاحات وأبعادها في (النجاة) فيقول :

« فإما أن يكون لفظاً **مشتركاً** وهو الواقع على عدّة معانٍ ليس بعضها أحقّ به من بعض ، كالواقع على ينبوع الماء وعلى آلة البصر والدينار ، وإما أن يكون لفظاً **منقولاً** وهو الواقع على عدة بمعانٍ عدّة ، ولكن وقوعه على أحدها أقدم على أن المتأخر مسمّى به على الحقيقة ، كلفظة المنافق والفاسق والكافر ولفظة الصوم والصلاة .

وإما لفظاً مستعاراً وهو الذي أخذ للشيء من غيره من غير أن ينقل في اللغة فجعل اسماً له على الحقيقة وإن كان في الحال يراد به معناه ، كقول القائل : إن الأرض أمٌّ للبشر[2] » .

والإمام الغزالي يناقش المسائل في (معيار العلم) فيقول[3] :

« **وأما المنقول** : فهو أن ينقل الاسم عن موضوعه إلى معنى آخر ، ويجعل اسماً له ثابتاً دائماً . ويستعمل في الأوّل فيصير مشتركاً بينهما كاسم (الصلاة) و (الحج) ولفظ (الكافر) و (الفاسق) .

وهذا يفارق (المستعار) بأنه صار ثابتاً في المنقول إليه دائماً ، ويفارق

---

(١) العبارة ، أبو نصر الفارابي ٢٠ ـ ٢١ . تحقيق د . محمد سليم سالم ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٧٦ م ، وينظر كذلك ٢٤ .

(٢) النجاة ، ابن سينا ٩٠ ، ط محيي الدين صبري الكردي ، ط ٢ ، ١٣٥٧ هـ ١٩٣٨ م القاهرة .

(٣) معيار العلم ، الغزالي ٨٦ ـ ٨٧ ، وكذا في المستصفى (٣١/١ ـ ٣٢) .

(المخصوص باسم المشترك) بأنّ المشترك هو الذي وضع بالوضع الأوّل مشتركاً للمعنيين ، لا على أنه استحقّه أحد المسميين ، ثم نقل عنه إلى غيره ، إذ ليس لشيء من (ينبوع الماء) و (الدنيا) و (قرص الشمس) و (العضو الباصر) سبق إلى استحقاق اسم (العين) ، بل وضع للكل وضعاً متساوياً بخلاف (المستعار) و (المنقول) .

ويستعمل المنقول في العلوم كلّها لمسيس الحاجة إليها ؛ **إذ واضع اللغة** لّما لم يتحقّق عنده جميع المعاني ، لم يفردها بالأسامي ، فاضطر غيره إلى النقل . (فالجوهر) وضعه واضع اللغة لـ (حجر) يعرفه الصيرفي . والمتكلم نقله إلى معنى حصّله في نفسه وهو أحد أقسام الموجودات ، وهذا مما يكثر استعماله في العلوم والصناعات » .

إننا بتأمل هذه الآراء نصل إلى النقاط المفيدة في تحليلات للألفاظ العربية ، واستكشاف حالاتها التطورية القديمة بفاعلية تنشط اللغة لتستوعب الجديد من معطيات المادة والفكر والانفعالات . وتواتر (النقل ، والاستعارة ، والمشابهة) يعني أن وعياً دقيقاً بحيويتها تحقق لعلماء العربية (وهم لغويون وأصوليون وفلاسفة ونقّاد وأدباء) ورافقه ذاك الجمع لألفاظ المشترك ، ومنها ما ورد في (مختصر وجوه اللغة) للخوارزمي الكاتب :

١ ـ الأُمُّ : الوالدة ، وأصلُ كلِّ شيء ، والمَلْجأ في النوائب ، وأُمُّ الكتاب : فاتحته ، وأُمُّ الرأس : موضع الدماغ ، والأرض ، ولواء الرمح .

٢ ـ الجارية : إحدى الجواري ، والسفينة ، وعين كلّ حيوان ، وعين الماء ، ونعمة الله عزَّ وجلّ ، والشمسُ ، والبَكْرة (التي تدور على محور ويرفع الماء بوساطتها ، إذ يربط الدلو بحبل مثبّت طرفُه بها) .

٣ ـ الحُرُّ : نقيض العَبْد ، والكريم الحسن الخلق ، وفرخ الحَمَام ، وساقُ حرٍّ

ذَكَر القَمَـاريّ ، والفرس العتيـق ، ومـا يرى من وجنـة الـوجـه ، ووسـط الشيء وخياره ، وولد الحيَّة اللطيف ، والرملة الطيبة ، وولد الظبية ، وسوادٌ في ظـاهر أُذُنَي الفرس ، ورُطَبُ الأزاذ ، والحرّان كوكبان وهما الذنبان .

٤ ـ الرحى : التي يُطحَن بها ، والضِّرس ، وكِرْكِرة البعير (مقدم صـدره) ، ورحى الحرب إذا استـدار القومُ ، وجوشن الفيـل (صـدره) ، وجمـاعـة الإبـل ، والسيـد رحى القـوم ، وكبـار الصخر ، وقطعـة من النجف تعظم نحـو ميـل (النجفة : أرض مستديرة مشرفة) .

٥ ـ الصلعاء : ضد الفرعاء ، والأمرُ الشديد ، والصحراء ، والليلة الحارّة .

٦ ـ العُصْفُـور : الطـائر ، والكتـابُ ، والمَلِـك ، وأمُّ الرأس من الـدمـاغ ، ومسمار السفينة ، والعصافير : العيدان تجمع أحنـاء الرحل ، والـذكر من الجراد ، وغُرّة الفرس لا تبلغ الخَطْمَ ، والشَّعْر ، وأوّل الشباب ، وعصافير البيت : أوتـاده ، والعظم الناتىء من أذن الفرس ، والنجيب من الإبل ، والجوع .

٧ ـ الكلب : معروف ، والخشبة يُعْمَد بهـا الحـائـط . وحـديـدة الرحى على رأس القطب ، وكلب الرحل وهـو حجّتـه يعلّق بهـا السقـاء ، واللسـان ، وخرز السير بين السيرين ، وأول زيادة المـاء في الوادي ، ومسمار مقبض السيف ، وشجر له شوك ينبت في السباخ ، والرجل الجافي البذيّ ، وكَلْبٌ قبيلة .

٨ ـ الهـلال : غُرّة القمر حين يُهِلُّـه النـاس ، والغبـار ، وحيٌّ من أحيـاء العرب ، وحديدة يعرقب بها الوحش ، والطاحونة ، والحيّـة ، وسمـة في الفخـذ ، وشيء من ملابس النساء ، وصبّ السماء ، والجدُّ يضم بين قبيلتي أحياء العرب .

نشير في إثر الموادّ التي يتحقق فيها مفهوم المشترك اللفظي إلى أنّ السيـاق إذا أحكمت أطرافه ظهرت الدلالـة المميّزة لهـذا الرمز اللغوي سواء كانت مجـازاً قـديمـاً باليـاً ، أم مجازات قريبة منا عصراً .

٢/٦ وثمة ظواهر دلالية تتصل بمشكلة اللفظ والمعنى نجد لها مكاناً في جهد النقاد ، وهي تدور حول تعدد الألفاظ للمعنى الواحد : الترادف وتعدد المعاني للفظ الواحد (المشترك اللفظي والأضداد) ، وسنعمل في هذا الحيّز من البحث على إجمال صورتها كما وردت في المصنفات النقدية ، وسنشير إلى إمكانية الاستفادة من هذه الظواهر في هذا النقد الأدبي .

١) لقد تميزت مشكلات الترادف والمشترك اللفظي والتضاد ، بالتركز في كتب الشروح فنراها عند ابن جني في (الفسر الكبير ، والفسر الصغير ، وشرح أرجوزة أبي نواس ، والتمام في تفسير بقية أشعار هذيل ، والفتح الوهبي على مشكلات المتنبي) وعند ابن الأنباري وابن النحاس في (شرحهما على القصائد المعلقات) . أما المؤلفات النقدية الأخرى فحظها من هذا الجانب الدلالي قليل ، ويكاد يكون الآمدي في (الموازنة) استثناء فهو يلتفت إلى بعض المسائل ويناقشها .

ويرجع اهتمام أصحاب الشروح بالمترادف والمشترك إلى أنهم يتابعون القصائد شارحين لها مما يجعلهم يقفون عند الأبيات ومكوناتها من عبارات وألفاظ مفردة ، ويقلبون الوجوه الاحتمالية لدلالات الكلمات فيحتاجون إلى التنبيه على المتعدد كيلا يقع القارىء في لبس أو وهم مما يؤدي إلى اضطراب في غرض الشاعر ، وهذه الرؤية القريبة التفصيلية ليست متاحة بقدر كاف للنقاد الآخرين الذين عنوا بتقسيمات لموضوعات الدرس تختلف عما هي عليه مناهج الشروح ، ولو كان لنا أن نفترض استفادة يحصلها هؤلاء لكانت مرتبطة بترتيب مرحلي يبدأ بالكتب الشارحة التي تفصل القضايا الدلالية كهذه المناقشة ههنا ، ومن ثم يستخلص أصحاب المؤلفات النقدية الأخرى نتائج عامة يتناولونها بالمحاورة والجدل ويذكرون الأمثلة الموضحة لها ، فكثرة المشترك اللفظي والترادف والتضاد في شعر شاعر أو مجموعة من الشعراء تستوقف الباحث في الشعر القديم والمحدث ، وتثير

عدداً من المسائل الفرعية في لغة الشاعر ، وأسباب بروز هذه الظواهر في نتاجه (أسباب قبلية ، وجغرافية وثقافية بالنسبة إلى المتأخر المحدث) واستخلاص مؤشرات مفيدة في فهم الأعمال القديمة وتلك المحدثة أيضاً .

٢) والاتجاه التطبيقي هو الغالب في الشروح ، وفيا ورد في المصنفات الأخرى فنحن نلحظ وقوفاً عند لفظة ، ومن ثم بسطاً لعدد من المرادفات لها ، أو ذكر المعنى (أو المعاني) الآخر الذي يؤديه اللفظ المشترك (وفيه التضاد) .

أ ـ فمن أمثلة الترادف ماعلق ابن الأنباري على بيت عمرو بن كلثوم :

تَرى اللَّحِزَ الشَّحيحَ إذا أمرَّت عليه لمالِهِ فيها مُهينا

قال أبو عمرو : اللحز السيء الخلق اللئيم ، وقال غيره : يقال للسيء الخلق : الشرس ، والشكس واليلندد . والقاذورة : الفاحش السيء الخلق . قال متمم بن نويرة اليربوعي :

وإن تلقه في الشرب لاتلق فاحشاً على الكأس ذا قاذورة متريِّعا[1]

وماجاء لدى ابن جني في الفسر شارحاً المتنبي إذ يقول :

مرّت بنا بين تِرْبَيْها فقلتُ لها من أين جَانس هذا الشادِنُ العربا ؟

« فالترب ، والقرن ، واللدة شيء واحد ، إذا كان سنها واحدا[2] » .

وكذلك ماأورده ابن النحاس من أسماء الخمر تعقيباً على شرح المدامة في بيت عنترة :

ولقد شربتُ من المُدامَةِ بعدما ركَدَ الهواجُر بالمَشُوفِ المُعْلَمِ

---

(١) ابن الأنباري ، شرح القصائد السبع ٣٧٣ ـ ٣٧٤ .

(٢) ابن جني ، الفسر الكبير (١/٢٥٤) .

فقد خصّت الخمر بأسماء وصفات ، وهذه أسماء الخمر وصفاتها ، فبعض ذلك عن البصريين وبعضه عن الكوفيين : « هي الخمر والقهوة والسلافة ، والمدام والعقار والراح والشمول والقرقف والإسفنط ، والسلسل ، والسلسال والخرطوم والخندريس والزرجون والسلسبيل ، والعانية والصريفية والمشعشعة والصهباء ، والسخامية ، والصرخدية ، والمقدية والخمطة ، والكميت والعاتق والماذية ، والمزاء والمزة والكلفاء[1] » وابن النحاس يتابع سرده هذا شارحاً كل ما أتى به ، وعلى الرغم من أنه نبّه إلى الاسمية والوصف إلا أنه لم يحرص على تمييز كل قسم من القسم الآخر .

ويكاد الآمدي ينفرد بأنه يورد المترادف مع شيء من الشرح والمناقشة فبيت البحتري :

فمجدّل ومرمّل وموسّد ومضرَّج ومضمّخ ومخضّب

يعيبه بعضهم بقوله : إن (مضرج ومضمخ ومخضب) بمعنى واحد ، ولو أراد البحتري رجلاً واحداً أنه مضرج ومضمخ ومخضب جاز ، لأن كل لفظة تكون مؤكدة للأخرى ، لكن الشاعر إنما أراد : فمنهم مضرج ومنهم مضمخ ومنهم المخضب كما قسم في صدر البيت .

فيرد الآمدي بأن هذا الذي جاء به البحتري ليس بمنكر ، ويبين أسباب استعمال الشاعر ذلك « أن المضرج من الضرج وهي الحمرة المشرقة التي ليست بقانية ، والمضمخ يريد به غلظ الدم وأنه قد صار في متانة الطيب الذي يتضمخ به ، والمخضب أراد أن الدم قد خضبه كما يخضب بالحناء ، ففي كل لفظة ما ليس للأخرى ، وإن كانت الحمرة قد شملت الجميع »[2] . والناقد هنا يسعى إلى نصرة

(1) شرح القصائد التسع ، ابن النحاس ٤٩٧ فما بعد .

(2) الموازنة (١ ص ٤٠٠ ـ ٤٠١) .

شاعره الذي يحابيه في مواضع من موازنته ، فيظهر الفروق بين أسماء تبدو واحدة في رأي بعضهم ، وليس هذا مذهباً عاماً للآمدي في مسألة الترادف ، لأنه يقرّ في مناقشة أخرى بأن ثمة كلمات تترادف وتمّحي الفروق والاختلافات بينها بتقدم الزمن ، فلأبي تمام أبيات يتخذها الناقد مثلاً لخروجه الرديء :

يد الشكوى أتتك على البريد	تمد بها القصائد من نشيد
تقلّب بينها أملاً جديداً	تدرّع حلتي طمع جديد
شكوت إلى الزمان نحول جسمي	فأرشدني إلى عبد الحميد

ويعقب الآمدي : « وقوله « أملاً جديداً ... جديد » لفظ رديء جداً ، لأن معنى الطمع والأمل والرجاء معنى واحد في مقاصد الناس ، واستعمالهم ، تقول أنا آمل من الله تعالى الفرج كما تقول أطمع ، وإنما ينسق (يعطف) بعضها على بعض لاختلاف اللفظ .

وتقول : قد انقطع من فلان الطمع ، وانقطع الرجاء وكذلك خاب ، فإن كان بين هذه الألفاظ فرق في أصل وضع الكلام فقد أجريت مجرى واحداً ، فلا فائدة إذن في قوله : (أملاً جديداً تدرع حلتي طمع جديد) ، ولو كان قال (تدرّع حلتي عزم جديد) كان أولى بالصواب »[1] .

وقد تسلك الملحوظة الأخيرة للآمدي ضمن اللمحات النظرية النادرة في الكتب النقدية جميعها ، ويقرب منها صنيع ابن النحاس إذ ينقل رأي أبي العباس (الأغلب أنه ثعلب) في المترادف بإيجاز شديد ، وإجمال فلا يظهر الجانب التقعيدي ، بل إنه يحترز ولا يقبل الفكرة قبولاً تاماً عندما يروي بصيغة (زعم) ، ومؤدى هذا الرأي أنه لا يوجد ترادف إذا ماأردنا بهذا الاصطلاح تطابق المعنى في كل لفظ من المترادف ، ويدور الحوار حول البيت :

---

(١) الموازنة (٢ / ٣٢٦ ـ ٣٢٧) .

أمرتك الخير فافعل ما أمرت به   فقد تركتك ذا مال وذا نشب

فابن النحاس يذكر أنهم قالوا : « المال والنشب واحد » . ويعقب بعبارة « وزعم أبو العباس أنه لا يجوز أن يكرِّر الشيء ، إلا وفيه فائدة » ، وقال : النأى ماقل من البعد ، والبعد لا يقع إلا لما كثر ، وقال : النشب ماثبت من المال نحو الدور وما أشبهها ، نذهب إلى أنه من نشب ينشب إذا ثبت ، وكذلك في قول الله عز وجل ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنا مِنكُمْ شِرْعَةً ومِنهاجاً ﴾ [المائدة ٤٨/٥] قال : الشرعة ماابتدئ من الطريق ، والمنهاج : الطريق المستمر ، وقال غيره : الشرعة والمنهاج واحد وهما الطريق ، ويعني بالطريق ههنا : الدين[١] .

وأما ابن جني فهو يعلل ظاهرة الترادف في شروحه المختلفة ، ولا يبدي فيها رأياً إلا في كتابه (الخصائص) ضمن باب لا يُعنَوْن باسم الظاهرة الاصطلاحي (في الفصيح يجتمع في كلامه لغتان فصاعداً) ، وهو يرى أن مرد التعدد في الأسماء للمعنى الواحد يرجع إلى اختلاف القبائل ، واجتماع الكلمات المتباينة للمدلول الواحد باختلاط الأقوام وانتقال مواد اللهجات ، « فإذا كثر على المعنى الواحد ألفاظ مختلفة فسمعت في لغة إنسان واحد ، فإن أحرى ذلك أن يكون قد أفاد أكثرها أو طرفاً منها من حيث كانت القبيلة الواحدة لاتتواطأ في المعنى الواحد على ذلك كله . هذا غالب الأمر ، وإن كان الاحتمال الآخر : أي تعدد الألفاظ في القبيلة في وجه القياس جائزاً ، وذلك كما جاء عنهم في أسماء الأسد والسيف والخمر وغير ذلك ، كما كثرت الألفاظ على المعنى الواحد كان ذلك أولى بأن تكون لغات لجماعات اجتمعت لإنسان واحد من هنا ومن هنا »[٢] .

ب) ونطالع من أمثلة المشترك اللفظي لدى ابن الأنباري ما يتصل بلفظ (الإمام) في بيت لَبيد :

---

(١) ابن النحاس ، شرح القصائد التسع ٤٦٢

(٢) الخصائص ، ابن جني (١ / ٣٧٣ ـ ٣٧٤) .

من معشرٍ سنّت لَهُمْ آبــــاؤُهم   ولكلٌ قــومٍ سُنّــةٌ وإمــامُهــا

فالإمام : المثال قال الشاعر :

أبــوهُ قبْلَــهُ وأبــو أبيــهِ   بَنَــوا مَجْـدَ الحيــاةِ على إمــامِ

معناه على مِثال . والإمام : الكِتاب ، والرّسول . قـال الله عز وجل ﴿ يَومَ تَـدعُو كُلَّ أُنـاسٍ بِإمَـامِهِم ﴾ [الإسراء ٧١/١٧] ، والإمـام : الطريق الـذي يؤتم به . قال الله تبارك وتعالى ﴿ وإنَّهما لَبِإمامٍ مُبين ﴾ [الحجر ٧٩/١٥][١] .

ومما جاءَ في (الفسر) لابن جني نعرض المعاني التي تؤديها صيغـة (الواجـد) على الرغم من اختلاف المصدر الذي اشتق منه ، فإن لم يكن واضحاً ، وفـارقـاً بين الوجوه المحتملة فإن التعدد هو الأسبق إلى الذهن ،. ويثير المسألة بيت المتنبي :

وللــواجِــد المكرُوبِ من زَفَراتِــه   سكــونُ عراءٍ أو سُكــون لُغــوبِ

(الواجد) : الحزين ، يقال : وجدت في الحزن وجداً ، و (الواجد : واجد الضالة ، ومصدره الوجـدان ، و (الواجـد) : المعنّى ، ومصـدره الوَجْـدُ والوُجْـد والوِجْد والجِـدَةُ ، و (الواجـد) : الغضبـان ، والمتعتب ، ومصـدره : الموجـدة ، و (الواجد) : العـالم ، تقول : وجـدت زيـداً أخـاك ، أي علمتـه أخـاك . قـال الشاعر « الحمد لله الغني الواجد »[٢] .

وتستدعي لفظـة في بيت لأبي تمام تنـاول أكثر من وجـه لهـا في الاستعمال ، فالبيت هو :

من كُـلّ نـاجِيَــةٍ كأنَّ أديمَهــا   حِيصتْ ظَهَـارتـه بجلـدِ أطـومِ

---

(١) شرح القصائد السبع ، ابن الأنباري ٥٩٣

(٢) الفسر الكبير ، ابن جني ١٥٥

وقول الشاعر : (حيصت) يعني خيطت بجلد أطوم . يقال : إن الأطوم : السلحفاء البحري الذي يجعل من جلده الذبل ، ويشبه جلد البعير الأملس به ، ويقال : الأطوم سمكة في البحر غليظة ، وقيل : بل هي بقرة يتخذ من جلدها الخفاف للحمالين[1] .

ج) ومن الأضداد (البَيْن) كما يرى ابن الأنباري ، إذ يقف أمام بيت لعمرو بن كلثوم :

قِفي نسألْكِ هل أحدثتِ وَصْلاً لوشكِ البَين أمْ خُنْتِ الأمينا ؟

فالبين : الفراق ، والبين : الوصال ، قال الله عز وجل : ﴿ وجَعَلْنا بَيْنَهم مَوْبِقاً ﴾ [الكهف ٥٢/١٨] . معناه : جعلنا تواصلهم في الدنيا مهلكاً لهم في الآخرة . وقال الشاعر :

لعمرك لولا البَين لانقطع الهوى ولولا الهوى ما حنّ للبين آلف

فالبين الأول والثاني بمعنى الوصال[2] .

ويذكر ابن جني في الفسر أيضاً لفظة (القشيب) على أنها من الأضداد ، وقد وردت في بيت المتنبي :

أيا منْ عاد روحُ المجد فيه وعاد زمانُه البالي قشيبا

« فالقشيب الجديد هنا ، وهو (الخلق) أيضاً في غير هذا الموضع ، وهو من الأضداد ، قال الكميت :

ينشق عن حدها الأتيُّ كما شقّت مآلي المأتم القشب

(١) الموازنة (٢٨٠/٢) .

(٢) شرح القصائد السبع ٣٧٧

يعني بالقشب : الجدد . ولم يذكر ابن دريد أنه من الأضداد ، وقال : هو الجديد »[1] . وهكذا نجد أن النقاد والشراح منهم خاصة ، لم يفيدوا من القيم الدلالية في ظواهر الترادف والمشترك اللفظي والأضداد إفادة كبيرة ، وأن ما لديهم ـ وقد عرضنا نماذج ممثلة له ـ يعد مادة أولية للبحث والدراسة ، يمكن معالجتها من وجهتين : الأولى تتم بالبحث في المواضع والمواد اللغوية ، وأسباب قابليتها لأن تثير مسائل دلالية خاصة ـ الترادف ... ـ والثانية يدرس من خلالها العلاقة بين استعمال الشاعر لمفردات ملبسة وذات قدرة على الاشتجار بأصول لغوية عدة ، والعملية الإبداعية . وههنا يساعد الباحث مجمل علاقات الشاعر ببيئته الطبيعية والاجتماعية والثقافية .

وإننا نتبع هذه الفقرة بسرد للمواضع التي استطعنا إحصاءها فيما يتعلق بهذه الظواهر الدلالية في كتب النقد .

(١) الفسر الكبير ، ابن جني ٣٢٦ ، والإشارة هنا في الأغلب إلى (الجمهرة) معجم ابن دريد المعروف .

مسرد بالمشترك والمترادف والتضاد

١ ـ المترادف :

أ ـ في الفسر الكبير لابن جني ص ٥٢ ، ٥٧ ، ٥٨ ، ٦٠ ، ٦٢ ، ٦٨ ، ٧٧ ، ٨٨ ، ٩٧ ، ١٠٧ ، ١٧٧ ، ١٨٤ ، ١٩٣ ، ٢٠٧ ، ٢١٩ ، ٢٣٤ ، ٢٤٤ ، ٢٤٦ ، ٢٥٤ ، ٢٥٦ ، ٢٧٤ ، ٢٧٥ ، ٣١٠ .

ب ـ في الفسر الصغير (مخطوط) ص ٧أ ـ ٧ب ، ١٢أ ، ٢٣أ ، ٥٥ب ، ٦٨أ ، ٨٢ب ، ٨٤أ ، ٩٦أ ، ١٠٨ب ، ١٣٤أ ، ١٥٢أ ، ٧٣أ ، ١٨٠ب ، ١٩٣ب ، ١٩٩ب ، ٢٣٩أ ، ٢٥٩ب ، ٢٧١أ ، ٢٨٠ب ، ٢٤٧ب ، ٢٤٨أ ، ٢٦١أ ، ٢٩٨أ ، ٣٠٢ب ، ٣٠٥ب ٢١٠ب .

جـ ـ شرح الأرجوزة ص ٢٤ ، ٢٦ ، ٦٥ ، ٩١ ـ ٩٢ ، ٩٦ ، ١١٥ ، ١٢٢ ، ١٢٦ ، ١٣٠ .

د ـ التمام في تفسير بقية أشعار هذيل ص ٢٤ ـ ٢٥ ، ١٠٨ ، ١٥٨ ـ ١٥٩ ، ١٧٧ .

هـ ـ شرح ابن الأنباري للقصائد السبع ص ٢٨ ، ٤٦ ، ٥٤ ، ٦٩ ، ٧١ ، ٨٩ ، ١٣٠ ، ١٣٩ ، ١٤٣ ، ١٥٣ ، ١٦٩ ، ١٧٦ ، ١٨٥ ، ٢٤٧ ، ٢٧٣ ، ٢٩٩ ، ٣٠٠ ، ٣٤٠ ، ٣٥١ ، ٣٧٣ ، ٣٧٤ ، ٣٧٩ ، ٣٩٢ ، ٤٤٦ ، ٤٦٢ ، ٥١٥ .

و ـ شرح ابن النحاس للقصائد التسع ص ١٠٦ ، ١٣٤ ، ١٤٥ ، ١٧٩ ، ١٩٤ ، ١٩٥ ، ٢٠٢ ، ٢٣٢ ، ٤١٩ ، ٤٦٢ ، ٤٨١ ، ٤٩٤ ، ٤٩٨ ، ٥٢٥ ، ٥٥٢ ، ٦٣١ ، ٦٦٤ ، ٧٥٥ ، ٧٨٥ ، ٧٩٤ ، ٨١٠ .

ز ـ الموازنة للآمدي ١ ، ص ٤٠٠ ، ٤٠١ ، ٥٢٧ ، ٥٥٨ ، موازنة ٢ ، ص ٣٢٦ ـ ٣٢٧ ، و ص ١٠٨ ، ١١٠ ـ ١١١ .

ح ـ الموشح للمرزباني ص ٩٥ ، ١٢٤، ١٢٥ .

● يقارن هذا بما ورد لدى الخطابي في رسالته في إعجاز القرآن ، ص ٢٩ ، ٣٠ ، ٣١ ، ٣٣ ، ٣٧ .

٢ ـ المشترك اللفظي :

أ ـ الفسر الكبير لابن جني ص ٥٧ ، ١٥٥ ، ١٥٦ ، ١٦٢ ، ١٧٦ ، ٢١٧ ، ٢٧٤ ، ٣١٣ .

ب ـ الفسر الصغير ص ٧أ ، ١٦أ ، ١٨أ ، ٢٠أ ، ٢٥أ ، ٢٩أ ، ٤٩ب ، ١٠٠ب ، ١٠٧أ ، ١١٣ب ، ١١٨أ ، ١٢٦ب ، ١٦٢ب ، ٢٤٥أ ، ٢٥٥أ ، ٢٩٧ب .

ج ـ الفتح الوهبي لابن جني ص ٧٣ .

د ـ شرح ابن الأنباري على القصائد السبع ص ١٨ ، ٩٧ ، ١١٠ ، ١٦٥ ، ١٩٥ ، ١٩٦ ، ٢١٢ ، ٢٧٧ ، ٢٩٨ ، ٣٣٦ ، ٤٠٢ ، ٥٩٣ .

هـ ـ شرح ابن النحاس على القصائد التسع ص ١٠٥ ، ٢٦٧ ، ٣٣٨ ـ ٣٣٩ ، ٣٩٥ ، ٤٣٠ ، ٤٦٠ ، ٤٨٦ ، ٦٢٦ ، ٧٩١ .

و ـ الموازنة للآمدي ١ ، ص ٤٤٥ ، ٥٤٨ ، موازنة ٢ ، ص ١٦٣ ، ٢٨٠ ، ٣٤٠ .

ز ـ الموشح للمرزباني ٥٠٥ ، ٦٠ .

٣ ـ الأضداد :

أ ـ الفسر الكبير ١٤٥ ، ١٧٩ ، ٣٢٦ .

ب ـ الفسر الصغير ٣١ب ، ١١٩أ ، ٢٦٩أ .

ج ـ الفتح الوهبي ٨٨ .

د ـ ابن الأنباري ٣٧٧ .

هـ ابن النحاس ١٠١ ، ١٣٠ ، ٤٦٠ ، ٥٦٨ .

و ـ الموازنة ٤٨٥/١ ، موازنة ٣٥/٢ ، ٢٠٦ .

الفصل الثاني

المعياريّة والدلالة

المعيارية والدلالة

تعدّ دراسة المنهج المعياري من مفاتيح البحث الدلالي العربي ، ذلك أن تراثنا اللغوي قد تتابع عليه الباحثون من الأسلاف وحتى المعاصرين في أيامنا هذه والمعياريّة نصب أعينهم ، لا يحيدون عن أسسها فيما يعالجون من مسائل الفصحى سواء في الجوانب الصوتية أو الصرفية أو النحويّة أو الدلالية .

ويحاول بعض المحدثين من اللغويين العرب تجاوز قيود المعيارية في بحوثهم متطلعين إلى تطبيقات وآفاق نظرية ، تعتمد على الدرس الوصفي المجرّد ثم تنقلب إلى صياغة حيّة معاصرة ، فيها عربية تختلف كثرة وقلة في ضوابطها عن الموروث التقعيدي والاستعمالي .

ولا يستقيم لنا فهم الطرائق التي تجدي في التحليل الدلالي مالم نقف على أبعاد هذا المنهج المعياريّ ، ونفصل بين مساحات لابد أن يغطيها وأخرى تظل متاحة فيها فرص التناول التطوري والتجديدي للعربية .

نحدد بدايةً مفهوم المعيار والمعيارية في الفكر والعلم ، فالمعجم الفلسفي يذكر أن المعيار Norme هو « نموذج أو مقياس مادي أو معنوي لما ينبغي أن يكون عليه الشيء . فهو في (الأخلاق) نموذج السلوك الحسن وقاعدة العمل السديد ؛ وفي الأكسيولوجيا مقياس الحكم على القيم ؛ وفي علم الجمال مقياس الحكم على الإنتاج الفني ؛ وفي المنطق قاعدة الاستنتاج الصحيح »[1] .

وأمّا المعياري Normatif فيكون في العلوم المسماة (معياريّة) Sciences normatives ، وهي التي تتجاوز دراستها وصف ما هو كائن إلى دراسة ما ينبغي

---

(١) المعجم الفلسفي ، مجمع اللغة العربية بالقاهرة ، ١٩٧٩ م . ١٨٨

أن يكون . فهي تتضمن دراسة القيم من حقّ وخير وجمال ، ومن هنا كانت علوم المنطق والأخلاق والجمال من حيث تنتهي إلى أحكام تقويمية دون أن تصدر أوامر أو تعليمات ، وهي تقابل العلوم الوضعية Positif أو الوصفية Descriptif ، وهي التي تدرس ماهو كائن[1] .

وإذا ماربطنا بين جهود اللغويين العرب وهذين التعريفين ، فإننا ندرك أنهم كانوا يقيسون الأداء اللغوي سواء في مستوى التعامل اليومي أو في النتاج الفني والفكري والعلمي بمعاييرهم التي استنبطت في عصور الاحتجاج ، ومن ثمّ تصدر الأحكام لتبرز التوافق أو التنافر ، أي الصواب أو الخطأ ، وهذا يعني أن قواعدهم كانت سابقة على تأملهم ونقدهم ولا سبيل إلى درس وصفي يمكن أن يؤدي إلى إثبات ما يخالف أصلاً عرف مكانه في منظومة تقعيدية ، ولقد ربط السيد الشريف الجرجاني ت (٨١٦ هـ) في تعريفاته بين المعايير العقلية وتلك اللغوية ، فالمنطق « آلة قانونية تعصم مراعاتها الذهن عن الخطأ في الفكر فهو علم آلي » ... وهذا التعريف « يخرج العلوم القانونية التي لاتعصم مراعاتها الذهن عن الخطأ في الفكر بل في المقال كالعلوم العربية »[2] .

إن القول بإمكان لدرس دلالي يتناول العربية الفصحى وصفياً في كل حقبة مرّت بها منذ الجاهلية القديمة إلى العصر الحديث ، يبدو بحاجة إلى برهان يزيل التداخل بين هذه الوصفية وما سيبنى عليها من علاقات تطورية وذاك النهج ، الذي يحتّم اتباع المعايير والقوانين التي استنها علماء العربية الفصحى .

إننا نبيّن في هذا الحيّز من الدراسة أصول المنهج المعياري الذاتية ، وهي طبيعة (الفصحى) وسماتها الاحتجاجية ، والعوامل المؤثرة مما اكتسبته من

---

(١) المعجم الفلسفي ، مجمع اللغة العربية بالقاهرة ١٩٧٩ م ١٨٨ ، وانظر :
Dic alphabétique et analogique de la langue française V. 4 P.P. 809 -810

(٢) التعريفات للسيد الشريف الجرجاني ط صبيح القاهرة ١٩٣٨ م ٢٠٨

الثقافات الأجنبية وخاصة (اليونانية) ، ثم نطلع على مجالين هيمن عليهما المعيار ، ولهما صلة جوهرية بالأداء اللغوي بصورته العامة والفنّية وهما (اللحن اللغوي في تاريخ العربية) و (النقد الأدبي والمعيار اللغوي) .

١ - المؤثرات الأجنبية في تشكيل المعيارية

إن حديثنا سيكون عن المنطق لدى أرسطو وارتباطه بالمعيار ، ثم انتقاله إلى المسلمين مع ما نقل في حركة الترجمة ، وبين هذين الجانبين سيمتد برزخ من الآراء الحديثة حول جزئيات فيها . وطبيعي أن عملنا التأصيلي هذا (للصواب والخطأ) سيجتاز آفاقاً في البحث تحفها المزالق ، وتحيط بها التساؤلات عن جدوى الإيغال في المنطق على هذا النحو أو ذاك . إذن لا ضير في أن نعرض لكيفية تناولنا للمادة هنا ، وإن شئنا الدقة : وظيفتها في البحث الدلالي :

فالدراسة المتخصصة إنما تهتم بحيز خاص تتقصى فيه أكبر قدر من المعلومات والمعارف تتاح علمياً للدارس ، ومن ثم يعمد إلى التحليل وابتناء هيكل نظري ينظم الركام الذي هو هيئة المعلومات السابقة ، وبهذا تغدو الدراسة مقدمة لتاليات لها فيدفع العلم خطوات إلى حقول جديدة ، وفي إطار هذا النهج لا بد من الاتكاء على معطيات علوم مخالفة لما يقف أمامه الباحث ، فيستمد المقاييس أو التحليلات ، ولكننا لا نطلب مناقشة تفصيلية مع كل استمداد ، بل يتم التعامل على أساس القضايا العامة المسلم بها ، ويحال إلى المصادر الأساسية في بابها ، وهذا موقفنا في الاعتماد على مفهومات عامة للمنطق ومن ثم صلة المسلمين بالمنطق وفلسفة اليونان ، لأن الغاية - لدينا - هي معرفة (المعيار) وانتقاله إلى العلوم المختلفة وإلى النظرة الدلالية (الإسلامية) في العربية .

وثمة من يرى أن « المؤلفات الأرسطية تشكل موسوعة كبرى انتظم فيها العلم

القديم بأكمله عدا الرياضيات »[1] ، وأن الأهمية التي تقدم من وجهة النظر المنهجية تكمن في أن أرسطو هو « أول من نظر إلى العلم في مجموعه ، ووضع مبادئ تصنيف تام للعلوم يتمثل في مجموعة كتبه »[2] ونجده يقسم العلم إلى نظري ينتهي إلى مجرد المعرفة : العلم الطبيعي ، مابعد الطبيعة ، الرياضي ، وعملي يرمي إلى غاية متمايزة من المعرفة ، وهذه الغاية هي تدبير الأفعال الإنسانية ، إما في نفسها ، وهذا هو العلم العملي بمعناه المحدود ، وإما بالنسبة إلى موضوع يؤلف ويصنع ، وهذا هو الفن ، ومن العلم العملي : تدبير أفعال الإنسان والأخلاق والسياسة[3] .

أما المنطق فلم يدخل في أي من القسمين السابقين « وهو علم يتعلم قبل الخوض في أي علم آخر ليعلم به أي القضايا يطلب البرهان عليها ، وأي برهان يطلب في كل قضية ، فإن من الخُلْف طلب العلم ومنهج العلم في آن واحد ، إذن فهو آلة العلوم ، أو هو علم جديد ينشأ من رجوع العقل على نفسه لتقرير المنهج العلمي ، فموضوعه صورة العلم لا مادته »[4] .

والمنطق له ـ كأي علم آخر ـ موضوع يبحث فيه عن أحواله ، أو عوارضه الذاتية كما يقول المناطقة العرب ، وهذا الموضوع هو « التصورات والتصديقات من حيث إنها مؤدية إلى تحصيل علم لم يكن إلاّ أن المنطق لا يُعْنى عناية خاصة بالمضمون الواقعي لهذه التصورات بقدر عنايته بالعمليات العقلية التي تؤدي إلى تحصيل التصورات والتصديقات تحصيلاً صحيحاً . ولهذا فإن الجانب الصوري فيه

---

(١) الفلسفة اليونانية ، يوسف كرم ١١٦ ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ط ٥ القاهرة ١٩٧٠ م .

(٢) يوسف كرم . الفلسفة اليونانية ١١٨

(٣) المصدر نفسه ١١٨

(٤) المصدر نفسه ، ١١٨ ، وينظر في كتاب (أرسطو) لعبد الرحمن بدوي ٥٦ ، دار النهضة المصرية ط ٢ القاهرة ١٩٤٤ م .

أرجح من الجانب المادي حتى إن المقصود بهذا الجانب المادي ، ليس هو ضمان صحة النتائج في كل علم ، وإنما يقصد به مراعاة الإشارة الموضوعية للتصورات والتصديقات »[1] . وبمقارنة هذا الوضع بما هو مقرر في العلوم تقترب مما نهدف إليه ، فنتلمس معرفته في صلة بالمعيار العقلي والتصويب والبحث عن الغلط .

وهناك من الدارسين في العصر الحديث من يطرح صلة الفلسفة بالعلم ـ من زاوية خلق المنهج ـ للمداولة والمناقشة ، فيتساءل كلود برنارد : هل الفيلسوف أو العالم هو الذي يضع القواعد للمناهج العلمية ؟ وإنه يرجح أن المناهج لا يمكن أن تدرس نظرياً كقواعد عامة يفرض على العالم بَعْدُ أن يسير وفقاً لها ، وإنما تتكون داخل المعمل الذي هو معبد العلم الحقيقي ، وإبّان الاتصال المباشر بالوقائع والتجارب العلمية[2] . وثمة رأي يحاول التوفيق بين تشدّد برنارد وأصحاب النظر العقلي المتمايز من الواقع التفصيلي ، فهمة الفيلسوف لا تتنافى مع مهمة العالم ، لأنها خطوة تليها . فعلى العالم المتخصص أن يرشدنا أولاً إلى المنهج الذي اتبعه في أبحاثه ، وأن يطلعنا على الخطوات التي مرَّ بها في بحثه في مضماره الخاص ، ثم يأتي عالم آخر أميل إلى النظرة العامة ، أي يكون ذا نزعة فلسفية فيحاول أن ينسق بين هذه التقريرات التي قدمها العلماء المتخصصون ليستخلص منها الخصائص العامة للمناهج المختلفة ، ثم يأتي الفيلسوف المنطقي فيسعى لإرجاع هذه المناهج إلى صفات ذاتية في العقل الإنساني ، محاولاً أن يصوغ النتائج التي وصل إليها السابق في صيغ واضحة تنظم على هيئة مذهب في العقل الإنساني من حيث طبيعة اتجاهاته في البحث عن الحقيقة[3] .

---

(١) المنطق الصوري والرياضي ، عبد الرحمن بدوي ٦ ـ ٧ ، دار النهضة المصرية القاهرة ١٩٦٨ م و ص ٣

(٢) مناهج البحث العلمي ، عبد الرحمن بدوي ٧ ، دار النهضة المصرية القاهرة ١٩٦٨ م ط ١

(٣) مناهج البحث العلمي ، عبد الرحمن بدوي ١٧

ونصل إلى النقطة التي تخصّص القول في معيارية المنطق ، فبعد أن رأينا تحديد المنهج بين المنطقي والفيلسوف والعالم الذي يمارس العمل والدرس في مجال بعينه من مجالات العلوم ، يطلعنا الحوار حول كون المنطق علماً أو فناً على المزيد من الخصائص لوظيفة المنطق المحددة لمعايير (الصواب والخطأ) والمطبقة في هذا العلم أو ذاك ، فالذين نظروا إلى المنطق على أنه علم كما فعل أرسطو يقصرون المنطق على دراسة قوانين البرهان ، والذين يرمون في المنطق إلى وضع قواعد وفرضها لتوجيه العقل ، وبيان المناهج العملية المؤدية إلى تحصيل المعارف في العلوم المختلفة ، ويدرسونه من أجل هذه الفائدة يعدون المنطق فناً وعلماً ، أو فناً بوجه خاص[١] .

وهناك من يجمع بين الطرفين ـ حيث يتتابع جماعة بور رويال ، وفنت ، وليفي بريل ، وزمّل ـ و (جبلو) يرى أنْ لا محل لهذه التفرقة ، فإذا فهمنا المعيارية بمعنى العملية فإن جميع العلوم نظرية من ناحية أن غايتها المباشرة وضع الحقائق المباشرة اليقينية ، ومعيارية لأن من الممكن دائماً استخدام هذه الحقائق في توجيه العقل[٢] .

ويقول دارس عربي إن المنطق ليس فناً أي عملاً ، كما أنه ليس معيارياً أي علماً يبحث في قيمة الغايات نفسها ، وإنما المنطق علم بالمعنى الدقيق أي طائفة من الحقائق الخاصة بموضوع معين ، هو في كلمة واحدة : علم التفكير الصحيح[٣] .

وإننا بعد هذا الاطلاع على جوانب درس المنطق الأرسطي ندرك الوشائج التي يتصل بعضها ببعض من تحقيق المنهج المنطقي ونقله إلى العلوم ، ومدى

---

(١) المنطق الصوري والرياضي ، بدوي ١٧

(٢) المنطق الصوري والرياضي ، بدوي ٢١ ـ ٢٢

(٣) المنطق الصوري والرياضي ، بدوي ٢٣

تطـابـق المهمـة التي تـولّـد المنطـق من أجلهـا أولاً مـع أغراض العلم في وجـوهــه المتعددة .

وتبرز أهميـة دراستنـا للمنطـق في مقـام تفسير منـاهـج البحث اللغـوي عنـد أصحاب التآليف العربية القديمة في القرون الهجرية الأولى ، فلقد اتضح أن ذلـك المعيـار في الصواب والخطـأ (أو الميزان) الـذي أمكن أن يستخرج قـوانين للعقـل ونشاطه بانعكاس العقل على نفسـه (ذاتـه) دارسـاً متـأملاً قـد استعير واستخـدم لينظم الحركة الذهنية (العقلية) في أوجـه التفكير والعمل المختلفـة للحيـاة ، فلم يعد محصوراً في مضمار آفـاقـه هي التصورات والتصـديقـات المنطقيـة مضـافـة إلى المبـادئ الأولى الثـابتـة في العقـل البشري السليم ومـؤديـة إلى البرهـان والأقيســة المتفرعة منه .

وأرى أن المنطق الأرسطي إنما يحلّل في إطار التراث القديم (عربياً) على أنه منهج ، أي يمثل خطـاً عقليـاً متميزاً لـه أدوات جزئيـة يستطـاع بهـا التوصـل إلى تحقيق جزئيات علم من العلوم ، ومن ثم بناء أركانه .

ويبقى أمر في المنطـق الأرسطي هـو المؤثرات المتبـادلـة بين دراسـة النحـو واللغة والبحث المنطقي : فقـد كانت نشـأة المنطق مرتبطـة بـاللغـة والنحو عنـد اليونان ، وإن دراسة الأجرومية النحوية اليونـانيـة تتبـدى في أقسـام رئيسيـة في كتب أرسطـو ، ونـذكر بكلمـة مـوجـزة أن « السفسطـائيـة ربطـوا بين الكلمــة والعقل ، وقد استعملوا خصائص اللغة وألفاظها في جدلهم ، وارتقوا بعد ذلـك إلى ضروب من الفن الخطابي المستهدف الإقناع في المحاورات »[1] .

وتطـالعنا لدى أرسطو أبحاث التصورات التي تتصل اتصالاً مبـاشراً بـاللغـة ،

---

(١) المنطق الصوري والرياضي ، بـدوي ٣٣ ، والمنطق الصوري ، علي سـامي النشـار ٦٤ ، منشـأة المعارف ، الإسكندرية ، ١٩٦٣ م ، ط ٢

فتقسيم الكلمـة إلى مفرد ومركب والبحث في الألفـاظ المشتركـة والمترادفـة ، والمتزايلة ، والمتواطئة ظاهر العلاقة بمباحث لغوية ، وكذلك باب (العبارة) من القضايا وأقسامها الحملية والشرطية ، وأجزائها : الفعل والاسم والحرف ، وعلى العموم يقوم المنطق الأرسطي إلى حدّ كبير على خصائص اللغة اليونانية[1] ، وهذا ما يدركه تمام الإدراك فلاسفة الإسلام فيا بعد وأخص المتوفرين منهم على المنطق كالفارابي في إحصاء العلوم[2] .

ونذكر هنا مشاركة (ترندلنبورج) في شرح أصول المقولات والأساس الـذي بنيت عليه في منطق أرسطو إذ يقول : « إن أرسطو قد لجأ في استخراجـه لهـذه المقولات إلى اللغة والنحو بشكل خـاص »[3] وإن مـا يشغلنـا في هـذا الحيز هو أن تغدو فكرة تأثر المنطق بمعطيات لغوية نحوية وتـداخل الميـدانين واضحـة ، فهي ستنير لنـا بَعـدُ كيف التقت الأنشطـة العلميـة الإسـلاميـة وشكّـل المنطـق عنصراً مشتركاً بينها .

وإننا نستعرض الآن انتقال المنطق اليوناني إلى العالم الإسلامي ، مستهـدفين غرضاً أساسياً لنـا في بحثنـا ، وهو صلـة المعيـار العقلي : المنطق بعلوم اللغـة منـذ نشـأتهـا ، وأثره في درس الـدلالـة ، لقـد اقترنت أمور ثلاثـة في الحيـاة الإسلاميـة الأولى ، أو نستطيع القول : إنها تتابعت على نحو متقارب وذلـك دفعـاً لجـدل قـد يرغب فيه بعض المـدققين ، وأولهـا : الانتشـار البشري في أصقـاع الشـام وفـارس والعراق ومصر وما وراءها مع حركـة الفتح ، وثـانيهـا : الاهتمام بتثبيت العقيـدة والانتقال بالتعاليم إلى الكتب المدونة ، فنسخت المصاحف لعهـد الخليفـة عثمان بن

---

(١) المنطق الصوري ، علي سامي النشار ٦٥ ، وثمة فضل حديث في منـاهج البحث عنـد مفكري الإسلام للمؤلف ٣٥ ، دار المعارف بمصر القاهرة ١٩٦٧ م ط ٢

(٢) إحصاء العلوم للفارابي ٧٧ ، تحقيق عثمان أمين ، ط ٣ الإنجلو / المصرية القاهرة ١٩٦٧ م ؛ (في اللغة والأدب) إبراهيم مدكور ٤٤ ، دار المعارف بمصر القاهرة ١٩٧١ م .

(٣) المنطق الصوري والرياضي . عبد الرحمن بدوي ٨٩ ـ ٩٠

عفان ، وأخذ القادرون ممن توفروا على رعاية أصول الدين الإسلامي : القرآن ، ومأثور الحديث ، في شرح المفردات والمعاني كما يصنع (ابن عباس) في مجالسه ، وبدأت النظرات تتشكل لتغدو فيما بعد علوماً للحديث ، والفقه وأصوله ، والكلام ، وفي هذا التيار كانت العناية تتجه إلى العربية وأشعارها وأخبارها ، فالحرص على سلامة لغة القرآن هو الأسبق إلى أن يكون دافعاً من أن يكون التشدد في عربية العرب هو الدافع ، ففهم الدين يتوقف على مدى صحة الاستخدام اللغوي للعربية . أما ثالث الأمور فهو الاطلاع على الثقافات الأجنبية وعلى رأسها ثقافة اليونان ، وقد يفسر لنا هذا الجوُّ العام الذي نشير إليه تقدمَ المنطق ثم الفلسفة على سائر العلوم الأخرى في حركة الترجمة والنقل ، وثمة احتمالات أخرى معللة ، منها أن البيئة التي كانت قنطرة نقلت عبرها كتب اليونان وثقافتهم أو جلها ، هي بيئة شهدت تداخلاً بين الفلسفة والعناصر المسيحية .

ويصرّح (أوليري) بأن أول معلومات حصل عليها العرب من أرسطو من المصادر السريانية اقتصرت على مؤلفاته في المنطق التي ترجمت مرة ، وأعيدت ترجمتها إلى السريانية ، والتي كانت عليها تعليقات كثيرة . ومجموع مؤلفات أرسطو في المنطق اشتمل على المقولات ، والعبارة ، والتحليلات الأولى والتحليلات الثانية ، والجدل ، والسفسطة ، والخطابة ، والشعر[١] .

ويستنتج من متابعة الترجمات التي وصلتنا أن المسلمين عرفوا منذ القرن الأول صوراً من المعارف الفلسفية والمنطقية ، ثم أخذت هذه الصور تتسع إلى أن

---

(١) مسالك الثقافة الإغريقية إلى العرب : أوليري ٢٣٩ ترجمة تمام حسان . الإنجلو المصرية ، القاهرة ١٩٥٩ م ، وتاريخ الفلسفة في الإسلام (لدي بور) ٢٨ ـ ٢٩ ، ترجمة عبد الهادي أبي ريده ، لجنة التأليف والترجمة القاهرة ١٩٥٤ م ، ومناهج البحث عند مفكري الإسلام ، علي سامي النشار ٥ .

غـدت عنـاصر ذات أهميـة في مبـادئ المعتزلـة وأفكارهم في القرنين الثـالث والرابع الهجريين .

وإن اللافت للنظر هو طبيعـة المنطق الـذي وصـل إلى المسلمين فقـد جـاءهم محملاً بضروب من الزيادات والشروح والتعليقات ، وإن الهيئـة التي تشكل وفقهـا أثرت في حركته ، وسـاعـدت على ولوجـه في مجـالات معينـة يكون من الغريب استعمال المنطق فيها ببراهينه وأقيسته :

فـالأرغـانون ذو التسعـة الأجزاء إنمـا هو تكوين صنعـه الشراح الأرسطيون الذين تتابعوا على الآثار الأرسطيـة ، فقـد صنف (فرفوريوس) مـدخلـه الـذي تعارف الفلاسفة المسلمون (والنقلة) على تسميته الأصليـة (ايسـاغوجي) ، حتى إن ابن سينا يحرص بعد أن ينتهي من تدوين مواد مـدخل الشفـاء على ذكر هـذا الاسم[1] ، وزيـد على الأقسـام الأصليـة من كتب المنطـق[2] . كما أن بعض الشراح أضافوا كتابين من كتب أرسطو إلى منظومة الأورغانون المنطقية وعدوهمـا منهـا وهما الشعر والخطابة[3] .

ويسلك الفارابي الخطابة ، إذ يعرّفها في ضروب الأقيسة « فالخطابة صنـاعـة قياسية ، غرضها الإقناع في جميع الأجناس العشرة ، وما يحصل من تلـك الأشيـاء في نفس السامع من القناعة هي الغرض الأقصى بأفعال الخطـابـة »[4] ، ويشرحهـا

---

(١) مـدخل الشفـاء لابن سينـا ١١٢ تحقيق القنواتي ، محمود الخضيري ، أحمـد فؤاد الأهواني . وزارة المعارف القاهرة ١٩٥٢ م .

(٢) مدخل الشفاء : مقدمة إبراهيم مدكور ٤٥

(٣) مدخل الشفاء ٤٦ ، وينظر أيضاً في (الخطابة) لأرسطو طاليس ، تحقيق عبـد الرحمن بـدوي ص (و) من مقدمة المحقق ، دار النهضة المصرية ١٩٥٩ القاهرة وكذا ٣ من الكتاب .

(٤) كتاب في المنطق ، الخطابة لأبي نصر الفارابي ٧ تحقيق محمـد سليم سـالم ، دار الكتب المصريـة ، القاهرة ١٩٧٦ م .

على نحو أفضل في صلب بحث الخطابة فهناك اشتراك بينها وبين الجوانب المنطقية ، وكذلك نجد فروقاً « فالأشياء التي شأنها أن يكون بها الإقناع منها الضمائر (يعني الفارابي القياس المضمر أحد ضروب القياس البرهاني) ومنها التمثيلات (أي القياس التمثيلي) ، فالضمائر منزلتها في الخطابة منزلة البراهين في العلوم والمقاييس في الجدل ، والضمير كأنّه قياس خطبي ، والتمثيل كأنه استقراء خطبي »[1] .

وفي نظرة مجملة يورد الفارابي الأقيسة المنطقية متدرجاً بها من الحالة التي تكون صادقة لا محالة بالكل وهي البرهانية ، إلى الصادقة بالبعض على الأكثر وهي الجدلية ، فالصادقة بالمساواة وهي الخطبية ، فالصادقة في البعض على الأقل وهي السفسطائية ، والكاذبة بالكل وهي الشعرية ، ويقول : « وقد تبين من هذه القسمة أن القول الشعري هو الذي ليس بالبرهانية ولا الجدلية ولا الخطابية ، ولا المغالطية (السفسطة) ، وهو مع ذلك يرجع إلى نوع من السولوجسموس أو ما يتبعه وأعني : الاستقراء والمثال ، والفراسة وما أشبهها مما قوته قوة القياس »[2] .

وفي إطار الدرس اللغوي نفيد من ملاحظتنا للسمات الخاصة بطبيعة منطق الإسلاميين ، فإنهم فهموا هذا العلم العقلي ، وهذا المعيار الذي يفصل بين الصواب والخطأ ، ولم يقتصر إدراكهم على محيط القوانين العقلية ، بل إنه اتسع إلى الدرجة التي غدت فيها أبحاث الشعر بضروبه والخطابة بأشكالها موضوعاً يعتمد في جوهره على أسس القياس وأنواعه ، تلك التي تتفرع منها فروع توافق التمايز الملحوظ في الشعر والخطابة ، فهذان ضربان لا ينطبق عليهما القياس البرهاني الباحث عن

---

(١) المصدر نفسه (الخطابة) ٣١

(٢) رسالة في قوانين صناعة الشعراء للفارابي ١٥١ ، تحقيق عبد الرحمن بدوي ضمن مجلد (فن الشعر) القاهرة ١٩٥٣ ، النهضة المصرية .

اليقين وهو أعلى درجات المعرفة ، ولا ذلك الخاص بقياس الجدل ، ولا قياس السفسطائية .

وعندما تتداول الأيدي كتب المنطق وقد اختلطت فيها الأقيسة وتحليلاتها بمواد أدبية بين شعر وخطابة في أواخر القرن الثاني الهجري وما بعده ، لا يغدو غريباً إثراء الدرس وخاصة اللغة وما يتبعها بمنهج رفيع معترف بفائدته . ولن ندهش لعدم توفر طريقة لغوية خاصة كالتي يحاول الباحثون أن يوفّروها في الأزمنة الحديثة . يدعم هذا المنحى وجود طابع لغوي في المباحث المنطقية ـ كما عرفنا في منطق أرسطو ذاته ـ فكتاب العبارة إنما هو مبحث يدرس الكلمة المفردة ثم يتجه إلى الجملة ويبين عدداً من علاقاتها ، ويبرز العبارات الشرطية . ولقد خطا المناطقة الذين جاؤوا بعد الفارابي خطوات واسعة في هذا المجال ، مما حدا بعض الباحثين المحدثين إلى التنويه بهذا التميز ، فيتحدث إبراهيم مدكور عن القسم المنطقي من موسوعة ابن سينا (الشفاء) قائلاً : كان درس ابن سينا في الشفاء للعبارة أقرب إلى دراسات النحو وفقه اللغة بسبب تفصيلات وتوسع في اللغة والتراكيب[١] .

وسعينا للتأصيل يقتضي أن نجد الشواهد في أقدم الكتب المعروفة لنا ، فللفارابي كتاب أحصى علوم عصره فيه ، فقدم علوم اللسان ثم أتبعها بعلم المنطق وقال : « أمّا موضوعات المنطق وهي التي فيها تعطى القوانين ، فهي المعقولات من حيث تدل عليها الألفاظ ، والألفاظ من حيث هي دالة على المعقولات . وذلك أن الرأي إنما نصححه عند أنفسنا بأن نفكر ونروّي ونقيم في أنفسنا أموراً ومعقولات من شأنها أن تصحح ذلك الرأي ، ونصحّحه عند غيرنا بأن نخاطبه

---

(١) الشفاء لابن سينا : العبارة : مقدمة إبراهيم مدكور ص (ط) ، وينظر كذلك في مناهج البحث عند مفكري الإسلام علي سامي النشار ٧٧ ـ ٧٨

بأقاويل نفهمه بها الأمور والمعقولات ، التي من شأنها أن تصحح ذلك الرأي »[١] ، أي أن التعاون بين اللفظ والمعنى العقلي المراد وثيق ، ولا بد لعملية التوصيل من هذه القدرة اللغوية وأدواتها ، والمزيد من العناية بها تكون خدمة للجدل والبحث عن المعرفة مثلما يكون القانون المنطقي صالحاً للعلوم الأخرى ومنها علم اللسان وفروعه .

ويربط الفارابي بجلاء بين ضرورة القوانين المنطقية لسلامة الأحكام ، والحاجة إلى القوانين والقواعد في النحو للتعبير السويّ البريء من اللحن والخطأ ، فههنا لا يكتفى بالممارسة وإلف العادة في هذا المجال أو ذاك ، فالعلم لا يستوي إلا بالصعود إلى أعلى وتحقيق الرؤية المتكاملة بالشمول والكلية ، « أمّا من زعم أن الدربة بالأقاويل والمخاطبات الجدلية ، أو الدربة بالتعاليم مثل الهندسة والعدد تغني عن علم قوانين المنطق أو تقوم مقامه ، وتعطي الإنسان القوة على امتحان كل قول ، وكل حجة ، وكل رأي وتسدد الإنسان إلى الحق اليقين حتى لا يغلط في شيء من سائر العلوم أصلاً ، فهو مثل من زعم أن الارتياض بحفظ الأشعار والخطب والاستكثار من روايتها يغني في تقويم اللسان ، وفي أن لا يلحق الإنسان في قوانين النحو ويقوم مقامها ؛ وأنه يعطي الإنسان قوة يمتحن بها إعراب كل قول ، هل أصيب فيه أو لحن ، فالذي يليق أن يجاب به في أمر النحو ههنا هو الذي يجاب به في أمر المنطق هنا »[٢] .

ويحدد الفارابي أيضاً عناصر مشتركة بين المنطق والنحو ، فيضيف « وهو (أي المنطق) يشارك النحو بعض المشاركة بما يعطي من قوانين الألفاظ ، ويفارقه في أن علم النحو إنما يعطي قوانين تخص ألفاظ أمة ما ، وعلم المنطق إنما

---

(١) إحصاء العلوم للفارابي ٧٤

(٢) إحصاء العلوم للفارابي ٧٣ ـ ٧٤ ، وينظر أيضاً في ٥٧ ـ ٥٨ وكذلك ٦٨

يعطي قوانين مشتركة تعم ألفاظ الأمم كلها »[1] . ونتأمل هنا قولهم بأن سبق نحاة البصرة للإفادة من المنطق لم يكن مصادفة ، بل هو بسبب التأثيرات التي أضفتها المذاهب الفلسفية في البصرة ، وقد كانت أسبق من غيرها من المدن والحواضر الإسلامية ، وكان بين نحاة البصرة كثير من أهل الشيعة والمعتزلة الذين فتحوا الأبواب لتلك المؤثرات الفلسفية ، فأعملت يد التغيير والتشكيل في مذاهبهم الكلامية . ويقال إنَّ الخليل بن أحمد أستاذ سيبويه هو أول من استعمل القياس في علم اللغة[2] .

وإذا ما أردنا المقارنة بين كتاب (سيبويه) ، وهو المصنف الجامع للنحو والصرف وأشياء من اللغة والبلاغة ، وما نعرفه من مواد الأرْغانون الأرسطي ، فنحن واجدون شبهاً كبيراً مما يدل على الأثر الواضح ، والمفسر لهذه الطفرة في التأليف المتكامل ، أول عمل كلي يطالعنا دون مقدمات من كتب سابقة ممهدة ، « ففي مقدمة كتاب (العبارة) يقسم أرسطو الكلمة إلى اسم وفعل معرفاً الأول بأنه مادل على معنى وليس الزمن جزءاً منه ، ومعرفاً الثاني بأنه مادل على معنى وعلى زمن ، ثم يشير في كتاب منطقي آخر (طوبيقا الجدل) إلى قسم ثالث من أقسام الكلمة يسميه الأداة (الحرف) ، وفي كتاب سيبويه نجد تقسيم الكلم إلى اسم وفعل وحرف ، ويعرفها الواحد تلو الآخر تعريفاً يحاكي من بعض النواحي التعريف الأرسطي ، وإن مايسميه سيبويه حرفاً يدعوه الكوفيون : الأداة ،

(١) إحصاء العلوم ٧٦ ، وينظر في مقال إبراهيم السامرائي في الكتاب التذكاري عن الفارابي ٣٢٧ بغداد ١٩٧٦ م .

(٢) تاريخ الفلسفة في الإسلام ، دي بور ٤٤ ـ ٤٥ ، و (في أصول النحو) سعيد الأفغاني ١٠٤ ط جامعة دمشق ١٩٦٦ ، وينظر في مسألة المعتزلة وتأثرهم بالفلسفة والمنطق على وجه الخصوص في كتاب أوليري : الفكر العربي ومكانه في التاريخ ١٢٩ ، ١٣٧ ، ١٣٨ ، ١٣٩ ، ١٤٠ ، ١٤٣ ، وكتاب دي بور : تاريخ الفلسفة في الإسلام ٧٨ ، ٨٤ ، ٨٨ ، ٨٩ ، إضافة إلى الأصول القديمة : الملل والنحل للشهرستاني (٧١/١) ٧٧ ، ٩٩ ، ١٠٠ ، ١١٢ ، تحقيق محمد فتح الله بدران ١٩٤٧ القاهرة ، ومقدمة ابن خلدون ٤٦٤ ، ٤٦٦ ، ٤٥٢ ط بيروت ١٩٠٠ م .

كأنما أرادوا الاحتفاظ بالمصطلح المنطقي احتفاظاً تاماً ، وهناك أيضاً فكرة الإسناد والرباط بين الموضوع والمحمول التي يقاربها حديث سيبويه عن المسند والمسند إليه »[1] .

وإن إلماحنا إلى المنطق عاملاً من عوامل نشأة النحو العلمية ، ومؤثراً في العمل التقعيدي ليس مستقصى كغرض دراسي مستقل لنا ، لذا نوجز الحديث كيلا يبتعد عما أردناه له ، والمحاورة المشهورة بين المحبذين لمذهب النحاة المناطقة (أو المستعين بالمنطق) والآخرين ممن يرون اختلافاً واضحاً بين هذين الضربين من العمل الفكري ، شهدها القرن الرابع بين أبي بشر متى بن يونس المترجم وأبي سعيد السيرافي النحوي ، وهي تدل على مدى شيوع الأخذ بالمنطق إلى الحد الذي تدور حوله المحاورات ويتعصب له أتباع وأنصار لهم أهميتهم في الحياة الثقافية ، ولهذا يقول باحث محدث : « إن العناية بالبحث في الصلة بين المنطق والنحو العربي قد ظهرت واضحة كلّ الوضوح في القرن الثالث الهجري واتخذت صورة خصومة عنيفة في القرن الرابع ، حيث نفذت العلوم الفلسفية إلى كل الأوساط »[2] ، أي أن العلاقة تعود كما رأينا إلى القرن الثاني ، ثم تزداد عمقاً وتبلغ ذروة نشاطها مع القرن الرابع ، إذْ ينهي أبو حيان التوحيدي روايته لتلك المحاورة بين (متى) و (السيرافي) بما يوافق الرأي الذي يأخذه عن أستاذه أبي سليمان السجستاني ، « فالبحث عن المنطق قد يرمي بك إلى جانب النحو ، والبحث عن النحو يرمي بك إلى جانب المنطق ، ولولا أن الكمال غير مستطاع لكان يجب أن يكون المنطقي نحوياً ، والنحوي منطقياً ، وخاصة والنحو (واللغة) عربية ، والمنطق مترجم بها ومفهوم عنها »[3] .

---

(١) (في اللغة والأدب) إبراهيم مدكور ٤٤ ـ ٤٥ .

(٢) المنطق الصوري والرياضي . عبد الرحمن بدوي ٣٤ ـ ٣٥

(٣) المنطق الصوري والرياضي . بدوي ٣٦ ، والقصة في الإمتاع والمؤانسة ، (١٠٨/١ ـ ١٢٨) ، تحقيق أحمد أمين ـ الزين ، لجنة التأليف القاهرة ١٩٥٣ م .

ونربط كل ما وقفنا عنده في هذه الصفحات بموضوعنا الذي تطلبها ، فاللبوس المميز للمنطق وطرائقه تبرز فيه العلوم الناشئة في الحياة الإسلامية ، ولقد لحظنا كيف وجدت الصلات بين ما هو منطقي خالص من أبواب القياس والعبارة والمقولات والجدل والسفسطة ، وتلك الجوانب الفنية من شعر وخطابة ، وكذلك عرفنا المواد اللغوية المتولدة ضمن سياق الدرس المنطقي . إذن لقد تآلفت هذه الأطراف وأظهرت البحث (والنظر عامة) موزّعاً بين حَدّ الصواب وحَدّ الخطأ ، لأن هذا انعكاس لثنائية القانون المنطقي المتحرّي عن الإصابة في التفكير ، ومسالك الأحكام العقلية ، وإن الاشتجار بين العقيدة الإسلامية ، وكلّ ما تخلّق من علوم يؤكد هذا النهج ، فقد تتابعت فروع المعرفة العربية إلى الدرجة التي يقول فيها أحد الباحثين : « لولا الباعث الديني لاندثر الشعر الجاهلي ولم يصل إلينا منه شيء ، إذ شعر العلماء منذ الصدر الأول للإسلام بحاجتهم إلى الشعر العربي ، للاستعانة به في فتح مغاليق الألفاظ والأساليب الغريبة الموجودة في القرآن الكريم والأحاديث النبوية »[1] ، فالعناية بالتعبير السليم يؤدي إلى فهم الشرائع فهماً لا انحراف فيه عن الجادة ، والقرآن إنما نزل بلسان عربي مبين وهو السبيل (أي العربية) إلى استكناه المدلولات وهو الفيصل بين المختلفين ، ولا شك أن القانون الأساسي الذي يميز بين الحلال والحرام يدفع إلى خلق مستوىً صوابيّ ، يحدد على نحو أكثر دقة والتزاماً النظرة إلى كلّ تغيّر على أنه انحراف ، إلى أن تثبت مطابقته للأصول المتفق عليها والمتميزة (بالطبع) بخاصة الاستمرار والديمومة .

وإنّ الروح الإسلامية العامة لم تقف عائقاً أمام الاستفادة من المنطق وضروب استدلالاته ، فنشط المتكلمون وظل هذا العلم مقبولاً حتى من غلاة المتشددين والحاملين على درس الفلسفة ، فالغزالي يدعو إلى الأخذ بالمنطق

---

(١) فصول في فقه اللغة ، رمضان عبد التواب ٩٢ ، دار التراث ، القاهرة ١٩٧٣ م .

ويصنّف فيه (معيار العلم) ، وهو مقدمة لكتابه (تهافت الفلاسفة)[1] ، ويحض صراحة على هذا في مقدمة كتابه الأصولي (المستصفى في علم الأصول)[1] .

ومن الأمثلة المتأخرة بعض الشيء ، ماصنعه السكاكي ـ من رجال القرن السادس ـ في (مصنفه مفتاح العلوم) من الاعتماد على القاعدة المنطقية ، ونطلع لديه على الهيمنة العقلية لفكرة الصواب والخطأ ، والإقرار بها منطلقاً للدرس العلمي حتى في الأدب ، فلئن كان الحامل على الخوض في علم الأدب مجرّد الوقوف على بعض الأوضاع وشيء من الاصطلاحات فهو لديك على طرف الثمام[2] ، ولكن الاتجاه الآخر الذي يصح أن يطلق عليه وصف (العلم) مختلف ومباين ، « فإذا خضت فيه لهمة تبعثك على الاحتراز عن الخطأ في العربية ، وسلوك جادة الصواب فيها اعترض دونك من أنواع تلقى لأدناها عرق القربة »[2] . ويمضي المصنِّف في كل ركن من كتابه يشرح كيف تخدم المعارف القضية الأساسية ، وهي تجنب ذلك الخطأ والبقاء في الحيّز الصحيحة أحكامه ، ويفرد السكاكي فصلاً لعلم الاستدلال[3] (أي المنطق) ليعين دارس المعاني والبيان للرابطة الوثيقة بينه وبين هذين العلمين البلاغيين في دراسة الاستعارة والتشبيه ، فكما أن النحو هو احتراز عن الخطأ في التعبير اللغوي ، فإن علم المعاني يحترز به عن الوقوع في الخطأ في تطبيق الكلام على ما يقتضي الحال ذكره ، وعلم البيان الاحتراز عن الخطأ في مطابقة الكلام لتمام المراد منه[4] .

و (المستوى الصوابي) لدى بعض الدارسين لا يُعَدّ من خصائص منهج

---

(١) معيار العلم للغزالي ، مقدمة محققه سليمان دنيا ١٤ ، دار المعارف بمصر القاهرة ١٩٦٠ ط ٢ ، وينظر في المستصفى في علم الأصول للغزالي ، المطبعة الأميرية القاهرة ١٣٢٤ هـ .

(٢) مفتاح العلوم للسكاكي ٣ ، المطبعة الأدبية ١٣١٧ هـ القاهرة .

(٣) مفتاح العلوم ٢٢٩

(٤) مفتاح العلوم ٨٦

الدرس اللغوي ، لأنه ـ كما يرى ذلك الباحث ـ لا يخص اللغة وحدها ، بل ينداح ليشمل الأطر الاجتماعية الأخرى ويتكفل المجتمع بتطبيقه ، وفرضه على الأفراد ، واتخاذه مرجعاً عند الخلاف ، والاحتكام في الاستعمال ، أي أنه يوجد في كلّ شؤون الثقافة بالمعنى الأنثروبولوجي (العادات والتقاليد واللغة والملابس إلخ ...)[1] ، وإننا نعرض لهذا كيما نميز هذه الفكرة عما نوجه النظر إليه في تأصيل مشكلة الصواب والخطأ ، فالأمر إنما يتعلق بالإحكام العلمي الذي يمنحه التفكير الفلسفي والدرس المنطقي عند المصنفين في العربية ، فالمترجمات على اختلاف أشكالها بين مختصر أو مطوّل ، أو شرح لأصول يونانية أو سريانية داخلت المواد المدروسة التي تصب في قنوات جديدة لا بدّ لها من انضباط وترتيب ، كذلك إن الحياة العقلية الإسلامية بلغت مراتب عالية من مراجعة الأشياء جميعها ، والتصرفات والأفكار على أساس مما قدّمته العقيدة ، فهناك دائماً الصحيح الموافق ، والمتجانف عن السويّة السليمة ، فهذا يمثل نحواً من التكامل في الحياة والتفكير ، وإن التصنيف في العلوم لا يخرج عن الإطار العام لهما .

وتعالج مشكلة الخطأ في اللغة على أنها في تاريخ الدراسة القديمة تعني تحكماً معيارياً لا ينظر إلى الاستعمال ، ويحتكم إلى القواعد المدوّنة ، والتي تقتصر على حدود زمنية سالفة . ويرغب بعض الدارسين في تحقيق جديد يبتعد بالأبحاث عن ذاك التحيّز للقاعدة[2] ، وهذا الرأي يقودنا إلى نقطتين في البحث اللغوي ، الأولى منها : مسألة التقعيد والمعيار المقابلة لما يسميه بعضهم[3] بالمنهج الوصفي ، والثانية هي اللحن ؛ وهي تعدّ ركناً من أركان (الدلالة) في الحياة العربية

---

(١) اللغة بين المعيارية والوصفية . تمام حسان . الإنجلو المصرية ٢٦٧ القاهرة ١٩٥٨ م .

(٢) مستوى الصواب والخطأ . محمد فرج عيد ، رسالة دكتوراه في كلية دار العلوم .

(٣) يذكر محمد عيد أن هذا المصطلح كان وضعه عبد الرحمن أيوب في كتابه (دراسات نقدية في النحو العربي) ، ينظر كتاب عيد (في أصول النحو العربي) ٦٦

اللغوية ، وستكون الفقرة التالية (العربية الفصحى) مضماراً نتبين فيه ملامح كلّ من القضيتين .

٢ ـ العربية الفصحى ودورها في تكوين المعيارية

قد يلتبس مفهوم (الفصحى) الذي نشير إليه في دراستنا ، وذلك النمط من الأساليب البلاغية الذي يعلو ما سواه ، ويمثل قيمة أسلوبية عليا تتدرّج بعدها مستويات الكلام إلى أن تكون قاب قوسين أو أدنى مما هو إشارة غير إنسانية التعبير ، وإنما ينتمي إلى عالم الكائنات الأخرى التي تتفاهم بأصواتٍ لا تنتظم انتظام لغتنا بطبيعة الحال[1] ، لذا فمجالنا يتركّز في الجانب اللغوي ومادته ، لا في الجانب البلاغي .

والمشكلة الدلالية إنما تستبين في شكلين من أشكال الوجود ، الأول : سكوني أي ماهية المعاني وكيفية عملها الدلالي ، ويدرس ههنا اللفظ والمدلول وضروبها ، والثاني : تطوري ويقصد به التغيّر الطارئ على الدلالات والمدلولات من زمن إلى آخر ، أو من بيئة إلى بيئة أخرى ، ولا يخفى أن الاستفادة من معطيات العلوم الأخرى تعد ضرورة للبحث : الصرف ، النحو . ونحن نتخذ من نقد الشعر في القرن الرابع مادة نبحث فيها وجوه مشكلة الدلالة ، فننتقل إذن إلى العربية الفصحى فهي اللغة المكتوب بها الشعر المدروس . لنعرض أولاً ماهية هذه (الفصحى) وتكونها ، فعلى هذا الأساس تبنى الأحكام التالية ، أو لأقل إني أرتب القضايا والأحكام الدلالية وفق مفهومات محدّدة للفصحى ، والعود إلى أوليات الدراسة في (العربية) ليس تبسيطاً للمسائل بل هو سبيل إلى التأصيل أراه ، وهو على كلّ حال اجتهاد يحتمل النقاش والمحاورة . ذلك أن الكلام في التطور اللغوي يأخذ لدى بعض الباحثين الأجانب وجهة تغفل روح الفصحى

---

(١) الإيضاح في علوم البلاغة . جلال الدين القزويني ، ٨ ـ ٩ طبعة مكتبة صبيح بالقاهرة ١٩٧١ م / ١٣٩٠ هـ .

الـذي تعيش بـه ، وينكرون الحفـاظ على القوالب القـديمـة ، وينحون بـاللائمة على أصحاب الجهود اللغوية منـذ صنفت المؤلفـات في التـاريخ العربي الإسلامي ، لأنهم لم يسايروا حقيقة التغيّر الحاصل في حياة لغة الناس ، والتفتوا إلى كم محدود وهيكل قـديم يسكبون مدادهم في تزيينه وتلميعه ، أي أنه ينبغي أن تساير التغيرات كما هو الشـأن في اللغات الأوربية النـاشئـة والمتولّـدة عن أصلهـا اللاتيني ـ على سبيل المثـال ـ إذ كانت لهجـاتٍ للغـة واحـدة ، فتبـدّلت المجتمعـات ونطق أهلهـا بشكول عـدة ، فقعّـدت لهـا القواعد إلى أن استوت لغةً جديدة معبرة عن هذه الجماعـة الجـديـدة هنـا أو هنـاك[1] .

ولقد تابع هؤلاء المستشرقين نفرٌ من أصحـاب المؤلفـات العربيـة المحـدثـة ، وأعتقـد أن الخوض في التطور والنمو لا بدّ أن يكون تالياً لوعي بخصـائص العربيـة الفصحى ، فلا تقع في شراكٍ تبنى على مغالطـة (علميـة وتـاريخيـة) ، تحول دون فهم اللغـة العربيـة وبالتالي تؤدي إلى نتائج لغوية غير مجدية في التطبيق ، لأنهـا توصل في نهـايـة الشوط إلى امّحاءٍ لمعالم العروبة والعربية .

ولـدى تعريف (العربيـة الفصحى) نجـد أن ثمـة تقـاربـاً في التعبير يجمع الباحثين عرباً وأجانب في العصر الحديث ، فهم يلتقون على أنهـا : هي المتمثلـة في نصوص التراث الأدبي العربي في العصر الجـاهلي السـابق على الإسـلام ـ وقـد شهـد أعلام الشعراء الجاهليين ومن داناهم ـ وكذلك بعـد الإسلام . والعربيـة : هي التي نزل القرآن الكريم بها ، وهي اللغة المستخدمة في الأعمال الأدبية في الآماد التاليـة للانتشار الإسلامي[2] .

---

(١) من هؤلاء (برجستراسر) في كتـابـه (التطـور النحـوي) ، وينظر كتـاب (لحن العـامـة) ، رمضان عبد التواب ٣١ ، القاهرة دار المعارف ١٩٦٧ ط ١

(٢) اللهجات العربيـة . إبراهيم أنيس ٢١٧ ، ط الأنجلو / القـاهرة ١٩٧٢ العربيـة الفصحى . هنري فليش ٣٠ ـ ٣١ ، ط الكاثوليكية ١٩٦٥ بيروت ، علم اللغة العربية : محمود فهمي حجـازي ٢٣٤ الكويت ١٩٧٣ ، اللغـة بين المعيـاريـة والوصفيـة : تمـام حسـان الأنجلو / القـاهرة ٦٠ ـ ٦٢ ، ١٩٥٨ م ، فصول في فقه اللغة ، رمضان عبد التواب ٦٤ ط دار التراث ، القاهرة ١٩٧٣ م .

ونرى كذلك أن سمة هامة من سمات العربية قد تبيّنها عدد من هؤلاء الباحثين ؛ فإنها « اللغة المشتركة الأدبية النموذجية ، والتي اصطنعت في الأمور الجدية »[1] . و « المقصود أن هذه اللغة لم تكن مجرّد لغة أدبية بل كانت أيضاً لغة للتعامل الراقي ، ولغة التعامل بين القبائل المختلفة »[2] ، وتتجاوز الفروق في المصطلح بين اللغة واللهجة في حديث باحث يقول : « إن هذه اللهجة الفصحى تقرب إلى لهجة عربية فتكون أدنى إليها من غيرها من اللهجات ، فالفصحى لكونها لغة العرب جميعاً تمّ نموها في المجتمع العربي في عمومه ، لا في قبيلة بعينها »[3] .

ونستخلص بدورنا عدداً من الأفكار المتصلة بهذه التعريفات ، أولها أن العربية الفصحى لغة اختيارية انتقائية ، وهذا ما يفيده مصطلح (مشتركة) ، فثمة عملية تصفية وإجراءات مدققة لتخرج من إهابها صورة من التعبير عالية السويّة . ويناقش بعضهم تسمية الفصحى بالقرشية نسبة إلى قريش ، حيث كان ملتقى العرب في عباداتهم ـ إذ يطوفون بالكعبة المشتملة ساحتها على أصنامهم وأنصابهم ، وفيها ذكرى النبوة القديمة لإبراهيم ـ وتجارتهم المتجهة شمالاً إلى بلاد قيصر وأتباعه من آل غسان ، وجنوباً نحو ديار حمير والتبابعة ، والمسافرة إلى أرجاء شتى من فارس الساسانية ، والحبشة وأطراف بحر القلزم ، وكذلك بحر العرب ، فقد كانت اللهجة القرشية الأساس الذي ارتقى وألّف بين أفضل السمات والخصائص اللغوية للهجات الأخرى . ويحاول هذا الباحث[4] أن يستشهد بكلام لفندريس « فاللغات المشتركة تقوم دائماً على أساس لغة موجودة حيث تتخذ هذه

---

(١) اللهجات ، أنيس ٢١٧

(٢) علم اللغة العربية . حجازي ٢٣٤

(٣) اللغة بين المعيارية والوصفية . حسان ٦١ ـ ٦٢ ، وينظر كذلك في كلام رمضان عبد التواب في (فصول في فقه اللغة) ٦٤

(٤) رمضان عبد التواب في (فصول في فقه اللغة) ٦٩

اللغة الموجودة لغة مشتركة من جانب أفراد مختلفي التكلم »[1] ، ولكن اللهجات العربية ليست متباينة تباين اللغات التي يتحدث عنها (فندريس) ، لذا فالأمر عندنا هو أن القرشية[2] صفة للخصائص المشتركة العليا بأكثر مما هي فيصل بين لغة خاصة ولغات أخرى مغايرة . واللهجات تتفق في بنية اللغة ولم تكن لتفترق بعضها عن بعض في الأسس والأركان ، ووقوفنا هنا تنعكس نتيجته في طبيعة الاحتجاج وترسيخ العربية الفصحى تدويناً وتقعيداً ، فالأخذ من قبائل أو ديار متعددة له تفسيره في انتشار الفصحى ، فهي تصفَّى وتنقَّى ثم ترتد إلى أرجاء الجزيرة ، ونحن ننفي عن العربية الفصحى الجانب السلبي الذي يفهم من قول بعضهم : « ... الصفة الثالثة من صفات اللغة المشتركة هي أنها ليست لغة سليقية ، لأن معنى السليقة هو أن تتكلم لغة من اللغات بغير شعور بما لها من خصائص .. وهذا لا يتوفر للفصحى ، فالروايات عديدة على وقوع الخطأ من العرب قبل الإسلام »[3] . فالعرب كانوا يستعملون اللغة بالسليقة ، وإن التحسين الذي يطرأ بالاحتكاك والالتقاء في مكة والأسواق ، لا يعني تعلّماً للعربية كما سيكون الشأن في الأزمنة المتأخرة حين تغدو العربية لغة تتقن بصناعة النحو والصرف وما إليها[4] .

أما ثانية الأفكار المستخلصة فهي أن مجال استعمال الفصحى المشتركة هو الأدب في صورته الشعرية وفي خطابته ، وكذلك فيما يروى من أخبار العرب

---

(١) اللغة . فندريس ٣٢٨ ترجمة عبد الحميد الدواخلي ومحمد القصاص ، ط الأنجلو القاهرة ١٩٥١ م .

(٢) إن إيرادنا هذا المصطلح (القرشية) إنما هو لمتابعة الفكرة ، ونحن نقول (بلغة مشتركة) تحمل خصائص عليا من اللهجات جميعها .

(٣) من أسرار اللغة ، إبراهيم أنيس ٣٦ ـ ٣٧

(٤) انظر في هذا المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ٦٢٤/٨ فصل : العربية الفُصحى . (نشر دار العلم للملايين ـ بيروت ، ومكتبة النهضة ـ بغداد . الطبعة الثانية ١٩٧٨) .

ولقاء الفصحاء في المحافل والمنتديات ، وأن الاستعمال الحيّ المنصوص عليه أيضاً هو التعامل في كلّ ما جمع طوائف أو أفراداً من قبائل متباعدة الأوطان في الجزيرة ، فهؤلاء وأولئك يتخلصون مما يشوب بعض اللهجات من انحرافات صوتية ، أو استخدام لمفردات غير شائعة لدى الطرف الآخر المتحدث إليه .

ولقد سجّل لنا الديوان الشعري العربي القديم المرحلة الناضجة للعربية - وهي التي نسمّيها الفصحى - والدرجة الرفيعة[1] التي وصلت إليها عبر تغيّرات وتحسينات ونموّ مطّرد . وإن التفاعل المستمر في المواسم الدينية والأسواق كان يسهم في هذه العمليات ، ولكن ارتباط الفصحى بالعقيدة الإسلامية أثر في محافظتها على هيئتها المتكاملة ونضجها ، وجعل مسألة المعيار الصوابي ركناً يدفع عنها خطر التشتت والتفرق إلى ألسنة عدة ؛ فبإثر هذا التحقيق العالي لصورة مشتركة للعربية بين القبائل ، بطونها وأفخاذها وسائر تقسيماتها ، في شمال الجزيرة وجنوبها ، وفي المشرق والمغرب منها كان من المحتمل (علمياً) أن تنفصل اللغة المشتركة إلى لغيّات وتبتعد اللهجات بعضها عن بعض .

إن نزول القرآن كان باللغة المشتركة أي بالعربية الفصحى ، ويعدّ هذا ارتفاعاً بها إلى مصاف القدسية ، التي تستدعي المحافظة على قدر جوهري من كيان اللغة المعتمدة ؛ فنشر الرسالة الدينية يقترن بلغتها ، وإن اختلافاً يسمح به في مركز الدائرة لا شك سيغدو أكبر خطراً مع الحركة نحو أطراف المحيط زماناً ومكاناً .

ولكن هيمنة معيار الصواب والخطأ وتتبع الخطأ وتسمية اللحن ، كل هذا رافق التوزع الذي شهدته جموع المسلمين ، إذ خرجوا من الجزيرة ناشرين للدعوة

---

(١) ينظر في هذا المجال في كتاب جرجي زيدان : الفلسفة اللغوية والألفاظ العربية ١٠٨ ، حيث يصف حالة العربية إبان جمعها ، والرقي الذي بلغته ، ط دار الهلال ١٩٦٩ م بعناية مراد كامل .

في الشـام والعراق وفـارس ومصر ، ثم سـائر مـا عرفتـه العربيـة من ديــار ، فكانت للفصحى مكانتها الأدبية والرسمية وكذلك كان لها شأن في المحافل العامـة ، ولقـاءات عديدة في المجتمعات الجديدة ، ووجـدت التبـاينـات في استخـدامـات لغو يـة بسبب الفروق الطفيفة التي أشرنا إليها في لهجات الجزيرة ، إضافة إلى التأثيرات الحادثة من لقاء أهل البلاد المفتوحة ، رغم أن بعضاً من هؤلاء ذو أصل عربي قديم .

كان هذا توجيه الفصحى للأنظار وجهة المعيار الصوابي وتـأكيـدهـا لقيمـه ، ولكن متابعتنـا لهـا في رحلتهـا التي تـدخل حيِّز المؤلفـات العلميـة لعلوم العربيـة المختلفـة ، يطلعنـا على قـدرات تـوجيهيـة تـولـدت بسبب كيـانهـا الـذي وصفنـا ـ الانتقائية والسوية الخاصة ـ في الفقرات السالفة .

وقـد أخـذ مصطلح (الاحتجـاج) يشيـع ويتبلـور مـع النهضـة العلميـة في القرون الهجريـة الأولى ، بعـد أن اتسعت البلاد الإسلاميـة واختلطت الألسنـة ، وإثر الإحسـاس بـالحـاجـة إلى استيعـاب أفضل للعربيـة كيا يتعمق المنضمـون إلى الدين الجديد في فهم عقيدتهم . وانطلق الرواة يجمعون اللغة مفرداتٍ وأشعـاراً من البوادي ، ويلتقون بـالأعراب القـادمين إلى أمصـار البصرة والكـوفـة (أسـاسـاً) وسواهما من الأمصار . ويراد بالاحتجاج هنـا « إثبـات صحـة قـاعـدة أو استعمال كلمة أو تركيب بدليل نقلي صحّ سنده إلى عربي فصيح سليم السليقـة »[1] . ونلجـأ إلى نص متأخر يبين لنا العلوم والاستشهاد فيها ؛ فالبغدادي يذكر في (الخزانـة) أن « علوم الأدب ستة : اللغة والصرف والنحو والمعاني والبيان والبديع ، والثلاثة الأولى لا يستشهد عليها إلا بكلام العرب (يريد القدماء) دون الثلاثـة الأخيرة ، فإنه يستشهد عليها بكلام المولدين لأنها راجعة إلى المعـاني ، ولا فرق في ذلـك بين العرب وغيرهم إذ هـو أمر راجـع إلى العقـل ، ولـذلـك قبـل من أهـل هـذا العصر

(١) في أصول النحو ، سعيد الأفغاني ٦

الاستشهاد بكلام البحتري وأبي تمام وأبي الطيب »[1] . ونعود إلى القرن الرابع وما قبله لنرى أن ثمة قواعد تعورف عليها في الاحتجاج . ولقد حددت قبائل بأعيانها وأماكن محددة لا تتجاوز ، وإننا سنعرضها ، وسنتناول أيضاً التحديد الزمني ، وبعد ذلك تكون وقفة لنربط بين هذه المفهومات وتحديد مقاييس الصواب والخطأ في الدرس اللغوي وبعده الدلالي ؛ فالفارابي (اللغوي) يخبرنا « أن الذين نقلت عنهم اللغة العربية وبهم اقتُدي ، وعنهم أُخِذَ اللسانُ العربي من قبائل العرب هم قيس وتميم وأسد ، فإن هؤلاء هم الذين أُخذ عنهم أكثر ما أُخذ ومعظمُه ، وعليهم اتُّكل في الغريب وفي الإعراب والتصريف ، ثم (هذيل) وبعض كنانة وبعض الطائيين ، ولم يؤخذ عن غيرهم من سائر قبائلهم » . وبالجملة فإنه لم يؤخذ عن حضريٍّ ولا عن سكان البراري ممن كان يسكن أطراف بلادهم التي تجاور سائر الأمم الذين حولهم ، فإنه لم يؤخذ من لخم ولا من جذام ؛ فإنهم كانوا مجاورين لأهل مصر والقبط ، ولا من قضاعة ولا من غسان ولا من إياد ؛ فإنهم كانوا مجاورين لأهل الشام وأكثرهم نصارى يقرؤون في صلواتهم بغير العربية ، ولا من تغلب ولا النمر ؛ فإنهم كانوا بالجزيرة مجاورين لليونانية ، ولا من بكر ؛ لأنهم كانوا مجاورين للنبط والفرس ، ولا من عبد القيس ؛ لأنهم كانوا سكان البحرين مخالطين للهند والفرس ، ولا من أزد عمان ؛ لمخالطتهم الهند والفرس ، ولا من أهل اليمن أصلاً ؛ لمخالطتهم الهند والحبشة ، ولولادة الحبشة فيهم ، ولا من بني حنيفة وسكان اليمامة ، ولا من ثقيف وسكان الطائف ؛ لمخالطتهم تجار الأمم المقيمين عندهم ، ولا من حاضرة الحجاز ؛ لأن الذين نقلوا اللغة صادفوهم حين ابتدؤوا ينقلون لغة العرب ، قد خالطوا غيرهم من الأمم وفسدت ألسنتهم »[2] .

(١) خزانة الأدب (٥/١) ، عبد القادر بن عمر البغدادي ، تحقيق عبد السلام هارون ، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر . القاهرة ١٩٦٧ م / ١٣٨٧ هـ .

(٢) المزهر للسيوطي (٢١٢/١) ، تحقيق محمد أحمد جاد المولى ، علي البجاوي ، محمد أبي الفضل إبراهيم . دار إحياء الكتب العربية بالقاهرة . والاقتراح للسيوطي ٥٦ ـ ٥٧ تحقيق أحمد محمد قاسم ، القاهرة ١٩٦٨ م .

ويقيم البغدادي في الخزانة حدوداً زمنية اتخذت شكل طبقات للشعراء ، فمنهم من يصحّ الاستشهاد بشعره ومنهم من لا يسوغ للدارس ذلك في شعره . فقد قسم العلماء الشعراء على طبقات ، الأولى : الشعراء الجاهليون ، وهم قبل الإسلام كامرئ القيس والأعشى . والثانية المخضرمون ، وهم الذين أدركوا الجاهلية والإسلام كلبيد وحسان . والثالثة المتقدمون ويقال لهم الإسلاميون ، وهم الذين كانوا في صدر الإسلام كجرير والفرزدق ، والرابعة المولدون ، ويقال لهم المحدثون ، وهم من بعدهم إلى زماننا ـ القرن الحادي عشر الهجري ـ كبشار وأبي نواس . فالطبقتان الأوليان يستشهد بشعرهما إجماعاً . وأما الثالثة فالصحيح صحة الاستشهاد بكلامها ، وقد كان أبو عمرو بن العلاء ، وعبد الله بن أبي إسحاق ، والحسن البصري ، وعبد الله بن شبرمة يلحّنون الفرزدق والكميت وذا الرمة وأضرابهم . أما الرابعة فالصحيح أنه لا يستشهد بكلامها مطلقاً ، وقيل يستشهد بكلام من يوثق به منهم[1] .. ونقل ثعلب عن الأصمعي « ختم الشعراء بابن هرمة »[2] .

إن هذين القطبين في تقويم العربية الفصيحة ـ المكان والزمان ـ ليسا ممثلين لتحكم غير علمي كما يتصور بعض المحدثين ، بل إن العلماء المؤصّلين لدرس العربية تطلعوا إلى تدوين الصورة المثلى للغتهم ، ولذا فهم يلتمسون أنقى البيئات وينصّون على إطار زمني تُرتضى فيه عربية الشعراء وهم لا يقصدون إلى أن كل ماعدا ذلك مخالف ماارتضوه بشكل جوهري ،.فقديماً كانت الفصحى نمطاً عالياً من العربية تصونه الهيئة الاجتماعية العامة في المحافل والأسواق وفي الحيّز الأدبي

---

(١) خزانة الأدب للبغدادي (١/٥ ـ ٦) .
وينظر بعض الأخبار في الموشح للمرزباني ط البجاوي . القاهرة ١٩٦٥ ـ دار نهضة مصر ٣٠٢ ، ٢٨٤

(٢) حزانة الأدب للبغدادي ٨

وكان يكون ترخّص محدود في الأصوات وبعض المفردات ، أو الأساليب المحصورة هنا وهنالك كلما ظهرت عوارض من بعدٍ وتطرفٍ في المكان أو التقاء متصل بالأعاجم ، وبَعْدَ الإسلام ، وانتشار أهل الجزيرة في أرجاء شتى واختلاط الأعاجم والروم وخلائق من الأمم الأخرى فكان لا بدّ من الاحتراز ولم يَسع الرواةَ والنحويين وأصحاب اللغة عامة أن يقبلوا كل ما يجلبه الأعراب ، أو كل ما يسمعونه في أطراف البادية ، وفي أعماقها . فإنهم مستهدفون حفظَ العربية الفصحى : عربية القرآن والحديث أي لغة الإسلام إذ ختم نزول القرآن مرحلة النضج والاكتمال للعربية ، ولا يحاكم عملهم وفق قوانين لغوية محدثة ، فإن الدارسين المحدثين المتأثرين بدراسات أجنبية حديثة يفترضون في مرحلة جمع اللغة العربية وتقعيد قواعدها ، وترتيب مفرداتها : القيام بمسح ـ إذا جاز لنا هذا التعبير ـ لغوي تستنفد فيه كل اللهجات الممكنة ، وعلى أساس هذا الاستقراء غير المقيد تستخرج أسس النحو والصرف وتؤطر المفردات إلخ ...، وإني أعتقد أن هذا القياس بعيد عن الصواب لإغفاله العنصر الجوهري في الفصحى تاريخياً وضرورة الحفاظ على سمتها الانتقائية المتميزة عن لهجات قد تبعد عنها بدرجات بسيطة في العصر الجاهلي ، وبدرجات كبيرة بعد أن دَبّ الفساد والاختلاط والتداخل البشري بعد الإسلام[1] .

ولا يفوتنا أن نشير إلى قضية مصادر الاستشهاد ، ومدى الأخذ بها أو ببعضها دون بعضها الآخر ، فالقرآن الكريم هو أعلى نصّ عربي قيمة أسلوبية وسلامة لغوية وتوثيقاً في النقل ، ثم هناك الأحاديث النبوية ، وبعدها تكون

---

(١) يقول محمود حجازي : « إن كتب اللغة والنحو لم تقدم إلا قطاعاً صغيراً محدوداً من الحياة اللغوية حتى القرن الثاني الهجري . وهذا القطاع هو بعض لهجات البدو » ، علم اللغة العربية ٢٢٤ ويستخدم إبراهيم أنيس مصطلح (ديكتاتورية الزمان والمكان) ، أسرار العربية ٣٦ ـ ٣٧ ط الأنجلو ١٩٧٣ القاهرة ، ويتناول محمد فرج عيد هذا الأمر في رسالته (مستوى الصواب والخطأ) ١٥٩

الأشعار العربية القديمة بحسب التحديد الزمني ، وهو منتصف المئة الهجرية الثانية لشعراء الحضر ، والمئة الرابعة للبداة من الشعراء ، إضافة إلى ما صحَّت نسبته وتوثق نصه من مأثور الخطب والأخبار والكلمات المشهورة لفصحاء العرب وأصحاب اللسن منهم[1] .

ولكنّ المفارقة في هذا الشأن تكمن في أن أصحاب التآليف (النحوية) انصرفوا عن الاستشهاد بالنصوص القرآنية ـ على الأقل بصورة أساسية ـ وخاصة القراءات الشاذة ، وكذلك الأحاديث النبوية ـ مع تسليمهم بها كأنماط عليا من العربية[2] ـ وأنفقوا جهدهم في تتبع الأشعار المروية عن الجاهليين وأهل الاحتجاج بعدهم ، وثمة تعليلات أبرزها أنهم كانوا يتحرّجون دينياً من استخدام الآيات وتأويلها ، وكذلك الأحاديث مع زيادة أن ثمة أحاديث نقلت بالمعنى لا باللفظ ، وهناك من يرى أن الرواة والنحاة قد أفرغوا جلّ طاقتهم وجهدهم في الأشعار فلم يبق للأطراف الأخرى من جهد كافٍ[3] حتى قال ثعلب كان علي بن المبارك الأحمر يحفظ أربعين ألف شاهد في النحو كما يذكر السيوطي في بغية الوعاة[4] .

وإذا ما أردنا تخصيص القول في مجال الدراسة الدلالية ، فلا بدّ أن نصل بين فكرة الاحتجاج وما يتبعها من قوانين وتفصيلات ، وبين الروح العلمي في مباحث هي المنطلق لما يمكن أن يكون ـ في اعتقادي ـ الدراسة الدلالية في إهابها

---

(1) ينظر ماسبق تفصيله قبل ، وكذا (في أصول النحو) سعيد الأفغاني ، ٦٤ ـ ٦٥

(2) ينظر المزهر (٢٠٩/١) للسيوطي . قال ابن خالويه ٣٧٠ هـ : « قد أجمع الناس جميعاً على أن اللغة إذا وردت في القرآن فهي أفصح مما في غير القرآن ولا خلاف في ذلك » .

(3) ينظر في هذا المجال في أصول النحو للأفغاني ٢٨ ، ٣١ ، ٤٦ ، ٤٨ ، ٥٨ ، ومستوى الصواب والخطأ لمحمد عيد ١١٨ ، ١٢١ ، ١٢٣ ، ١٢٨ ، ١٣٠ ، ١٣١ ، ١٣٥

(4) بغية الوعاة في أخبار اللغويين والنحاة للسيوطي (١٥٩/٢) ، تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم ط عيسى الحلبي القاهرة ١٩٦٥ م .

القديم (ولقد أطلق المؤلفون العرب على الاشتغال بالمفردات اللغوية جمعاً وتأليفاً عدة مصطلحات أقدمها مصطلح اللغة) ، ويعد كل من الأصمعي والخليل وابن دريد صاحب (جمهرة اللغة) والأزهري صاحب (تهذيب اللغة) لغوياً[1] ، ولقد جمعت ألفاظ اللغة ودونت مع أواخر القرن الأول الهجري ، في الزمن الذي نشط فيه رواة الحديث والأدب كذلك وأخذت مصنفات نوعية للألفاظ تظهر وتمهد لمعاجم المعاني التي ستبنى من مجموع رسائل الأصمعي وأبي زيد الأنصاري وأبي عبيدة وأبي مسحل وابن الأنباري وسواهم ، كتاب المطر ، اللبأ واللبن ، النخيل ، خلق الإنسان إلخ ... ويقول يوهان فُكْ : « كان الأصمعي قبل كل شيء هو الذي لم يكتف بجمع كنز المادة اللغوية عند البدويين وترتيبه فحسب ، بل شرع كذلك في تنظيم الاستعمال اللغوي الدقيق بوساطة تحديدات معنوية غاية في الدقة »[2] ، وإن هذه المؤلفات كانت تدور في محيط هو عصر الاحتجاج ثم بنيت عليها كتب أخرى مركّبة منها وموضحة بشروح ، وبالطبع تمثل المعاجم أبرز الإنجازات في هذا الحيز إضافة إلى كتب الإبدال ، والترادف ، والمشترك ، والمثلثات ، وظل العلماء يسيرون على نهج متشدد يحدُّه الاحتجاج ، ولكن أصحاب المعاجم كانوا أقل فئاتهم تشدداً ، فالاستشهاد بالحديث النبوي أمر طبيعي . ونظرة إلى (تهذيب اللغة) للأزهري ، والصحاح للجوهري ، و (المجمل) و (مقاييس اللغة) لابن فارس[3] ، كافية للبرهنة على اتساع الاستفادة من هذا المصدر الذي تحرج منه أهل النحو إلا المتأخرين منهم - ابن مالك صاحب الألفية ، وابن هشام صاحب المغني - أمَّا ابن جني فهو من أهل اللغة أكثر منه نحوياً ، وهو صاحب فكرة الأخذ عن صحيحي السليقة حتى القرن الرابع .

---

(١) علم اللغة العربية حجازي ٦٥

(٢) (العربية) يوهان فك ، ترجمة عبد الحليم النجار ، ط لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ١٩٥١ م ٩٠

(٣) أصول النحو ، الأفغاني ٤٨ - ٤٩

ويحاول دارس محدث أن يعطي هذا الترخّص البادي في صنيع المعجميين مفهوماً عصرياً فيقول : « إن علماءنا فرقوا في الاستشهاد بالحديث بين المستوى الوظيفي والمستوى المعجمي فرفض الأول وقبل الثاني »[1] . وقد شمل الاهتمام بالشعر الصحيح النسبة إلى أهل الاحتجاج رجال الأدب وغدا لديهم كذلك مكان بارز لهذه القيمة ، فابن قتيبة يصرّح في مقدمة كتابه : الشعر والشعراء قائلاً : « وكان أكثر قصدي للمشهورين من الشعراء الذين يعرفهم جُلّ أهل الأدب والذين يقع الاحتجاج بأشعارهم في الغريب وفي النحو ، وفي كتاب الله عز وجل وحديث الرسول ﷺ »[2] ويؤكد ما يذهب إليه الجاحظ في (البيان والتبيين) فهو يقول : « لم أرَ غاية النحويين إلا كل شعر فيه إعراب ، ولم أرَ غاية رواة الأشعار إلا كلّ شعر فيه غريب . أو معنى صعب يحتاج إلى الاستخراج ، ولم أرَ غاية رواة الأخبار إلا كلّ شعر فيه الشاهد والمثل »[3] ، فأصحاب رواية الشعر يبحثون في تجوالهم وتنقلهم بين البوادي والأعراب عن الطريف والغريب الذي يحيج إلى المزيد من التنقيب عن المعاني وتوثيقها والاستشهاد عليها ، ورواة الأخبار يجمعون أيضاً ما يتضمن الشواهد ، وإن هؤلاء جميعاً ليوضحون في مسعاهم ـ والأطر التي تحيط به ـ فكرتنا عن سيطرة بنود الاحتجاج والسلامة اللغوية على التفكير العلمي وعلى أصحاب الجهود والتصنيفات في العربية .

ونصل إلى مسألة اللحن والكتب والمعالجة له فهذا باب من أكثر أبواب الدراسة الدلالية وضوحاً ، ونحن نرى فيه الحكم الذي يقف بين طرفين واحد منهما هو الصحيح وفيه إصابة الهدف ، والآخر خاطىء ينبغي أن يعود إلى الصواب المتعارف عليه في مدونّات اللغة ، وما سمع من أصحاب الاحتجاج المسلم لهم من

---

(١) مستوى الصواب والخطأ . محمد عيد ١٣٤

(٢) الشعر والشعراء ، ابن قتيبة (٥٩/١) ، تحقيق أحمد شاكر ـ القاهرة ١٩٦٦ م ، دار المعارف بمصر .

(٣) البيان والتبيين . الجاحظ (٢٤/٤) ، تحقيق عبد السلام هارون ط ٣ ، مكتبة الخانجي ١٩٦٨

عامة الدارسين والباحثين في العربية وقد بدأ العلماء يحسّون بالحاجة إلى مصنفات تعالج هذه الظاهرة الحادثة في صورتها المستشرية ، فإنهم رووا قديماً أحاديث عن اللحن في الجاهلية ، ولكنها من القلة بحيث لاتلفت النظر ، ويورد السيوطي في المزهر روايات لأحاديث عن الرسول ﷺ تشتمل على مصطلح (اللحن) ؛ ويعقب « يوهان فُكْ » عليها بعد نقلها قائلاً بأنها ضعيفة مثل « أنا أفصح من نطق بالضاد ، أو أنا من قريش ونشأت في بني سعد فأنّى لي اللحن[1] » ، وقد يفسر الخطأ ههنا بأنه راجع إلى اختلاف المستوى بين الفصحى العالية وتلك اللهجات المتباعدة .

ولكن التدفق الذي شهدته البلاد المفتوحة من أهل الجزيرة مالبث أن انجاب عن تغيّر لغوي في البنية والتركيب والإعراب والدلالة ، ذلك أن هذا الكم البشري وطبيعة الحياة الجديدة التي لم تستقر بالناس إلاّ بعد أمد طويل فرضا هذا التطور في الألسنة العربية فاللغات عديدة ـ رغم أن بعضاً منها يلتقي في أصوله الأولى مع العربية كعربية المناذرة والغساسنة وسريانية أهل الشام ـ والامتزاج في العلاقات الاجتماعية كان واسعاً لم تلاحقه حركة التعلم اللغوي فظل هناك الحديث الأدبي والموقف الرسمي واللغة المكتوبة من جهة ولغة التداول اليومي من جهة أخرى . وهذه هي التي تباعدت شيئاً فشيئاً عن الأصل الصحيح الفصيح ، ومنذ بدت ملامح الانحراف سارع الدارسون إلى تأليف المبادئ النحوية ثم الكتب ونشطت الحركة العلمية في العربية ولكن التركيز فيا بعد جعل بعض العلماء يخصصّون القول في قضايا الدلالة ضمن سلسلة من المصنفات سميت (بكتب اللحن) .

أما التعريف الدقيق لمصطلح لحن « فهو مخالفة العربية الفصحى في

---

(١) المزهر للسيوطي (٢٠٩/١) .

الأصوات أو في الصيغ أو في تركيب الجملة ، وحركات الإعراب ، أو في دلالة الألفاظ . وهذا هو ما كان يعنيه كل من ألف في لحن العامة من القدامى والمحدثين[1] » . وقد ذكر صاحب اللسان عدة معانٍ لكلمة (لحن) جمعها ابن بري وهو : الخطأ في الإعراب ، واللغة والغناء ، والفطنة ، والتعريض ، والمعنى[2] .

وإننا إذا ما عدنا إلى أمالي أبي علي القالي وهو من رجال القرن الرابع الهجري وجدنا فيها محاولة لحصر ماتدل عليه المادة اللغوية (لحن) هي الأصل لما صنّف اللسان بعد ذلك ، ونلحظ أن مفهوم الخطأ لم يكن قد تمت له الغلبة والبروز على سائر المعاني في القرن الأول الهجري فمعاوية بن أبي سفيان يلتبس الأمر عليه فالأصمعي يروي عن عيسى بن عمر « قال معاوية للناس كيف ابن زياد فيكم ؟ قالوا : ظريف إلا أنه يلحن قال : فذاك أظرف له » . ويعلّق القالي « ذهب معاوية إلى اللحن الذي هو الفطنة ، وذهبوا هم إلى اللحن الذي هو الخطأ[3] » . ولكن يبدو أن تقدم الزمن اقترن بوضوح أكبر فينقل ابن قتيبة في عيون الأخبار قولة مسلمة بن عبد الملك « اللحن في الكلام أقبح من الجدري في الوجه »[4] وقولة عبد الملك بن مروان « اللحن في الكلام أقبح من التفتيق في الثوب النفيس » ويؤكد يوهان فك عروبة البيت الأموي أي نزعتهم للمحافظة على الشخصية العربية من خلال أبرز سماتها : العربية الفصحى ، وذلك باهتمامهم هذا الذي نراه في الطبقات العليا من الخلفاء وكبار المسؤولين منهم ، ويسمي فك هذا الاتجاه بمبدأ (تنقية العربية)[5] الذي يتجسد كذلك في المؤلفات العلمية المهتمة ،

---

(١) لحن العامة ، رمضان عبد التواب ٩ .

(٢) اللسان ، مادة (لحن) .

(٣) الأمالي لأبي علي القالي (٢٨/١) ، ط دار الكتب المصرية بالقاهرة (مصورة ١٩٧٥) .

(٤) يورد هاتين الكلمتين ابن قتيبة وسواهما تحت عنوان (الإعراب واللحن) ، عيون الأخبار (١٥٨/٢) ، ط دار الكتب المصرية (مصورة ١٩٧٣) .

(٥) العربية . فك ٢٦ ـ ٢٧ .

إلا أننا لانسمع بأسماء كتب اللحن إلا أواخر القرن الثاني الهجري إذ ألف الكسائي علي بن حمزة (١٧٢ هـ) ـ ماتلحن فيه العامة ـ وتلاه الفراء (٢٠٧ هـ) وأبو عبيدة (٢١٠ هـ) ، وابن السكيت (٢٤٤ هـ) ، وثعلب (٢٩١ هـ) ، وأبو بكر الزبيدي محمد بن الحسن (٣٧٠ هـ) وأبو هلال العسكري (٣٩٥ هـ) وعدد آخر من المصنفين .

وقد عنيت هذه المؤلفات بالألفاظ وأخطاء العامة فيها بأكثر مما وجهت الجهد نحو قضايا الإعراب والنحو ، وقد يفسّر التخصيص توفرُ الدارسين والعلماء على قدر وافر من التآليف النحوية في الأمد الذي شهد دراسة اللحن ، وثمة احتمال هو أن التركيز على المشكلات الصرفية والدلالية يعود إلى أن العامة يترخصّون بطبيعة الحال في تحقيق الإعراب في أحاديثهم اليومية العادية ، ومراجعة سريعة للتاريخ الجيد الذي قام به يوهان فك في (العربية) تطلعنا على أن استعمال الفصحى[1] لغة للحوار اليومي قد أخذ ينحسر بالتدريج عن فئات المجتمع حتى أولئك النحاة والرواة والمتأدبين ، وكذلك الحكام في القصور العباسية ، ودور الولايات بعد أن طغى العسكر التركي والعناصر الغريبة في وقت[2] ضعفت الشخصيات العربية الحاكمة . إذن فالمطلوب في قسم من العمل التصحيحي للغة هو أن تسْلَم الألفاظ بنيةً ودلالةً و يبعد الخطأ ، أما الإعراب فهو مما يصحُّ مع التعلم ، والارتقاء إليه مستطاع ؛ أما الانحراف بمادة اللغة العربية فهذا أشد خطراً .

وعندما تتوجه كتب (اللحن) إلى عامة العلماء والباحثين والمتأدبين ، فيكون الهدف المبتغى هو الإلحاح على جوانب لاتفيها حقها الجهود النحوية إذ هو باب آخر ـ الألفاظ والدلالة بوجه الخصوص ـ لابُدّ من استيفائه .

---

(١) ينظر يوهان فك ، اللغة ص ٤٠ .
(٢) فك ، اللغة ١٢٨ ـ ١٣٠ ، ٢٠٨ .

ونكتفي بإيضاح جانب التصويب في قسم من أقسام دراسة العربية وهو مباحث (اللحن) وسنتناول تفصيلات المواد المدروسة في الفصل المخصص لمشكلة (التطور) في اللغة عند نقاد القرن الرابع . ونرى أن هنالك فارقاً كبيراً بين اتجاه يقيم ميزاناً يفصل بين صواب وخطأ ، واتجاه آخر يتجرَّد عن هذا الفصل ويلتمس الظواهر المختلفة بعيداً عن المعيارية الخاصة ، ليستخرج قوانينها وقواعدها ، ولا نريد أن نتهم القدماء ونرفض عملهم بل قصدنا جلاء الملامح ، فقد سبق أن قلنا إن كل عمل علمي يجعل اللغة العربية وكدّه لا بدَّ له من مراعاة سمات (الفصحى) وشروطها ، فتقبل الطرائق الدراسية بحسب ملاءمتها لهذه السمات والشروط .

٣ ـ المعيارية وفكرة (الصواب والخطأ لدى نقاد الشعر)

لقد قصدنا في هذا الفصل إلى تأصيل النظرة المعيارية لدى نقاد القرن الرابع ، وبوجه خاص إذ يدرسون الجوانب الدلالية ـ مشكلة المعنى ـ ورأينا فيما سبق السبل التي سلكتها قضية الصواب والخطأ إنْ في الفلسفة ومنطقها ـ أو لنكن أكثر دقة في المنطق الذي عرفه المسلمون عبر الترجمات والتلخيصات بكل ما شابها من زيادات وتحويرات أدت إلى فهم خاص للمسألة اللغوية ، والمفردات ـ أو في حلبات الدرس النحوي واللغوي ، وحتى الأدبي خلال القرون الأولى التي كان القرن الرابع نتيجة لها وذروة بارزة للتأثيرات المختلفة ومنها المفهوم المنطقي والآخر المتعلق بالعربية الفصحى .

ونحن الآن أمام نتاج النقاد ، والجانب اللغوي مقدَّم على ما سواه في البحث . ولا نريد إفراده دون الزوايا المتممة لعمل الواحد من هؤلاء النقاد ، ذلك أن الرؤية التي كانت لهم ، اتصلت أطرافها اتصالاً وثيقاً يجعل من الصعب استخراج الأحكام مالم نتطرق إلى عدد من المسائل ، لذا فالحديث عن المعيارية وعن الصواب والخطأ يتجه أول ما يتجه نحو التناول العام ومن ثم يخصص شيئاً

فشيئاً بحسب ماتتيح الشواهد ، وقد يطول بعض الشيء الاحتجاج والأمثلة وعلّة هذا الصنيع أننا نحرص أشد الحرص على ألاّ تسيطر الفكرة النظرية المسبقة ، أو ذاك الاستعراض المتسع ، ـ في جانب من النظر إليه ـ الذي وقفنا عنده في الصفحات السابقة ، على متابعتنا فيغدو كلامنا مجموعة من الآراء التجريدية ذات الصبغة التقعيدية دون أن يكون لها أصل في واقع العمل النقدي في القرن الرابع .

وسنحاول أن نسير وفق خطة تعالج بمجموعة من الفقرات الصغيرة : أ) تبين استقرار مصطلحات الصواب والخطأ عند النقاد وفي كتبهم وشروحهم ، والإشارة إلى اشتراك معظم الدارسين والباحثين في تلك الألفاظ الاصطلاحية ، وإن كان ثمة خلاف أو اختلاف فسنعمل على توضيحه . ب) تقسيم ماوقفوا عليه من الأخطاء ومحاولة لتحليلها لنصل إلى موقع الجانب الدلالي بينها ، والحرص على أن نوازن بينها ما كان إلى ذلك من سبيل . ج) عرض مجمل أفكار النقاد النظرية في المشكلة ومقارنة بين النظر والتطبيق ومدى اتساعه أو ضيق مجاله بالنسبة إلى ماأبدوه من حدود نظرية . د) التركيز على المعيار المستخدم في الموازنة بين الصواب والخطأ ، وارتباطه بالتراث اللغوي وأبعاده في الاحتجاج ، وتقنين العربية الفصحى في القرون السالفة . هـ) النظر إلى نتائج هذه المعيارية التي اعتمدها النقاد ، وأبرز ما يلاحظ هو تلك الحرفية الواقعية ، والفهم ذو الحدود الضيقة لدور اللغة ولكونها قابلة للتطور في صور ضرورية منه .

أ) إنّ تشكل المصطلح في كل جانب من جوانب البحث والدراسة ، ورواجه بين الدارسين يعني أنه قد تم لهم مفهومات محددة ، ولا شك أن تلك الأدوات الاصطلاحية ترسم لنا أبعاد النظر النقدي واللغوي ، وتجلو الأسس التي اعتمد عليها النقد في عملياته ، وقديماً أدرك ابن المعتز في كتابه (البديع) قيمة ابتكار المصطلح ـ أو لنقل : القيام بعمل البلورة ـ فنبّه كلّ من يأتي بعده على أنه هو أول من أطلق هذه التسمية ـ البديع ـ رغم أنّ ضروب الصناعة الشعرية كانت

ملحوظة قبله ، ثم يفتح الأبواب ليضيف من يرى أن التسميات الفرعية التي جاء بها صاحب « البديع » غير كافية . يقول ابن المعتز : « إن البديع اسم موضوع لفنون من الشعر يذكرها الشعراء ونقاد المتأدبين منهم ، فأما العلماء باللغة والشعر القديم فلا يعرفون هذا الاسم ولا يدرون ما هو . وما جمع فنون البديع ولا سبقني إليه أحد » . ويضيف مشيراً إلى إمكانية الابتكار في التسميات . فمن أحب أن يقتدي بنا ويقتصر بالبديع على تلك الخمسة ـ الاستعارة والتجنيس ، والطباق ، وردّ الأعجاز على الصدور ، والمذهب الكلامي ـ فليفعل ومن أضاف من هذه المحاسن ـ ذكر منها ابن المعتز ثلاثة عشر نوعاً ـ أو غيرها شيئاً إلى البديع ولم يأت عند رأينا فله اختياره »[1] . ورغم هذه اليقظة إلى المسألة وهذا الروح العلمي جاء قدامة بن جعفر ليعيد وكأنما هو المخترع مصوّراً لنا الأمر على أنه صعوبة عاناها ، فيقول « ومع ما قدمته فإني لمّا كنت آخذاً في معنى لم يسبقني إليه من يضع لمعانيه وفنونه المستنبطة أسماء تدل عليها ، احتجت أن أضع لما يظهر من ذلك أسماء اخترعتها ، وقد فعلت ذلك ، والأسماء لا منازعة فيها إن كانت علامات فإن قنع بما وضعته من هذه الأسماء وإلاّ فليخترع كل من أبى ما وضعته منها ما أحب فإنه ليس ينازع في ذلك »[2] ، ولئن كان مطلب إيجاد الأسماء ملحاً في حالة الفنون البديعية والتفريعات الجزئية المتشابهة لقد يكون أقل إلحاحاً في القضية التي نحن في مضمار دراستها ، فلا جدال أن الكتب قد اشتملت على استعمالات عدة ولكن التوقف إلى أن يرصد اسم محدَّد لا يلاحظ في بيئة النقاد واللغويين إذْ يدرسون الدلالة والمسائل اللغوية في مستوى الصواب ، فهم يتداولون مجموعة مصطلحات تلتقي في النهاية لدى تحليلها على حدود مفهوم الصواب والخطأ ، وتتبع النهج المعياري .

---

(١) البديع . عبد الله بن المعتز ٥٧ ـ ٥٨ ط كراتشقوسكي . نسخة مصورة بدمشق .

(٢) نقد الشعر . قدامة بن جعفر ٦ ط القسطنطينية . الجوائب ١٣٠٢ هـ .

ونبدأ رحلة المصطلح بالآمدي في (الموازنة) ، فقد أفرد أقساماً مّن كتابه ليتحدث عن أخطاء أبي تمام في المعاني والألفاظ[1] . ويفصل « ماغلط فيه أبو تمام من المعاني والألفاظ »[2] وهو يورد أيضاً « ماأخطأ فيه البحتري من المعاني »[3] . وهناك فصول تنتقد مسائل هي أقرب ماتكون إلى الخطأ وردّه إلى الحالة الصحيحة .

وإن الآمدي يجمع في موضع واحد أكثر من مصطلح فإنه وجد نقاد أبي تمام « يعيبونه بكثرة خطائه وإخلاله ، وإحالاته ، وأغاليطه في المعاني والألفاظ[4] ، ولكنه يفضل استعمال كلمة (خطاء) »[5] ، فتردّد مع الأبيات « فمن خطائه ـ أبي تمام ـ قوله :

وقد ظلّلَتْ أعناقَ أعلامِه ضحىً بعقبان طَيْرٍ في الدّماء نواهلِ

وهذه الصيغة نجدها في أمثلة كثيرة[6] ، وهو إمّا أن يتبعها بمرادف مثل الغلط في قول أبي تمام :

شهِدتُ لقد أقوتْ مغانيكم بعدي ومحّت كما محّت وشائع من بُرْدِ

فمثل أبي تمام لا يسوغ له الغلط في مثل هذا لأنه حضري »[7] ؛ أو بشرح يتضمن العيب والركاكة بعد قول التامي :

---

(١) الموازنة . الآمدي . دار المعارف بمصر . تحقيق سيد صقر ١٩٦٥ (١٥٧/١) .

(٢) نفسه ١٤١

(٣) نفسه ٢٧١

(٤) نفسه (١٣٨/١ ـ ١٣٩) .

(٥) قال في القاموس : الخطء والخطأ والخطاء ضد الصواب . القاموس المحيط ١ مادة خطأ ط البابي الحلبي بمصر .

(٦) الموازنة (٢٤٨/١ ـ ٢٤٩) ، ٢٤٩ ، ٢٥٥ ، ٢٢٣ ، ٢٢٤ ، ٢٦١

(٧) نفسه (١٩٣/١) .

جلَّيت والمــوتُ مُبــدٍ حُرَّ صَفحتِــه   وقَــدْ تفرعَنَ في أفعـــالِـــه الأجَــلُ

فإن « وقد تفرعن ... » معنى في غاية الركاكة والسخافة ، وهو من ألفاظ العامة ، وما زال الناس يعيبونه[1] ، ويسلك الآمدي طريقاً آخر إذ يأتي بالشواهد ومن ثم يعلّق عليها بألفاظ قريبة مما جئنا به فبعد قول التامي :

مَهَـا الـوحش إلاّ أنّ هـاتـا أوانسٌ   قَنَـا الخـطِّ إلاّ أنَّ تلـك ذوابـلُ

نجد عبارة : « أخطأ في هذا البيت إذْ قال : قنا الخطّ ... ذوابل[2] » ، وإثر بيت آخر هو :

مِنَ الهيفِ لـو أنّ الخـلاخِـل صيّرت   لهـا وُشُحـاً جـالتْ عليهـا الخلاخِـلُ

يقول إن « من الهيف .. وشحاً : من أقبح الخطأ وأفحشه »[3] وبعد الشاهد :

قسّم الـزّمـانُ ربـوعَهـا بين الصّبـا   وقَبـولِهـا ودَبـورِهـا أَثـلاثـا

هذا غلط من أبي تمام لأنّ الصَّبا هي القبول[4] » ويحدّد في مواضع بعبارة : « هذا خطأ في الوصف »[5] أو « هو في الوصف مخطئ »[6] ، وفي نهاية مناقشة لأمثلة استعارات يقول : « وهذه استعارات في غاية القباحة والهجانة والغثاثة والبعد من الصواب[7] » . ولا يخلو الأمر من عبارات فيها مصطلح (الصحة) ، أو الصحيح « فأبو تمام يقول :

---

(١) الموازنة (٢٣٩/١) .

(٢) الموازنة (١١٧/٢) .

(٣) الموازنة (١١٧/٢) .

(٤) نفسه (٤٩٢/١) .

(٥) نفسه (٤٧١/١) .

(٦) الموازنة (٢٣٧/١ ـ ٢٣٨) .

(٧) نفسه (٢٦٥/١) .

وفي الكلَّة الصفراءِ جؤذَرَ رَملْةٍ   غدا مستقلاً والفراقُ معادلهُ

فيردف الآمدي هذا « بأن قوله (الفراق معادله) معنى غير جيّد ولا صحيح[1] » ، وأمّا التحكّم المعياري فتفسره الكلمة التي تقلها عن بعض نقاد البحتري في بيته .

لَوَتْ بالسّلام بنَاناً خَضِيباً   ولَحْظاً يشوقُ الفؤادَ الطَّروبا

فإنه « كان ينبغي أن يقول : أشارت ، أو أومأت أو نحو هذا[2] » وكل ما رَدَّ به كان إجابة واحدة من أنصار الشاعر تدور حول إمكانية الوزن في استيعاب إيقاع الألفاظ المقترحة ، أي أن الآمدي لم يرفض هذا الأسلوب التحكّمي من جهته . وإننا ـ بعد هذه النماذج التي مررنا بها من المصطلحات ـ لا نجد اختلافاً بين حدّة المعيارية هنا ، وما ورد لدى الآمدي قَبْلُ .

وثمة أمثلة أخرى استخدم فيها الناقد عبارات تدور في إطار ماذكرنا وإنْ لم تتوافق الألفاظ توافقاً تاماً مع المصطلحات التي أحصينا ـ فهو يقول : « مستهجن وليس بجيد »[3] ، و « ليس باللفظ الجيّد »[4] .

وأما تفصيل المواقف التي تنعت بالخطأ أو الغلط فهو موضوع الفقرة الخاصة بضروب المشكلات اللغوية والأسلوبية التي نبّه عليها الآمدي والنقاد الآخرون ، وإنما عملنا الآن هو توضيح المصطلح ، لذا ننتقل إلى القاضي الجرجاني في وساطته ، لنتابع نظائر ماعرفناه ههنا ، فإنه يجمع بين اللحن والخطأ في موضع ويربط الأول بالإعراب والثاني باللغة أي ما يعرفه بعض المتأخرين بمتن اللغة ،

---

(١) الموازنة (٤١/٢) .

(٢) الموازنة (٧٦/٢) .

(٣) نفسه (٥١٢/١) .

(٤) نفسه (٢٨/٢) .

وهو المتعلق بالمفردات ودلالاتها « فأمّا المختلّ المعيب والفاسد والمضطرب فله وجهان : أحدهما ظاهرٌ يشترك في معرفته ويقلّ التفاضلُ في علمه وهو ما كان اختلاله وفساده من باب اللحن والخطأ من ناحية الإعراب واللغة »[1] .

والغالب في (الوساطة) هو مصطلح (عابوا) ، وكذلك (من أغاليط) ولئن كان التعبير بالغلط يوازي الخطأ في دلالته لقد يكون في استعمال (العيب) إيحاء ظاهريّ بجنوح نحو التخفيف من الحكم بالبعد عن الصواب لذا فيحسن أن نستعرض بعض النماذج :

فإنَّهم « عابوا قول المتنبي :

ليسَ التعلّلُ بالآمالِ مِنْ أرَبِي ولا القُنوعُ بضَنْكِ العَيْشِ من شيَمي

قالوا : القنوع خطأ وإنما هي القناعة فأما القنوع : فالمسألة[2] » وهكذا يتضح لنا القصد لدى القاضي الجرجاني من مصطلحه فهو ـ كما يتبدى في الأمثلة ـ يعني الخطأ ، وشبيه بهذا عبارة (أنكروا) قول المتنبي :

إذا كانَ بعضُ النَّاس سَيْفاً لدوْلةٍ ففي النَّاس بُوقاتٌ لها وطبُوْلُ

فقالوا : « إن جمع بوق على بوقات خطأ[3] » . ونحن نجد ما يمكن عدُّه تفسيراً ـ في مثال من أمثلة أحكام الجرجاني ـ للمصطلح العام (أغاليط) فمن تلك الأغاليط قول مسلمة بن الخرشب :

إذا كانَ الحِزامُ لقصرييها أماماً حيْثُ يُمتَسَكُ البريْمُ

---

(1) الوساطة ، للقاضي الجرجاني ، تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم ، وعلي البجاوي القاهرة ١٩٦٧ عيسى البابي الحلبي ٤١٢ .

(2) الوساطة ٤٦٢ ـ ٤٦٣ .

(3) الوساطة ٤٤٣ ـ ٤٤٤ .

قـال الأصمعي : أخطـأ في الـوصف لأن خيرَ جري الإنـاث الخضـوع[1] وفي العديد من المواضع تتداول كلمة (خطأ) فمن قول المتنبي :

هذي برزت لنا فهجتِ رسيساً

قالوا : « حذف علامة النداء من هذي ، وحذفها خطأ[2] » ، ومما أنكرهُ على المتنبي أهل العلم واستضعفوه قوله :

جَلَـلاً كما بي فَليـكُ التبريـحُ   أغـذاءُ الرَشـأ الأغنّ الشيِّـحُ

فقال أهل الإعراب : حذف النون من تكن إذا استقبلتها اللام خطأ[3] .

إذن فصاحب الوسـاطـة يقبل هـذه الطريقـة من النقـد إذ يتكئ على إبراز الأخطـاء والبحث بـالتـالي عن الصواب المفترض ، ولا يضعف تقريرنـا هـذا أن المؤلف يروي أحيـانـاً عن القـدمـاء كالأصمعي ، وآخرين يسميهم بسميات عـامـة كأهل الإعراب ، فالقـاضي الجرجـاني يُـدخل هـذه العملـة في حيّز التـداول . ولا يبخسها قيمتها التي عرفت بها في البيئات اللغوية والأدبية السابقة عليه .

ولعـل أبـا هـلال العسكري في كتـابـه (الصنـاعتين) من أوضح النقـاد في الدلالة على التشابه فيا بينهم إذ نتحدث عن مسائل (المصطلح) ، فإنـه من جهـة يخصّص فصلاً ليدرس نماذج من أخطاء الشعراء القدماء منهم والمحدثين[4] وذلـك كما صنع الآمدي ، ومن جهة أخرى تتعدّد الألفاظ المستعملة لديـه مصطلحـات وهي تدور في فلك مشابهة لما رأينا عند القاضي الجرجاني .

---

(١) الوساطة ١٢ .

(٢) الوساطة ٤٦٥ ـ ٤٦٦ .

(٣) الوسـاطـة ٤٤١ ، وثمة مواضع أخرى : الـوسـاطـة ١٠ ، ١٢ ، ١٣ ، ٤٤٢ ، ٤٥٧ ـ ٤٦٦ ، ٤٧٠ ، ٤٤٦ .

(٤) كتاب الصناعتين للعسكري ، تحقيق البجاوي وأبو الفضل ، القاهرة ١٩٧١ ط البـابي الحلبي ٧٥ ـ ١٣٨ .

ويقول العسكري : « للخطأ صور مختلفة نبّهت على أشياء منها في هذا الفصل ، وبينت وجوهها وشرحت أبوابها لتقف عليها فتجتنبها ، كما عرفتك مواقع الصواب فتعتمدها[1] ، وإنّ كفتي الميزان واضحتان أمامه ، وهو يدأب على ذكر عبارة « ومن الخطأ ... » و « أخطأ .. » فمن الخطأ قول البحتري :

بَدَتْ صفرةٌ في لونه إنَّ حمدهم ... من الدُّر ما اصفرت حواشيه في العِقْدِ

واستعمال الحواشي في الدّر أيضاً خطأ[2] » ويَرِدِ أحياناً لديه (العيب) فمن عيوب اللفظ استعماله في غير موضعه المستعمل فيه وحمله على غير وجهه المعروف به كقول ذي الرُّمة :

نغارُ إذا ما الروح أبدى عن البُرى ... ونقْري عبيطَ اللَّحم والماءُ جامسُ[3]

وكذلك نرى لفظ (الغلط) : فإنه قول أبي تمام :

رَقيقُ حَواشي الحِلْم لو أنَّ حِلْمه ... بكفّيك مَا ماريْتَ في أنَّه بردُ[4]

وفي أثناء هذا الفصل يكرّر العسكري العبارات الاصطلاحية أو يختصرها بالعطف على أولِ ذكرٍ لها .

ونلاحظ مشاركة (أحمد بن فارس) للدارسين الآخرين ههنا عندما يعرض ما للشعراء من ميزات ويستثني مسائل يلحّ على أنها لا تدخل في معايير النقد إذ يترك أبواباً مشرعة للإبداع وتجاوزاته اللغوية « فالشعراء أمراء الكلام يقصرون الممدود ولا يمدون المقصور ويقدمون ويؤخرون ، ويومئون ويشيرون ،

---

(١) الصناعتين ٧٦ ـ ٧٧ .

(٢) المصدر نفسه ١٣٣ .

(٣) نفسه ١١٦ .

(٤) المصدر نفسه ١٢٥ ، وللمزيد من الأمثلة ١٠٠ ، ٩٩ ، ١٠٢ ط بجاوي ، ط ـ أخرى ٩١ ، ٩٦ ، ١٠٢ .

ويختلسون ، ويعيرون ويستعيرون ، فأما في لحن في إعراب ، أو إزالة كلمة عن نهج صواب فليس لهم ذلك[1] » ، ولا تحتاج عبارات ابن فارس إلى المزيد من الشرح فهي تسلك مع ما جاء في كتب الآمدي والجرجاني والعسكري .

وهناك ناقدان يختلف تناولها للعمل الأدبي من جهة النظر والتطبيق فالأول وهو قدامة بن جعفر يتقدم لديه الاتجاه النظري التقعيدي فيعطينا نقد الشعر ، والآخر هو (الحاتمي) يترك لنا رسالته الموضحة التي رَوَتْ محاورة - أغلبها صناعة لا حكاية لمقابلة أو مقابلات - بين الناقد والمتنبي الشاعر ، وتتابع الأمثلة والشواهد والتعليقات ، ومن ثم الردود عليها أي أنها عمل تطبيقي . وهذا لا يدفع أن تتخللها آراء تصلح أن تضم إلى سواها في جهود نقدية لترسم صورة لما يحتمل أن يكون رؤية نقدية .

أما قدامة فإنه يذكر تحت عنوان (عيوب اللفظ) أشياء يشملها مصطلح (اللحن) والطريف أن الناقد يرجع مسائل الإعراب واللغة إلى النحويين ، ولئن جوَّزنا استعمال (النحو) للأبواب المعروفة في هذا العلم مضافاً إليها ما يعرف من قضايا الصرف ، فإنه يبدو غريباً إلحاق (اللغة) وتدل عادة على المفردات ودلالاتها وارتباطها بالمعنى بذاك المصطلح ، وصيغة الحديث هي « أن عيوب اللفظ أن يكون ملحوناً وجارياً على غير سبيل الإعراب واللغة ، وقد تقدّم من استقصى هذا الباب وهم واضعو صناعة النحو ، وأن يرتكب الشاعر فيه ما ليس يستعمل ولا يتكلم به إلا شاذاً . ذلك هو الحوشي الذي مدح عمر بن الخطاب زهيراً بمجانبته وتنكبه إياه فقال : كان لا يتبّع حوشيّ الكلام »[2] .

ويبدو الحاتمي أكثر صراحة في تعبيره النقدي فيقول للمتنبي ، وأخطأت في قولك :

---

(1) الصاحبي في فقه اللغة . أحمد بن فارس ٢٧٥ ط بيروت .

(2) نقد الشعر ، قدامة بن جعفر ٦٥ .

لأمــةٌ فــاضــةٌ أضــاةٌ دلاصٌ أحكمتْ نسجُهــا يَـــدُ داود

من أجل أنه لا يقال درع فاضة ، إنما يقـال : مفـاضـة ، وجمعهـا مفـاض .. ونلحظ أيضاً قولة لهذا الناقد « وليس يجوز في اللغة »[1] فالمستويان هما مـا يجوز ، وما لا يجوز أي الخطأ .

ونلمح واحداً من الأصول التي غدت معـالم مقررة لـدى النقـاد ، فـالمرزبـاني يروي لنـا حكايـة نقلهـا من أوسـاط الرواة والمتـأدبين التي كان الشعراء فيهـا يتحـاورون مـع النحـويين ومن يروون الآثـار القـديمـة : « وقـد ذكر الأصمعي مروان بن أبي حفصة فقال . كان مولداً ولم يكن له علم بـاللغـة حضرتـه في حلقـة يونس ـ ابن حبيب ـ وسأل يونس عن قول زهير :

فَبِتْنـا عراةً عنـدَ رأسِ جـوادِنـا يُـزاوِلنـا عَن نَفْسِـهِ ونُـزاولـهُ

فقال مروان من (العروراء) من البرد . قـال فقلت لـه أخطـأتَ[2] » وبـذا نعرف كيف كانت تشيع هـذه اللفظـة الاصطلاحيـة ، وتتسع آفـاق دلالتهـا ـ في الاستعمال ـ لتنتظم في ضروب التشكيل اللغوي ، وحتى تلـك الجوانب الأسلوبيـة والتراث الذي حُمِلَ إلى القرن الرابع حفل بالمعيارية سواء في النحو أو اللغـة أو في المسائل الأدبية .

وتتردد في أعمـالٍ ثـلاثـة كلمـة (الخلـل) لتنبئ عن مستوى الخطـأ ، وإن صاحب الموشح يحكي عن ابن طباطبا في عيار الشعر قولـه :[3] « من الأبيـات التي

---

(1) الرسالة الموضحة ، الحاتمي ، تحقيق محمد يوسف نجم ، بيروت ١٩٦٥ دار صادر دار بيروت ٧٥ ، وينظر أيضاً ٥٩ ـ ٦٠ فيها .

(2) الموشح ، المرزباني تحقيق علي البجاوي ، دار نهضة مصر ١٩٦٥ القاهرة ٣٩١ .

(3) عيار الشعر ، ابن طباطبا ، تحقيق زغلول سلام ، وطه الحاجري ط ١ ، التجـاريـة ، القـاهرة ١٩٥٦ ، ٩٦ ـ ١٠٠ ، وفي الموشح للمرزباني ٣٣ .

قصّر فيها أصحابها عن الغايات التي جروا إليها ولم يسدّوا الخلل الواقع فيها لا معنىً ولا لفظاً قول النابغة الذبياني :

مـاضي الجنّـان أخي صَبْرٍ إذا نـزلَتْ حربٌ يـوائِـلُ فيهـا كلُّ تِنْبـال

فالعمل الأدبي ـ في هذه الجزئية منه ـ يقصر عن السوية المطلوبة ، ويقع في طرف بعيد عن الصواب وسنرى بَعْدُ تحليلاً مبسوطاً حول الأسباب والمعايير لمثل هذا الحكم ولكنّ الباقلاني ينعت بيتاً لامرئ القيس بالخلل في التعبير ـ إذ يستطرد بصورة غير ذات جدوى في نظر الناقد فالبيت :

مُهفْهفـةٌ بيضـاءُ غيرُ مفـاضـةٍ ترائبُهـا مَصقـولـةٌ كالسّجَنْجَـلِ

مع مافيه من مخالفة في الطبع للأبيات المتقدمة عليه . ونزوع الشاعر فيه إلى الألفاظ المستكرهة وما فيه من الخلل من تخصيص الترائب بالضوء ، بعد ذكر جميعها بالضوء ، فليس بطائل[1] ، ولا بد أن نستطلع مؤلفات ابن جني فهو من أصحاب التصنيفات اللغوية وكذلك خلّف لنا عدداً من الشروح الأدبية على دواوين أو مجموعات شعرية تضمُّ الشعر القديم إلى جانب نتاج المحدثين القريب من الزمن الذي عاش فيه المصنف ، وإننا نجد خلال عملنا الذي يتقصى ألفاظ المصطلح عبارة فيها كلمة (الخطأ) مرويّة في خبر يُشير إلى لغة العامة ففي شرح بيت المتنبي :

ومَا بِـك غير حبّـك أنْ تراهـا وعِثْيرهَـا لأرجلُهـا جنيبُ

يقول ابن جني ، العِثْيرة : الغبار ، قال الراجز : ترى لها عند الصقعل عثيرة . ويقال : « ما رأيت أثراً ولا عثيراً ، وقد قيل : ولا عيثراً وقال ابن

---

(١) إعجار المرآن ، الباقلاني ، تحقيق سيد صقر ، دار المعارف القاهرة ط ٣ ، ١٩٧١ م ١٧٨ .

دريد : هو من كلام العامة وهو خطأ »[1] ونلحظ أن الشارح اكتفى برواية الحكم على اللفظ المشكل ، دون أن يوضّح لنا قبوله الإطلاق فيه رغم أن المسألة تحتمل - بحسب ماوجدنا في القاموس - أكثر من وجه للتأويل ، فهناك القلب الصرفي لموقع الياء عثير عيثر ، وكذا المعنى المختلف لـ (عيثر) في الظاهر ، وإن يكن ذا صلة خفية بالمعنى الأول فكلاهما يتعلق بالحركة والتحريك .

وتظهر النزعة المعيارية عند ابن جني في بعض الأمثلة رغم أنها لا تحاط بكلمات الصواب والخطأ المباشر فإنه يعلّق على بيت رواه عن أبي علي الفارسي ، وينص على أنّ الصحيح هو ما وافق القياس والبيت هو :

هل تعرفُ الدّار لأمرِ الخزرجِ منها فظَلْتَ اليومَ كالمُزرَّجِ

ويقصد منه إلى « الذي يشرب الزرجون وهو الخمر فسكر ، وكان قياس أن يقول : كالمزرجن لأن النون في زرجون أصلية عندنا[2] ، وفي موضع آخر تناقش في « التمام » وهو شرح لأبيات هذلية لَفظة (إسنفط) وبعد أن يذكر الشارح ابن جني إجماع الناس على أنها « رومية » يحتج لهذا الرأي بأنه لم يذكر في الأمثله (افعنل) وبذا « ينبغي أن يكون العمل على ماأطبقت الجماعة عليه »[3] وتؤكد لنا إدراك ابن جني للحدود بين المستوى الصحيح والآخر غير السوي - على أنها مقاييس - إشارة في الفسر الكبير شرحاً لبيت المتنبي :

---

(1) الفسر الكبير ، ابن جني . تحقيق صفاء خلوصي بغداد ١٩٧٠ (١٨٦/١) ، وقد جاء في القاموس المحيط : والعثير كجديم التراب والعجاج ، وفما قلبت من الطين بأطراف رجليك . والأثر الخفي كالعيثر ... وعيثر الطير رآها جارية فزجرها ، القاموس ٢ مادة (ع ث ر) .

(2) الفسر الصغير . ابن جني ، مخطوط بدار الكتب المصرية ١٢٣ ، ورقة أ - ب ، وينظر شرح ابن النحاس للمعلقات (٤٩٨/١) .

(3) التمام في تفسير أشعار هذيل . ابن جني ، تحقيق أحمد القيسي ، خديجة الحديثي ، أحمد مطلوب بغداد ط ١ ، ١٩٦٢ ، ٢١٠ ، وينظر في مثل هذه العبارة قول الآمدي في الموازنة (٢٢٣/١ - ٢٢٤) وكان ينبغي ... » .

بياضُ وجهٍ يُريك الشمس حالكةً ودرٌّ لفظٍ يريكَ الدرّ مُخْشَلبا

فالمخشلب ، أو المخشلب هذا الخرز المعروف ، وهي ليست عربية ولا فصيحة فاستعملها على ما جرت به عادة الاستعمال[1] . إذن درج العامة على تداول هذه اللفظة حتى صارت عادة لهم لغوية ولكن هذا لا يغيّر من حقيقة أنها غير صحيحة شيئاً .

ب) أما المآخذ التي نعتت بالأخطاء أو بالأغاليط أو بالعيوب أو بما شابهها مما وقفنا عليه في الفقرة السابقة ، **فهي تتنوع بين النحو والصرف والدلالة إضافة إلى ملحوظات أسلوبية سواء أكانت بلاغية أو تركيبية عامة** ، والمعوّل عليه لدينا في استعراض هذه الأنواع هو التركيز على نظر النقاد إلى المشكلات بطريقة واحدة هي : البحث عن الصواب والخطأ ، ولكننا سنكتفي ببعض الأمثلة غير الدلالية ، وسنعمل على التمثيل بعدد أكبر للدلالة وسنتبعها كذلك بتحليلات تظهر في كلّ شاهد الجانب اللغوي الدلالي .

١ ـ وتشتمل **المسائل النحوية** في وساطة الجرجاني ، وموازنة الآمدي على مناقشة استعمال حروف الجر بعضها مكان بعض ، والتعدية المباشرة أو بحرف الجر[2] ، والنصب بأن المضمرة في حالة معينة[3] وحذف النون من (يكن) المجزوم عند اتصاله باللام[4] ، وزيادة هاء السكت في الكلام المتصل[5] وجواز العطف أو عدمه في حالة لا يشترك فيها المتعاطفان في معنى الفعل[6] .

---

(١) الفسر الكبير . ابن جني (١/٢٥٦ ـ ٢٥٧) .

(٢) الوساطة للجرجاني ٤٦٠ ـ ٤٦١

(٣) نفسه ٤٦٦

(٤) نفسه ٤٤١

(٥) نفسه ٤٦٣ ـ ٤٦٤

(٦) الموازنة للآمدي (١/٢٤٨ ـ ٢٤٩) .

ولقد أورد الآمدي بيت أبي تمام :

أعَجْنا عليك العيسَ بعدَ معاجِها على البيضِ أترابـاً على النـؤْي والـودِّ

وأشار إلى أن البيت مضطرب النظم . رديء اللفظ ، لأنه يخاطب الأطلال ، فكأنه أراد أن يقول : أعجنا العيس منك على النؤى والودِّ بعد معاجها على البيض أتراباً فجعل (عليك) في موضع منك[1] .

أما القاضي الجرجاني فيبسط الخطأ كما يصوّره خصوم المتنبي ونقاده ، ويذكر تعليق أنصاره والمحتجين له فهم لا ينكرون الاعتراض وإنما يحاولون تسويغه بضرورة الشعر يقول في الوساطة « ومما يقارب الأبيات السالفة مما يحتاج إلى تبيين ـ في بعضها ـ وكشف ، ويتجه في بعضها الطعن عليه ـ المتنبي ـ ويضعف في بعضها الاحتجاج عنه قوله :

هَـذي بَرزتِ لنـا فهجت رسيْساً (ثمَّ انثنيت وما شَفَيت نسيْساً)

فقال خصومه : حَذَفَ علامة النداء من هـذي وحـذْفها خطأ ، لأن هـذي تصلح أن تكون نعتاً لأي فحذف علامة النداء منه غير جائز » أما المحتج للشاعر فقد قال « هـذا لعمري أصل القياس في النحو غير أن ضرورة الشعر تجيز ترك القياس في النحو »[2] .

٢ ـ ونختار **مسألة صرفية** للحاتمي في رسالته الموضحة إذ ينبّه المتنبي الشاعر على خطأ في استعمال المشتقات فيقول له : أخطأت في قولك : (لأمة فاضة أضاة دلاص البيت ...) من أجل أنه لا يقال : درعٌ فاضة ، إنما يقال مفاضة ، وجمعها مفاض ، ولم تأتِ هـذه الكلمة في شعر عربي صريح ولا في كلام

---

(١) الموازنة (٥٣٦/١) .

(٢) الوساطة ٤٦٥ ـ ٤٦٦

مولَّد فصيح ، وهذا ليس يجوز في اللغة[1] والناقد يأتي هنا ـ على ذكر الخطأ ومن ثم يسدُّ المنافذ أمام حججِ خصمه وينهي الكلام بالقول الفصل : ليس يجوز في اللغة ، ونرى صاحب الوساطة يصل إلى نتيجة مقاربة في مأخذ صرفي آخر على أبي الطيب في بيته :

إذا كان بعضُ النّاس سيفاً لدولةٍ ففي الناس بوقاتٌ لها وطُبول

فقيل: إن جمع بوق على بوقات خطأ ، وإنما يجمع باب فُعْلٌ على أفعال في أدنى العدد له ، قفل وأقفال وعُود وأعواد ويحاول المتنبي أن يردَّ على منتقديه « بأن هذا الاسم مولَّد لم يسمع واحده إلا هكذا وجمعه بغير تاء » وينتصر له أصحابه بكلام طويل يخلص بعده الجرجاني إلى أنه « كان لأبي الطيب في الصحيح مندوحة ، وفي المجتمع عليه متسع »[2] . وعلى هذا المنوال يجري أصحاب المؤلفات النقدية بحث الأمثلة الصرفية ، وأحيل إلى ماوقعت عليه منها[3] .

٣ ـ **وتسرد في الأخطاء نماذج مما أُدْرِجُهُ ضمن تسمية (الأسلوبيات)** فهي مابين تعليق على أنماط من الاستعارات ، وانتقاد (لالتفات) بلاغي وإنكار تركيب لغوي ، وضرب من الجناس ، وتغليط للشاعر في تصويره غير المطابق للواقع ، وتخطئة في أداء معنى جزئي .

وقد جاء الآمدي بمجموعة من استعارات أبي تمام من مثل جعله « للدهر أخدعاً ، ويداً تقطع من الزند ، وجعله يشرق بالكرام ، ويفكر ويبتسم ، وجعله للمدح يداً ... » ويعقب قائلاً : « وهذه استعارات في غاية القباحة

---

(١) الرسالة الموضحة للحاتمي ٧٥

(٢) الوساطة ٤٤٦

(٣) الفسر الكبير لابن جني ١/١١٠ ، ١٨٦ ، ٣٠١ ، والموشح للمرزباني ٣٩١ ، والوساطة ٩٩ ، ٤٥٠ ، ٤٥٣ ، ٤٥٧ ، ٤٥٩ ، ٤٦٢ ، ٤٦٣

والهجانة والغثاثة ، والبُعد من الصواب »[1] . ومن الأغلاط التي ما كان ينبغي أن تقع في شعر المتنبي تلك التي عابوا في قوله :

وإني لَمِنْ قَوْمٍ كأنَّ نفوسَنا بها أَنَفٌ أن تَسْكُنَ اللحمَ والعَظما

فإنه قطع الكلام الأول قبل استيفاء الكلام وإتمام الخبر ، وإنما كان يجب أن يقول : « كأن نفوسهم ليرجع الضمير إلى القوم ، فيتم به الكلام . وهذا من شنيع ما وجد في شعره »[2] . ونترك للهامش سائر الشواهد لننتقل إلى القسم الدلالي[3] .

٤ ـ تشغل صورتا الكلمة : **اللفظ والمعنى (أو الدالّ والمدلول)** الدارسين في مضمار الدلالة وإنهم ليشيدون هذا العلم من المشكلات والقضايا المتفرعة من ترابط هذين العنصرين، في حالتي السكون والتطور ، ولا يغيب عنا أن التقسيم أملته طبيعة الدراسة ولا وجود منفصل لأي منهما عن الآخر .

ولن نسوق الأمثلة على مشكلات الدلالة لدى النقاد لنضعها في أطر من المفهومات المعاصرة تحمّل القدماء مالم يقصدوا في أبحاثهم وتساؤلهم بل سنعمل على عرض تلك المسائل وتنويرها بقدر ماتسمح المسألة المطروقة ذاتها ، أو تحتاج إليه من معطيات الدراسات الحديثة ، ففي رأينا أن توضيح صورة الدرس القديم ـ بعرضه واستقصائه واختيار منهج لهذا العرض ـ له المقام الأول فعلى أساس منه نرتّب أفكارنا وجهودنا المحدثة حول التراث الإبداعي شعره ونثره ، وكذا النقد ومدارسه فكثيراً ما تغيب الآثار تحت ركام من المقدمات والتعليقات والشروح الزائدة والتي تقوم بتصنيف الأحكام القسرية وتدخل تلك الأعمال في دوّامات لا نهاية لها معلومة .

---

(١) الموازنة (٢٦٥/١) .

(٢) الوساطة ٤٤٦

(٣) الموازنة (٢٢٣/١ ـ ٢٢٤) ، ٣٩٣ ، ٣٩٤ ، ٥١٢ ، والموازنة (٢٨/٢) ، والصناعتين للعسكري ٩١ ، والوساطة ١٠ ، ١٢ ، ٤٤٢

ولقد تناول النقاد في ثنايا كتبهم مشكلة إيصال المعنى أو المدلول إلى السامع أو قارئ الأثر الأدبي واستندوا إلى حقيقة لغوية أولية هي أن لكلّ لفظ - وهو مجموعة صوتية على نسق معين - محيطاً دلالياً اتفق عليه في متعارف المجتمع اللغوي ، فإذا ما أريد التعبير عن إحساس أو استحضار شيء من الماديات في حديث ، استحضر المتكلم - أو الكاتب - الرموز المؤدية لهذا الغرض ، وعلى هذا النحو يتم التواصل وتتبادل الخبرات والانفعالات في حياة الجماعة . لكنّ التفاعل بين الألفاظ صوتياً وصرفياً وتركيبياً من جهة وتغاير الصلات بين الرمز والمدلولات إنما يؤثران في التيار المتناغم السكوني ذاك ، وبذا ينشأ خلاف أو تعدد في وجهات النظر بين الناقد - إذ يوجه نقده الدلالي - والشاعر أو صاحبه المنافح عنه ، وههنا يتكئ المنتقد على قضايا اللُّغة في أداء المعنى ولا شك أن العنصر الذاتي يقود إلى التشدُّد والتزام الطرف المحافظ السلفي في كثير من الأحيان لدى النقاد .

إذن إن الحوار بين الأطراف سيكشف الدائرة الدلالية لكل لفظ مختلف عليه ، أو لنقل بطريقة أخرى إنهم سيشيرون إلى الانحراف بالكلمات عن مواضعها الأصلية التي ينبغي أن تحلَّ فيها .

وكانت أول عبارة نقدية مروية في الكتب لطرفة الشاعر وهو غلامٌ حدث ، والطريف أنها تتصل بالدلالة إذْ هي تظهر خطأ الشاعر - المسيَّب بن علس - في استخدام كلمة (الصيعريّة) وإطلاقها على المذكر بينما تخصَّص عادة ميسماً للإناث ، فهو يقول :

وقد أتَناسى الهمَّ عندَ ادّكاره ... بناجٍ عليه الصيعَريّة مُكْدَمِ[1]

أي أنه اتسع في دلالة الكلمة لتشمل مساحة أكبر ، ويبدو أن المسيب أدرك

---

(١) الموشح للمرزباني ١١٠

الخطأ من منتقده - هذا إذا صحّت الرواية أصلاً - فكان غضبه بادياً لوقوف الغلام على هنة في شعره فزجره : « اذهب إلى أمك بمؤبدة أي داهية » ، ولا شك أن لهذه القصة بعداً آخر فالعربية عندما تكون في بيئتها الأولى يتمكن منها - فهماً وأداءً - القسم الأعظم من أبنائها ، رغم ما يثور هنا من نقاش حول الفصحى ، ومدى توفر عنصر السليقة فيها .

ولدى أبي هلال العسكري والآمدي عدد من الملحوظات تنكر مخالفة الشعراء للسويّة الصحيحة ، ونرى أن أسماء القدماء تتوالى ، ولا يقتصر الأمر على المحدثين كأبي تمام والبحتري والمتنبي ، ولا شك أن هذا جدير بالدرس والمتابعة في الحيز الدائر على التطور الدلالي ، فلئن طولب المتأخر بالتزام ما هو مستقر في محيط الاستعمال - والموروث - اللغوي لقد يكون من السائغ النظر بشيء من اليسر لا الشدة إلى أعمال المتقدمين .

فالبحتري مخطئ في كلمة (الحواشي) إذ يقول :

بدَت صفرةٌ في لونه إنّ حمدهم ... من الدرِّ ما اصفرت حواشيه في العِقدِ

لأنَّ استعمال (الحواشي) في الدرِّ خطأ ، ولو قال نواحيه لكان أجود والحاشية للبرد والثوب فأما حاشية الدر فغير معروف[1] .

ومثل هذا استعمال جرير (التأريق) لقلق النائم آخر الليل بينما هي لما يصيب الإنسان أوَّل الليل من تعب أو همٍّ يمنعه من النوم .

لّما تذكّرتُ بالديرين أرّقني ... صوتُ الدَّجاج وقرع بالنواقيس[1]

والخطران ينطبق على أشياء إلا أن حركته لا تصح مع الراية ، لأن العرف

---

(١) الصناعتين للعسكري ١٣٢

(٢) الصناعتين للعسكري ١١٦

يقول : الخطران للرمح فقول عدي بن الرقاع من الخطأ :

لهم رايـــةٌ تَهْـــدي الجمـوع كأنَّهـــا إذا خطرتْ في ثعلب الرمح طـائرُ[1]

وأبو تمام يبعد عن الصواب إذ يحتسب (التقريب والمرطى) من عـدو الإبل وسيرها في قوله :

كالأرحبي المـــــــذكّى سيرهُ المرطى والـوخـدُ والملْـع والتقريب والخببُ

فليس التقريب من عدو الإبل ، وهو في هذا مخطئ ، وقـد يكون التقريب لأجنـاس من الحيـوان ، وكـذا المرطى من عـدو الخيـل ، ولم أره في أوصـاف سير الإبل ولا عدوها[2] ، ويضيف الآمدي خطأ آخر أتاه أبو تمام إذ سمّى الربع وأهلـه فيه بالرسم وهذه التسمية (الرسم) لاتنطبق على المسمى (الربع) ، إلا إذا فارقـه ساكنوه فيكون الأثر الباقي بعد.ساكنه :

قـد كنتَ معهـوداً بـأحسنِ سـاكنٍ ثـــاوٍ وأحسنِ دِمْنـــةٍ ورســـوم[3]

كما يعدُّ من الأغاليط إيراد أبي تمام لكلمة (وشيعـة) في غير موضعهـا ، ولغير ماوضعت له في البيت :

شهـدتُ لقـد أقـوتْ مغـانيكم بُعـدي ومحّت كما محّت وشـــائــع من بُرْدِ

ويعقب صاحب الموازنة بأنه « بيت رديء معيب لأن الوشيعة والوشائع هي الغزل الملفوف اللحمة التي يداخلها الناسج بين السدى ، والبردُ الذي تمّت نساجتـه ليس فيه شيء يسمى وشيعة ولا وشائع »[4] إلا أننا إذا تمعنّا في المسألـة نجـد فُرْجـة

---

(١) الصناعتين للعسكري ١٠٢

(٢) الموازنة للآمدي (١/٢٣٧ ـ ٢٣٨) .

(٣) الموازنة (١/٢١٦) .

(٤) الموازنة (١/١٩٣) ، ٤٤٨

قد تحلّ الإشكال فيها أو تنحو به منحى آخر ، فالبرد عندما ينسج إنما تستخدم في صناعته أعداد من الوشائع ، وقد يكون مقصد أبي تمام الولوج إلى المعنى من خلال أسلوب بلاغي مجازي هو (اعتبار ما كان) ، وهو كثير كقوله تعالى : ﴿ وآتوا اليتامى أموالَهم ﴾[النساء ٢/٤] أي الذين كانوا يتامى إذ لا يُتْمَ بعد البلوغ ، وكقوله أيضاً ﴿ إنّهُ من يأتِ ربَّهُ مجرِماً ﴾ [طه ٧٤/٢٠] سمّى العبد مجرماً باعتبار ما كان عليه في الدنيا من الإجرام[١] . وهو إذْ يفيد من أساليب البيان العربي لا يتجاوز مجال الدلالة ، بل إنه يحفظ لها حدودها الأصلية ، وإنما يعدّ استعماله نقلاً مؤقتاً لغرض شعري جمالي .

والزمرة التالية من المشكلات الدلالية المعروضة في نقدِ الشعر للقرن الرابع ، هي تلك التي ترجع أسبابها إلى وجود تداخل بين معانٍ متقاربة يساء التفريق بينها في الشعر ـ كما يرى ذلك المعترضون ـ أو أن توجيه فحوى اللفظ مختلف بين الناقد وصاحب الأبيات ، أو أن التعدّد في الواقع ، فيلتبس الأمر ويقع الخطأ .

وإن (الأفعى) و (الأسود) كليهما من الزواحف المعروفة بخطرها وتهددها الإنسان إلا أن بينهما فرقاً في درجة الأذى ، وليس من الصواب ترتيبها في بيت رؤبة :

كنتمْ كَمَنْ أدخلَ في جُحْرٍ يداً فأخطأ الأفعى ولاقى الأسودا

فجعل الأفعى دون الأسود في المضرّة ، وهي فوقه فيها[٢] .

كذلك يروي الآمدي عن بعض الشيوخ أنهم لا يرون استعمال (لوتْ) في بيت البحتري صحيحاً :

لوّتْ بالسلامِ بناناً خضِيباً ولحظاً يشوقُ الفؤادَ الطَروبا

---

(١) الإيضاح للقزويني ١٥٨

(٢) الصناعتين ٩٦

بل كان ينبغي أن يقول : (أشـارت) أو (أومـأت) أو نحو ذلـك . ونرجع ملاحظتهم إلى حرص على التمايز بين الألفاظ فلا يختلط بعضها ببعض أو يحل هذا مكان ذاك ، فـ (لوت) يحتمل معنى أكثر تخصيصاً من مجرّد التحية أو ردّهـا ، أي فيه زيادة لا نجد آثارها في غرض الشاعر هنا .

ولكن الآمـدي يحتـج للبحتري « بـأنّ من النـاس مَن يردّ بمـدّ الإصبع على استقامة ، ومنهم من يفتلها ويلويها كأنه يقول بـإصبعـه : وعليـك ، فيلويهـا إذا أراد هذا المعنى »[1] .

ويكون تعدد دلالة (تِنْبـال) مسوغـاً لتـأويلات مقترحـة في بيت النـابغـة الذبياني في عيار الشعر :

مـــاضي الجنـــانِ أخي صبرٍ إذا نـزلتْ   حربٌ يـــوائـــلُ فيهـــا كلُّ تنبـــالِ[2]

فلئن قصد بالكلمة (تنبال) القصير فما هو بالمعنى المقبول هذا الذي نجده في البيت ، فكيف صـار القصير أولى بطلب الموئل ـ الهرب ـ من الطويل ؟ ، وأمـا إذا حملت اللفظـة على (الجبـان) فهو أعيب للمعنى ، لأن الجبـان خـائف وجـلٌ اشتدت الحرب أم سكنت[3] .

أما أبو تمام فيختلط عليـه ـ صوتيـاً ودلاليـاً ـ اللفظـان : (اللدم واللطم) فيجيء بواحـدة مكان أخرى ، فتضيع فروق وصل إليهـا نمو الفصحى ، وصحيـح أن معنىً مشتركاً يربط بينهما وهو دقّ الشيء على شيء ، إلا أنه قال :

لهـــا مِنْ لـــوعـــةِ البين التـــدامٌ   يعيـــد بنفسجـــاً وردَ الخـــدود

---

(١) الموازنة (٧٦/٢) .

(٢) عيار الشعر ، ابن طباطبا ٩٦ ، ١٠٠ ، والصناعتين ١٠٠ ، والموشح ٥٣

(٣) عيار الشعر ٩٦ ، ١٠٠

والتدام النساء في النياحة إنما هو ضرب الخدود ، هذا المستعمل المعروف في كلامهم ، فاللطم هو الذي يعيد بنفسجاً ورد الخدود لا الالتدام ـ الذي هو تفصيلاً أن تأخذ المرأة جلداً أو نعلاً فتدق بها صدرها ـ[1] والغريب أنّ الآمدي هنا بعد تفصيله للدلالة يحاول تسويغ الاستعمال الخاطئ وذلك للجامع العام بين الكلمتين ، ويجري أبو تمام قسمة مبنية على تعدد الرياح فالربوع التي يصفها حباها الزمان بأن وزعها على : (الصبا) و (الدبور) إلا أن التسميتين الأولى والثانية تختصان بريح واحدة (فهذا غلط منه لأن الصَّبا هي القبول) في قوله :

قسَم الزمانُ ربوعها بين الصَّبا وقبولِها ودبورها أثلاثاً[2]

واللفظ المشكل لا يدل على معنى مغاير لما عطف عليه .

ويستعين الآمدي بالفروق الدلالية بين لفظي : (الفراق) و (النوى) ليوضح الطريقة غير المصيبة التي أدى بها أبو تمام معناه الجزئي في البيت :

وفي الكِلّة الصفراء جؤذرُ رملةٍ غدا مستقلاً ، والفراقُ معادِله

فإنّ (الفراق معادله) معنى غير جيّد ولا صحيح ، لأنّ الفراق يدل على مفارقة كل واحد من الاثنين صاحبه ، فإذا جعل ـ الشاعر في بيته ـ الفراق ماضياً مع أحدهما ، وأخلى الآخر منه كان الآخر غير مفارق ، وهذا محال[3] » ، ونجد حل هذا الإشكال في أنه لو استعمل اللفظ (النوى) لما وقع في هذا الخطأ الدلالي الذي يقود إلى اضطراب الغرض الجزئي ـ البيت ـ وذلك في استعماله هو ذاته :

سعدتْ غربةُ النّوى بسعاد فهي طَوْع الإتهام والإنجادِ

---

(1) الموازنة (٣٠/٢) .

(2) الموازنة (٤٩٢/١) .

(3) الموازنة (٤١/٢) .

فالنّوى إنما هي : نية القوم المفارقين دون غيرهم من المقيمين[1] . وهكذا تتجلى للباحث الدلالي الأهمية المترتبة على تحديد أبعاد دلالة كلّ لفظ وحسن استخدامها في الأداء الشعري فكم من التأويلات تنشأ عن الاستبدال والاستعارة غير الموفقة في الألفاظ ، وسيبين لنا مدى التحكم عند النقاد عامة في القرن الرابع عندما نقف على معيارهم الذي يعدّ فيصلاً بين المتنازعين والمتحاورين في الدلالة وسواها مما أجروا عليه أحكام الصواب والخطأ .

وتبقى لدينا في هذا الحيّز من مشكلات الدلالة مسألة في بيت أبي تمام :

مها الوحش إلا أنّ هاتا أوانسٌ   قنا الخطِّ إلا أنَّ تلك ذوابل

فكلمة (ذوابل) تثير الآمدي فينعتها بالخطأ فإنّه « إنما قيل للرماح ذوابل للينها وتثنيها فنفى الشاعر ذلك عن قدود النساء التي من أكمل أوصافها التثني واللين والانعطاف »[2] ونحاول نحن بدورنا أن نفسر بعض مرامي أبي تمام ـ أو بالدقة ما يحتمل أن يكون قصد إليه مما تتيحه طبيعة اللغة والدلالات المعروفة للفظ المشكل ، فالناقد إنما تسيطر على ذهنه ورؤيته اللغوية الوشائج بين صفة الذبول في الرمح من جهة والتمدّح بها فيه من جهة أخرى ، وكذلك الرابطة بين تثّني الرماح الممدَّح والانعطاف واللين المشابه لها عند الأوانس الحسان ، وهذا موروث أدبي له اعتباره ، دون أن يسلب المعنى اللغوي الأصلي حقّه في التداول ، من حين إلى حين ، فالذبول في أصل مادته ـ لغة ـ يعني أن يذوي الموسوم به أو المنسوب إليه فعله ، فإذا ما جال في خاطر الشاعر هذا المضمون فتجنبه واستبعده عن الغيد اللواتي يطلب لهن الصور المشرقة الأنيقة ، فإنه غير ملوم في استعمال اللغة وإنما يؤخذ على أبي تمام ههنا تحكم الصناعة . أي أنه لم ينقل إلينا المعنى المتوافق مع هذه الفكرة فاختلط الأمر على السامع والقارئ .

---

(1) الموازنة (٢/٤١) .

(2) الموازنة (٢/١١٧) .

وثمة طائفة من المسائل تتصل بالدلالة في كتب النقد ـ المدروسة ههنا ـ والباعث على إثارتها هو العمل التصويري للشاعر ، فالناقد يرى خللاً واضطراباً إذ لا يتوافق إطار اللفظة المشبه بها والأصل المراد إبراز جوانب خاصة فيه ، أو ملامح ذات أثر على المتلقي ، ونستطيع نحن أن نعيد الخلاف إلى أبعاد دلالة اللفظ والصفات التي تذكر معه ـ وهي من نحو منطقي أجزاء تعريفه وماهيته سواء كان مادة أو معنى مجرداً ـ فنظرية التشبيه تقول بالتقاء بين المشبه والمشبه به في سمات ـ لا يشترط بالطبع تطابقها وإلا كان الشيء نفسه ـ هي وجه الشبه أو كما يقول القزويني « أما وجه الشبه فهو المعنى الذي يشترك فيه الطرفان تحقيقاً أو تخييلاً والمراد بالتخييل أن لا يمكن وجوده في المشبه به إلا على تأويل »[1] ـ أي كما هي في التشبيه التمثيلي ـ ويفسر هذا من الناحية اللغوية بأن حدود واحد من الطرفين ـ اللفظين ـ لابدّ أن يكون جزء منها متداخلاً في جزء للطرف الآخر وإنْ لم يتحقق ينعت صنيع الشاعر بالغلط .

ومن الأمثلة ماجاء به صاحب الصناعتين : العسكري ، « فقول أبي النجم العجلي في وصف الفرس :

(كأنها ميجنةُ القصّار)

من الغلط ، وهو غلط في اللفظ ، وذلك راجع إلى أن الميجنّة لصاحب الأدمَ ، وهي التي يدقّ عليها الأدم من حجر وغيره[2] » . فالكلمة « ميجنة » عند أبي هلال لاتتسع فروع دلالتها إلى المجال الذي يصح ـ فيه ـ ربط سمات تستحسن للفرس ، وهذه السمات هي المقابل الدلالي لتفرعات معنى الكلمة المشبه بها ، وهنا تطالعنا مشكلة نشير بإيجاز إليها لنعود إلى تناولها بشيء من التفصيل في فصلي

---

(١) الإيضاح للقزويني ١٢٤ ، ويقول الآمدي في الموزانة (٣٧٢/١) لأن الشيء « إنما يشبه بالشيء إذا قاربه أو دنا من معناه ، فإذا شابهه في أكثر أحواله فقد صح التشبيه » .

(٢) الصناعتين لأبي هلال العسكري ٩٨ .

(التطـور) و (المجـاز) وهي أنـه : متى نسمح للعمـل الإبـداعي الشعري أولاً والنثري ثـانيـاً بـالابتكار الجزئي . ونعني بقولنـا : ذلـك التـوسـع في معنى اللفـظ بإلحاقه ـ بواسطة العمل التصويري ـ بمجالات جديدة فيها صفات أي أطُر دلالية غير معروفة له من قبل ؟ وأرى تحديـد الأزمنـة التي تنـاقش فيهـا القضيـة أولاً ، ومن ثَمَّ تعالج بحسب السويّة الثقافية للمبـدع وإلمـامـه بـاللغـة ثـانيـاً ، لأنّ زمن العربيـة القـديم حتى نهـايـة عصور الاحتجـاج لـه شروطـه الخـاصـة التي لا تتوفر للاحقين والمحدثين في حياتنا الأدبية .

ويورد القاضي الجرجاني مثالين آخرين على هذه المسألة أيضاً : فالمسيب ابن علس يتحدث عن ناقته فيقول :

وكأنَّ غـــاربهـــا ربـــاوةُ مخرم   وتمـــدُّ ثِنْيَ جَـــديلهـــا بِشراعِ[1]

مريداً تشبيه عنق الناقـة بـالـدقل ـ وهو سهم السفينـة[2] ـ فيغلـط كما غلـط طرفة في لفظ السكان فقال :

وأتلـع نهّـــاضٌ إذا صعـــدت بـــه   كسكان بـوصيٍّ بِـدِجلـة مصعِـدِ

وإنما يريد (الدقل) وواضح أن الجرجاني يستنـد إلى هيئـة خـاصـة تعرف للتشبيه في هذا المقام ، وكذلك يمحّص محيط دلالـة كل من الشراع و (السكان) لـدى كل من المسيب وطرفـة ويرى أنهما لا يحققـان الصـورة إذْ لا اشتراك في حيز دلالي يستفاد إبرازه لدى المقارنة والتشبيه .

وإننا نقف ههنا أمـام افتراضـات : أولهـا أن الشـاعرين لم يكونـا ذوي خبرة دقيقة بهيئة السفن وتفاصيل أجزائها وعملها ، وذكر أشياء من هذا القبيل لا يعـدو

---

(١) الوساطة للجرجاني ١٣ ، والصناعتين ٧١ .

(٢) وهو خشبة طويلة في وسط السفينة يمد عليها الشراع ، وينظر القاموس مادة (دقل) .

النقل عما يسمع على البعد ولكننا نذكر عدداً من المواطن تحدث طرفة فيها عن السفن وعن البحر وأشهرها معلقته الدالية التي ترسم حركة دقيقة لمقدم السفينة وهو يشق الماء مقرونة بلمحة بدوية خالصة : (المفايلة)[1] ، وإن « البحرين وهجر » تعدّ من الديار التي يمت طرفة إلى أهلها بأسباب القرابة[2] ، إذن لا يصح هذا الافتراض . أما الثاني من الافتراضات فهو أن الشاعرين ـ أو أحدهما ـ يعرفان البحر ولهما صلة بأوصاف المراكب التي تُرى فيه وأسماء ما فيها أيضاً إلا أنهما أخطآ أداء المعنى لأسباب فنية ألزمهما إياها الشعر وأحكامه ، أما الثالث فهو أنهما رغبا في ربط خاص لا يجري على ما ألف ، فعنق الناقة عندما يتحرك ويتوجه أماماً ما هو إلا مقود لهذه السفينة الصحراوية ـ إن جازت لنا هذه التعبيرات المحدثة ـ وما السكان إلا الموجه الفعلي للمركب وتعطّله يعني التوقف بل يؤدي إلى الضياع في حال هياج أمواج البحر العالية ، فهل يكون طرفة بعيداً عن الصواب في اعتماده على الدلالة الفعلية وعدم اتكائه على الشكل الخارجي فحسب في عمله التصويري وتعبيره الشعري ؟ إننا نرجح أن يكون الصواب فيما جاء به الشاعر الجاهلي القديم فعنه نأخذ اللغة والصور والأساليب ، وخاصة أن الواقع الذي كان يعيش فيه يؤكد ما اتجه إليه .

ومثال آخر في الوساطة على التداخل بين المسميات في إطار تشبيه وإن لم تكن العملية البيانية ـ في الأغلب ـ سبباً في هذا الخلط اللغوي ، ويروي الجرجاني بيتاً ينسب إلى ليلى أو حميدة :

---

(١) كأن حدوج المالكية غدوة ... خلايا سفين بالنواصف من ددِ
عدولية أو من سفين ابن يامن ... يجور بها الملاح طوراً ويهتدي
يشق حباب الماء حيزومها بها ... كما قسم الترب المفايل باليد

شرح القصائد السبع الطوال لابن الأنباري ، تحقيق عبد السلام هارون ، دار المعارف بمصر ١٩٦٩ ، ١٣٥ ـ ١٣٨ .

(٢) شرح القصائد السبع الطوال ١١٦

لَمّـا تخـايلتِ الحمـولُ حسبتُهـا دُوُماً بـأيلـة نـاعمـاً مكـومـاً

ثم يقـول : « والـدوم لا أكام لـه »[1] أي أن الشـاعرة استعملت لفظـاً في غير مجاله الدلالي وهذا عائـد إلى تشـابـه ضروب الشجر في ذاكرتهـا ، وكثرة استخـدام النخيل في صور وتعبيرات شعرية مع الأكام جعلت هذا اللفظ (أكام) يبدو كأنـه عام للشجر كلـه فـأتت بـ (مكوم) مع الـدّوم . ويرد هنـا احتمال نعرضـه ـ وإن تكن القرائن في النص لاتساعد على ترجيحه ـ فالمادة المعجميـة تتضمن قسماً ينبئ أن القلانس تسمى كـذلـك (كام) يقـول صـاحب القـامـوس : « والكُمّـة بـالضم القلنسـوة المـدورة ، وتكمّم لبسهـا[2] » ويعقب نصر الهـوريني في الهـامش « ومنـه قولهم وكان كامُ الصحابة بطحاً أي لازقة بالرأس غير ذاهبة في الهواء »[3] فهل قصـد في البيت المـذكـور إلى المعنى الـوارد ، والـذي يقـارب فيـه الـدوم تلـك الهيئـة المستديرة للقلانس ؟ هذا أمر نجتهد في عرضـه ، ولا نجزم لأن التقرير يحتـاج إلى التواتر أو التردد في أمثلة متعددة في الأزمنة القديمة للعربية .

وقد تستطيع الدراسـات الحـديثـة رَفْـد البحث في هـذه الزاويـة ، إذ يعمـد البنائيون ـ أصحاب المـذهب البنيوي ـ إلى الطريقـة المنطقيـة المـألوفـة في تحليل الكلمـات إذ تعـاد إلى مكونـات تعريفـاتهـا ، وهم يسعـون إلى نتيجـة تمنح إدراكاً للفونيمات الأساسية في معنى كلّ لفظة ـ خاصة عند أولئـك الـذين يرون أن أصغر جزء في الـدلالـة ليس الكلمـة بل تفرعـات أصغر منهـا ـ وبـذا يطـورون الفكرة القديمة ، ويربطونها بأخرى جديدة وهي (الاستبدال) وإمكانية تغيّر الدلالـة ، وانتقـالهـا من مجـال إلى مجـال آخر مع كل تبـديـل في تلـك الفـونيمات ـ أي أصغر

---

(١) الوساطة للجرجاني ١٣

(٢) في القاموس ٤ مادة (كم) ، وكمه وبالكسر وعاء الطلع وغطاء النور ، كالكـامـة أكمة وأكام وكام ، وكمت النحلة فهي مكوم أي النخل مكوم .

(٣) القاموس (١٧٣/٤) .

الوحدات الدلالية غير القابلة للتحليل إلى أصغر منها ـ ويرى (هيلمسليف) أن النظرية الفونولوجية (علم وظائف الأصوات وتطبيقاتها) يمكن أن تنقل إلى عالم (الدلالة) ويضرب المثل ـ أولاً ـ الناتج عن التغير الصوتي في كلمة : bas باستبدال b بـ p فتغدو pas ولنلاحظ هنا الخصائص الصوتية بين الحرفين في النطق الفرنسي ـ ومن ثم يستبدل الفونيم (a) بـ (o) صوتياً فتغدو الكلمة peau ، فنحن اجتزنا مرحلتين في الاستبدال ومع كل واحدة يتم تبدل المعنى ، ويتابع هيلمسليف فيقول : « إن العملية ـ الاستبدالية ـ نفسها تبرهن على أن (الإشارة اللغوية) (الفرس) تتضمن وحدتين على الأقل ـ أكثر صغراً لا تنحلان إلى أصغر منهما ـ لمضمون الإشارة وهما : الخيلية + الأنوثة ، وباستبدالنا للمقطع ـ الجزء ـ الأول : الخيلية نستطيع الحصول على الخنزيرية + الأنوثة = الخنزرة . وإذا ما استبدلنا الجزء الثاني (الأنوثة) كان لدينا خيلية + ذكورة = فحل »[1] ويمكننا أن نحل أمثلة عربية محل أمثلة هيلمسليف ههنا : الناقة = الإبل + الأنوثة ، وتغيير (الإبل) بـ (الأسدية) . الأسدية + الأنوثة = لبوة ، وتغير (الأنوثة) فتغدو : الأسدية + الذكورة = السبع .

ولا شك أن العربية تتميز بخصائص تجعل التطبيقات فيها محفوفة بالمحاذير والمزالق فالاشتقاق ومعاني المشتقات تبرز أثناء تحليل مضمون الكلمات وكذلك تستوقفنا الأفعال وما لها من سمات في حياتها ، ولقد رأينا في الفقرات السابقة صلة المنطق بالدراسات اللغوية العربية القديمة إلا أن هذا التناول المقترح يمثل محاولة مختلفة عما كان من قبل ، وهو يأتلف مع طرائق أخرى لدراسة المعاني وتحليلها ، وذلك بتتبع تطورها التاريخي ـ في حدود العربية عندما يطبق عليها ـ ومناقشتها في سياقاتها ومواقعها في الكلام .

---

(١) Georges Mounin, La Sémantique, P. P. 39-42, Paris. Col clef, 2 me éd, 1975. et G, Mounin, La Linguistique P. P. 140-141 Paris, col. clef, Seghers, 1975. et Pierre Guiraud, Sémantique, P. P. 94-98 col. que sais-Je? Paris 8 me éd, 1975

ويسهم صاحب الرسالة الموضحة في مسألتين دلاليتين في شعر المتنبي ، وهما لاتندرجان فيا سبق من أمثلة لذا نفردهما ههنا ، فالحاتمي يعرض أولاً لقضية التصرف بالأسماء وحرية إضافة بعضها إلى مسميات ـ مدلولات ـ لم تعهد مخصصة بالحيّز المستعمل حديثاً في كلام ينشئه شاعر في القرن الرابع ، ويوجه المصنّف خطابه للمتنبي « أخطأت في قولك :

هزمتْ مكارِمُه المكارم كلَّها حتى كأن المَكرمات قبائل
وقتلن دفراً والدهيم فما ترى أمَّ الدهيم وأمَّ دفر هابل

فيوضح الشاعر أنه أراد بـ (الدفر والدهيم) اسمين للداهية ، وأن الدنيا تسمى دفراً ، فيقرر الناقد أن « هذا خطأ لم يقله أحد ولا رواه راوٍ ولا ادعاه على العرب مدّع » ويستعين بمعان للفظ دفر كلها لديه لاتسوغ استعماله اسماً للدنيا أو للداهية وينتقل الشاعر المتنبي إلى ردّ آخر ، فإذا كانت الدنيا تكنى أم دفر سميت أيضاً بدفر من أجل أن كناهم لهذه الأشياء كالأسماء لكن الحاتمي لا يجيز الحجة ذلك أن الكنى لاتنتقل إلى الأسماء (فلو كان الأمر كذلك لسميت الدنيا شملة لأنهم قد كنوها أم شملة) ، وهذا يفيد أن الناقد لا يرى للشاعر حقاً في إضافة تسميات أو بالأحرى ـ كما في المثال ـ نقلها أو توسيع دلالتها ، وهو خلال ذلك يفرّق بين الكنى والأسماء ، ويبدو أن ماهية الأشياء والمدلولات ـ لديه ـ يعبر عنها بالاسم فحسب ، أما الألقاب والكنى فهي أساليب لاتؤدي وظيفته بشكل مطابق .

ونلاحظ أن الحاتمي بلغ مدى بعيداً في إنكار الصلة بين دلالة (الداهية) ودلالة (دفر) بتفرعاتها التي أوردها فهو يقول : « أما الدفر ـ فهو ـ النتن ، والخبر عن عمر ، والعرب تكني الدنيا أم دفر من أجل المزابل التي فيها ، ويقال دفرته دفراً إذا دفعت في صدره ، وقالوا للأَمَة يا دفار لنتنها . ويقال دفراً دفراً لما يأتي به فلان إذا قبحت الأمر أو نتنته وقال صاحب العين : « الدنيا دفرة أي منتنة » . وكما يظهر لنا ليست الرابطة مفتقدة هنا بين ما يستكره من مواقف

تدل عليها (الدفر) وما يرد في الخاطر لدى استحضار اللفظ (داهية) ، وإن ماندعوه حواراً بين الناقد الحاتمي والمتنبي هو صياغة صناعية في الرسالة الموضحة ولا ينقل محاورة حقيقية بل أفكاراً وآراء معظمها ـ حتى الردود عليها ـ للحاتمي[1] .

ويستوقف الحاتمي بيت آخر للمتنبي في وصف الغيث إذ يقول :

لساحَيْه على الأجداث حَفْش كأيدي الخيل أبصرت المخالي[2]

فيحكم بخطأ التعبير اللغوي عن هذا الغرض الجزئي الممثل في البيت : الدعاء بالسقيا لقبور الأعزة والسبب هو استعمال اللفظ (حفش) ويحلل المعنى وفق الموروث الأدبي ، بل إنه يعتقد أن المتنبي إنما أفاد من بيت لزهير بن أبي سلمى فيه الفعل يحفش (يحفش الأكم وابله) فاختلط الأمر عليه . وجاء به في موضع خاطئ « فأما أن يستسقي مستسق للقبور غيثاً يحفش تربها وينبث ثراها فلم يقله أحد ، وإنما يستسقي لديار الأحبة ولقبور الأعزة لتكلئ تلك الأرض وتعشب فتنتجع ، ويترحم على من واروه التراب فيها » ويضيف الحاتمي أن الشعراء عندما يطرقون هذا المعنى يحترزون دائماً من المطر الغزير :

فَسقى ديارك غير مفسدها صوبُ الربيعِ وديمةٌ تَهْمي

ولنا أن نعقّب على المعنى الذي اتخذه الناقد هنا ، فحدود دلالة (اللفظ) قد تسمح بتدرج يجعل من صنيع المتنبي أمراً مقبولاً ، أو أنه يبعده عن حيّز الخطأ ، فالمعاني التي يحملها إلينا القاموس المحيط في مادة (ح ف ش) تمتد بين : القشر

---

(١) المسألة برمتها في الرسالة الموضحة ٥٩ ـ ٦٠ ، وينظر في مقدمة التحقيق ل ـ م ، وكذلك ينظر في رأي إحسان عباس فيها : تاريخ النقد الأدبي عند العرب ٢٦٤ ـ ٢٦٥ فما بعد ، بيروت دار الرسالة . دار الأمانة سنة ١٩٧١ ط ١

(٢) الرسالة الموضحة ٤١

والاستخراج والجد والجمع / وجريان السيل إلى مستنقع واحد / وجرى الفرس جرياً بعد جري / ويقال أحفشت السماء جادت بمطرٍ شديد ساعة »[1] . ورغم أن المادة المعجمية في هذا المصدر متأخرة إلا أن المعاني كانت بين يدي المتنبي وقد يكون اختار هذه اللفظة وأراد منها الكثرة والإخصاب ، وفي الشطر الثاني من البيت قرينة ترجح مانذهب إليه على الأغلب : (كأيدي الخيل أبصرت المخالي) فالخيل تنشط إذ تبصر أوعية طعامها التي هي سبب لاستمرار الحياة لها ، فالصلة ممكنة عند الاختيار الدلالي خاصة في الأداء الشعري .

وبذا نختم هذه الفقرة الجزئية من ضروب الأخطاء التي وقف عندها النقاد وموقع الجوانب الدلالية منها ، وقد مثّلنا لكل ضرب بأمثلة ، وكان لنا توسع نسبي في المسألة الدلالية[2] .

ج) تتنوع الأعمال النقدية في القرن الرابع بين ضروب مختلفة ، فمنها الكتب النظرية التي تطمح إلى تكوين رؤية متكاملة للعمل الإبداعي الشعري ، ومثالها كتابا قدامة بن جعفر وابن طباطبا (نقد الشعر وعيار الشعر) ، ومنها كتب تطبيقية أساساً تتناول شعراء أو شاعراً وتخصّص الكلام لتبيان المشكلات عامة في شعره أو أشعارهم ومقابلتها بما يستحسن ، والاحتكام إلى معايير يؤخذ بها أثناء ذلك كله ومثالها أيضاً كتابا الآمدي والقاضي الجرجاني (الموازنة) و (الوساطة) ، وهناك كتب أخرى تتراوح بين هذين الضربين ، وذلك كما في عمل أبي هلال العسكري في (الصناعتين) ، والمرزباني في (الموشح) ، وتسلك الشروح العديدة للدواوين قديمها ومحدثها ضمن القسم التطبيقي ، أما الكتب الأخرى فهي كثيرة نعثر فيها على ملحوظات قيمة بين

---

(١) القاموس المحيط ١ مادة (ح ف ش) .

(٢) وينظر كذلك في الموازنة (١/١٤٢ ، ١٦٣) ، والموازنة (٢/١١٥) ، وينظر في الموشح ٥١

الحين والآخر تتصل بالنقد والشعر كما في (الصاحبي) لأحمد بن فارس ، و (الخصائص) لأبي الفتح : ابن جِنّي .

وإن دراستنا للمسائل الدلالية في نقد الشعر تجتهد في إظهار الوجوه المتعددة لها ولقد جعلنا وكدنا في هذا الفصل عرض أصول النظرة المعيارية وصلتها بالثقافة الإسلامية التي تم استمدادها من اليونان - أي ذاك القسم المتأثر بالإغريق ومعطيات حضارتهم - والثقافة الأصلية وهي خصائص العربية الفصحى . واستكمالاً لعملنا نتابع مسألة : مدى عمق المنهج لدى نقاد الشعر - نظراً وتطبيقاً - فالاهتمام النظري يؤكد ماتذهب إليه من فروض واستنباط .

وقدامة بن جعفر يختار مفتتحاً منطقياً لعمله النقدي فيبدأ بالتعريف ، ومن ثم ينثني إلى أوصاف عناصره المستحسنة وبعدها ينتقل إلى المعيب منها ، وههنا نلاحظ أنه يدرك حدَّ الخطأ وكذلك الطيف الذي يحيط به بالتدريج إلى المواضع المتسامح بها وهي (دون الإجادة) ، فهناك الخطأ النحوي ، والأوزان المضطربة التي لاتستقيم وقوانين العروض ، وإلى جانبها يذكر في العيوب مثلاً « أن يرتكب الشاعر ماليس يستعمل ولا يتكلم به إلا شاذاً »[1] ، وتطالعنا كثيراً كلمة (فساد) وهي مأخوذة من الفلسفة اليونانية التي خبرها قدامة ، وكثيراً ما يقرنها بعبارة (غير الصواب) من ذلك تعقيبه على أبيات في المديح « فجميع هذا المدح على غير الصواب وذلك أنه - الشاعر - أومأ إلى المدح والتناهي في الجود أولاً ثم أفسده في البيت الثاني بذكر السرج .. ثم ماذكر هو إلى أن يكون ذماً أقرب .. »[2] ، وإنَّ مايورده الناقد في كتابه من أمثلة إنما هي شواهد لشرح الأفكار النظرية عامة ، وفكرة العيب أو الصواب والخطأ جزء منها .

---

(١) نقد الشعر ، قدامة ، ٦٥

(٢) نفسه ٧٢ ، وينظر البحث حيث وقفنا عند قضية المصطلح لدى قدامة .

وتشتمل موازنـة الآمـدي على أقسـام للأخطـاء ، وفي مطلع الكتـاب محـاورة نظرية بين الخصوم عرضوا فيهـا لمـا يجوز ، أو يحتمل من الشـاعر فـالسهو والغلـط عند المتقدمين والمتأخرين إنما هو في البيت الواحـد والبيتين والثلاثـة ، وربمـا سلم الشاعر المكثر من ذلك ألبتة .. أمـا أبو تمـام فلا تكاد تخلو لـه قصيـدة واحـدة من عـدة أبيـات يكـون فيهـا مخطئـاً ، أو محيـلاً ، أو عن الغرض عـادلاً ، أو مستعيراً استعارة قبيحة أو مفسـداً للمعنى الـذي يقصـده ، بطلب الطبـاق والتجنيس ، أو مبهماً له بسوء العبارة والتعقيد حتى لا يفهم »[1] فالمسألة ـ في الغلـط هنـا ـ أولاً في كونها عارضة أو متأصلة ، ثم نرى ضروب الأخطـاء وبعضـاً من أسبـابها ، وأولها الرغبة في إبراز الصناعة المتزيدة ، ثم الإغراب في المعاني والمقاصـد لـدى أبي تمـام . والآمدي لا يكتفي بالحيدة وذكر هذه الآراء لخصوم الشاعر بل إنه يخصّص جانبـاً يقول فيه : « إن السرقات لم تعـدّ من كبير عيوبـه بل هي الأخطـاء والأغلاط في اللفظ والمعنى وتأملت الأسباب التي أدت إلى ذلك فإذا هي مـا رواه ابن الجراح في كتابه (الورقة) .. أن أبا تمام يريد البديع فيخرج إلى المحال » ، وهذا نحو ماقاله ابن المعتز في (البديع)[2] ، وفي موضع آخر يستطرد إلى أحكام عامـة فيما يجب أن يتبـع في اللغـة « فينبغي أن ينتهي في اللغــة إلى حيث انتهىَ ـ القــدمــاء ـ ولا يتعدى إلى غيره فإنّ اللغة لا يقاس عليها »[3] وينصرف الآمدي في سائر كتابه إلى التطبيقات كما سبق أن ذكرنا .

وتضمنت وساطة القاضي الجرجاني نقـاطـاً نظريـة بـدأت بفكرة الخطأ في الشعر

---

(١) الموازنة للآمدي (١/٥٢) .

(٢) الموازنة (١/١٣٨ ـ ١٣٩) . وهذا الخبر غير موجود في طبعة (الورقة) التي بين أيدينـا ، بل عدت كلمة الآمدي ملحقاً للكتـاب ، ينظر في (الورقـة) ١٣٦ ، تحقيق عبـد الوهـاب عزام ، أحمـــد فراج ، دار المعـــارف بمصر ، ط ٢ د . ت ، وكلمـــة ابن المعتز في الـــبديـع ١ ط كراتشقوفسكي .

(٣) الموازنة (١/٢٢٨) .

القـديم ونبهت على أن القـدمـاء من الشعراء حَبُـوا بتقـدم زمـانهم ممـا جعـل المتـأخرين يتغـاضون عمـا يبـدو منهم من زلات وهنـات ، بل إن أنـاسـاً تـولـوا الاحتجـاج لتلـك الأغلاط[1] ، ويطلب المصنف من المنكرين شاعرية المتنبي أن يسـاووه بـأولئـك . ومـا دام الإحسان والإجادة متوفران في إبداع الشاعر فلا تحول عثراتـه دون أن يحل في مكانـه بين الشعراء فأجروا هذا الرجل مجراهم وألحقوه في الحكم بهم[2] .

ويعرض الجرجاني في موضع آخر نوعي الشعر : الرفيع المحكم « الذي لا يوجد في معناه خلل ولا في لفظه دخل »[3] ، والمختل المعيب والفاسد المضطرب . وهـذا الضرب الآخر له فرعان أولهما ظاهر ومعالمه واضحـة : اللحن والخطـأ من نـاحيـة الإعراب واللغـة . والـوزن والأعـاريض . وثـانيهما : غـامض يـوصـل إلى بعضـه بالرواية ، ويوقف على بعضه بالدراية ويحتاج إلى أمور ملاكهـا : صحـة الطبع ، وإدمان الرياضة[4] .

ويـنـاقش ـ بعـد ـ من خلال المحـاورة بين أطراف الخصومـة في شعر المتنبي ، قضيـة الضرورة الشعريـة سواء في القـديم أو المحـدث من الشعر العربي . فـإن نحن جعلنـا الشعراء أمراء الكلام ، وأبحنـا لهم أن يستفيضـوا في تحللهم من القـواعـد ، والمأثور من رسوم العربية ، زال نظـام الإعراب ، و « لا بـد من حـد يقف عنـده الشـاعر ، وينتهي إليـه الفرق بين النظم والنثر فيزول هـذا الأسـاس الـذي مهده والأصل الذي قرره ، ويرجع إلى ماقالت العلماء فيه »[4] ، وبـالتـدقيق في الأمور نجـد أن « مـاأجيز للمضطر من التسهيـل وفضـل بـه النظم من التســامـح أبـواب معروفة ، ووجوه محصور أكثرها »[4] . ويسرد القـاضي الجرجـاني عـدداً من وجوه

---

(١) الوساطة ، القاضي الجرجاني ٤

(٢) الوساطة ٤٣٦

(٣) الوساطة ٤١٢ ـ ٤١٣

(٤) الوساطة ٤٥٢ ـ ٤٥٣

التخفيف أو الحذف ، ويومئ إلى ماتميزت بـه مـدرسـة الكوفـة من رُخَص لاتكاد توجد لغيرهم من النحويين[1] .

ونلاحظ أن أحمد بن فارس تتطـابق أفكاره النظريـة مع أفكار الوساطـة في قضيـة الضرورة الشعريـة وإمـارة الكـلام الممنوحـة للشعراء ، فيحـد من إيغـال المتجوزين فيما هو كيان العربية الذي لا ينبغي المساس به « فأما لحن في إعراب ، أو إزالة كلمة عن نهج الصواب فليس لهم ذلك »[2] ، ويشير إلى الشعراء الأقـدمين وما قيل عن أخطائهم .

وفي كتاب (الصناعتين) مواضع تفرد لكلمات توضح وتنبـه قبل الخوض في الأخطـاء والأغلاط التي رصـدت في الشعر قـديمـه ومحـدثـه أيضـاً « فللخطـأ صور مختلفة نبهت على أشياء منهـا في هـذا الفصل وتبينت وجوههـا ، وشرحت أبوابهـا لتقف عليها فتجتنبها ، كما عرَّفتُك مواقع الصواب فتعتمدهـا ، وليكون فيما أوردت دلالة على أمثاله مما تركت ، ومن لا يعرف الخطأ كان جديراً بالوقوع فيه »[3] .

والعسكري يقول كـذلـك إن « المختـار من الكلام هو مـا كان سهـلاً جـزلاً ، لا يشوبـه شيء من كـلام العـامـة وألفـاظ الحَشَـويـة ، ومـا لم يخـالف فيـه وَجْـه الاستعمال »[4] ، وهـذا البعـد عن الصواب والمنهج القـويم في الشعر كما يراه المصنف يندرج فيه الخلل والخطأ في الدلالة والأسلوب تركيبـاً وتصويراً ، فـالمتنبي يغلـط في ربط كلمة ـ كانت جزءاً من تركيب موروث ـ بمـا ينبغي لهـا أن تربـط بـه ،

---

(١) الوساطة ٤٥٣

(٢) الصاحبي في فقه اللغـة . أحمـد بن فـارس ط بيروت ١٩٦٥ ، ٢٧٥ . ولـه أيضـاً رسـالـة صغيرة أسماها (ذم الخطأ في الشعر) ، تضمنت أفكاراً كهذه التي ذكرنا له هنا ، وينظر فصول في فقه اللغة ، رمضان عبد التواب ١٦٦

(٣) الصناعتين للعسكري ٧٦ ـ ٧٧

(٤) المصدر نفسه ١٥٥

فتوازن هذه المسألة باستعارات أبي تمام البعيدة[1] .

ولقد قدّم المرزباني لكتابه (الموشح) بمقدمة عرف فيها بأنواع العيوب التي أمكن جمعها ، وقرب تناولها والتي نبّه عليها أهل العلم ، وأوضحوا الغلط فيها من : اللحن والسِناد ، والإيطاء والإقواء ، والإكفاء ، والتضمين ، والكَسْر ، والإحالة ، والتناقض ، واختلاف اللفظ ، وهلهلة النسج وغير ذلك من سائر ماعيب على الشعراء قديمهم ومحدثهم في أشعارهم خاصة . وأعاد ذكر الاحتجاج لأشياء مما ورد على أنه خطأ ، وإيجاد مسوّغات لها من قبل أهل النحو والعالمين بلغات العرب[2] ، وهذه الإشارة الأخيرة يقصد بها الأغلاط النحوية التي تمت إليه بسبب ، وكذا ماندعوه نحن في دراستنا بالدلالي .

د) إن ماوصلنا إليه من تفاصيل منهج النقاد المعياري ، والأوجه التي تبدّت له إنما يؤدي إلى الأساس النظري المتخذ مرجعاً في محاكمة الأمور ، فقول واحد من هؤلاء المصنفين في نقد الشعر (إن الخطأ لحق أداء الشاعر لغرضه ، وصوابه أن ينحو هذا السبيل) يعتمد على صورة تكون مطابقتها إجازة وإقراراً بسلامة لغة المبدع وتعبيره .

ولقد بحثنا مسألة الاحتجاج لدى علماء اللغة من النحاة والدارسين للمفردات . ورأينا حدوداً أملتها طبيعة الفصحى ، والمحافظة عليها ، والتساؤل هو إلى أي مدىً تقيد النقاد بتلك المفهومات لأن (قضية الدلالة) هي أكثر القضايا اتصالاً بهذا الموقف ، فالدلالة يمكن أن تتطور وتتغير ، أو هي الجانب المفعم بحيوية أكبر مما هي في النحو أو الصرف ، أو طرائق الأداء الأسلوبية ، فكم المفردات في تزايد ، وبالتالي تبرز مسألة تطوره ، وحديث النقاد عن الأخطاء

---

(١) المصدر نفسه ١٤٩

(٢) الموشح للمرزباني ١ ـ ٢

وعمادهم النظري يمس الدلالة ، وإن يكن في المنعكسات أحياناً لا في الشكل المباشر .

ومن خلال التطبيقات العديدة نستخلص المعيار الأساسي لدى النقاد وهو يتفق مع قوانين الاحتجاج التي تبناها أهل اللغة عامة حتى القرن الرابع ، وتمثل لهم التراث في صورتين ـ شكلين ـ :

١) **الصورة الأولى** ويعبَّر عنها بـ (كلام العرب) ، وشعراء العرب ، وأهل الجاهلية ، وأهل الإسلام ، وشعر عربي صريح ، وكلام مولد فصيح .

٢) **الصورة الثانية :** هي تلك الكتب التي ألفت في الأنواء والنوادر ثم الكتب التي حوت المفردات : أي المعاجم كما في صنيع الخليل ، وابن دريد .

ويعرض علينا الآمدي مشكلة ازدواج اللفظ دون أن يعبر عن متعدد عند أبي تمام (فالقبول تخالف الصَّبا) والأمر ليس كذلك بل هما ريح واحدة ، ويلوح تعليل مفاده أن (القبول) قد يَدُلُّ على الريح اللينة المس وهنا يلجأ إلى الموروث « فإنا ماسمعنا مثل هذا في الريح ولا علمناه في اللغة ، ولا وجدنا في الشعراء أحداً قال : الصبا وقبولها ولا الجنوب وقبولها ، ولا الشمال وقبولها أي سهلها ولينها[1] » ويتتبع صاحب الموازنة المسألة فقد استقصى أصحاب (الأنواء) في كتبهم ذكر الرياح ، وأوصافها ونعوتها ، واستشهدوا بأكثر ماسمعوه من أشعار العرب فيها ، وبالغ أبو حنيفة الدينوري في ذلك فما منهم أحد ذكر أن القبول غير الصبا ، وإنما قال ابن الأعرابي في نوادره : إن العرب تسمّي كل ريح طيبة لينة المس قبولاً ، وقال الأخطل :

فإن تبخلْ سدوسٌ بدرهميها ... فإنَّ الريْحَ طيبةٌ قبولُ[2]

---

(١) الموازنة (١/١٦٢) .

(٢) الموازنة (١/١٦٣) . وكذا في ١٥٨ ـ ١٥٩ .

ويتضح أن هذا الناقد قد اكتملت في ذهنه صورة للعربية ، ولأنماط التركيب فيها ولُعدد الأوصاف ، وزوايا الرؤية ، لا ينبغي أن تخالف ، بل إنه يعتقد أن روح البداوة الفصيحة تسمح للناطقين بها أن يؤدوا اللغة أداء سليماً على الرغم من الخطأ الدلالي أما المولّد الذي يحمل العربية عن أهلها تعلماً فلا يجوز له أن ينحرف بمعنى اللفظ ، أو يبدل مدلولاً بمدلول ، وعندما يخلط - في رأي الآمدي - أبو تمام فيسمي النسيج في الثوب وشائع ووشيعة :

شهدّت لقد أقوتْ مغانيكُم بعدي ... ومحت كما محّت وشائع من بردِ

يقول الناقد « ومثل أبي تمام لا يسوغ له الغلط في مثل هذا ، لأنه حضري ، وإنما يتسامح في مثل ذلك : البدوي الذي يريد الشيء ولم يعاينه فيذكر غيره لقلة خبره بالأشياء التي تكون في الأمصار[1] » ويؤكد هذا المنحى في تفضيل وتسويغ للعرب الأقحاح . فقول أبي تمام :

لاأنت أنت ولا الديار ديارُ ... خَفّ الهوى وتولتِ الأوْطارُ

يستدعي القول بأن « لاأنْت أنْت » لفظ من ألفاظ أهل الحضر ، مستهجن وليس بجيد ، لكن قوله (ولا الديار ديار) كلام معروف من كلام العرب مستعمل حسن »[2] وكذا في إيراد : (التقريب) صفة لسير الإبل « فليس التقريب من عدو الإبل ، وهو في هذا مخطئ ، وقد يكون التقريب لأجناس من الحيوان ولا يكون للإبل والمرطى أيضاً من عدو الخيل ، ولم أره في أوصاف سير الإبل ولا عدّوها[3] » وفي مواضع يصرح الآمدي بأنه ينبغي أن ينتهي - الشاعر - في اللغة إلى حيث انتهوا ، ولا يتعدى إلى غيره فإن اللغة لا يقاس عليها[4] .

(١) الموازنة (١٩٢/١ - ١٩٣) .

(٢) المصدر نفسه (٥١٢/١) .

(٣) الموازنة (٢٣٧/١ - ٢٣٨) .

(٤) الموازنة (١ - ٢٢٧) ، وينظر كذلك في الموازنة (٢٣٩/١) ، ٣٧١ - ٣٧٢ ، والموازنة (١٩٩/٢) .

أما القاضي الجرجاني فإنه يجري حواراً بين خصوم المتنبي وأنصاره ، وخلال ذلك يدلي بدلوه ونسمع منه آراء حول ألفاظ منفردة « فأما الألفاظ التي زعم أن الشعراء تفردوا بها ، فإنها موجودة عن أئمة اللغة ، وعمن ينتهي السند إليهم ، ويعتمد في اللسان عليهم ، إنما نتكلم بما تكلموا به ، وواحد كالجميع ، والنفر كالقبيلة ، والقبيلة كالأمة ، فإذا سمعنا من العربي الفصيح الذي يعتد حجة كلمة اتبعناه ، ثم إن لم تبلغنا عن سواه ، ولم نسمع بها إلا في كلامه لم نزعم أنه اخترعها ، ولم نحكم أنه أبو عذرها »[1] ، ويضيف صاحب الوساطة إلى هذا أنه « يرى ألا يطالب الشاعر بأكثر من إسناد قوله إلى شعر عربي منقول عن ثقة وناهيك بالفراء »[2] .

ويسرد الجرجاني في حكاية عن المتنبي احتجاجاً يتضمن أعلاماً من اللغويين إذ يثور نقاش حول (سداس) ووزنها « فكان أبو الطيب سئل عنه فأجاب عن قولهم إن سداساً غير محكي عن العرب وإن أهل اللغة يزعمون أنهم لم يزيدوا عن رباع ، وإنما هي ألفاظ معدولة يوقف بها على السماع بأن قال : إنه قد جاء عن العرب خماس وسداس إلى عشار حكاه أبو عمرو الشيباني ، وابن السكيت ، وذكره أبو حاتم في كتاب الإبل »[3] .

وثمة إضافة إلى مفهومات صاحب الوساطة وهي أن الأقيسة النحوية ، وما اتفق عليه يقدم ويتبع وإن تكن الضرورة الشعرية أو الصناعة عموماً مسوغاً للخروج على تلك القواعد فأداة النداء تحذف لدى المتنبي في بيت له ، فيرد على لسان واحد من أنصاره : أن ذكرها « لعمري أصل القياس في النحو غير أن ضرورة الشعر تجيز ترك القياس في النحو ، وقد أجازوا ذلك في النكرات وهو

---

(١) الوساطة ٤٥٣ ـ ٤٥٤

(٢) الوساطة ٤٥٧ .

(٣) الوساطة ٤٥٧ .

أبعد في الجواز عن هذه المعارف »[1] .

وهكذا تجري الشواهد والاحتجاج لها والحكم عليها عند القاضي الجرجاني ، ويستوي أن يقول رأيه هو نفسه ، أو يجري النقاش بين منتقدي المتنبي وأنصاره[2] .

وإن مانجده عند الحاتمي هو أن يجمع بين الصورتين اللتين ذكرناهما أول هذه الفقرة ، فهو يؤاخذ المتنبي في اللفظ فاضة (درع فاضة) وذلك لأنه « لم تأت هذه الكلمة في شعر عربي صريح ولا في كلام مولد فصيح[2] ، وكذلك استعمالها في البيت :

ومُنازِلٍ للقِرن يسحب فاضة   عَلِقَ النجيعُ بثوبها الفضفاض

فأبو الشيص ـ الشاعر ـ مستعمل هنا من هذه اللفظة مالا أصل له ، وليس يجوز في اللغة وإنما اعتمد التجنيس فأسقط هذا الإسقاط »[3] فالاحتجاج إذن يكون بالكلام المنسوب إلى الأقحاح من العرب أو المولدين الذين نسجوا على طريقتهم المعترف بها .

ويمثل ماجمع في المعاجم من ألفاظ مرجعاً معتمداً فهو صحيح بمقاييس الاستشهاد والتدقيق لذا فالحاتمي يهرع إلى الخليل وابن دريد ليأتي بأمثلة على صدق دعواه في تخطئة المتنبي إذ استعمل كلمة « دفر » للداهية أو الدنيا فقد قال صاحب العين : الدفر وقوع الدود في الطعام واللحم . ونحو هذا ذكر ابن دريد في الجمهرة ـ أي جمهرة اللغة ـ هذا قول أهل العلم ومستودع كتب اللغة[4] .

---

(١) الوساطة ٤٦٥ ـ ٤٦٦ .

(٢) ينظر أيضاً في الوساطة ٤٥٨ ـ ٤٥٩ ، ٤٦٠ ـ ٤٦١ ، ٤٦٣ ، ٤٦٤ ، ٤٦٢ ، ٤٦٦ ـ ٤٦٧ ، ٤٥٠ ، ٤٤١ ، ٤٧٠ .

(٣) الموضحة ٧٥ .

(٤) الموضحة ٥٩ ـ ٦٠ .

ويستند أبو هلال العسكري إلى ما كان ، وما تعورف عليه في الأزمنة القديمة للعربية فينكر أن يبلغ محيط دلالة الحلم (الرقة) في قول أبي تمام :

رقيق حواشي الحلم لو أن حلمه ... بكفيك ما ماريت في أنه بُرْد

فما وصف أحد أهل الجاهلية ، ولا أهل الإسلام الحلم بالرقة ، وإنما يصفونه بالرجحان والرزانة كما قال النابغة :

وأعظمُ أحلاماً وأكبر سيداً ... وأفضلُ مشفوعاً إليه وشافعاً[1]

ويعمد المرزباني إلى الرواية عن الأصمعي ، ويورد كلمته الفاصلة التي لا معقب عليها : « كذا تكلمت العرب » . ولا شك أن صاحب الموشح يؤكد ما ذهب إليه الأصمعي إذ يعلق على بيت للنابغة :

مقذوفة بدخيس النحض بازلها ... له صريف صريف القعو بالمسد

فيقول لمحدثه : ما أضر عليه في ناقته ما وصف ... لأن صريف الفحول من النشاط ، وصريف الإناث من الإعياء والضجر ، كذا تكلمت العرب »[2] .

ونبلغ بهذه الفقرة أبعد جانب لمنهج الصواب والخطأ أقصد : المعيار والأساس النظري ونحن لم نقف على مقدمات نظرية خالصة وإنما هي تطبيقات أدت إلى هذه النتيجة . والوجه الآخر للحقيقة هو أنها عبارة عن مبادئ ضمنية برزت بالشكل الجزئي الذي تابعنا نماذج منه .

هـ) إن الطريقة التي اتبعها النقاد وتقوم على تصحيح الأخطاء والاحتكام إلى المعيار أورثت العمل النقدي سمات منها : تعميق النظرة الحرفية للواقعية في الشعر . دلالته وصوره ، ولن نفيض ههنا في درس هذه الظاهرة فثمة مواضع هي

---

(١) الصناعتين ١٢٥ .

(٢) الموشح للمرزباني ٥١ .

أجدر بها كالمبحث الخاص بالتطور الدلالي ، والقسم الخاص بدراسة المجاز والحقيقة ، وإشارتنا الموجزة تتطلبها طبيعة العرض ، ذلك أنها تعد في نتائج (المستوى الصوابي) .

ونلاحظ أن الآمدي والقاضي الجرجاني هما أبرز النقاد في هذا المجال بل إن الشواهد التي بين أيدينا محصورة في كتابيهما ، والمنحى الأول لهما هو أن تذكر حقيقة الأمر الذي عبر عنه الشاعر فغلط لسهو أو لجهل بالملمح الطبيعي فقد قال أبو تمام :

هاديه جذعٌ من الأراك وما   تحت الصَّلا منه صخرةٌ جلس

وينقل الآمدي تعقيباً لواحد من منتقديه « فمتى رأى عيدان الأراك تكون جذوعاً » .

ويقول موضحاً : « أصاب أبو العباس في إنكاره أن تكون عيدان الأراك جذوعاً .. وهي لا تغلظ حتى تصير كالجذوع »[1] .

وينبه القاضي الجرجاني على الغلط ، إذ يصور زهير الضفادع خائفة يهددها الغرق في قوله :

يخرجن من شَرِبات ماؤها طَحِل   على الجذوع يخفن الغمَّ والغرقا

والضفادع لا تخاف شيئاً من ذلك[2] « وكذا امرؤ القيس في معلقته إذ يبدل بين النجوم إنه يقول :

إذا ما الثريا في السماء تعرَّضت   تعرُّض أثناء الوشاح المفصّل

---

(١) الموازنة (١٤٢/١) .

(٢) الوساطة ١٠ ـ ١٢ .

والثريا لا تتعرض ، وإنما تتعرض الجوزاء[1] » .

والمنحى الآخر يتمثل في آراء تستحسن القرب من الحقيقة « فكل مادنا من المعاني من الحقائق كان أولى بالنفس ، وأجلى في السمع ، وأولى بالاستجادة[2] ، وأن يصور الشيء أو يتحدث عنه » فهذا كله إنما حسن هذا الحسن ، وقبلته النفوس لأنه اعتمد أن يخبر بالأمر على ماهو ، مع حسن عبارته ، وبراعة نسجه ، وجودة تلخيصه ، ومُتَخَيَّر ألفاظه[3] . ونكتفي بهذا الاجتزاء على أن نوفي المسألة حقها في المواضع التي ذكرنا .

إننا عندما ننتهي - في هذا الفصل - إلى تقرير مسألة هيمنة النظرة المعيارية ، وتحكم منهج الصواب والخطأ في الدرس النقدي ، وعلى وجه الخصوص لدى تناول الجوانب اللغوية ومنها موضوع بحثنا : الدلالة والجوانب الدلالية ، وإنما نصل إلى حقيقة كبيرة الأثر ، وهي أن المعالجة تتجه نحو (السكونية) ولا تعين على رؤية مرنة متطورة للغة العربية ، وهذه النظرة إلى الأداة التي ينقل عبرها الأديب نتاجه تحدد أيضاً الأبعاد الأدبية للإبداع ، فضلاً عن تضييق الطريق بالنسبة إلى من يأتي بعد القرن الرابع - وخلاله - من المبدعين والكتاب ؛ ذلك أن القوانين أو الأحكام تتخذ مجرى يتأكد يوماً إثر آخر ، وتغدو له قدرة على تسيير الحياة اللغوية على نحو غير خاف .



---

(١) الوساطة ١٣ .

(٢) الموازنة (١/١٥٧) .

(٣) الموازنة (١/١٨١) ، وينظر كذلك في الموازنة (٢/١١٥ ، ١٣٩) ، والموازنة (١/٢٥٥) ، وفي الوساطة ١٠ ، ١٣ .

الفصل الثالث

التطّور الدّلالي

الأسس والمبادئ النظرية

١ ـ في اللغة والنقد والدلالة

١ / ١ فكرة التطور في الدراسة اللغوية الحديثة

لقـد كان للعـالم اللغوي (فردينـانـد دوسوسير) فضل التمييز بين مصطلحين للـدراسـة اللغـويـة ، همـا المنهـج التطـوري (diachronique) والمنهـج التزامني (synchronique) ، ويقصـد بـالأول البحث في الظواهر بحسب التطـور الـزمني المتعاقب « ولذا يقرن به مصطلح آخر هو : التـاريخي (historique) ، ويقصـد بالآخر دراسة مختلف الظواهر في مدة زمنيـة محـدَّدة ، ويُطْلَق على هـذا المنحى : الوصفي (descriptif) ، إلاَّ أن ثمة محاذير تجعل استخدام مـا حـدَّده دوسوسير هو الأكثر دقة ، ومن ثم غدا متعارَفاً عليـه في الأبحـاث اللغويـة في المعـاهـد والمراكز العلمية[1] » . وكان العلماء قبل ذلك ، أي ماقبل المحاضرات التي ألقاها هـذا العـالم ثم طبعت في كتـاب مـع مطلـع هـذا القرن (١٩١٥)[2] ، يقبلـون على الـدرس التاريخي التطوري ، ولا يكادون يغادرونـه إلى سواه ، لـذا فقـد عرف علم اللغـة هذا التيَّار وكثُرت المبـاحث فيـه ، وإن لعلم الـدلالـة المتفرع منـه نصيبـاً وافراً ، والدارس فيه يجد الأبواب المفصَّلة ويتابع أنماطـاً من التحليل وإيراد التعليلات ، ويُعَدُّ القسم التطوري من الأقسام الناضجة والمستقرة ، وتنعت أحياناً بالتقليديـة إذا ماقورنت بالنزعات ذات الاتجاه البنيوي ، الذي لم يطوَّع بالدرجة الكافيـة في الدلالة (sémantique) ، بحيث تستخرج القوانين والأحكام العلمية كما هو الشأن

---

(١) John Lyons , Linguistique générale (introductions a la linguistique theorique , larousse Paris 1970 p , p , 37 38

(٢) Ibid . p , 32 , cours de Linguistique générale , F , de Saussure .

في علم الأصوات ، وعلم وظائف الأصوات ، وعلم التركيب اللغوي[1] .

وإننا إذ نذكر جهد دوسوسير ههنا في توجيهه لعلم اللغة نحو مرحلة تنوعت فيها الجوانب ولم تَعُدْ قاصرة على تحكيم النظر التاريخي والاشتقاقي ، إنما نقصد إلى إبراز قِدَم النظرة التاريخية والتطورية ، ومن ثم نسعى في دراستنا هذه لنحقّق بعض التوضيح في حيّز الدرس العربي القديم للتطورّ والتغّير .

إننا بحاجة إلى التعمق النظري في (التطور) ، ثم إنشاء أبنية تفصل قضايا اللغة العربية القديمة والمحدثة ، ومسائل الأدب في النتاج الشعري وفي الضروب النثرية منه ، وهناك العديد من المشكلات الدائرة حول المعاجم ومناهجها ، كلّ هذا يتطلب تركيزاً على موضوعات الدرس اللغوي الحديثة ، واعتماد هذا المنهج منطلقاً لنا ، ومحوراً أساسياً ؛ لأن أيّ تقدم سيؤسس على نتائجه ؛ فاللغة العربية تتميز بأنها (فصحى) ، أي بمصطلح الأوروبيين (كلاسية مستمرة) مع تغيّر وتطور ضمن حدود لا تجاوزها ، بينما الأمر مختلف في معظم اللغات الحية ، التي يمكن نظرياً أن تتغير صفحة وجهها بشكل يباين الثاني سابقه مباينة كبيرة تَقربُ من أن تكون لغة أخرى (بَعْدَ أمد) ، وإن أكثر العناصر اللغوية قابليّة للتغير في اللغات الإنسانية هي دلالات المفردات ، وذلك كما يقول (فندريس) في كتابه (اللغة) : « فالمفردات على العكس من النظام الصوتي عند الفرد ، لا تستقر على حال لأنها تتبع الظروف ، فكل متعلم يكوّن مفرداته من أول حياته إلى آخرها بمداومته على الاستعارة ممن يحيطون به ؛ فالإنسان يزيد من مفرداته ، ولكنه يُنقِص منها أيضاً ويغير الكلمات في حركة دائمة من الدخول والخروج »[2] ويُعَدُّ كلام فندريس هذا مقدمة للمفردات ودلالاتها في اللغة عامة .

---

(١) Georges Mounin , La sémantique . 19 , p , p , 47 , Pierre Guiraud La sémantique P . 37 .

(٢) اللغة ، فندريس ٢٤٦ ـ ٢٤٧ ، ترجمة الدواخلي وقصاص .

ويحترز (جون ليونز) عندما يبسط تاريخاً لعلم الدلالة ، فإنه يشير إلى ابتكار مصطلح علم الدلالة بصورته الأخيرة (sémantique) في أواخر القرن التاسع عشر ، ولكنه يردف هذا بقوله : « ولا يعني تحديدنا الذي نذكره أنّ الاهتمام بالدلالة والمعنى جديد ، بل على العكس من ذلك فعلماء النحو عنوا بمشكلات معاني الكلمات منذ أزمنة بعيدة وحتى اليوم بأكثر ما بذلوا العناية في وظائف التركيب ، وهناك ما لا يحصى من المعاجم التي تتبعت الكلمات تاريخياً[1] » .

ولقد سبقت التساؤلات هذا الجدل القائم حول قضايا علم الدلالة البنيوية الجديدة ، باحثة عن إمكانية صياغة مسائل الدلالة على هيئة علمية موضوعية متماسكة ، كالتي وصل إليها علم الصوتيات وعلم التركيب اللغوي ، ولا يطعن هذا الحوار وذاك التساؤل في الخطوات السابقة على استقلال العلم الجديد ، فثمة اجتهادات وأعمال وأبحاث في الآماد القديمة عرفت طريقها واتخذت السمت الأخير ، ونحن نفيد من النمو الحادث ، ونعود لنفحص العمل القديم . وهكذا الشأن في اتجاهنا في هذه الدراسة ، فإلحاحنا على تكوين (علم الدلالة العربي) لا يؤدي إلى أننا نخلق أو نبتكر كل مافيه ، فهنالك مظاهر لتناول دلالي في كتب اللغة العربية ، وكذلك في مصنفات أدبية عولجت فيها مشكلات المعنى ، وزوايا دلالية كالتي نتجه إليها ولكن بملامح التجوهر العلمي الناضج ، ولئن شئنا الدقة فقد نقول إن لدينا معطيات (لعلم الدلالة العربي) وخاصة في الجانب التطوري ، وهذه هي مهمة هذا الفصل (والتالي له) بالدرجة الأولى : أي البرهنة على أن الكتب اللغوية والنقدية العربية طرقت مشكلة التطور الدلالي ، وأن تفحصها يهدي إلى أساليب تتطلب إعادة النظر في مدى فائدة التراث في فهم عصري للغة العربية ولأطوار حياتها .

---

(١) J . Lyons , Linguistique générale p . 307 .

وإن المعارف الأجنبية الحديثة تسدي إلينا النفع عندما نسترشد بها لاستخراج أدوات العمل الجديد ومناهجه من خلال التراث نفسه ، والمزاوجة دائمة لاتقف عند أي من القطبين : الأصالة ، وروح العصر ومعطياته التي تتقدم دوماً .

٢/١ المنهج العلمي وتعاون العلوم

إن جمعنا في قسم من بحثنا بين طرفين هما : الدراسة اللغوية في جانبها الدلالي من جهة ، والدراسة النقدية ممثلة في كتب نقد الشعر في القرن الرابع من جهة أخرى ، يستدعي التعليل لما يبدو من التباعد بين المجالين .

ولقد كنا وقفنا ـ في الفصل الثاني ـ عند الآثار المنطقية والفلسفية في الثقافة الإسلامية العربية ، وذلك رغبة في تأكيد المنهج العقلاني الذي ينزع إلى العلمية في النشاطات المختلفة للمجتمع ، وإن التطلع إلى نهضة في العلوم يتطلب بدوره الوعي بالارتباط الوثيق بين الفكر والعلم ، ويتميز العصر الحديث بالتفرعات العديدة في ضروب العلم والمعرفة سواء المادية منها : الصناعية والزراعية والطبية ، أو تلك التي تطلق عليها تسمية عامة : العلوم النظرية ومنها الإنسانيات (ومنها الأدب واللغة) ، وهذه الكثرة من الفروع التي ماتلبث أن تبدأ بعنوان (science علم) لاتصل إلى مرتبة الانفصال والتخصص إلا بعد توسع وتمايز في موضوعها ووظيفتها وما يستتبع ذلك .

وهذا نحو من أنحاء التقدم الإنساني أي الصعود إلى أعلى في خطوط متنامية لتكتشف الآفاق الجديدة فتستطيل القدرة البشرية وهكذا دأبها منذ أن وعى الإنسان . والظاهرة الأخرى التي تلحظ ـ إلى جانب الهيمنة العلمية وكونها الشرط للنماء في جنبات الحياة ـ هي التفاعل الذي لا ينقطع بين تلك المجموعات من المعارف . فإن نقاط الالتقاء تثمر مالا يمكن تحقيقه في كثير من الأحيان في الخطوط المستقيمة لحركة العلم الواحد ، ولقد شهدت السنوات القريبة الماضية

مذهباً فكرياً فلسفياً يحاول أن يبسط رؤية جديدة في الفكر الاجتماعي وهو المذهب (البنيوي) وكان علم اللغة ممثلاً بأحد فروعه منطلقاً له ، ويقول أحد الدارسين ، « لاشك أن زعيم البنيوية ـ كلود ليفي شتراوس ـ مدين بهذا المنهج كما اعترف هو نفسه لعلم اللسانيات عموماً وعلم الأصوات أو (الفونولوجيا phonologie) عند العالم اللغوي تروبتسكوي بصفة خاصة . والواقع أن الفونولوجيا قد لعب بالنسبة إلى العلوم الاجتماعية الدور التجديدي نفسه الذي لعبته الفيزياء النووية بالنسبة إلى مجموع العلوم الدقيقة »[١] ، ونجد أن اللغة والدلالة خاصة تفيد من البنيوية رغم أن (جورج مونان) يؤكد النشأة المستقلة لمصطلح (البنية) فهو يقول : « غدت كلمة (البنية) في أيامنا جواز المرور أو الكلمة السحرية ، إلا أنها تبدو لنا في مجال علم اللغة كائناً ولد بطريقة مستقلة ، وعلى كل حال قبل الموجة الراهنة للمصطلح بزمن طويل »[٢] ولا خلاف ههنا ـ في رأيي ـ إذ إن النمو والنضج في هذا الباب من التأمل الفلسفي يكون ذا فعالية إن وجدت سبل إلى تطبيقه بشكله الجديد على أبحاث دلالية ، وثمة مجالات عدة طبق عليها أولها : الأنثروبولوجيا والتحليل النفسي ، وجوانب فلسفية حديثة[٣] .

وقد شهد الموروث الإسلامي العربي نمواً في العلوم ، وبلغت درجة عالية من النضج لعصرها ـ وكان النظر الفلسفي وراء ذلك . ويمثل نتاج ابن سينا في موسوعته (الشفاء) الصورة النظرية والتطبيقية في آن واحد فهي تشتمل على عدد من العلوم كانت هي المعارف المتكاملة في تلك الآونة التي تم فيها نقل :

---

(١) (مشكلة البنية) زكريا إبراهيم ١٠ ، مكتبة مصر بالقاهرة سنة١٩٧٦ م .

(٢) G. Mounin, sémantique p. 47

(٣) ينظر في كتاب زكريا إبراهيم (مشكلة البنية)، وبالفرنسية كتاب حان ماري أوزياس ط٣
Jean Marie -Auzias, le structuralisme clef pour. 3me éd. 1975 Paris.

كتب اليونان وزيد عليها من التجارب الجديدة ، ويتصدرها المنطق ، ويقنن في (البرهان) أركان العلم فيبين ـ ابن سينا ـ أن لكل علم (١) مبادئ (٢) موضوعاً أو موضوعات (٣) مسائل[١] . وربط هذا بالبرهان المستخدم فيه ، وبعد أن حدد مفهوم المصطلحات الثلاثة يوضح كيف تختلف العلوم في موضوعها أو موضوعاتها الجزئية أو مسائلها « فاختلاف الموضوعات للعلوم إما على الإطلاق من غير مداخلة مثل اختلاف موضوعي الحساب والهندسة ، وإما مع مداخلة مثل أن يكون أحدهما يشارك الآخر في شيء ، وهذا على وجهين إما أن يكون في الموضوعين شيء مشترك ، وشيء متباين مثل علم الطب وعلم الأخلاق ، فإنها يشتركان في قوى نفس الإنسان من جهة ما الإنسان حيوان ، ثم يختص الطب في جسد الإنسان وأعضائه ، ويختص علم الأخلاق بالنظر في النفس الناطقة وقواها العملية »[٢] . ولكن القرن الخامس الهجري انصرم ولم يخلف ابن سينا أي فيلسوف أو صاحب فلسفة يضيف جديداً[٣] ، واجتمعت عوامل عدة جعلت الحركة العلمية والتدوين فيها لا يجاوزان الشكل إلى المضمون والمحتوى ، وإن المصنفات لتؤلف ونلحظ التشعب والتفريع في العلم الواحد إذ تنبثق منه أقسام تحمل عنوان : (العلم) ، وتتجلى لنا هذه الحقيقة في كتاب (مفتاح السعادة لطاش كبرى زاده ت ٩٤٨ هـ) إذ تتابع التسميات والتشقيقات دون أن نحس بتقدم في تلك الأبواب للمعرفة ، فالقوم بعدوا عن الحياة المتدفقة وانصرفوا إلى الكلمات في الأوراق المتوارثة حتى في الأدب والنقد والبلاغة ، فقد تعاقبوا على مصنفات القرن الرابع وما سبقه وأخذوا يقلبون الوجوه ويكررون الأمثلة ويحذفون بعضاً منها

---

(١) (البرهان) ، من الشفاء ، ابن سينا ، ٩٨ ، تحقيق عبد الرحمن بدوي ، القاهرة ١٩٦٦ دار النهضة العربية .

(٢) الشفاء ، البرهان ١٠٥

(٣) تاريخ الفلسفة الإسلامية ، دي بور ٢١١ ـ ٢١٢ ، وإبراهيم مدكور مدخل الشفاء لابن سينا ٢٧٠

ويزيدون بعضاً آخر بتغيير طفيف[1] .

إن النتيجة المستفادة تكمن في إدراكنا لجدلية العلاقة بين المعرفة والحياة من حولها فهي لاتثبت على حال واحدة ، بل تتحرك متجددة ، حتى الأبحاث اللغوية والدراسات الأدبية لابد لها من أن تجمع بين الأصالة القديمة واللبوس الجديد ، وإلا آلت إلى حدود مجردة كما هي عليه الآثار العتيقة في الكتب المتأخرة في العصر الوسيط العربي . وإن مانراه من الاشتجار بين علم الأصوات اللغوي ، وعلم الصوت الفيزيائي نموذج لما نشير إليه ، لأنه في نهاية المطاف يعود بالتحسين على طرائق التعليم والخبرة اللغوية . وعلم الدلالة فرع جديد نسبياً ـ كجزء مستقل لا كأبحاث ودراسات متفرقة ـ ويفيد من معطيات علوم عدة وينعكس على أنظمة التعليم والترجمة ووسائل الاتصال الرمزية والفنية من الرواية والمسرحية وشريط الخيالة والتلفاز .

٣/١ نظرية الأدب وصلتها باللغة والدلالة

اتجه النقد الأدبي الحديث نحو اللغة لتكون منطلقاً له ، ومهما تختلف الآراء بين أصحاب المصنفات التي تبحث في النظر النقدي وتطبيقاته فإنها ـ في عدد منها ـ ائتلفت حول هذا المحور ، ودعت إلى مراجعة ماأفاض فيه ـ قَبْلُ ـ الدارسون في هذا الميدان ، وإلى ربط بين معطيات علم اللغة عامة والدرس الأدبي ، وظهرت ـ كذلك ـ وشائج بين البحث الدلالي والنصوص الشعرية والنتاج النثري .

ولقد كان (أرسطو) الأصل الذي يستمد منه التالون ، وإن تكن الأشكال التي يبرزون فيها أفكاره ملونة بأصباغ العصر المحيط بها ، وإن المعلم الأول أرسى

---

(١) مفتاح السعادة ، طاش كبري زاده (٢١٤/١ ـ ٢٢١) ، على سبيل المثال ، تحقيق كامل بكري ، عبد الوهاب أبو النور ، دار الكتاب الحديث القاهرة .

حقيقتين هما النموذج الذي تتابعت عليه التنويعات ، والأولى منهما هي : تحديد وسائل التعبير الفني ، ذلك أن الاختلاف بينها يؤدي إلى التميز في كل ضرب من : الموسيقا والتشكيل ، والرقص ، وينتهي إلى الحقيقة الأخرى وهي الوسيلة الخاصة بالشعر والنثر أي : اللغة .

يقول أرسطو إن « الملحمة والمأساة بل والملهاة والديثرمبوس ، وجل صناعة العزف بالناي كلها أنواع من المحاكاة ... وكما أن بعضها (بفضل الصناعة أو بفضل العادة) يحاكي بالألوان والرسوم كثيراً من الأشياء التي تصورها ، وبعضها الآخر يحاكي بالصوت ، كذلك الحال في الفنون السالفة الذكر »[1] ، ونفيد من هذا النص الإشارة الواضحة لتميُّز فني التصوير والموسيقا ، ومن ثم ننتقل إلى الطرف المقابل وهو مالم يجد له المعلم الأول مصطلحاً يصلح لفروعه جميعها ، إلا أن تفرده هو تعبيره بالكلمة (اللغة) : « أما الفن الذي يحاكي بواسطة اللغة وحدها نثراً أو شعراً ـ والشعر إما مركباً من أنواع أو نوعاً واحداً ـ فليس له اسم حتى يومنا هذا : فليس ثمة اسم مشترك يمكن أن ينطبق بالتواطؤ على تشبيهات سوفرون وأكسنيرخوس ، وعلى المحاورات السقراطية ... »[2] ويتابع الشرح ليفرق بين ما هو كلام ارتبط بالوزن فحسب دون روح الشعر ، وذاك الذي يحاكي ويبلغ بأبياته وكلماته المرتبة الشعرية حقاً فأنباذوقليس ينظم أبياتاً على أوزان معروفة لكنها ليست مما يعد شعراً كذلك الذي نجده عند هوميروس وهو « الخليق بنا أن نسميه شاعراً »[3] ، وأهمية وقفتنا هنا هي تبين أن أرسطو نبه إلى التميز النوعي للتعبير الأدبي بين أشكال الفن ، فالأحاسيس والأفكار تجد لها عند الرسام رموزاً هي الألوان والظلال ، وعند النحات : الحجوم والملمس، وفي الموسيقا : التواترات الصوتية ، وهي هنا ليست بحاجة إلى ترجمة بالرموز الخارجية : أي الكلمات ،

---

(١) فن الشعر ، أرسطو ٤ ـ ٥ ، ترجمة عبد الرحمن بدوي ، النهضة المصرية القاهرة ١٩٥٣ م .

(٢) فن الشعر . أرسطو ٥

(٣) فن الشعر . أرسطو ٦

فالصلة بين الأثر والمتلقي مباشرة ـ أو هكذا ينبغي أن تكون ـ أما الأديب فيلجأ إلى الكلمة لتحمل رسالته إلى الآخرين .

ويقدم كتاب (نظرية الأدب) عرضاً للطريقتين اللتين يتم بهما دراسة الأدب ونقده : دراسة الأدب من الداخل أي اتخاذ النص أساساً للعمل ثم الاستفادة من المؤثرات الأخرى خارج الإبداع ، ودراسة الأدب من الخارج بالبحث في شخصية الأديب ، وعلم النفس وحالة المجتمع إلخ ... وأنصار النظرة الأولى يرون أن المنطلق الطبيعي والمعقول للعمل في البحث الأدبي هو تفسير الأعمال الأدبية ذاتها وتحليلها لـه فهي التي تسوّغ ـ في الحساب الأخير ـ كل اهتمام نبديه بحياة الأديب ، وبمحيطه الاجتماعي وبعملية التأليف كلها »[1] ، ويتطابق هذا الرأي مع رؤية (ديتشيس) وإن يكن تعبيره يجعل اللغة معرفة خارجية عن الأدب . والأغلب أنه يقصد : الاستمداد من أعمال اللغويين في قولته (غير الأدبية) : فحين نريد أن ننتقد أثراً أدبياً علينا أن نعرف إلى أي حد وتحت أية ظروف تكون المعرفة غير الأدبية ضرورة لنا قبل أن « نتعرف إلى الأثر الأدبي تعرفاً تاماً ؟ علينا طبعاً أن نعرف اللغة التي كتب بها ، وهذا يشمل في ذاته غير ضرب واحد من ضروب المعرفة الفيلولوجية حسبما نرى »[2] . ولقد قال باتيسون في كتابه (الشعر الإنكليزي واللغة الإنكليزية) أن الأدب جزء من التاريخ العام للغة ، وإنه يعتمد عليها اعتماداً كاملاً إنه يقول : « فرضيتي هي أن طابع العصر في قصيدة من القصائد يجب ألا يتم تقصي أثره لدى الشاعر بل لدى اللغة . وأعتقد أن التاريخ الحقيقي للشعر هو تاريخ التغيرات في نوع اللغة التي كتبت بها

---

(١) ويليك / وارن ، نظرية الأدب ١٧٩ ، ترجمة محي الدين صبحي ، دمشق ١٩٧٢ ، المجلس الأعلى للفنون والآداب .

(٢) مناهج النقد الأدبي بين النظرية والتطبيق ، ديفيد ديتشيس ٤٩٥ ، ترجمة محمد يوسف نجم بيروت ١٩٦٧ دار صادر .

قصائد متتالية ، وأن هذه التغيرات في اللغة تنجم عن ضغط الاتجاهات الاجتماعية الفكرية »[1] ، ويؤكد (غراهام هو) ماجاء لدى ديتشيس ، عندما يتحدث عن : « البنيات الشكلية التي هي في الأدب بنيات لغوية .. ولا نستطيع أن نقدم أي تحليل شكلي للعمل الأدبي دون أن نفهم طبيعة هذه المادة »[2] .

ويعلل الاتجاه إلى الإطار المحيط بالأدب بدلاً من تشريح عناصره الأولى ، ثم الانتقال إلى معرفة الأطراف الأخرى ذات التأثير في العمل ، بأن مطلع العصر الحديث كان متأثراً بالروح الرومانسية التي ألحت على أن « الأزمنة المختلفة تتطلب مقاييس مختلفة ، وذلك لهدم النظام النقدي للكلاسية الجديدة في أوروبا ، وبذا انزاح الاهتمام من الأدب إلى خلفيته التاريخية ، وغدا الشرح عن طريق عرض الأسباب كلمة السر السحرية ، وخاصة في السعي لمضاهاة مناهج العلوم الطبيعية ، إلا أن عودة إلى المنهج الصحيح ـ وهو اتخاذ الأعمال الفعلية محوراً للدرس ـ قد برزت في السنوات الأخيرة ـ الثلاثينات والأربعينات ـ في منهج (شرح النصوص) في فرنسا والتحليل الشكلي الذي يقوم على التوازي مع تاريخ الفنون الجميلة في ألمانيا ، وفي الحركة المميزة للشكليين الروس ـ في درسهم لغة بوشكين وأصولها الشعبية ـ وأتباعهم التشيك والبولنديين ، وفي تركيز أتباع ريتشاردز انتباههم على نص من الشعر ، وفي دراسات للرواية تحاول أن تحلل مناهجها الفنية ـ وجهات نظرها تقنيتها القصصية »[3] .

والاتجاه الجديد الذي نراه في النقد الحديث إنما هو مؤسس على الإدراك للحدود بين العلوم والفنون المختلفة ، فالدراية بآفاق كل من اللغة والأدب تجعل

---

(١) نظرية الأدب ٢٢٣

(٢) مقالة في النقد ، غراهام هو ٥٠ ، ترجمة محيي الدين صبحي ، دمشق ١٩٧٣ ، المجلس الأعلى للفنون والآداب .

(٣) نظرية الأدب ١٧٩ ـ ١٨٠

الباحث مدركاً لاتساع الفروع اللغوية من الصوتيات إلى التركيب وحتى الدلالة لتشمل الحياة العملية اليومية في تخاطب الناس واتصالهم communication في المجتمع الواحد أو في المجتمعات المتقاربة ، أو المتباعدة لغوياً ـ الترجمة ـ إضافة إلى القيمة الفنية عندما تستعمل في النتاج الأدبي أي في مستواها الجمالي ـ ولا نريد هنا تثبيت مفهوم الانفصال التام بين لغتين عادية وأخرى جمالية ، إذ تحفل المواقف الانفعالية بين الناس بالصور والإيحاءات البيانية ـ لذا فالدارس الأدبي يرى واحداً من وجوه اللغة و « الدراسات اللغوية لا تصبح دراسات أدبية إلا حين تفيد أي حين تهدف إلى تقصي الآثار الجميلة للغة ، وباختصار : عندما تدخل في دائرة الأسلوبيات ... ولا يمكن بطبيعة الحال متابعة الأسلوبيات متابعة ناجحة دون أساس كامل من علم اللغة العام linguistique générale مادامت إحدى اهتماماتها الأساسية هي بالضبط معارضة نظام اللغة في العمل الأدبي الرفيع الاستعمال والشائع في ذلك العصر ، وبدون معرفة ماهو الكلام الشائع حتى الكلام غير الأدبي ، وما هي اللغات الاجتماعية في ذلك الزمان فقلما تستطيع الدراسات الأسلوبية أن تتجاوز النواحي الانطباعية »[(١)] .

وتتردد أصداء لموازنة أرسطو بين الفنون والأدب في كتابات حديثة وقد عمقتها نظرية ـ أو علم ـ الرموز (Sémiotique)[(٢)] . ونلحظ شيوع مصطلح اللغة ليدل على وسائل التشكيل أو الموسيقا أو بعض الفنون المستحدثة كالسينما فيقال : لغة فلان التشكيلي أو تشرح قطعة موسيقية بتفصيل كأنما هي مؤلفة من فقرات وجمل وكلمات ، وإن اصطلاح الرمز يكون أجدى لأن اللغة تحملنا على أن نمر عبر طريق ملتوية لنؤدي مانحس به أو مانريد توصيله من أفكار وهذه الطريق

---

(١) نظرية الأدب ٢٢٦ ـ ٢٢٧

(٢) يعرض جورج مونان بشكل موجز لفكرة هذا العلم ومباينته للدلالة اللغوية ، من حيث هي تميز لنوع من الرموز العامة .

G. Mounin, Sém. p. 10, Martinet (Jeanne) La Sémiologie P.P.G-7, Seghers, Paris 1975.

هي اللغة فإذا نقلنا الرسم بها فإننا بذا نباعد بين العمل ومتلقيه ، إذ تتخلق انفعالات الفنان من خلال ألوانه وظلاله وأبعاد المنظور إلى ماهنالك من وسائل تصويرية ، وبعدها تضطر إلى انتقال آخر يذكرنا بكهف أفلاطون وظلاله .

وينفذ غراهام هو إلى فهم لأداة الأدب بموازنة تقتبس من أرسطو وتضيف إليها « إن أداة الأدب : اللفظ ؛ فالأدب يصنع بالكلمات ، والكلمات الآن إشارات ، والكلمات تتصدى لشيء وتمثل شيئاً قبل أن يستولي عليها الأدب ، وهكذا فإن الأدب يستخدم أداة هي في ذاتها نتاج فعالية تشكيلية ترميزية ، فالأدب شكل رمزي فقط بمعنى ثانوي اشتقاقي ، لأنه يستخدم نسقاً من الأشكال الرمزية الجاهزة ، وهو النسق الذي ندعوه اللغة . والعالم الذي تستدعيه اللغة إلى الوجود على الفور يستعمله الأدب على أنه مادة خام ، لذلك لا يستطيع الأدب أبداً أن يكون نسقاً كامل الرمزية والاستقلال كما تستطيع الموسيقا - والرسوم - أن تكون »[1] .

والاحتراز الهام في هذا المقام هو أنَّ الإلحاح والتركيز على اللغة والدراسة من داخل النص الأدبي لا يعني إلغاء أو تجاهلاً للعناصر الأخرى في الدرس النقدي ، وكل ماتهدف إليه الوجهة الجديدة - أو المتجددة - هو أن ننطلق من معطيات العمل ذاته ، وبعدها نفيد بما يسمح به الأساس الذي ينطلق منه فلا نكبله بقبليات وأفكار خارجية تقهره في حالة تمثلها صورة كرة ثلج التي يختفي أصلها بالتراكمات المتزايدة أثناء تدحرجها .

وعلم الدلالة الحديث هو الفرع الذي يبحث في استخراج قوانين المعنى العامة ، وهو العلم المنوط به رصد معنى الإشارات اللغوية (الكلمات)[2] ، وإذا

---

(١) مقالة في النقد ١٦٠ - ١٦١ ، وينظر في (نظرية الأدب) ٢٢

(٢) Dictionnaire de linguisteque , Larousse, 1973, Paris, p. 497

مـا أوغلنـا في تفحص مسـائلـه نجـده يخصص الجزء الأكبر منهـا لمتـابعـة تطورات الـدلالات وتغيرهـا ، ولرصـد المفردات بين المعجم والحـالـة التي تكـون عليهـا في النصوص المختلفة ، وفي المقامات المتعددة بحسب التجارب اليومية المعاشـة ، ولقـد عقد أصحاب النظرية النقدية الحديثة أواصر وثيقة بين الأعمال الإبداعية ، وتلك القضـايـا القـادرة على أن تغـدو مفـاتيح إدراك أعمق للصورة الأخيرة للمفردات ، ومن ثم سـائر التراكيب ومـا يتصل بهـا من مجـاز وتخييـل وإيمـاءات ، أي إضـاءة القصيدة ، أو مقاطع الرواية ، أو فصول المسرحيـة بـألوان عـدة تقرب القـارئ أو السامع من تجربة الأديب الخالق لها أو ـ بدقة أكثر ـ من هـذه التجربـة المتجسـدة باللغة .

وإن ريتشاردز صاحب أبرز التيارات النقدية الحديثة يفرد فصلاً من كتابه (مبـادئ النقـد الأدبي) للحـديث عن (التوصيل)[1] ، وأهميتـه في العمـل الفني عامة والشعري منه على وجه الخصوص ، ويتعرض لما يبديه الأدباء والفنـانون في كثير من الأحيـان من تجنبهم التفكير في مسـألـة التـوصيـل هـذه ، ويقـول إن اللاشعور الفني يستوجب كمون الرغبـة في أداء قـادر على الوصـول إلى الآخرين ، ولا يعني عـدم التصريـح بـالتركيز على هـذا الجـانب لـدى الشـاعر أنـه حقـاً غير موجود ، بل إن الفنان في الحالة السوية لابد أن يصوغ تجربته بدرجة مفهومة أي قادرة على التوصيل .

ويعرفنا ديتشيس بمنهج ريتشاردز وكيف أدى به إلى الاستعانة بـالـدلالـة و « مشكلـة المعنى والاتصـال تقـوده إلى إيضـاح وجهـة نظره في الإدراك لكي يفسر العمليات الداخلية للقراءة ولبحث ماهية الرموز والعناصر الأخرى التي تدخل في عملية الإيصال . إن ضرورة إيضـاح كيفيـة خلق الأدب لحـالـة عقليـة معينـة في

---

(١) مبـادئ النقـد الأدبي ، ريتشـاردز ٦٤ ـ ٧٣ ، فصـل التـوصيـل ترجمـة محمد مصطفى بـدوي ، القاهرة ١٩٦٣ م .

القارئ هي التي قادت ريتشاردز إلى ربط الأدب بالسيمانتية (الـدلالـة) ، وهي الدراسة العلمية لعمل الألفاظ في إيصال المعنى ، وكان أصدر مع أوجدن ـ ١٩٢٣ ـ كتاب (معنى المعنى) وهي دراسة للغة من هذه الناحيـة ، وهي أولى الـدراسـات التي شمل أثرها النقد الأدبي »[١] .

وأولى المجـالات التي يعـالجهـا النقـاد ـ النظريـون ـ هي هيئـة الكلمـات في النصوص ، فإن معناها ليس هو المعرف به في المعجم وإنما هو « جميع مايحتشد من روابـط ونغمات مستمـدة من جميع أنـواع المفهـومـات والتصـورات ، وصـور الفكر والتقاليـد البلاغيـة وأشيـاء أخر يـدركهـا التغير مع الزمن »[٢] . فما دامت اللغـة ـ وهي أداة الأدب ـ عرفاً يقوم على الاتفـاق فهي تشهـد تحولات في المعـاني كلمـا تغير هذا العرف[٣] ، وإن ديتشيس بعـد أن يقرر حقيقـة التغير وعمليـات التطور الدلالي يوجه الدارسين ومن يعمل في النقد إلى أن يهتموا بالعلاقات المتداخلـة بين المعاني ويتطرقوا إلى أدق صنوف تلـك العلاقـات ، وأن يعنوا بـأصغر العنـاصر في المبنى وبالإيماءات الجانبية وبـالظلال التي قـد تمردون أن يلحظهـا قـارئ عـارف بـالأثر المنقـود فهي ظـلال لا يلمحهـا إلا ذو تمرس »[٤] . وإننـا سنرى بَعْدُ تنـاول اللغويين لقضية الدلالة الهامشية ، وتلـك الـدلالـة المركزيـة ، ولكن الأمر ههنـا يفترق في أن النتيجة تبسط وتبين الخيوط التي تشد التحليلات الـدلاليـة إلى الحيز الجمالي ، فتاريخ الكلمة وما لحقهـا من معـانٍ تنفصل أو تخصص مضارهـا تستحضر أثنـاء قراءة الأثر الأدبي ، ولكن الاختيـار من ذاك التراكم يتخـذ لنفسـه أسـاسـاً ينطلق منـه ، وهو السيـاق الـواردة فيـه الكلمـات وإلا وقعنـا في الاضطراب فما الذي نأخذه وما هو البعيد المتروك ؟ .

---

(١) مناهج النقد الأدبي ، ديتشيس ٢٠٥

(٢) مناهج النقد الأدبي ، ديتشيس ٥٠٥

(٣) مناهج النقد الأدبي ٤٨٤

(٤) مناهج النقد ٤٦٩ ـ ٤٧٠

وإن صاحبي (نظرية الأدب) يوردان المصطلحات بوضوح « فإن معنى الشعر يعتمد على السياق فالكلمة لا تحمل معها فقط معناها المعجمي ، بل هالة من المترادفات والمتجانسات ، والكلمات لا تكتفي بأن يكون لها معنى فقط ، بل تثير معاني كلمات تتصل فيها بالصوت أو بالمعنى أو بالاشتقاق »[1] ونطلع على التحديدات الفارقة بين الأمور في كلام (غراهام هو) ، فبعد أن يومئ إلى كون اللغة مستودعاً هائلاً من المعاني وإلى (تلك التضمينات أو المعاني الإضافية) يقول بأن « الأدب يعمل إلى حد كبير عن طريق السيطرة على تلك التضمينات ، وبالطبع فإن السياق هو الذي يسيطر عليها مما يسمح لبعضها ، ويبعد بعضها الآخر باعتبارها غير واردة . إن القصد الذي يتصوره الكاتب عن عمد لا يسمح إلا لبعض التضمينات فقط ، وإن كان يعرف بمعنى من المعاني بوجود تضمينات أخرى »[2] . وتتشعب المشكلة ويدور النقاش حولها فنحن هنا نحلل عملاً ونرجع إلى الأزمنة السالفة ونبحث عن المعاني المحتملة التي قد تتوافق مع سياق النص فتغنيه وتجعله ـ بلغة العصر ـ مشبعاً ، إلا أن ثمة من يحاول أن يفسر العمل الأدبي بمفهومات ودلالات تالية على صاحب هذا العمل ويضرب (جويفري تيلوتسون) مثلاً واضحاً عن هذا الاتجاه « فإن قراءة انفعالات أجيال تالية في موضوع أو آخر من قصيدة لهو خطأ مضجر في النقد ... والمعنى الأصلي للكلمة في قصيدة عظيمة هو المعنى الأوحد الذي يستحق الانتباه إليه . ومهما يكن ظريفاً ذاك المعنى الناشئ عن التضمين الجديد للكلمة ، فإن مثل هذا المعنى غير وارد بالنسبة إلى صاحب القصيدة »[3] .

ويدرس النقاد اللغة من حيث المواقع التي توجد فيها ، والبيئات التي

---

(١) نظرية الأدب وارن ويليك ، ٢٥

(٢) مقالة في النقد ، غراهام هو ٨٩

(٣) مقالة في النقد ٨٤

تستخدمها . إنهم يصلون إلى المطالبة بضرورة التمييز بين الأداء اللغوي في الأبحاث العلمية ونظيره الأدبي ، فالأول تنحو اللغة فيه نحواً تتطابق الإشارة - الكلمة الملفوظة أو المكتوبة - فيه والمدلول تطابقاً دقيقاً . كما نرى في الرياضيات وفي المنطق الرمزي ومثلها الأعلى في هذا المقام لغة عالمية كالتي بدأ (ليبنتز) مبكراً بوضع خطوطها منذ نهاية القرن السابع عشر ، وأما الأدب فتكتظ لغته بالالتباسات - ويقصد بهذا المصطلح : المعاني الكامنة في الألفاظ - وتتخللها الأحداث التاريخية والذكريات والتداعيات ، وبالاختصار فهي شديدة التضمين[1] .

ويضيف (غراهام هو) إلى المقابلة بين العلم والأدب جوانب أخرى من استعمالات اللغة لندرك صناعة الشعر أو العملية التفصيلية لتكوينه من حيث مفرداته ، ودلالاتها ، « فاللغة الأدبية تخصيص من ذلك المجمل - العامية والسوقية مروراً باللغة المحكية العادية اليومية ، انتهاء بالفصحى[☆] وما فيها من كلمات مقتبسة أو موضوعة عن وعي - كما أنها تستبعد بشكل قياسي كل الكلمات السوقية ، والتقنية . أما اللغة الشعرية فأبعد تخصصاً ، وهي تذهب في تضييق حلقتها في الاتجاه نفسه ، وإن تكن من جهة أخرى تؤدي إلى اتساعها باستعمال كلمات قديمة ، وابتكار كلمات والإتيان بمعان خاصة لتلك الكلمات التي نتداولها ونعرفها »[2] .

وكانت مسألة (الغموض) في الأدب قد أثارت نقاشاً حاداً وطويلاً بين الأدباء والنقاد العرب ، وذلك منذ أن اتسع المجال في الساحة الأدبية - أواخر القرن الثاني ثم الثالث وامتدّ إثرهما - لمدرسة البديع والتجديد ، وظهرت أشعار

---

(١) نظرية الأدب ، وارن ويليك ، ٢٣

(☆) نلحظ أن الناقد يتحدث بصورة عامة ولا يخصص الكلام على لغة بعينها ، « استعمال مجازي لمصطلح (فصحى) » .

(٢) مقالة في النقد ، غراهام هو ، ١٣٢ - ١٣٣

تنحو منحى فكرياً ، أو لنقل إنه يتعمق في نظرتـه إلى الكون وإلى صلات البشر بعالمهم . وكان تداخلٌ بين الفلسفة في شيء من رسومها أو جوانبها وما قدّمـه بعض الشعراء في قصائدهم ومقطوعاتهم الغنائية . ومثل أبو تمام الطائي زاوية خاصـة في غريبه ومعانيه وقف عندها القرّاء والنقاد ، وذهب كلٌ فريق مذهبـاً في تفضيلهـا أو إنكارها ، بحسب رؤيتـه للشعر ووظيفتـه ولعلاقـة الإبـداع المحدث بـالأصول الموروثة في أشعار الجـاهليـة والإسلام ، ثمّ احتـدم الحوار بين الخصوم والأنصـار في تقويم شعر المتنبي وشاعريته . وكان مما أغنى الأحاديث النقديـة مسـألـة الغموض والوضوح ، وصلة الشعر بالفكر والفلسفة .

ونتخيّر موقفاً للقاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني في الوسـاطـة ، في هـذه القضية يتميّز بـالوعي النقـدي والنظرة القـادرة على الوصول إلى آفـاق المستقبل ، لأنها تمس جوهر الأداء الفني وصلته بإثارة جمهوره ، وخلق التفـاعل الـذي يجـاوز المألوف ويكسر جمود الألفة والسكون في كلام بعض الشعراء مما لا يستوقف قارئـاً أو سـامعـاً لإخلاد الشـاعر إلى التقليـد أو لاستسلامـه للـدعـة ومجـاراة مـا صنعـه السـابقون . وهنـا نـذكر أن عملاً شعريـاً يكون قـادراً على خلـق التـواصـل معـه والارتباط بالتجربة الشعورية من خلال زوايـا للرؤيـة تشكلـه ، وتبلور صوغـه اللغوي الجمالي ، لكنّ تقليده ـ من غير تميّز جديـد ـ لا يؤدي إلى النتيجـة ذاتهـا . لـذا يكـدّ الشـاعر نفسـه ليخرج من إهـاب الشعر القـديم الـذي يشكل جـزءاً من وجدانه وقيمه الفنية .

ينتصر صـاحب الـوسـاطـة في طرف من حـديثـه النقـدي للمتنبي شـارحـاً (الغموض) الـذي يرافق الجـدّة ويستـدعي التـأمّل في نتـاج الشعراء المحـدثين ، ويعود إلى واحد من الشعراء العرب سلّم له أهل الأدب في النصف الثاني في القرن الرابع الهجري بـالإجـادة ـ بعـد أن هـدأت الخصومـة حول شعره ـ وهـو أبـو تمـام فيحلّل هذه الظاهرة لديه ، ولنا أن نجعل كلمات الناقد تنوّر آفاقـاً أدبيـة أوسع ،

ولئن اقتصرت إشارته على بعض مما يمثل ظاهرة الغموض ، لقد يدلّ تصوّره على نضج نقدي في فهم الأدب يصح نقله إلى أدبنا العربي الحديث ومشكلاته في الرمزية والإيحاء المركّب لتجارب الشعراء ، وكما ذكرنا إنّ الدلالة تمثل محوراً هاماً في قضية التعبير عن التجربة وعالم الشاعر .

يقول القاضي الجرجاني :

« ولو كان التعقيدُ وغموضُ المعنى يُسْقطان شاعراً لوجب أن لا يُرى لأبي تمّام بيتٌ واحد ؛ فإنا لا نعلم له قصيدة تسلم من بيت أو بيتين قد وَفَر من التعقيد حظهما . وأُفْسِد به لفظهما ، ولذلك كَثُر الاختلافُ في معانيه وصار استخراجُها باباً منفرداً ، ينتسب إليه طائفة من أهل الأدب ، وصارت تُتَطارح في المجالس مطارحة أبيات المعاني وألغاز المعمّى .

وليس في الأرض بيتٌ من أبيات المعاني لقديم أو مُحْدَث إلا ومعناه غامض مستتر ، ولولا ذلك لم تكن إلا كغيرها من الشعر ، ولم تفرد فيها الكتب المصنفة ، وتشغل باستخراج الأفكار الفارغة .

ولسنا نريد القِسْمَ الذي خفاءُ معانيه واستتارُها من جهة غرابة اللفظ وتوحّش الكلام ، ومن قِبَل بُعْدِ العهد بالعادة وتغيّر الرسم »[1] .

واللمحة البارعة في نقد القاضي الجرجاني تمييزه بين تفرّد الشاعر بلمحات تحتاج إلى الغوص ونخرج من بحثنا وتأملنا فيها بطائل ، وذاك الذي يأتيه بعض الشعراء من إشكالات لفظية ، أو تلاعب في معلومات خارجية ، ليست من التجربة أو معطيات الموقف الشعري .

قد يبدو من المناسب مقارنتنا بين وعي ناقدنا العربي القديم واتزانه في النظر

---

(١) الوساطة ، للقاضي الجرجاني علي بن عبد العزيز ٤١٧

إلى هذه الظاهرة (الغموض) ، وما يعطيه النقد الأدبي الحديث في أعمال نقّاد تبوأت آراؤهم مكانة عند المعاصرين ، وأدّت فائدة في تحليل الأسلوب والدلالة عند الأدباء .

يعرض ستانلي هيمن في مصنفه (النقد الأدبي ومدارسه الحديثة) لجهود ناقد هو وليم إمبسون ، توفر على بسط جوانب (الغموض) في ماهية العمل الأدبي ، تتصل باهتماماتنا الدلالية من طرف وبالتصوّر النقدي من طرف آخر .

يقول إمبسون :

« إذن فقد يكون للكلمة الواحدة عديد من المعاني المتمايزة ، وعديد من المعاني المرتبط أحدها بالآخر ، وعديد من المعاني التي يحتاج واحدها إلى الآخر ليكمله ، أو عديد من المعاني تتحد معاً ، حتى إن الكلمة تعني علاقة واحدة أو سياقاً واحداً ، وهذا مساق يستمرّ مطّرداً .

(فالغموض) معناه أنك لا تحسم حسماً فيما تعنيه ، أو تقصد إلى أن تعني أشياء عديدة ، وفيه احتمال أنك تعني واحداً أو آخر من شيئين ، أو تعني كليهما معاً ، وأن الحقيقة الواحدة ذات معانٍ عدة »[1] .

إن السبيل إلى أن نحس بما جاء به شاعر أو أديب ، وأن ندرك أبعاد كلماته ودلالاتها إنما يرتبط على نحو وثيق **بالسياق** وعلاقاته فهو الذي يعطي الإضاءة للغرض والقصد .

وقد وقف إمبسون عند نقطة أساسية في (الغموض) ، وهي الممثلة باللبس والإلغاز والتعمية ، وكنا عرفنا أن القاضي الجرجاني أشار من قبل إلى هذا بجلاء وبصيرة نقدية فذّة .

---

(١) النقد الأدبي ومدارسه الحديثة ، هيمن (ستانلي) ٥٥ ، ترجمة د . إحسان عباس ، د . محمد يوسف نجم ، ط دار الثقافة ، بيروت ١٩٦٠ م .

يقول إمبسون موضحاً سلوك بعض الشعراء سبلاً ملتوية لا غناء فيها ولا تغني تجربة حيّة :

« يكون الغموض محترماً مادام يسند تعقيد الفكر أو لطافته أو اكتنازه ، أو مادام ندحةً يستغلها الأديب ليقول بسرعة ماقد فهمه القارئ . ثم هو لا يستحق الاحترام إن كان وليد ضعف أو ضحالة في الفكر ، ويبهم الأمر دون داعٍ ، أو عندما لا تتوقف قيمة العبارة على ذلك الغموض ، بل يكون مجرّد وسيلة لتوجيه المادة وتصريفها ، وذلك إن كان القارئ لا يفهم الأفكار التي اختلطت ، وانطبع لديه شيء من عدم الاتساق »[1] .

إننا نرى من خلال تواتر المسألة النقدية بين القدماء والمحدثين من العرب والأجانب ، وكذلك في الحوار الأدبي في الأوساط الأدبية العربية قديمة ومحدثة ، أنّ العناية بها تعمّق صلة الناقد بالعمل الإبداعي ، وتمكّنه من توصيل الرؤية النقدية[2] .

ويلح (ديتشيس) على التمييز بين الشاعر واختياره للألفاظ وإيراده للمعاني وتحديد الدلالات والعالم إذ ينقل مالديه بشكل منطقي يتجه إلى معنى واحد يحجب ماسواه ، وتبرز المنطقية فيه ، و « إن اللغة إذا ما استعملت استعمالاً منطقياً علمياً تعجز عن أن تصف منظراً طبيعياً أو وجهاً إنسانياً »[3] .

وهذه التفصيلات يتسع القول فيها وتبوب ضمن الدرس الدلالي عندما تكون الدراسة لغوية ولكننا حرصنا على أن نورد آراء المنظرين للنقد لنفيد منها بعد ذلك في تحليلنا لأعمال النقاد ، آخذين في عملنا بالتفريق بين إطلاق الأحكام على اللغات الأوربية وخصوصية العربية الفصحى .

---

(١) النقد الأدبي ومدارسه الحديثة ، هيمن ٥٦

(٢) ينظر في (النقد الأدبي) تاريخ موجز ، ويمزات وبروكس (١١٦/٤ ـ ١٢٠) .

(٣) مناهج النقد ، ديتشيس ٢١١ ـ ٢١٢

وإن ظاهرة أدبية هي (الغموض) تجد فيما سبق تفسيراً ، أو مفتاحاً للتعليل ، ولجلاء هذا المنهج في نقل التجربة الشعورية ، فالمعاني المعجمية تستقر على حالة يمكن أن نسميها (سكونية) ، بينما تتطلب الانفعالات والتواتر النفسي ألواناً تستطيع حمل المتلقي إلى أقرب نقطة من التجربة ، لذا فإن الشاعر والأديب عامة يلجأ إلى حركة نشطة في المفردات ولا يقتصر على المجازات بل يعمد إلى عمليات من توسيع الدلالة أو تخصيصها ، أو وضعها في موقع محدد عرفت أبعاده .

١ / ٤ الشروح الشعرية وأهميتها في نقد الشعر

تقتضي طبيعة مادة هذا الفصل من البحث أن نقف أمام قضية نظرية ، وتدور هذه القضية حول الشروح الشعرية ومكانها في العمل النقدي ، وحديثنا هنا يتعلق أساساً بالقرن الرابع الهجري ، وما يصح من أحكام مستخرجة للمشكلة سيفيد ـ فيما أعتقد ـ الآماد الأخرى من تاريخ الثقافة العربية القديمة .

فلقد اشتمل الدرس الأدبي على ضرب متميّز هو تلك الشروح التي صنعت لدواوين الشعراء مفردة ، أو لديوان قبيلة كهذيل ، أو لمجموعات شعرية كالمعلقات وإنّ ماوقعت عليه ينحصر في عدد منها : (١) شرح القصائد السبع الطوال لأبي بكر الأنباري . (٢) شرح القصائد التسع المشهورات لأبي جعفر أحمد بن النحاس . (٣) شرح ديوان المتنبي المسمى بـ « الفسر الكبير » لابن جني أبي الفتح . (٤) وكذلك الشرح المختصر للديوان نفسه . (٥) الفتح الوهبي على مشكلات المتنبي وهذا المصنف يسلك ضمن هذه الطائفة لأنه أقرب إليها إذ يتعقب (ابن جني) الأبيات ويعلق عليها في إطار المشكلات والالتباسات . (٦) التّمام في أشعار هذيل مما أغفله السكري . (٧) تفسير أرجوزة أبي نواس في الفضل بن الربيع والكتابان الأخيران لابن جني أيضاً .

وإني أعدّ هذه المصنفات شكلاً من أشكال العملية النقدية ، أو هي من وجهة أخرى مرحلة من أطوار الاهتمام النقدي ، وإن الظاهرة التطورية في الدلالة لا تدرس على أنها هوامش على نصوص قديمة أو محدثة ـ لعصر هؤلاء الشراح ـ بل إنها جزء من الجهد النقدي وثمة فرق بين المستويين ، فابن الأنباري أو ابن النحاس أو ابن جني كل منهم لم يكن يدوّن نقولاً معجمية يثبتها في نهاية كل بيت أو مجموعة أبيات خلواً من المعيار الذي يحكم عمله فنياً ، أو مجرداً كلامه من المعالم التي تبرز الزوايا الإبداعية النوعية في الشعر وأقصد هنا : التصوير وأساليبه من التشبيه والمجازات بضروبها وأولها الاستعارة . وإن الاختيار لمجموعة شعرية أو لديوان إنما يستند إلى ذوق الشارح وإدراكه للقيمة الجمالية في النص ، حتى في الحالة التي تشوبها النزعة التعليمية ، وذلك أن درس الأدب والشعر خاصة لا يوجه إلى المعرفة اللغوية وما إليها من التاريخ بأحداثه ورجاله ، وأحوال مجتمعاته القديمة إلا في الحيز الذي يحل فيه الجمال والتقدير الفني مكانة مقدمة على ما سواها .

ولدى تتبعي لمادة تلك الكتب الشارحة للشعر قديمه ومحدثه تثبّتٌ من حقيقة أن الشراح يلتمسون السبل الموضحة غرض الشاعر ـ وربما كانت شروح ابن النحاس وابن الأنباري أكثر تفصيلاً في هذا المجال ـ ويشيرون إلى المواضع التي يفتَنُّ فيها تصويراً مجازياً أو تمثيلاً ، ويناقشون أمثلة منها ، وهم بذا يحدّدون مسار العناصر الأخرى في شرحهم فإذا مانبّهوا على أصول المعاني ، وكيفية انتقال المفردات من معنى قديم إلى آخر جديد ، أو أظهروا احترازات لدلالة الألفاظ فهم يسهمون في تنوير النص ، وإزالة اللبس الذي نسميه أحياناً بـ (الغموض) النابع من التعارض بين الدلالة المعجمية ـ أو ما يقوم مقامها من فرض مفهوم لا يغادره اللفظ ـ وما يفهم من السياق الخاص ، وكذلك يغدو من الممكن تعليل الإعراب والملحوظات النحوية على أساس من المعنى إذ إن المفردة الواحدة تتشكل في

المجموع التركيبي (النحوي) ، ونذكر هنا ماقام به عبد القاهر الجرجاني في نظرية النظم وهي مبنية على تعمق للعلاقات النحوية في التعبير فقد وظّف هذا النوع من الدرس اللغوي الخاص بالإعراب والنحو ، والصلات بين عناصره وجعله موضحاً أساليب الكلام وأنماط المعاني ، وصور البلاغة المتعددة ، وعبد القاهر يفتتح (دلائل الإعجاز) بقوله : « ليس النظم سوى تعليق الكلم بعضها ببعض وجعل بعضها بسبب من بعض والكلم ثلاث : اسم وفعل وحرف ، وللتعليق بينها طرق معلومة »[1] وبعد مقدمة مختصرة في أبواب علم النحو وحديث عن الفصاحة والشعر يرجع إلى المسألة فيزيدها بسطاً فيخاطب القارئ : « اعلم أن ليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو وتعمل على قوانينه وأصوله »[2] ويؤكد أن « هذا هو السبيل فلست بواجد شيئاً يرجع صوابه إن كان صواباً وخطؤه إن كان خطأً إلى النظم ويدخل تحت هذا الاسم إلا وهو معنى من معاني النحو قد أصيب به موضعه ، ووضع في حقه ، أو عومل بخلاف هذه المعاملة فأزيل عن موضعه ، واستعمل في غير ما ينبغي له فلا نرى كلاماً قد وصف بصحة نظم أو فساده أو وصف بمزية وفضل فيه وإلا وأنت تجد مرجع تلك الصحة ، وذلك الفساد ، وتلك المزية ، وذلك الفضل إلى معاني النحو وأحكامه »[3] وهذه الرؤية النقدية في القرن الخامس إنْ هي إلا ثمرة القرون السابقة ، وهي تجعل التفاعل بين علوم اللغة وجماليات الأدب الذي يعد فناً لغوياً ، على درجة كبيرة من النضج ، ونحن نفيد في دراستنا للشروح الشعرية من هذه المعطيات بأن نعيد النظر في أغراض الشراح ومقاصدهم التي سعوا إليها فتعليق الجار والمجرور في جملة طويلة يلتبس فيها الكلام ويتداخل لا تنحصر

---

(١) دلائل الإعجاز ، عبد القاهر الجرجاني ، ٣ ، تحقيق د. رضوان الداية ، د. فايز الداية دار قتيبة دمشق ١٩٨٣ م .

(٢) الدلائل ٦٢

(٣) الدلائل ٦٣

فائدته في الوقوف على صحة حكم إعرابي بالتوفيق بين آراء أصحاب الأعاريب والاجتهادات فيها ، بل يتحول العمل هنا إلى تحديد المعنى المقصود في العبارة وتوجيه دلالة الألفاظ إذ إنها في سياقها الواردة فيه ترتبط بالوشائج المتعددة بهذا اللفظ أو ذاك ومن جماع المعنى المعجمي ، والموقف الدائر فيه الكلام وهذه العلاقات النحوية يستطيع القارئ أو السامع رؤية عالم الشاعر أو الكاتب .

ولقد أحل بعض دارسي اللغة والدلالة المحدثين هذه المشكلة ـ العلاقة النحوية ـ مكانة بارزة فنجد (يوجين نيدا) يقسم المعنى إلى ثلاثة أقسام فهناك (١) المعنى اللغوي ـ النحوي ـ (٢) المعنى المعجمي . (٣) المعنى الانفعالي السلوكي ، ونلاحظ أوجهاً للشبه بين ما يصنعه هذا الباحث وفكرة النظم فإنه يورد العبارة old man ويقول : « إن مجمل معنى العبارة لا يستفاد بواسطة القيم المعجمية المدلولية ، والانفعالية السلوكية للكلمتين old, man كل على انفراد بل إن جزءاً من المعنى يستقى من التركيب نفسه ، وبتعبير آخر يمتلك اتحاد الصفة النعتية والاسم الرأسي معنى أيضاً أي أن العنصر الأول يحدد صفة العنصر الثاني »[1] ، وهو يلح على أهمية دراسة الكلام في هذا المستوى ويعلل تقديمه على سواه ، فالمعنى اللغوي في المقام الأول عسير الفهم كثيراً ، والأرجح أن يسبب الارتباك في تحليل دلالات الألفاظ ، وفي المقام الثاني نجده يفوق في الأهمية المعاني المعجمية ، والانفعالية السلوكية من ناحية التركيب اللغوي ، ويمكن القول بأنها تبدأ حيثما يغادر المعنى اللغوي[2] .

ويدور الجدل حول آفاق النقد والمجالات التي يتفق عليها خاصة به ، وأن بعض المنظرين للدرس النقدي يذهبون بعيداً ، ويتسعون في الأمر ، ولا يكتفون بأن يضيقوا الحدود لتقتصر « على تحقيق النصوص ، وتحريرها ، وعلى

(١) نحو علم للترجمة ، يوجين أ . نيدا ، ١٢١ ، ترجمة ماجد النجار ، بغداد ١٩٧٦ م .

(٢) نحو علم للترجمة ، يوجين نيدا ، ١٢١ ، وينظر في ١٢٢ ـ ١٢٣

التفسير وأحكام القيمة »[1] كما هي الحال لدى بعضهم ، بل إن النقد يتنوع فيه الجهد « فيشمل ـ إضافة إلى الشرح والتفسير وإطلاق أحكام القيمة ـ تاريخ الأدب ووصف الأنواع وتصنيفها ، كما أنه يضم المسائل العامة الشاملة حول طبيعة الأدب وما وضع له ، وصلته بالاهتمامات البشرية الأخرى »[1] ، ويسهم أيضاً في خلق المناخ الذي يرشح أعمالاً مستقبلية للظهور في عالم الإنتاج الأدبي »[1] .

ويعالج ديتشيس مسألة حدود النقد فيقرر حقيقة أساسية هي أن النقد في جانب منه « قد يقصر عمله على شحذ مقدرة القارئ على التذوق بطرق مختلفة تتراوح بين العرض الموضوعي لبعض الخصائص ، والكشف التأثري (أو الذاتي) عن الأثر يخلفه العمل الأدبي في نفس الناقد »[2] وفي عبارة (العرض الموضوعي) قد نجد النهج المتبع في إيراد الشروح اللغوية ، إلى جانب ما نسميه في تعبيرنا الحديث (أفكار الكاتب ، وموضوعات القصيدة أو موضوعها) ، ولكننا نحرص على الاحتراز في هذا المقام ليكون النظر إلى النقد متوازناً ، غير متطرف في حماسة إلى الإعلاء من قيمة الشروح ، فالغرض الذي اتخذنا سبيلنا إليه في هذه الفقرة هو إبراز ماهية تلك الجهود التي اقترنت بالدواوين الشعرية على اختلافها ، وذلك عندما تكون مصطبغة بالروح الأدبية وبالرغبة في البحث عن ملامح للعمل الشعري ، وبسط ما يساعد على إدراكٍ أفضل له ، وإذن فلدينا ضرب من العمل النقدي يضاف إلى الكتب النظرية ، والمصنفات التطبيقية الأخرى ، وأعتقد أن الشروح تتضمن الكثير مما يعود على الأبحاث اللغوية بالغنى ، وبسمات تؤكد خصب التذوق الأدبي في القرن الرابع وما سبقه ، وإن التقدم الحضاري الذي يشيع فيه الفن وتستظل في أفيائه أعداد كبيرة يعني ـ فيما يعنيه ـ أن الإحساس بالقيم الجمالية والتفاعل مع الأفكار المتناولة بالأساليب

---

(١) مقالة في النقد ، غراهام هو ٦ ـ ٧

(٢) مناهج النقد ، ديتشيس ١٦

المميزة لكل فن ، غدا متغلغلاً في أوساط مختلفة ، ومعبراً عنه في شكول عدة ، وقد يكون من الأمور الهامة ألاّ تنكفئ الدراسات النقدية والمؤرخة للنقد العربي لتكتفي بمؤلفات محدودة عنوناها بمصطلح النقد ، وبعض منها لا يكاد يتجاوز كونه جمعاً لنُتَفٍ سلفت ويكاد يخلو من الغوص في مشكلات الإبداع الذي مات أو أوشك أن يموت في عصر ذاك المؤلف المتأخر ـ ابن رشيق ، ضياء الدين بن الأثير ـ .

ونختم هذا الجانب بمناقشة تضيء فهم النقد بأبعاده المتعددة المكمل بعضها منها بعضها الآخر فنطالع رأياً ليوهان فُك المستشرق الألماني مؤداه أن ابن جني لم يكن عمله في شرح ديوان المتنبي قادراً على تقريب الشعر المحدث ، وذلك لعدم تضمن مصنفه لما يشير إلى الجوانب الفنية وإغفاله « تقدم الأفكار والابتكار فيها ، والبناء الداخلي للشعر ، الذي يميز هذا الشعر عن شعر الأعراب »[١] ويعيب (فُك) على ابن جني « أن ملكته كانت ذات وجهة واحدة ، هي دائرة علم اللغة »[٢] ، ووجهة نظر المستشرق تنصب في اتجاهين الأول يتعلق بالعملية النقدية ، وهي التركيز الشديد على اللغة وغريبها ، ودقائق النحو فيها ، الثاني : يرجع إلى القصور في بسط مميزات الشعر المحدث ـ العباسي ـ بالنسبة إلى الشعر القديم ، وتبدو أهمية العيب الثاني أكبر لأن (فك) يجيز في شيء من التردد « اكتفاء الشارح ـ في شعر الأعراب كما يصطلح للشعر القديم ـ بتفسير بعض المفردات ، وعبارات الكلام وتوضيح غرض الشاعر بألفاظ مختصرة : مديح ، هجاء ، فخر ... »[٣] ، ونحن نخالف فكرة المستشرق الأصلية عندما نؤول مصطلح النقد بأبعاده التي رأيناها قبلُ وهي تتسع للجهود اللغوية ما دامت موظّفة في إطار جمالي في النهاية ولقد تلقف ـ فيما يبدو ـ إحسان عباس هذه

---

(١) العربية ، يوهان فك ١٧٨

(٢) العربية ، فك ١٧٩

(٣) العربية ، فك ٧٩

الفكرة ، فأبى أن ينعت ابن جني بالناقد ، وهو هنا إنما يضع حداً للنقد ولمن يعمل في مضماره بحسب ما يرى ، وكل ما عداه لا يحتسب في هذا المجال « فعلى الرغم من الاجتهادات الطيبة التي توصل إليها ابن جني أحياناً ، فإنه على العموم لم يكن ناقداً »[1] .

وهكذا نرى هاتين المعالجتين لبعض من كتب الشروح التي تسعى دراستنا نحو استفادة من موادها أكثر اتساعاً مما كان قبل .

٢ ـ مفاتيح تحليل التطور الدلالي

إن مشكلة التطور الدلالي تتخذ لدينا في هذا الفصل بعد التمهيد الذي بينا فيه موقعها بالنسبة إلى علم اللغة ، وإلى ميدان النشاط الأدبي عامة والشعري خاصة صورة عدد من القضايا اللغوية تعد مفاتيح للتمكن من تحليل ظاهرة التطور هذه وتفسيرها ، في نقد الشعر في القرن الرابع وهي (١) المعجم العربي وصلته بهذه الظاهرة ـ المشكلة ـ ثم (٢) الاشتقاق ودوره المساعد على فهم إمكانيات التطور في العربية ، ومن ثم (٣) نكون أمام قضية التطور في لبوس اللحن والسلامة اللغوية في الحياة الأدبية ومصنفاتها .

وإننا إذ ندرس هذه القضايا اللغوية إنما نتجه إلى خدمة القضايا الأساسية وهي التطور الدلالي ذلك أن أثرها سيصل إلى النقاد أو ستكون مقابلتها بالمصنفات النقدية من زاوية الدلالة مفيدة تنويراً ضرورياً .

ففي تناول المعجم نجد ملامحه التي شكلتها وظيفته بحسب مفهوم اللغويين للاحتجاج ولحفظ مواد العربية الصحيحة ، وسنتعرف إلى مسألة التطور وانتقادها فيه مما يجعلنا على بينة من ماهية الدراسة التطورية ـ بشكل واضح ـ .

ثم نقابل بين الحالة المعجمية والدلالات السياقيّة ، وههنا يكون بين أيدينا

---

(١) تاريخ النقد الأدبي عند العرب ، نقد الشعر ، إحسان عباس ، ٢٨٧

نتاج نلج به إلى مقدار جهد النقاد في التطور الدلالي في ضوء أبعاد السياقات المختلفة وإثارات النصوص الشعرية ـ على أن للواحد منها أكثر من سياق الدلالة كما نظروا إليها .

ولدى معالجة القضية الاشتقاقية نحلل قيمتها في الحركة التطورية النامية للغة العربية كما عرفت في المصنفات اللغوية ، ونهتدي بها للربط بين العمل المعجمي وضروب التوليدات أو التنويعات التي سنصادفها في نماذج التطور الدلالي في كتب النقاد .

ونقارن في الحيز الاشتقاقي بين خصائص الظاهرة في العربية وما عرف لها من خصائص في بعض اللغات الأجنبية في نطاق الدرس الدلالي التطوري .

أما قضية اللحن فنحن نتابع ماصنف فيها لأنها باب من أبواب رصد الحيوية التطورية للغة ، إلا أنها تساق على نحو خاص بحسب الرؤية التي تتكون لدارسيها فثمة قوانين الاحتجاج والاحترازات الفصيحة ، وهناك أيضاً أفكار محدثة تجعل بعضاً مما عدّ ضمن الأخطاء ضروباً من التغيرات الدلالية المعترف بها .

وهكذا نحاول في هذه الأقسام من فصل التطور الدلالي أن نربط بين الدرس القديم للمشكلات ـ في إطار كتب النقد واللغة ـ التي ندرسها ـ وما عاصرها أو أثر فيها ، والدراسات الحديثة التي عرفها الباحثون اللغويون الأجانب ونناقش كذلك بعضاً من أفكار الدارسين العرب المحدثين لنصل إلى بلورة أبواب ينفذ منها إلى المشكلة : التطور الدلالى .

٢ / ١ المعجم العربي وصلته بالتطور الدلالي

١/١/٢ سنتناول في هذا الحيز المعجم العربي ، وما يثار حوله في هذا المضمار ، على الرغم من الحذر المنهجي ؛ فالدراسة الحديثة تخصص القول في كل فرع من فروع اللغة وبحثها ، (فجورج مونان) ينبّه إلى أنه « من الضروري

عدم الخلط بين علم الدلالة Sémantique (والدراسة المعجمية) Lexicographie ، هذه التي لا تهتم إلا بوصف فحوى الكلمات كما نراها ـ في الحالة التقليدية ـ حين تسجلها في المعجم ، وعندما نسمي مؤلف المعجم بصورة عامة بالمعجمي .

وكذلك ينبغي عدم الخلط بعلم تصنيف المفردات Lexicologie ، وهو العلم الذي يبحث في إرساء المبادئ والأصول للدراسة المعجمية ولطرائقها كذلك[١] » ونستشير معجم اللغويات الحديث لنوضح حدود كل من العلمين الأخيرين فنطالع أن « المعجمية هي تقنية صنع المعجمات ، والتحليل اللغوي لهذه التقنية[٢] » ويفرّق ههنا بين الدارس المعجمي الذي يدرس القضايا المتعلقة بالمعجم Le Linguiste Lexicographe والمؤلف المعجمي الذي يصنع تلك المعاجم L' auteur de dictionnaire[٢] ، وأما علم المفردات فإنه الدراسة العلمية للمفردات اللغوية . ومنذ العهود السحيقة كانت توجد دراسات للأشكال (البنى) : الصيغ المعجمية ، وإن (مفهوم) الكلمة حينذاك هو المقدّم . ومع ذلك فلا يمكن أن يقوم بحث معجمي حقيقي بدون إخضاع هذا (المفهوم) للنقد . والمعجمية (تقنية صنع المعجمات) سابقة ـ بصورة عامة ـ على دراسة المفردات[٣] . وقد يكون للتمييز الزمني بينهما تعليل في تاريخ استخدام المصطلحات فأقدم زمن محدد Lexicographe : المعجمي هو سنة ١٥٧٨ م . وأما علم دراسة المفردات فيرجع إلى سنة ١٧٦٥ م كما ينص على ذلك المعجم الاشتقاقي التاريخي للألفاظ الفرنسية[٤] .

وحرصنا على إظهار الفرق بين الفروع العلمية يحتمه المنهج العلمي ، ولكن

---

(١) Georges Mounin Semantique P , 11 .

(٢) Dictionnaire de linguistique . Jean Dubois et des autres , Larousse Paris 1973 , P . 289

(٣) Dictionnaire de linguistique P . 293 .

(٤) Dictionnaire étymologique et historique , Albert, Dauzat , Dubois Mitterand Larousse , Paris 1968 , P . 421 .

التنقيب في المادة العربية القديمة يجعل من الصعب وضع النتائج الحديثة للتقسيم على أنها فاصل دقيق في المعالجة ، إذ كانت جهود علماء اللغة متداخلة في كثير من الأحيان ، ومتبادلة التأثير فيما بينها ، وقد أسهم الخليل بن أحمد ـ في القرن الثاني ـ في النحو والصرف والمعجم والعروض ، وكانت له الريادة في بعض منها كالمعجم (العين) ، والعروض . ونجد أبا علي القالي[1] صاحب الأمالي في القرن الرابع يروي الأخبار وينقد الشعر ويحلل اللغة ، ثم ينقلب فيؤلف معجمه (البارع) وهكذا الشأن لدى العديد من علماء العربية وأدبائها والمسهمين في ضروب الثقافة القديمة . لذلك فإننا نناقش قضية التطور في المعجم ليظهر تمثله خصائص الفصحى بنية وتاريخاً ، وهذا يفيد في استجلاء معالم القضية ثم نعرض لمقابلة بين المعنى المعجمي وصورة المعاني السياقية التي يكون منها بَعْدُ المعنى المتطور .

إن التصنيف المعجمي يمثل ضرباً من النشاط الدؤوب للحفاظ على جوهر العربية الفصحى ، وبه أخذت تتكامل صورة مفردات اللغة على نحو يناظر ما كان من إقامة أركان النحو والصرف في الكتب والتأليف المختلفة بين المدارس والنزعات والمتفقة في أمر أولي وأساسي وهو : ألا تضطرب اللغة فتنحرف في شعاب اللحن والخطأ ، وكذلك أفاد التأليف المعجمي من حركة جميع الأشعار والأخبار الجاهلية ، بل إن التفقه بكلام القرآن استدعى عناية بالغريب وشرحه حتى إنهم ليعدُّون تفسير ابن عباس نواة للمعاجم العربية التي كانت أوائلها تحمل اسم (غريب القرآن) وأقدم مؤلف يحمل هذا الاسم هو لأبي سعيد أبان بن رباح البكري (١٤١ هـ)[2] .

---

(١) ينظر في مقدمة كتاب الأمالي لمحمد عبد الجواد الأصمعي ١٢ ـ ١٣ ، ط دار الكتب المصرية .

(٢) فصول في فقه اللغة ، رمضان عبد التواب ، ٩٢ عن ياقوت الحموي ، معجم الأدباء (١٠٨/١) . ط. دار المأمون ، القاهرة ١٩٣٦ م .

وإذا نظرنـا إلى العمـل المعجمي من زاويـة تثبيت أركان الفصحى ـ التي تحدثنا عنها ـ عرفنا حدود المادة وماهيتها في المعاجم المعروفة لدينـا ، فقـد أدرك المشتغلون بالعربية والدراسات القرآنية ضرورة بلورة هذه اللغـة في كيـان لا يتغير إلا بمقدار ما يسعف حاجـة النـاس ولا يفتـات على الأصل القـديم ، وتبـدو فكرة التطور كامنة في التفكير الإسلامي ذاتـه عنـدمـا نرى الالتزام بـالنصوص القرآنيـة فالحديث ، ثم يفتح باب الاجتهاد والقياس[1] . ولقد حفل الفقه بالآراء والفتاوى التي كانت تلبي الحاجة الطارئة والحادثة التي قاسها الأئمة على مـا كان من قبل ، أو اجتهـدوا فيهـا على هـدي من التشريـع أي بمـا لا يتنـاقض معـه ـ في واحـد من التفسيرات ـ .

ولقد احتوت المعجمات العربية حتى القرن الرابع على الـذخيرة الفصيحـة من الألفاظ ومعانيها ، ذلك أن سلسلة المعاجم ابتدأت بـأعمـال الرواة مع القرن الأول الهجري الذين رحلوا إلى الباديـة ومواطن العرب الأقحـاح ممن سلمت ألسنتهم من الخطأ أو الاختلاط بالأعاجم والأقوام ذوي الألسنة المغايرة لعربيـة الشمال ـ كأهل اليمن ، أو الأنباط ـ ودونوا القدر الأكبر مما كان لا يزال محكياً أو مروياً من أشعار وأخبـار وقليـل من الخطب والكلمـات المشهورة ، وكـذلـك تلقـوا أفـواجـاً من الأعراب الذين عرفوا مالديهم من تراث حملوه عن الأسلاف فأتوا إلى مـدن العراق خاصة وجلسوا إلى أصحاب الرواية ليملؤوا القراطيس[2] .

وتتابعت المكتوبات من تلـك التي عرفت بـالنوادر ممـا حوى خليطـاً إن يمتز بغناه فـإنـه يفتقـد التبويـب والترتيب كالـذي نراه لـدى أبي زيـد الأنصـاري ، ثم أنشئت الرسـائـل الصغيرة التي تبنى على معنى من المعـاني أو حرف من الحروف ،

---

(١) ليس غرضنا هنا أن نفيض في درجات الاحتجاج ، فثمة (المنقول عن الصحابة فـالتـابعين) ، ولكننا نفيد معنى : المرونة في التطبيق والاجتهاد .

(٢) ينظر في هذا كتاب أمجد الطرابلسي ، حركة التأليف ١٢ ـ ٢٨ ط ٤ ، ١٩٦٩ دمشق .

وتصادفنا أسماء لما كـ « اللبأ واللبن لأبي زيد ، والإبل والخيل ، والشاء ، وأسماء الوحوش وصفاتها ، وخلق الإنسان للأصمعي ، وبعد ذلك الرحل والمنزل المنسوب لابن قتيبة[1] » . وهناك ضروب أخرى تدور حول الأضداد أشهرها متأخر ـ نسبياً ـ في القرن الرابع لابن الأنباري (٣٢٨ هـ) إلا أن عدداً من الرسائل ينسب أيضاً إلى الأصمعي ، وأبي حاتم السجستاني ، وابن السكيت ، وقطرب . وثمة نمط آخر يتناول الألفاظ في حالة خاصة هي الأفعال ذات الاشتقاق الواحد مثل : (فعلت وأفعلت للزجاج) ، و (فعل وأفعل) لقطرب[2] .

وقد ظهر أول معجم شامل ـ أو لنقل ذا فكرة شمولية ـ لألفاظ اللغة في أواخر القرن الثاني الهجري وذلك في (العين) للخليل بن أحمد الفراهيدي ـ ولسنا في مقام تأكيد نسبة المصنف بأكمله إلى الخليل لكنه من الثابت أن له الفكرة وتطبيقاً وافياً جرى على ما يقتضيه ، ومن ثم أكمل أو توبع بعده ـ أي أن أسلوب إيراد مجموعات نوعية من الكلمات غدا جزءاً من كل يستوعب هذا القسم وغيره ولقد صبَّت هذه الرسائل والكتيبات في معاجم الألفاظ التي تتابعت ، وكذلك في معاجم المعاني التي ترتب ألفاظ اللغة في أبواب تستغرق الماديات والمعنويات مبتدئة بخلق الإنسان حتى تصل إلى الأنواء والنجوم ، متناولة أثناء ذلك الحيوان والنبات والجماد ، والانفعالات والمعاني المجردة عموماً[3] .

وشهد القرن الرابع غزارة في التأليف المعجمي بطرفيه : الألفاظ والمعاني ، فمن معجم الألفاظ (جمهرة اللغة) لابن دريد (٣٢١ هـ) و (البارع) لأبي علي القالي (٣٥٦ هـ) و (تهذيب اللغة) لأبي منصور محمد بن أحمد الأزهري (٣٧٠ هـ) و (المجمل ، ومقاييس اللغة) لأحمد بن فارس (٣٩٥ هـ) ،

(١) المصدر السابق .
(٢) حركة التأليف . أمجد الطرابلسي ١٢ ـ ٢٨ .
(٣) حركة التأليف ، أمجد الطرابلسي ٥٢ ـ ٥٥ .

و (المحكم) لابن سيده الأندلسي ، وهو مخضرم القرنين الرابع والخامس (٤٥٨ هـ) ، وكذلك (تاج اللغة وصحاح العربية) لأبي نصر إسماعيل بن حمّاد الجوهري (٣٩٣ هـ) ، ومن الكتب المدرجة في معاجم المعاني (الألفاظ الكتابية) لعبد الرحمن الهمذاني (٣٢٠ هـ) ، (جواهر الألفاظ) لقدامة بن جعفر (٣٣٧ هـ) ثم مصنف (فقه اللغة وسر العربية) لأبي منصور عبد الملك بن محمد الثعالبي المجاوز طرفاً من القرن الرابع (٤٢٩ هـ) ، وكذلك معجم (المخصَّص) لابن سيده ، و (ومتخيّر الألفاظ) لأحمد بن فارس و (التلخيص في معرفة الأشياء لأبي هلال العسكري (٣٩٥ هـ) .

وتنوعت أساليب هذه المعاجم - إضافة إلى ماسبقها (العين للخليل) ، و (الألفاظ لابن السكيت) في إيراد موادها خاصة في الألفاظ ، فكانت ترتبها بحسب المخارج الصوتية للأصول ، وبمقاييس - صرفية - الثلاثي والرباعي والخماسي ، وكذلك الإعلال والتضعيف ، وبأساليب اعتبار تقاليب الأصل الواحد ، ونحن نكتفي في هذا الجزء من عملنا بالوقوف على حقيقة أن هذه المعاجم دوّنت العربية الصحيحة في إطار مبدأ الاحتجاج ولم يُضِفْ مرويات جديدة سوى الأزهري في (تهذيب اللغة) الذي توافق في هذا مع ابن جني[1] ، وأما سائر رجال المعاجم فكانوا يتشددون في الرواية وإثباتها حتى إن الجوهري يُعَنْوِنْ معجمه بالصحاح لاعتقاده بأن أوهاماً وترخصاً أخلا بمواضع في أعمال سابقيه ، فسعى إلى أن يأتي بمصنف يخلو - قدر استطاعته العلمية - مما عابه على الآخرين وللدارسين المحدثين آراء ناقدة تدور كلُّها حول التطور المفتقد في جهد العلماء القدماء في تراثنا المعجمي ، وسنناقش القضية بعد أن نورد خصيصة بارزة في المعجمات تعيننا أثناء الحديث وتوضح أجزاء من صورة الحل للمشكلة .

---

(١) لحن العامة ، رمضان عبد التواب ٦١ .

التقت الطرائق المتنوعة بين اعتبار للأوائل إطلاقاً ، أو البدء بترتيب عام بحسب الأواخر ثم العود إلى الحروف الأولى للألفاظ المعجمية على أن تنظر دائماً في الأصول المجردة للمواد سواء أكانت ثلاثية أو رباعية أو خماسية ، وهذا التشكيل والترتيب للعمل في المعاجم إنما يبرز حيوية العربية في حركتها بين الأصول والفروع فثمة عناصر يتولد منها العديد من البنيات ، وليس الرصيد اللغوي للمفردات محصوراً في كم معين يزداد بصورة تراكمية مفصومة العرا فيا بينها أو هي واهية . إن النشاط الاشتقاقي يمثل اتجاهاً نازلاً نحو المركز ـ المصادر الأصلية ـ واتجاهاً آخر صاعداً إلى أطراف الدائرة المحدد بالأوزان والصيغ المقبولة بعد استقراء للأسلوب العربي الصحيح في التعبير أثناء عمليات الجمع والتدوين والتقعيد . وفي اعتقادي أن هذا النمط من التصنيف يرشد إلى مفتاح لحل مشكلة التطور الدلالي وللاستجابة لمتطلبات الحياة التي تستدعي ألفاظاً وتسميات جديدة ، فلا بد من عملية التكييف بحسب النظام الاشتقاقي .

ولقد تنبّه واحد من المستشرقين المحدثين إلى أصالة المنهج الذي اتبعه مصنفو المعجمات العربية القدماء ، وانتقد المحاولة التي قام بعض العاملين في هذا المضار حتى أتى بمعجم يرتب الكلمات دون إعادتها إلى أصولها المجردة راغباً ـ فيا يبدو في متابعة أسلوب التصنيف الغربي إلا أن هذا يدفع إلى خلق تلك التراكمات التي أشرنا إليها بدلاً من الارتباط بجذور تتجدد حيناً بعد حين ، يقول هنري فليش يبدو أن العرب منذ بدؤوا بكتاب العين للخليل نظموا من تلقاء أنفسهم ثروتهم اللفظية تبعاً للأصول ، وكان هذا بفضل تأملاتهم الخالصة في اللغة أي أنهم اتجهوا اتجاهاً اشتقاقياً . ولكن هذه كانت هي الطريقة الوحيدة الصالحة للعمل والتي تتفق مع احترام خاصة اللغة العربية .

فالمعجم الذي ينتهج في ترتيبه طريقة أبجدية خالصة بالنسبة إلى كل كلمة إنما يحطم جميع ما يتولد طبيعياً عن الكلمات ، وهو بذلك يحطم اللغة

ويستحقها[1] » ، ونرى باحثاً آخر يتابع فليش في فكرته هذه مما يجعلنا نسلكه وإياه في سلك واحد « فقد نستطيع أن نصنف الكلمات حسب حروفها الألفبائية أو الأبجدية ، وقد باءت المحاولات التي قام بها بعضهم في هذا الصدد بالفشل ، ولذا يبدو أنّ تصنيف الكلمات بحسب أصولها هي الطريقة المثلى التي تلائم طبيعة اللغة العربية[2] » .

وإن النقد الموجه إلى المعاجم ـ ونحن نخصّص القول بالقرن الرابع ثم نعممّه في بعض الجوانب استكمالاً للأفكار المتناولة ـ يكاد يكون واحداً ، ونستطيع أن نعرضه من زاويتين تؤدي الواحدة منها إلى الأخرى ،[3] أولاهما تأخذ على أصحاب التصنيف المعجمي أنهم لم يتجاوزوا بالمادة المجموعة حداً زمنياً معيناً هو عصر الاحتجاج ، ثم أهملوا مابعد ذلك من ألفاظ الحضارة والمبتكرات المحدثة التي شهدها العصر العباسي على امتداده ، ويلاحظ باحث « أن هذه المعاجم ـ على الرغم من اتساعها وتعدد أجزائها ـ تعنى بإثبات الألفاظ القديمة بما فيها الغريب والموات ، وتبذل جهداً عظيماً في استقصائها ، وتوضيح معانيها والاستشهاد عليها بالقرآن والحديث والشعر الذي يحتج به[3] » . ويؤكد دارس آخر على محدودية العمل ، إذا اقتصر على تدوين اللغة القديمة[4] « التي اقتصر جهد التالين لعصر الجمع الأول على تنظيم تلك المادة وتبويبها طبقاً لمناهج مختلفة » .

والتفسير الذي يقوم مقام الرد على هذه النظرة ، وهو الاتجاه في التأليف كان مرتبطاً بالرغبة في تثبيت المعالم الأساسية للثروة اللفظية العربية مما حمل

---

(١) العربية الفصحى ، هنري فليش ١٩١ .

(٢) الألسنية العربية عدد ١ ص ١١٠ ـ ١١١ ، ريمون طحان ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ١٩٧٢ م . والحديث الذي يدور في هذه النقطة إنما يستهدف تجربة لويس المعلوف اليسوعي فيما يسميه بـ (المنجد) ، وهي تجربة مغلوطة تجافي روح العربية .

(٣) حركة التأليف ، أمجد الطرابلسي ٤٧ .

(٤) لحن العامة ، رمضان عبد التواب ٦٠ـ٦١ .

أصحاب المعجمات على أن يلتزموا الحدود الاحتجاجية ، وظلّ التابعون يعملون الفكر النظري في تنضيد الألفاظ والمعاني إلى أن استقامت في صورة (الصحاح) آخر القرن الرابع ، وبعده في (أساس البلاغة) للزمخشري ، ومن ثم كانت المعجمات تأخذ مادتها مما صنف في القرن الرابع وما قبله ، وأقصد هنا القاموس المحيط للفيروز آبادي ولسان العرب ، ثم تاج العروس الشارح للقاموس ، وهذا النوع من المعجمات يقترن بمفهوم يقسم العربية إلى مرحلتين الأولى هي المنتهية بالتدوين التقعيدي والأخرى هي : التالية لهذه الأعمال والمرافقة لانتشار اللغة في طوفان البلاد المفتوحة من المشرق إلى المغرب وفي هذا الحيز تتبدى مشكلة التطور ، وأعتقد أننا بحاجة إلى العديد من المراجعات التفصيلية والدراسات المعمقة لمنهج المعاجم في إيراد المواد تفصيلياً في كلّ أصل من الأصول المعجمية ، وأفترض أن ثمة إشارات نستطيع الاهتداء بها ـ بالمقارنة والإحصاء ـ فنعرف الوجهات التي كانت تسلكها البيئة العربية القديمة في استعمال الألفاظ وتفريعها بعضها من بعض ، وستكون الأمثلة التطبيقية المأخوذة من شروح القرن الرابع دليلاً لنا في افتراضنا ، وليس من المنهج العلمي أن نقبل الأحكام الأولية في الدرس المعجمي العربي على أنها مسلمات نمضي في إثرها .

(٢) والزاوية الثانية لنقد المعاجم هي أنها لم تتابع مسيرها لتسجل تطورات الألفاظ في الأزمنة اللاحقة للعصر الاحتجاجي فيقول رمضان عبد التواب « لقد اقتصرت جهود اللاحقين على تنظيم ما جمعه أسلافهم ، ولم يحاول واحد منهم أن يدون ملاحظاته على الفروق بين تلك اللغة القديمة : لغة البدو في القرون الأولى ، ولغة معاصريه ، فلم يحاول واحد من علماء القرن الخامس مثلاً أن يبيّن لنا المعنى الذي يفهمه معاصروه في لفظة جمعها زميل له في القرن الثاني الهجري[1] » وهذا التطلّب مما يبعد عن مهمتها كما رسخت في مفهوم أصحاب

---

(١) لحن العامة ، رمضان عبد التواب ٦٣ .

التصانيف في ذاك الإطار ، وإننا حين نبغي معرفة الدلآلات وألفاظها الجديدة أو المحتوى الحادث على الرموز القديمة لابد أن نتلمس طلبتنا بين التآليف المتفرقة للأدب والتاريخ ، والجغرافيا ، والفقه ، إضافة إلى ماعرف باسم كتب (اللحن) ، وهو ماسنعرض له بشيء من التفصيل في أجزاء تالية .

وإن مصنفاً يفي بالغرض المثارة حوله المناقشة لجدير بمحاولة خاصة لتصوره ، وذلك من خلال تحليل واقع اللغة في المجتمع لأمدٍ زمني معين ، ويتبين لنا أن رصد الجدة والحداثة في الآماد التالية للاحتجاج - بقواعده التي تعورف عليها - أمر يغاير طبيعة التصنيف المعجمي الذي تتابع عليه الرجال في القرون الأربعة الأولى - وفيما بعدها ترسماً لها - فقد كانت السلامة اللغوية معروفة الأبعاد ، ولها مواطن في الجزيرة العربية وهي - كذلك تدور في فلك يشكل الموروث الشعري عظْمه ، ويعضده النسق القرآني ولغته ، وأما التغيّر والتطور والنقل في الدلالات فلها مجالات واسعة تمتد وتتلون بألوان المجتمع الإسلامي العباسي الذي ضم بلاداً جديدة وأمماً طارئة على اللغة[1] ، وهناك شكول عدة للأنشطة الاجتماعية والاقتصادية والعلمية ، وفي ميدان القول والتأليف تعدّد المتكلمون بين العربي فصيحاً لسانه وملحوناً ، والأعجمي المتكلم بلغة غريبة عنه هي العربية ، ولكل حالة ظروفها وأخطاؤها أولنقل تصرفاتها . إذن يتعاظم السؤال عن الكيفية التي تعتمد فيها المصطلحات العلمية والاستعمالات اليومية والتغيرات الأدبية وقد تكون الإجابة متمثلة في عدد كبير من المؤلفات - المتصورة - التي تعالج أطرافاً من وجوه الحياة - وذلك على النحو المتبع في معاجم المعاني الكبرى كالمخصّص لابن سيده ، ثم تنقلب إلى ترتيب للألفاظ (لا بحسب الموضوعات) - ثم تصّب في جداول أو كتب

(١) تخصص الإشارة بالعباسي هنا مع أن الامتداد أساسه أموي ، لكن المرحلة الأولى كانت الجزيرة فيها حافلة بالبيئات التي ارتادها اللغويون ، واستمدوا أصول العربية قبل تحولها إلى الخلط واللحن .

ليست هي بالمعاجم القديمة بل هي إضافة إليها ، فتميز الاختصاصات لا كما يتصور اللغويون الأوربيون خاصة ، فبيير غيرو يصور لنا تدرُّج الجديد من الألفاظ مرحلة إثر أخرى حتى يبلغ في النهاية مرتبة الاعتراف به معجمياً « فإن (التسمية) فعل خلاق ، ومدرَك فيه الأصل الفردي ، وهو في الوقت نفسه متقطع يحدث مرة بعد أخرى ، وإن فرداً ما يبتكر الكلمة فتضطلع حالاً بوظيفتها بفضل قانون الاتفاق الجمعي . أما (الاستبدال أو الإحلال) فهو على النقيض من حالة الابتكار السالفة ، إنه غير مؤكد ، ومتدرج ، وثمة اتفاق اجتماعي عليه إلا أنه غير مفسر ويسير نحو الشيوع بفعل القانون الذي يقضي بأن المعنى الجديد يفرض نفسه شيئاً فشيئاً حتى يبلغ النقطة التي يقبله فيها المعجم[١] » .

وتواجهنا في هذا المقام أكثر من قضية ، ويشير ستيفن أولمان إلى واحدة منها فثمة مرحلة غامضة وغير مقيسة تفصل بين ابتكار اللفظ واعتماده وقبوله في المجتمع أي « صيرورة هذه الكلمات عرفية تقليدية »[٢] وإن معيار الانتشار أو بلوغ درجة النقل الدلالي السليم لم يكن مما اتفق عليه بدقة ، ولئن كانت الرواية عن شاعر أو بدوي في أعماق الجزيرة مقبولة عند الرواة - ومن يجمعون التراث القديم - وتبنى عليها القواعد والأحكام لقد يكون الأمر مختلفاً في حالة شاعر محدث أو كاتب أو مصنف ، فأصحاب النحو واللغة يلوذون بالموروث وبما استقام له من رسوم القوانين .

وإذا ماعدنا إلى اقتراحنا بتعقّب ضروب من الكتب التي تناثرت فيها الكلمات المحدثة فإننا نستطيع بقدر واف من التقصّي والإحصاء أن نساير حركة التغير والتطور ونوازن بينها وبين الأسس الصحيحة القياسية لصوغ الجديد ، وههنا تبرز أهمية معرفتنا بطرائق انتقال الدلالات في المرحلة السابقة على

---

(١) Pierre Guiraud, La Sémantique p p. 40 - 41.

(٢) دور الكلمة في اللغة ، ستيفن أولمان ٨٨

التدوين والاستقرار للعربية الفصحى ، ولدينا نماذج مختلفة لتطور الدلالة .

ونقف مع (يوهان فك) أمام كتاب (أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم) لأبي عبد الله محمد بن أحمد المقدسي ، وهو من رجال القرن الرابع فقد أتم مصنفه في سنة ٣٧٥ هـ ، ونفيد منه بعضاً مما نتطلبه من معرفة أحوال الجانب الدلالي الحديث إذ اشتمل العمل على « قائمة من الاستعمالات المحلية فيها مترادفات أوصاف الأشخاص والأشياء التي يحتاج إليها المسافر ، وتتبادر إلى ذهنه أنواع السفن وأوصاف رجالها ، ومفردات خاصة بالملاحة ، واصطلاحات جغرافية ، وألفاظ المكس ورجاله ... »[١] .

ويثير اللغويون في دراستهم للتطور الدلالي مشكلاتٍ ويبحثون من ثم عن حل لها ليفيدوا من الحلول في التطبيقات العملية ويكون للأدب وتعبيره النصيب الأوفى والأساس الذي يرتكزون عليه هو المعجم وحدود دلالته ، أي أن درس المعجم ينصرف إلى المجال الفني عن طريق المقارنة وتمييز الاختلافات ، وبذا نلحظ المنطلق اللغوي للنتائج التي توجه تفسير النصوص الأدبية وتدعم النظرية النقدية .

ولقد كنا رأينا اتجاهات النقد الحديث في آراء المنظرين له ، ومحاولتهم الإفادة من تناغم أو جدل يتحرك بين اللغة ـ والدلالة خاصة ـ والعمل الأدبي ، وهذا التناول يجعل مناقشتنا لقضية المعاجم العربية القديمة معللة ، فالتحولات والتطورات الدلالية التي نتقصاها في كتب النقد في القرن الرابع ـ والشروح الأدبية على رأسها تبرز خصائصها التي كانت لها في هذا المضمار بالمقايسة بحالة الظاهرة اللغوية في مظان لها ـ حسب رأي بعض الباحثين أو تصورهم ـ هي المعاجم ، أو بتقرير أبعادها التي لا يوفيها المعجم وهي ضرورية لاستكمال الوظيفة الدلالية في الحيز الأدبي .

---

(١) العربية ، يوهان فُك ١٩٤

يميز الدارسون بين ضربين للدلالة ، الأول منها هو ذاك المعجمي الذي يقدمه لنا مصنفو المعاجم ، والآخر هو المعنى أو الدلالات السياقية وتلاحظ كثرة من الاصطلاحات تدور كلها حول هذين الطرفين بتسميات تختلف باختلاف المدارس والاجتهادات التعبيرية فهناك : « ألفاظ المعاجم[1] ، العناصر المعجمية[2] ، المعنى المركزي[3] ، المعنى الأساسي[4]، المعنى القاعدي[5] ، اللغة المنطقية[6] اصطلاحات للطرف الأول ، وثمة : السياق[7] ـ بشكل عام ـ والدلالة الهامشية[8] ، وخارج المركز[9] ، ظلال المعنى أو ألوانه[10] ، والقيم الانفعالية السلوكية[11] ، الظلال والألوان العاطفية والجمالية للمعنى[12] ، شعور فردي ، وعاطفة شخصية[13] ، مصطلحات للطرف الآخر .

وكان فندريس قد قارن بين ذاك التجريد المنطقي في تفسير الكلمة معجمياً من جهة ، وما تثيره من أجواء تأثيرية من جهة أخرى « فالكلمة لا تحدد فقط بالتعريف التجريدي الذي ترسمه المعجمات ، إذ يتأرجح حول المعنى المنطقي لكل

---

(١) دلالة الألفاظ ٢١٣ إبراهيم أنيس .

(٢) نحو علم للترجمة ، يوجين نيدا ٢٠٩ ـ ٢١٠

(٣) نيدا ١٠٤ ، دور الكلمة ، أولمان ٥٥ ، أنيس ١٠٦

(٤) أولمان ٩٠

(٥) G. Mounin, Sém. P. 30

(٦) اللغة ، فندريس ٢٣٥

(٧) أولمان ٥٤ ـ ٥٥ ، ٥٩ ـ ٦٠

(٨) نيدا ١٩٢ ـ ١٩٣ ، أنيس ١٠٧ ، ١٠٩ ، ١١٧ ، ١٢٠

(٩) نيدا ١٠٤ ، ٢٠٥

(١٠) أولمان ٩٠ ـ ٩١ ، ٩٤ ، وأنيس ٨٥

(١١) نيدا ٨٣ ، ١٤٧ ، ١٤٩ ـ ١٥٠ ، ٢٠٥ ـ ٢٠٦

(١٢) أولمان ٩٤

(١٣) أنيس ١٧٤

كلمة جو عاطفي يحيط بها وينفذ فيها ويعطيها ألواناً مؤقتة على حسب استعمالاتها هي التي تكون قيمتها التعبيرية »[1] وبعد أمد طويل نطالع ما يكتب (غيرو) مخصصاً القول فكل ما يمكننا أن نحمله للكلمة من المعاني ، يكون ضمنياً افتراضياً ، ذلك أنه مامن معنى مقبول أو حقيقي إلا ذاك المتمثل في نص معطى . ولكل كلمة معنى أساسي وآخر سياقي ، والسياق هو الذي يحدّد المعنى المخصص لـ (العملية) من بين الاحتمالات العصرية لها : الجراحية ، المالية ، العسكرية ... في قولنا : إنّ العمليات لاتزال متتابعة في الدلتا « وفي كلٍّ حالة نجد الاسم يثير مفهوماً محدداً »[2] ، واللغوي الفرنسي المحدث يؤكد ـ بهذا ـ أنه يوجد لدينا دائماً دلالة واحدة محددة للكلمة الواحدة ، إذ إن ماندعوه : الظلال أو الألوان المتعددة لا يمكن أن تظل ماثلة عند وقوع اللفظ في سياق ـ أو نصّ ـ معين ، بل تجري حركة ذهنية توازن بين مختلف المعطيات ، وتناظر بين اللفظ وفحواه الوحيد الملائم للموقف .

وينظر إلى المعجم على أنه لا يفي بالغرض إذا ما رغبنا في حصر دقيق للدلالة بحسب السياقات وتنوعها ، ومع ذلك لا يعَد هذا نقصاً في الدرس المعجمي ، لأن المنوط به هو إيراد المعنى المشترك أو المركزي الذي يتشعب إلى مجموعة الحالات الجزئية التي تتباين وتتغاير بعدد السياقات التي تحل فيها ، وإن الفروق أو ما نسميه بالظلال تتسع أو تضيق إلا أنها تبقى موصولة بالأصل الذي يرجع إليه في تثبيت الجدة الحادثة ، أو اللمحة المضافة ، وقد يتأبى على نقله إلى مجال بعيد كلَّ البعد عمّا قدِّر له من قبل . ويغلب على الابتداع والابتكار الجزئي ههنا النمط الأدبي خاصة في مجازاته وتحولات المعنى ، إضافة إلى المرات التي تستخدم فيها ألفاظ لتعبر عن مخترعات طريفة ، أو انفعالات غريبة .

---

(١) فندريس ٣٣٥

(٢) Guiraud, Sémantique p, p, 30 - 31.

لذا كله ليس في وسع المعجم أن يورد كل ظل أو دلالة سياقية لأنه يتحول عندئذ إلى أعمدة من الألفاظ التفسيرية لا تكاد تنتهي ، فالمتكلمون يضيفون ـ باستمرار ـ الكثير من الألوان ، أما الأسلوب المقترح فهو أن تتنخل استعمالات مدة معينة ويسجل التردد الأكثر بينها ، فيدون في معجمات ـ أو كتب معجمية ـ لاحقة مميزة .

ويشرح أولمان السياق بشكل موسع فإنه ينبغي أن يشمل لا الكلمات والجمل الحقيقية ـ اللفظ المعنيّ ـ فحسب بل والقطعة كلها والكتاب كله كما ينبغي أن يشمل بوجه من الوجوه كلَّ ما يتصل بالكلمة من ظروف وملابسات والعناصر غير اللغوية المتعلقة بالمقام الذي تنطق فيه الكلمة لها هي الأخرى أهميتها البالغة في هذا الشأن[1] وبعد أن يورد فكرة المعنى المركزي[2] الثابت في المعجم وما يتفرع منه يعلِّل غموضها أو اضطرابها لدى عدد من العلماء بأن الفرق غير واضح عندهم بين الكلام ـ أي الحالة الحيوية للألفاظ إذ ترد في تعاملنا وتخاطبنا في مواقف معينة وحالات معاشة ـ واللغة التي هي : الوضع السكوني للألفاظ والتعابير عندما تجرَّد وتوضع لها القواعد[3] وترتَّب على أساس ما يشرحه أحياناً (نيدا) بأنه القاسم المشترك للمعنى[4] .

ونجمل القول في منهجين للتحليل اللغوي يفيدان توضيح العلاقة ما بين المعجم والاستعمال اللغوي وخاصة ما يتصل منه بالإبداع الأدبي ، وننبه في حديثنا إلى ما تنفرد به هذه العلاقة عندما تعالج في العربية .

---

(١) دور الكلمة ، أولمان ٥٤ ـ ٥٥ ، وينظر أيضاً مبحث (المبدأ الدلالي في النقد الحديث) لكليث بروكس النقد الأدبي (٤/١١٥) .

(٢) دور الكلمة ، أولمان ٥٥

(٣) John Lyons, linguistique génèrale p. p. 41 - 42

(٤) نحو علم للترجمة ، يوجين نيدا ٧٦

(١) والمنهج الأول هو المنتسب إلى المدرسة السلوكية اللغوية وعلى رأسها ليونارد بلومفيلد ـ ويقوم على التركيز والإلحاح على الجوانب النفسية والمادية ، ويكاد ينفر من التنظيم المعجمي لأنه لا يرى للألفاظ أية قيمة تذكر خارج استعمالها وتداولها ، ويعرض لنا أصحاب معجم المصطلحات اللغوية هذه الزاوية إذ يقولون : إن شرعية دراسة المفردات معجمياً مطروحة للتساؤل لدى كل المدارس غير القابلة للاستعانة بالمعنى وأول القائلين بهذا : ل . بلومفيلد ، وبالنسبة لهذه المدرسة البلومفيلدية إن فحوى إشارة لغوية ما لا يستطيع أن يكون ثابتاً متكوناً إلا في علم النفس ودراسته (أي بدراسة الموقع الذي حلت فيه الكلمة وردود الفعل السلوكية) ، وفي العلوم المادية (فالتفاحة ثمرة فاكهة بالنسبة إلى عالم اللغة) ؛ فإن الواصف اللغوي (للأشياء) لا يستطيع دراسة القيم ، والمقابلات الدلالية للوحدات المعجمية (في آن) ، ويحاول بعض الدارسين الآخرين أن يخفّفوا هذا المدخل السلبي للمعنى فينقل يوجين نيدا كلمة لصاحب المدرسة يظهر فيها أنه يعترف بالمعنى في الدراسة اللغوية ولا يرى إنكاره لكنه يلح على طرف دون آخر منطلقاً وبداية فلا يمكن في اللغة فصل الأشكال عن معانيها . ومن غير المرغوب فيه ، وربما من غير المجدي جداً ، دراسة صوت اللغة فقط دون إعطاء أي اعتبار للمعنى ولكن يجب أن نبدأ من الأشكال لا من المعنى[١] .

لذا فإننا إذ نستعين بجزئيات السياق والموقع لدى هذه المدرسة إنما ندور في فلك النفس وانفعالاتها ، وتفصيلات الحدث الإيصالي وعناصره بين : مرسل ، ومتلق . وأحوال الرسالة (الكلام) ، ونفرق في تتابعات آنية تشكل دلالة لما نحن فيه أي ـ وبشيء من الحذر العلمي ـ نصف صناعة الدلالة المتجددة متباعدين عن

---

(١) نحو علم للترجمة ، بوجين بيدا ٨٣ نقلاً عن بلومفيلد في كتابة له سنة ١٩٤٣ م .

العالم المعجمي[1] . ولا تتطلب العودة إلى المعاجم لاستشارة تطورية للألفاظ ودلالاتها بالنسبة إلى النصوص والمواقف الجديدة . بل إن الدرس للأعمال القديمة قد يخضع لتحليل من وجهة النظر الخاصة بالسلوكية ، ذلك أن التحديدات القديمة قد يعترض عليها ـ أقصد : على توجيهها ـ .

(٢) أما المنهج الآخر فلا يقطع الصلة بالمعاني التي استقرت في المصنفات الخاصة بالمفردات : المعاجم ، بل يَعدّ ـ بشكل عام ـ النصّ الأدبي حالة خاصة من حيث التناول لأمر متكون على هيئة ثابتة أو مستقرة بادئ ذي بدء ، ومن ثم أصابته تحولات وتغيّرات هي مكتسبات له يفاد منها دون أن يقوم تعارض يجعل الحادث منبتاً أو يكاد عما هو أصل له .

ومن علماء اللغة الآخذين بهذا النحو من العمل التحليلي : (أولمان) الذي يركز على نظرية السياق ، وتمثل لديه حجر الزاوية في علم الدلالة ، كما أنها أحدثت ثورة في طريق التحليل الأدبي ، ومكنت الدراسة التاريخية للمعنى من الاستناد إلى أسس حديثة أكثر ثباتاً[2] . ويذكر فضل كلّ من ريتشاردز وأوجدن في هذا المضمار ، وكذلك يشيد بما وضحه (فيرث) اللغوي الإنجليزي المعاصر من مسألة : السياقات المتداخلة ، والتي ينضوي كل منها ضمن الآخر إلى أن يكون متاحاً لنا مناقشة السياق الثقافي . وكان سبق أن عرفنا ثنائية المعنى المركزي والمعنى السياقي عند أولمان أي أنه يبين الجسر الواصل بين مركز الدائرة وأطرافها المختلفة في أشياء أضيفت إليها خلال الحركة والزمن . ويلمح إلى مسألة الغموض وإن لم تكن واضحة على الوجه الأمثل كما هي الحال عند ريتشاردز وإمبسون ـ بعد ـ فيقول : قد يؤخذ ما كان منقصة في التفاهم اللغوي العادي على

---

(١) يدرس نيدا : المعاني المعجمية ويقابلها بالانفعالية السلوكية ، ويسعى نحو الربط بينهما ١٤٧ ـ ١٥٠ من : نحو علم للترجمة .

(٢) دور الكلمة . أولمان ٥٩ ـ ٦٠

أنه ميزة فيما لو نظرنا إليه من وجهة نظر مخالفة ، فاستغلال الغموض خاصة من خواص الأسلوب ، يكاد يكون قديماً قدم الأدب نفسه ، ولقد كان للإغريق نظرية دقيقة محكمة في هذه القضايا وأمثالها[1] .

ويجمع ـ كذلك ـ يوجين نيدا الحالات التي تورد فيها الألفاظ إلى المعاني المعجمية ، فمع تعدد أشكال السياقات تتخلق معان مختلفة اختلافاً واسعاً ، ويشرح عدداً من العوامل التي تسهم في إضفاء هذا الجديد وذاك التميز ، والتي يختصر التعبير عنها بالسياق الثقافي كما لدى مالينوفسكي[2] أو يضاف إليها تفصيل لجوانب مثل طبقة الصوت ، المدى ، سرعة اللفظ ، الإيقاع .

ويقارن نيدا بين الوضع المألوف الذي يكاد أن يكون التزاماً بالمعنى المعجمي ، أو هو أقرب إليه ، وذاك الذي يحفل بالجزئيات المضافة بحيث يغدو من الصعب التعامل معها إن لم تحتط الحيطة اللازمة خاصة عندما يخرج اللفظ من نطاق محدودية مجاله إلى أفق أكبر متنوع وهنا تكمن فاعلية المجازات ، والانتقالات الدلالية « فليس من الصعب أن نعالج العالم المركزي لكلمة dog : (كلب) عندما نتعامل مع مختلف أنواع الكلاب في فصيلة الكلاب الأليفة ، غير أننا نضيع غالباً دون أمل عندما ننحرف نحو المدلولات المجازية لكلمة (dog) إذ تعني مجازاً : (١) شخص خسيس (٢) أبراج سماوية (٣) جهاز ميكانيكي لقبض شيء (كلابة) (٤) منصب توضع فوقه القدر . (٥) التظاهر (٦) الخراب » ويقول نيدا : بالرغم من كل ذلك تعدُّ مختلف هذه المدلولات جزءاً لا يتجزأ من بناء دلالات ألفاظ كلمة (dog)[3] .

وفي الطرف المقابل للدارسين اللغويين في مجال الدلالة ، نطالع الآراء النظرية والتطبيقية لنقاد الأدب الذين أغنوا البحوث الدلالية ، وأضافوا الكثير

---

(١) دور الكلمة . أولمان ١٢٣

(٢) نحو علم للترجمة . نيدا ٨٧

(٣) نفسه ١٩٢ ـ ١٩٣

مما ذكره أولمان ونيدا وسواهما من علماء اللغة[1] ، ونقصد هنا ريتشاردز وإمبسون تلميذه ومن ترسَّم طريقهما ، وقد قدم الأول سلسلة متتابعة من الدراسات : معنى المعنى (مع أوجدن) ثم (النقد العملي) ، و (مبادئ النقد) ، و (فلسفة البلاغة) ، وكان وكده فيها أن يميط اللثام عن اللغة الانفعالية ، أو تلك التي تضم الأحاسيس والمشاعر وتعبر عن المواقف الشخصية ، وتتلون بألوان شتى ، واللغة الإشارية أو الرمزية التي يطابق الرمز فيها مسألة محددة إخبارية أو استدلالية منطقية[2] . ومن ثم تبلورت قضية السياق ، ولحقتها مسألة (الغموض) ، وتابع إمبسون خطوات ريتشاردز وجدد في أشياء ، وناقشه آخرون وأضاؤوا جوانب أغنت هذا الاتجاه ، أو المدرسة إذا توسعنا في التسمية .

ويبدأ الاهتمام بالدلالات المميزة للنص ، أي الحالة الخاصة التي تقدم إلينا الأفكار والانفعالات عن طريق لغة الكاتب وعصره وموروثه من التأثيرات الإيقاعية ؛ فالمعنى لا يفهم بمعزل عن موسيقا الألفاظ وتناغمها كصيغ أولاً وعلى أنها متجاورات ، ولا يغيب عن النظر هنا أن الجدل متحرك نشط بين الطرفين : الإيقاع والمعنى ، ويعلق ناقد على رأي ريتشاردز « بأن الفرق بين الإيقاع الجيد والرديء ليس فرقاً بسيطاً بين تعاقبات معينة في الصوت ، فهو يمضي أعمق من ذلك ، ولكي نفهمه علينا أن نضع في حسابنا معاني الكلمات » كذلك يقول : « يفترض المرء بريتشاردز أن يقول إن الأصوات الفعلية تقارن بالمعاني المعجمية للكلمات التي يستعملها الشاعر ، غير أنها لا تتحمل كل المسؤولية عن الإيقاع »[3] ، فهذا إذن المنطلق الأولي ثم تتابع عمليات التحليل لنحيط بموضوع النص الذي يهفع إلى ضرب من (الاستبعاد) أو نقيضه (الاشتمال) ، فإننا ننظر

---

(١) دور الكلمة ٥٩ ـ ٦٠ ، نحو علم للترجمة ٨٧

(٢) مقدمة (مبادئ النقد الأدبي) لريتشاردز ، محمد مصطفى بدوي ٧ ـ ٨

(٣) كلينت بروكس ، المبدأ الدلالي في النقد ١٢٦

إلى آفاق دلالية معينة عندما نقرأ قصيدة وجدانية في الحب « فنستبعد بشكل منهجي من سياقها مسائل من مثل (حساب الطبيب) و(صياح الأطفال وروائح المطبخ)[1] ، وهكذا نمضي لنرى الظلال والهوامش فيما إذا كانت للألفاظ المستعملة خلفية تاريخية معينة كست اللفظ لبوساً خاصاً ، وعلى العموم فإن معاني (دلالات) الكلمات هي نتائج لا يتوصل إليها إلا من خلال تفاعل الإمكانيات التفسيرية لكامل الكلام كما يرى إمبسون[2] أي لمجموع مكوِّنات النص السياقية .

وفي ضوء مفهوم السياق هنا نجد الاستعارة تفسر على أنها مثال لامتزاج السياقات ، فالاستعارة « هي أكثر من مجرد مقارنة توضح نقطة أو تطري مذهباً فتضفي عليه ألواناً جذابة ، إنها ضماد يربط سياقين قد يكونان متباعدين تماماً - في الحديث التقليدي على الأقل - إن المعنى الذي تحققه الاستعارة هو معنى جديد - ليس منقحاً عن آخر سابق له - تندفع فيه المخيلة إلى أمام وتحتل أرضاً جديدة[3] ، فالتحليل إنما ينبثق من معرفة أدق بالدلالة الخاصة وارتباطها بغيرها من عناصر النص ، وحتى المظاهر الجمالية الأسلوبية تنفتح مغاليقها لنرى كيف تؤدي إلى المعنى الطريف بسبب تجاوز إطار سابقٍ حدَّ فيه .

ويصف بعض الدارسين لأعمال ريتشاردز واتجاهه المتأخر زمناً ١٩٣٦ في كتابه (فلسفة البلاغة) بأنه قد تطور إذ استبعد التفريق بين ضَرْبَيْ اللغة « الانفعالية ، واللغة الاستدلالية[4] ، وعمّم الحديث عن بلاغة جديدة تتخذ لها

---

(١) نفسه ١٢٩

(٢) المبدأ الدلالي ١٢٦

(٣) نفسه ١٢٦

(٤) إني أضع (الاستدلال) مكان كلمة (الدلالية) ؛ لأن مترجم مبحث بروكس لا يتحرى الدقة في هذا المجال - فيما يبدو لي - إذ يقابل بين الانفعالي - والدلالي خاصة والمصطلح اللغوي النقدي يحبذ ترجمة Semantique بـ دلالي (سيمانتي) ، فيكون في هذه الحالة شاملاً : الانفعالي والمعجمي واللغوي كما لدى أولمان ، وغيرو ومونان .

مساراً من بداية إشكالية في التحليل السياقي المرتبط بالأصول المعجمية الدلالية من طرف خفيّ وهي (الغموض) « فالبلاغة القديمة عاملت الغموض على أنه غلط في اللغة ، ورغبت في حصره ، أو حذفه ، أما البلاغة الجديدة فتنظر إليه على أنه نتيجة حتمية لقوة اللغة وأنه وسيلة لا غنى عنها لأهم ما في معظم كلامنا ـ وبخاصة في الشعر والدين[1] » فالثراء والغنى يكمنان في الزوايا التي عدَّت معتمة ومعوقة لتفهّم النص ، ولمعرفة مقصد صاحبه ، وإن التضمُّنات الجديدة التي تشعُّ بين حين وآخر بفعل جهدنا التحليلي والموازنات اللغوية والثقافية تكشف عن فاعلية لغوية ، وخصيصة لا بد منها في حديثنا وفي الكتابة بصورة خاصة فالكلمات المحددة في أدائها لها نموذج واضح يتمثل في التعابير التقنية حيث يدل المصطلح على معنى واحد مناسب لا يتغير ، ويقول ريتشاردز إننا لا نتكلم أو نعبر بلغة علمية تقنية دائماً لذا ينبغي على اللغة في الاستعمالات غير التقنية أن تزحزح معانيها وإن لم تفعل فقدت مهارتها ومرونتها كما ستفقد قدرتها على خدمتنا »[2] .

وإننا نلجأ إلى المفهوم اللغوي لمصطلح البلاغة في الموروث العربي لنشرح ملامح تتبدى لنا في وجهة ريتشاردز هذه ، فالبلاغة هي البلوغ وإيصال المعاني والأغراض الإيحائية المتضمنة داخلها لذا فهو يعتمد ـ في نظرته إلى ما يسميه : بلاغة جديدة ـ على تحليل لمجموعة الرموز الخاصة التي هي : اللغة فقسم منها يتداول في حدوده المعجمية المتعارف عليها ، ولا يكون من الصعب فهمه وإدراك المغزى منه ، ولكن أقساماً أخرى تحتاج إلى جهد ـ لنسمه إضافياً ـ فهي تبدو غامضة عويصة إذ تكون أحياناً ذات اتجاهات عدة ، دائرية الحركة ، وإن ربطها بمجموع ما حولها هو الذي يثبت الطرف الملائم ، أو يجعله منوراً قصد المرسل .

(١) كلمة لريتشاردز في مقالة بروكس ١٢٤

(٢) كلمة لريتشاردز في مقالة « بروكس » ١٢٦

والمعجم في هذه الحالة تختلف وظيفته ومحاكمته التطورية ، فهو يستخدم في عمليتين ليستا متطابقتين ويكون في الأول موفياً بالغرض عندما يشرح (المعنى المركزي) أو المتوسط المشترك للرمز اللغوي . وفي الثانية يعطي عدداً من الاحتمالات الدلالية يمايز بينها المتلقي (المحلل) ليختار أكثرها ملاءمة ثم يرجع إلى الملابسات السياقية ليتشكل عنده الحدُّ الأعلى للدلالة .

وإذا ماأردنا أن نقارن موقف ريتشاردز وأتباعه في مدرسته من المعجم ـ بحسب تصوّرنا لها ـ بما يمكن أن يناقش فيه المعجم العربي من حيث التطور وأهميته في العمل اللغوي ، ثم التطبيق الأدبي على نصوص شعرية ونثرية ، فنحن واجدون المصنفات المعجمية وافية بالقسط الأوّلي ثم هي مؤدية أصول المعاني المشكلة (الغامضة بمعنى الغموض العام) ، وبعد ذلك يتحتم على الدارس المحلّل أن يلون : أي يعطي الأبعاد للألفاظ التي بين يديه منطلقاً من معطيات النص والموقف ، لأن الظلال المكتسبة عبر القرون قد لاتعين على فهم أفضل ، فاللغة العربية الفصحى مثلها في الاستخدامات الحديثة ـ إذا كانت العبارة لدينا ملائمة في استعارتها ـ مثل التنويعات على لحن أساسي ، وإننا نرجع دائماً إلى الأصل الأول ـ أو يمكننا ذلك ـ ولا نتبع طريقة تراكمية بصورة مطّردة كما هو الشأن في اللغات الأوربية ـ وأخص الفرنسية والإنكليزية وعلى هذا فالدراسة التطورية العربية تحتل مصنفات لاحقة ومكملة ، وليست داخلة في أساس التصنيف المعجمي بل هي ضرب خاص منه .

٢/١/٢ علامات تطورية في المعاجم العربية القديمة

إننا نضيف إلى أحاديثنا عن المعجمية العربية فكرة جديدة تتصل بالتطور والاهتمام به ، ذلك أن مطالعة متوالية في (لسان العرب) وفي (أساس البلاغة) جعلتني أقدّم فرضيّة حديثة بين يدي دارسي العربية وهي تقول: إن معاجمنا ـ إضافة إلى تأديتها دورها في إعطاء الدلالة العامة ـ تستطيع إضاءة جوانب من

تاريخ الألفاظ ودلالاتها ، وإن لم يكن الأمر مطابقاً التتبع الأوروبي الحديث للمراحل التي مرّت بها الكلمات .

وإني أظن ظناً يقرب من الاعتقاد أن استخراج عدد وافر من نَسَب الكلمات ودلالاتها من المعاجم ميسور ويكفيه الدأب والتزوّد بمفهوم الحركة التطورية وقوانينها ، ولئن لم نرسم خطة عملية تسرع بصنع المعجم التطوري التاريخي لقد يكون من الخير تصنيف حشد من الألفاظ ذات التاريخ النسبي تعطي دفعاً للباحثين .

نستعرض بعض هذه المواد المشار إلى تطورها كما وردت عند صاحب اللسان ، ثم نقرن بها كلمات الزمخشري في حديثه عن المجاز في عدد منها :

١ ـ نبدأ بأمثلة للتطور الدلالي بالانتقال من المحسوس إلى المجرّد :

☆ (ط.ب.ع) في اللسان : الطبع والطبيعة : الخليقة والسجيّة التي جبل عليها الإنسان ، والطبع : الختم وهو التأثير في الطين ونحوه . يقال : « طبع الله على قلوب الكافرين » ، أي ختم فلا يعي وغطّى ولا يوفّق لخير . وأما طَبَع القلب بتحريك الباء فهو تلطيخه بالأدناس . **وأصل الطبع الصدأ يكثر على السيف وغيره** . في أساس البلاغة : ومن المجاز :طبع الله على قلب الكافر . وإنّ فلاناً لَطَمِع طَبِعٌ : دَنِس الأخلاق ، وربّ طمع يهدي إلى طَبَع . وقال المغيرة بن حَبْناء :

وأمُّك ـ حين تنسبُ ـ أمُ صدق ولكنَّ ابنَها طَبِعٌ سخيفُ

وهو مطبوع على الكرم ، وقد طبع على الأخلاق المحمودة ، وهو كريم الطبع والطبيعة والطباع والطبائع . وهو متطبّع بكذا . وهذا كلام عليه طبائع الفصاحة » .

ومن اللسان أيضاً « الطَّبْع بالسكون : الختم ، وبالتحريك : الدنس ،

وأصله من الوسخ والدنس يغشيان السيف ثم استعير فيما يشبه ذلك من الأوزار والآثام وغيرها من المقابح » .

ونلحظ استخدام مصطلحي (أصل) و (استعير) مع (يشبه) وتوافقاً بين الأجزاء المعروضة في (أساس البلاغة) وتلك الأخرى بحسب ورودها في (اللسان) .

☆ (ن ب ط) في اللسان : النبط : الماء الذي ينبُط من قعر البئر إذا حفرت . وأنبطنا الماءَ أي استنبطناه وانتهينا إليه . والاستنباط : الاستخراج . قال الزجّاج : معنى يستنبطون في اللغة : يستخرجونه ، **وأصله** من النَبط : وهو الماء الذي يخرج من البئر أوّل ما تحفر .

وفي الحديث : « من غدا من بيته ينبط علماً فَرَشَت له الملائكةُ أجنحتها » ، أي يظهره ويفشيه في الناس ، وأصله من : نَبَط الماءُ ينبط أي نبع » .

☆☆ في أساس البلاغة : ومن المجاز : فلان لا ينال نَبَطه لمن يوصف بالعزّ . قال كعب الغنوي :

قريبٌ ثراه لا ينال عَدُوُّه　　　له نبطاً آبي الهوانِ قَطُوبُ

ويقال في الوعيد : لأبثّن ما في جونتك ، ولأُنبطَنَّ نَبطَك . واستنبط معنىً حسناً ورأياً صائباً لعلمه الذين يستنبطونه منهم . واستنبطت من فلان خبراً .

☆ (ف ت ي) في اللسان : يقال : أفتاه في المسألة يُفتيه إذا أجابه ، والاسم الفتوى . قال الطرمّاح :

أنِخْ بفناء أشدقَ من عَديٍّ　　　ومن جَرْمٍ وهُمْ أهلُ التفاتي

أي التحاكم وأهل الإفتاء . قال : والفتيا ، تبيين المشكل من الأحكام ، أصله

من الفتى وهو الشاب الحدث الذي شبّ وقوي فكأنه يقوّي ما أشكل ببيانه ، فيشب ويصير فتياً قويّاً ، وأصله من الفتى وهو الحديث السن .

☆☆ في أساس البلاغة : ومن المجاز : ولا أفعل ذلك ماكرّ الفتيان ، قال :

غدا فتيا دهر وراحا عليهم   نهارٌ وليلٌ يلحقان التواليا

وهذا كقولهم : الجديدان ، وأدام مادام الفتيان بركة إفتائك وأقمت عنده فتىً من نهار أي صدراً منه .

☆ (غ ف ر) في اللسان : الغفور الغفّار ، جلّ ثناؤه ، وهما من أبنية المبالغة ، ومعناهما الساتر لذنوب عباده المتجاوز عن خطاياهم وذنوبهم . يقال : اللهم اغفر لنا مغفرة وغفراً وغفراناً .

وأصل الغفر : التغطية والستر . غَفر الله ذنوبه أي سترها » .

٢ ـ ثمَّ نعرض شواهد التطور الدلالي من الخاص إلى العام أو من المحدود إلى المتسع ونلحظ كذلك استخدام مصطلحات للتطور عند المعجميين واللغويين عامة :

☆ (ع ي ر) في اللسان : العِيْر (مؤنثة القافلة ، وقيل العِيْر : الإبل التي تحمل الميرة ، لا واحد لها من لفظها . وقيل هي قافلة الحمير ، **وكثرت** حتى سميت بها **كل قافلة ؛** فكل قافلة عير كأنها جمع عَيْر .

☆ (ع ي ن) في اللسان : عين الرجل منظره ، والعَيْن الذي ينظر للقوم يذكَّر ويؤنث ، سمي بذلك لأنه إنما ينظر بعينه . وكأنَّ **نقله من الجزء إلى الكلّ** هو الذي حمل على تذكيْره ، وإلاَّ فإن حكمه التأنيث . قال ابن سيده : وقياس هذا عندي أن من حمله على الجزء فحكمه أن يؤنثه ، ومن حمله على الكل فحكمه أن يذكّره وكلاهما قد حكاه سيبويه .

☆☆ ومن المجاز في أساس البلاغة : عيَّن الشجر نوَّر . وهو من أعيان الناس ، أي من أشرافهم . وأعيان الإخوة : الذين هم لأب وأم . وأولاد الرجل من الحرائر : بنو أعيان .

☆ (ض.ح.و) في اللسان تقول : هم يتضحَّوْن أي يتغدّون . وفي حديث سلمة بن الأكوع : « بينا نحن نتضحى مع رسول الله ﷺ » أي نتغدّى ، **والأصل** فيه أن العرب كانوا يسيرون في ظعنهم ، فإذا مرّوا ببقعة من الأرض فيها كلأ وعشب قال قائلهم : ألا ضحّوا رويداً ، أي ارفقوا بالإبل حتى تتضحّى أي تنال من هذا المرعى ، ثم وضعت التضحية مكان الرفق لتصل الإبل إلى المنزل وقد شبعت ثم **اتسع** فيه حتى قيل : لكلّ من أكل وقت الضحى وهو يتضحى أي يأكل في هذا الوقت . كما يقال : يتغدّى ويتعشّى في الغداء والعشاء .

☆☆ في أساس البلاغة : ومن **المجاز** : ضحّى عن الأمر ، وعشّى عنه إذا تأنّى عنه واتّأد ولم يعجل إليه ، **وأصله** من تضحية الإبل عن الوِرْد .

٣ ـ ومن شواهد التخصيص : (د.غ.م)

☆ في اللسان الإدغام : إدخال حرف في حرف . والإدغام : إدخال اللجام في أفواه الدواب . وأدغم الفرسَ اللجامَ : أدخله في فيه .

قال الأزهري وإدغام الحرف **مأخوذ** من هذا . وقيل : بل اشتقاق هذا من إدغام الحروف . وكلاهما ليس بعتيق ، وإنما هو كلام نَحْويّ .

☆☆ وفي أساس البلاغة ، وأدغم اللجامَ في فم الفرس : أدخله . ومن المجاز : أدغم الحرف في الحرف ، وأرغمك اللهُ وأدغمك .

☆☆ نلحظ هنا مصطلح (مأخوذ من هذا) و (اشتقاق) ، وكذلك يطالعنا مصطلح دقيق في استخدامه التاريخي (كلاهما ليس **بعتيق**) ، إذن

هناك ألفاظ قديمة وأخرى حادثة ، والروابط تجد لها مكاناً بين هذين الطرفين .

٤ ـ أمّا شواهد النقل الدلالي بين المجالات الاستعمالية فهي :

☆ (ط.ن.ب) في اللسان : الطُّنْبُ والطُّنُبُ معاً : حَبْل الخباء والسرادق ونحوهما ، وفي الحديث : مابين طُنُبي المدينة أحوج مني إليها ، أي ما بين طرفيها . والطُنْب واحد أطناب الخيمة فاستعاره للطرف والناحية .

☆☆ وفي أساس البلاغة ، ومن المجاز : هذه شجرة طويلة الأطناب وهي العروق ، وشدّ الله المفاصل بالأطناب وهي الأعصاب، والأشاجع أطناب الأصابع ، ومدّت الشمس أطنابها ، وامتدت أطنابها : طلعت ، وتقضبت أطنابها : غَرَبت .

ولي حاجات أطانيب : طويلة كثيرة لاتكاد تنقضي . وغارات أطانيب : متصلة لاآخر لها .

وطنّب بالبلد : أقام به . وجرادٌ مطنِّبٌ : كثير . ونهر مطنِّبٌ : بعيد الذهاب .

ظاهر لدينا في هذا الشاهد اللغوي من اللسان وأساس البلاغة أن الانتقال الدلالي تمّ بالمشابهة والاستعارة ، وقد جمع الزمخشري عدداً وافراً من الاستخدامات المجازية التي لاتزال مشعّة فنياً ، فهي في طور متوسط في انتقالها ولم تستقر بَعْدُ في حركتها التي بدأت من طنب الخيمة .

☆ (ر.ث.ث) في اللسان : الرَّثُّ والرِّثَّة والرثيث : الخَلَق الخسيس البالي من كل شيء . تقول ثوب رثٌّ ، وحبل رثٌّ ، ورجلٌ رثُّ الهيئة في لبسه . وأكثر ما يستعمل فيما يلبس .

والرثة : خُشَارةُ الناسِ وضعفاؤهم **شبّهوا** بالمتاع الرديء .

☆☆ وفي أساس البلاغة : ومن المجاز ارتُثَّ فلان : حُمِل من المعركة مثخناً ضعيفاً ، من قولهم : هم رِثَّة الناس لضعفائهم شبّهوا بِرِثَّة المتاع . ومرّ ببني فلان فارتثهم . ورجلٌ رثُّ الهيئة . وكلام غثٌّ رث : سخيف . وفي هذا الخبر رثاثةٌ وركاكة إذا لم يصحّ .

☆ (ح ي ض) في اللسان : الحيض : معروف . حاضت المرأة تحيض حَيْضاً ومحاضاً ومحيضاً . وقال المبّرد : سميّ الحيض حيضاً من قولهم : حاض السيل إذا فاض ، وأنشد لعمارة بن عقيل :

أجالت حصاهُنَّ الذّواري وحيضت عليهن حيضات السيول الطواحم

☆ وجاء في (مقاييس اللغة) ، لأحمد بن فارس (حيض) : يقال : حاضت السَّمُرةُ (شجرة) إذا خرج منها ماءٌ أحمر ، ولذلك سميّت النفساء حائضاً ، تشبيهاً لدمها بذلك الماء.

☆☆ وفي أساس البلاغة : ومن المجاز : حاضت السَّمَرَة إذا خرج منها شبه الدم ، يعرف بالدَّوْدَم ، ويضمد به رأس المولود ليغفر عنه الجانُّ .

نجد في هذه النقول اللغوية الدلالية أن (اللسان) و (المقاييس) يعطيان التسمية الأولى للأحداث الطبيعية الخارجية ثم تنقل الدلالة إلى المرأة ، أما (أساس البلاغة) فإنه يجعل (حيض الشجرة) مجازاً منقولاً من المرأة على التشبيه .

ونحن نريد أن نؤكد ما نذهب إليه من اهتمام اللغويين القدامى بظاهرة التطور الدلالي ، وسعيهم لوضع إشارات تهدي إلى حركة الدلالات بداية وأصلاً ثمّ تفرّعاً . أما الخلاف في هذه الدلالة (حيض) فقد يكون البدء لدلالة الطبيعة الخارجية ، خاصة وأن الظاهرة مع السيل أعمّ واغلب ، وقد يكون النقل مقبولاً لظروف اجتماعية لا تصرّح بكلمات مباشرة عن بعض الأعراض الخاصة

(الحيض) ، وتجد سهولة بالدلالة عليها مقرونة بظاهرة عامة (السيل ، الشجرة) .

وفي هذا الموضع نشير إلى صنيع ابن فارس في معجمه (المقاييس)، ذلك أنه كان يقف في بداية كثير من المواد ليضع بين أيدينا أصلاً أو أصلين تتفرع منهما الفروع مجازاً وتطوراً دلالياً .

من الكلمات التي حللت دلالياً (بيت) ، فيقول ابن فارس : هو المأوى والمآب ومجمع الشَمْل . يقال : بيتٌ وبيوتٌ وأبياتٌ . ومنه يقال لبيت الشِّعر بيت على التشبيه لأنه مجمع الألفاظِ والحروفِ والمعاني ، على شرطٍ مخصوص وهو الوزن .

والبيت عيالُ الرجلِ والذين يبيت عندهم . وبيَّت الأمرَ إذا دَبَّره ليلاً ، وقد روي عن أبي عبيدة أنه قال : بيَّت الشيء إذا قدَّر . ويُشَبَّه ذلك بتقدير بيوت الشِّعر . وهذا ليس ببعيد من الأصل الذي أصّلناه وقِسنا عليه[1] .

☆ وقال ابن فارس في مادة (برق) : الباء والراء والقاف **أصلان** تتفرع الفروع منهما : أحدهما : لمعان الشيء ، والآخر اجتماع السواد والبياض في الشيء . وما بعد ذلك فكلُّه مجاز ومحمول على هذين الأصلين ، ثم يمضي مبرهناً بالشواهد والأدلة[2] .

على هذا النحو تمضي كتب معجمية كثيرة وكتب علمية عديدة وهي حافلة بالملحوظات التطورية للدلالة ، ويبقى أن نستقرئ عدداً أكبر من المصنفات لتؤول فيما بعد .

---

(١) معجم مقاييس اللغة (٣٢٤/١ ـ ٣٢٥) ، أحمد بن فارس ، تحقيق . عبد السلام هارون ، دار الفكر بدمشق) .

(٢) المقاييس (٢٢٠/١) ، ابن فارس .

٢/٢ الاشتقاق والتطور الدلالي

عرفت الدراسات الصرفية القديمة مصطلح (الاشتقاق) ، ولكن تعرضنا لـه سيتميز بأنـه يهتم بمشكلات ـ أو قضـايـا ـ هـذا البـاب الصرفي كيما تعين على تصور أفضل فيه مخرج لمسألة التطور الدلالي ، وكلامنا سيجري على العربية أولاً بصورة تربط مـابين الـدرس العـام والـدلالـة ، والفصحى ، ثم يتنـاول الاشتقـاق الغربي مقارناً بمفهوم الأوروبيين في بحوثهم عنه علماً أو درساً للغاتهم ، ولقد قادنا إلى هـذه المحاولة ـ وهي عـامـة غير تفصيليـة ـ شيوع مصطلحـات وتصورات مـأخوذة عن مؤلفات اللغويين الغربيين حول التطور والتغير وما يدور في هذا الإطار .

وفي خضم الاقتبـاس أو الفـزع إلى النظرات الأوروبيـة تكاد تُنْسى فروقٌ أساسية تنفرد بها العربية الفصحى .

واصطلاح (الاشتقاق) ينصرف لدينا إلى ضربين تحدث عنهما القـدمـاء من علماء اللغة ، أولهما (الصغير) وهو الأكثر تداولاً في الكتب والمصنفـات الصرفيـة ، وفيه نجد (المصدر) ومجموعة من المشتقات التي تتشعب منه بزيـادات منهـا تكرار أحد حروف الأصل ـ الثلاثي غالباً ـ أو بزيـادة حرف من مجموعـة (سـألتمونيهـا) فيكون لدينا : الفعل (الماضي ، المضارع ، الأمر) ، واسم الفـاعل ، واسم المفعول والصفة المشبهة واسما الزمـان والمكان ، واسم الآلـة ، واسم التفضيل ، ولكل أحكام وطرائق في الصنع إلاَّ أنَّ القاعدة الرئيسيـة هي ثبـات الأصل (حروف المصـدر) والحفاظ على ترتيبها رغم تداخل حروف الزيـادة بين الأصول (نظر : نظر ينظر انظر / نـاظرة نظّـار / منظـور / نظير منظر / منظـار) وفي هـذا الضرب تجتمع العناصر ـ الصيغ ـ على معنى واحد مشترك ، ثم يستقل كل منها بإضـافـة وظيفيـة تميزه ، فالمصدر الأول يدل على مطلق الحدث ، بينما يضيف الفعل إلى ذلك الزمن

والفاعل ضمناً ، واسم الآلة مثلاً : الحدث مرتبطاً بأداته : منظار ـ وهكذا الشأن في الصيغ الأخرى[1] .

والضرب الآخر هو (الاشتقاق الكبير)[2] ، أو (الأكبر)[3] وذلك بحسب اجتهاد أصحاب درس اللغة بين متقدّم ومتأخر ، وابن جني هو المجلّي فيه ، فقد أورده في الخصائص وأتى بأمثلة عديدة عليه ، ويقوم هذا الضرب على أن معنى عاماً مشتركاً يربط بين زمرة من الصيغ هي نتاج تقاليب الأصل ، وكانت الفكرة مطروقة قبل قرنين من الزمن ، ولكن في مجال آخر هو المعجم ، عندما اهتدى الخليل إليها في (العين) ، ونعرض مثالاً مما جاء لدى ابن جني ، فمادة : (ج ب ر) تعقد على معنى (القوة والشدة) « الجَبْر[4] : الملك لقوته وتقويته لغيره ، ورجل مجرِّب : جرَّسته الأمور ونجَّذته فقويت منته واشتدت شكيمته ، الأبجر والبجرة وهو القويّ السرة / والبُرْج لقوته في نفسه وقوة ما يليه به / والبرج بياض العين وصفاء سوادها وهو قوة أمرها / ورجبّت الرجل إذا عظّمته وقويت أمره / وتدعم النخلة بالرُّجبة / والراجبة أحد فصوص الأصابع وهي مقوية لها / والربَاجي وهو الرجل يفخر بأكثر من فعله فيعظّم نفسه ويقوي أمره[4] » ونلاحظ أن الشواهد مستخرجة من مشتقات مختلفة لكل من التقلبّات ، أي أن ابن جني لم يورد الأصول بل أورد أفراداً من تفرعات الأصول ، ولعل ذلك يعود إلى أن الاستخدام اللغوي لا يستغرق الاحتمالات الاشتقاقية كلها ، أو هو ضرب من الانتقاء للبرهنة على الفكرة التي يدافع عنها .

وقد يشكك في جدوى هذا الضرب بسبب من العمومية التي نلحظها في

---

(١) مفتاح العلوم ، السكاكي ٦ .
(٢) المفتاح ، السكاكي ٦ .
(٣) الخصائص ، ابن جني (١٣٣/٢) .
(٤) الخصائص ، ابن جني (١٣٥/٢ ـ ١٣٦) .

الأمثلة (شذذ ، ط رد ، ك ل م ، ق و ل)[1] ، إلا أنه ظل نوعاً من البحث الاشتقاقي يمكن الإفادة منه على الرغم من عدم تحديد بداية السلسلة التي تتداخل حلقاتها ، فأيها طالعنا يعدُّ بداية للأخريات ، وقد يفلح منهج التتبع المقترح في المعجمات وألفاظها في حل هذا الإشكال ، ذلك أن البيئة العربية التي نشأت فيها الفصحى تحكمها قوانين اجتماعية وطبيعية تكشف مسار المفردات واشتقاقها ولو على نحو تقريبي .

وأما ذاك الضرب مما يعدُّ اشتقاقاً عند بعض الدارسين ـ يلحق بالنوعين السابقين ـ فهو الذي يعقد الصلات بين الألفاظ لتقارب بين أصولها من حيث المخرج الصوتي الذي يؤدي إلى تقارب في المعنى والدلالة[2] ، ولكننا لن نقف عنده لأن مناقشته تجد مكانها في حقول لغوية غير الاشتقاق[3] .

وإننا نرى اشتراك التأليف المعجمي مع الصناعة الصرفية ـ والاشتقاق أبرز أقسامها ـ وتتبدى هذه المشاركة في مسألتين واحدة منها هي التجريد وإثبات الأصول عند ترتيب المواد المعجمية كما هو الشأن في تمييز أصل واحد وفروع اشتقاقية تتعدد في الاشتقاق . والمسألة الأخرى هي استعانة بعض أصحاب المعاجم بالصيغ الصرفية للتقسيمات الجزئية في مصنفاتهم ، وذلك في (العين) و (الجمهرة لابن دريد) و (المجمل) لابن فارس ، و (المحكم) لابن سيده ، ومع أن هذا النهج كان يربك العمل بعض الشيء إلا أن الاتجاه إليه يدل على تنبّه مبكر للعلاقة بين المفردات وتصنيفها ، والاشتقاق والصرف ، فالعربية الفصحى تنتظمها قوانين كلية تجعل منها كياناً يتصل فيما بينه بشبكة أو بمجموعة من المسارب تمتد من منبع أو منابع وتتشعب لتتقاطع وتتلاقى في حركة متكاملة تحفظ لهذه اللغة حيويتها ، والاشتقاق هو الفارق بين اللغة النامية المتطورة ، أو

(١) الخصائص ، ابن جني (٩٦/١ ـ ٩٧) .

(٢) المفتاح ، السكاكي ٦ .

(٣) الخصائص ، ابن جني (١٤٥/٢ ـ ١٥٢) .

لنقل المتجدد ـ أي المتابعة لمسار المجتمع ـ وتلك اللغة التراكمية المتغيرة وللعربية دورات لغوية تبدأ من المنابع الأصلية متجهة إلى ضروب من الاشتقاقات الملائمة لاحتياجات العصر والتي تتسم بالصلة بين القديم والحادث في المادة ذاتها وفي الصيغة الصرفية ، وقد تهمل أو يتضاءل معنى المفردات المستحدثة بفعل ظروف مختلفة من اجتماعية إلى علمية إلى اقتصادية . فتستخرج مفردات أخرى إلا أنها لا تخرج عن الشرطين ذاتها فيظل الحادث متصلاً بالقديم معنى وصياغة ، وههنا لا يقتضي التطور الدلالي طي صفحات الماضي للنظر في صفحات جديد كل الجدة ـ ولو كان في الاستعمال فقط ـ بل نعود إلى الفصحى الأولى وإن تجاوزنا مرحلة لغوية لم تعد تناسب الملابسات التي نعيش فيها .

ولا يمثل الخلاف حول أيهما هو الأصل : (المصدر أم الفعل) مشكلة في الاشتقاق[1] ، ويظهر لنا أن اكتمال الصناعة جاء متأخراً في مرحلة التدوين والتقعيد ، ولا يمكن عكسه على الواقع اللغوي في آماد تكوّن الفصحى وتناميها ، فقد تتعدد منطلقات المجموعات الاشتقاقية بين : الفعل ، أو المصدر أو اسم الفاعل أو الآلة وليس من الإغراب تخيل قياس الأعرابي التلقائي عندما يريد أن يعبّر عن صفة غريبة فهو يطلق مثلاً : نزّاز قياساً على هزّاز التي تعرفها ، ومن ثم تثبت الكلمة الجديدة وتتفرع منها المشتقات .

ومما يساعد على المضي في هذا التفسير أنّ (الاشتقاق) قدرة كامنة في كيان العربية لا يزال جزء كبير من المفردات غير مستعمل في الحالات الاشتقاقية كلها ، وننحي جانباً الفكرة التي تقول بأن ما وصلنا من عربيتنا هو القليل[2] ولذا فقد

---

(١) الإنصاف في مسائل الخلاف لأبي البركات بن الأنباري (١/١٤٤ ـ ١٥٢) ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، القاهرة ١٩٤٥ م .

(٢) في قولة أبي عمرو بن العلاء « ما انتهى إليكم مما قالت العرب إلا أقله ، ولو جاءكم وافراً لجاءكم علم وشعر كثير » ، طبقات فحول الشعراء ، محمد بن سلام الجمحي ، ٢ ، تحقيق محمود شاكر ، دار المعارف بمصر ط ١ ، وينظر الشعر والشعراء لابن قتيبة (١/٦٠ ـ ٦١) .

ضاعت صيغ ومشتقات كثيرة لأن المفردات والصيغ التي وصلتنا يمكن أن تزداد بفعل استكمال الصور الأخرى الممكنة لكل منها ، فقد اتسع الاشتقاق فلم يكتف بالمصادر بل اشتمل على الأخذ من ذوات حسية : أورق ، فلفل ، تأبط ، أذَنه (ورق ، فلفل ، إبط ، أذن) ومن أسماء الأزمنة : شتوت أربعوا (الشتاء ، الربيع) ، ومن أسماء الأصوات : صَهَل ، نعَق (والصهيل ، النعيق - من حكاية صوت الفرس وصوت الغراب) ومن أسماء الأعداد : وحد ، وثنَّى (واحد اثنان ...)[1] .

ومن الأوزان التي لم تسجُلها المعاجم (انفعل) من مادة (ج م ع) انجمع ، فلسان العرب لم يوردها ، ولكن الوزن مستخدم في الأندلس بحسب ماأورده المقري « انجمعت من على النفوس »[2] ، « ومما تسكت المعاجم عن فعله كلمة : الخافل بمعنى الهارب ، فيمكن أن نشتق لها فعلاً هو خفل بفتح العين ، وذلك لأن الفعل اللازم لا يصاغ منه وزن فاعل صياغة قياسية إلا إذا كان مفتوح العين[3] ، ونبحث عن كلمة (الاحترام) فلا نكاد نعثر عليها في معاجمنا إلا في (المصباح المنير) فإذا أردنا أن نشتق منها فعلاً كان مثل (احترم) ، ولقد جاء في كتب الحديث كلمة (محترم) على صورة اسم المفعول مما يرجح أنَّ الفعل متعد فنصوغ : (احترمه يحترمه)[4] .

وهذا يؤكد لنا أن (الاشتقاق) أداة تطورية دائمة للعربية ، وهي تقتضي منا أن نحسن فهم حركتها في العربية الفصحى أولاً ، ومن ثم نتمكن من استعمالها ،

---

(١) في أصول النحو ، سعيد الأفغاني ١٤٣ - ١٤٥ .
(٢) علم اللغة العربية محمود حجازي ص ٣٠٢ - ٣٠٣ .
(٣) من أسرار اللغة ، إبراهيم أنيس ٦٤ - ٦٥ ، وينظر في المصباح المنير للفيومي (١٤٣/١) تحقيق مصطفى السقا ط. مصطفى البابي الحلبي ، القاهرة ١٩٥٠ م .
(٤) من أسرار اللغة ، أنيس ٦٥ .

وإنها تعطينا طبقات متعددة من الدلالات المميزة إلا أنها غير منفصلة ، ولا تحجب الواحدة منها الأخريات عن المنبع الأول .

يتداول اللغويون الأوربيون ـ وأخصّ الفرنسيين ـ مصطلحين للاشتقاق يترادفان أحياناً ولكنهما في مرات وأحوال أخرى يتمايزان وسأقترح لهما في دراستنا تركيبين ليسهل الحديث عنهما ، وسنبحث عن أوجه الاتفاق أو المخالفة بين استعمالنا لمصطلح (الاشتقاق) وما ألف هؤلاء اللغويون من مفهومات تتعلق به .

وأوّل مانطالع هو ذاك الإصطلاح Etymologie الاشتقاق التاريخي ويندرج تحته « البحث في العلاقات التي تبين صلة واحدة من الكلمات بوحدة لغوية أخرى أقدم منها ، وتعدُّ بمثابة الأصل لها ، وبذا يتم إرجاع الوحدات اللغوية الأكثر حداثة إلى الحدود المعروفة موغلين إلى أبعد أمد ممكن في الماضي اللغوي »[1] ، ويوضح هذا المفهوم ضمن الحيّز التقليدي في دراسة الفرنسية ، ونرى أنه يمزج بين تأصيل الكلمة ودلالتها بحسب التدرج التاريخي ، فاللغة الفرنسية ذات أصول متعددة أقدمها البقايا الغالية ـ التي هي عبارة عن تحريفات لألفاظ لاتينية مما حمله الرومان إلى بلاد الغال القديمة ـ ثم الأصول اللاتينية وهي عظم مكونات المفردات وهناك قدر من الكلمات اليونانية ، والعربية والبيزنطية إضافة إلى الاسبانية والبرتغالية وهما لغتان كانتا وسيطين للكلمات العربية والهندية الأمريكية وثمة أصول جرمانية قديمة وأخرى ألمانية حديثة[2] ، فكلمة مثل Linguiste : اللغوي ، ترجع إلى أصلها اللاتيني Lingua : اللغة « وفي أحيان يوضح سبيل التطور والتغير الاشتقاقي وتبرز اللغات التي مرَّ بها اللفظ فكلمة

---

(١) Dictionnaire de linguistique p , p . 197 199 .

(٢) Dic , étymologique p , p . VI , VII , VIII , René Georgin , Guide de langue francaise p . 15 . Paris 1976 Dic de linguistitique 403 .

(abricot : مشمش) في الفرنسية مأخوذة من الإسبانية albaricoque أو البرتغالية albricoque وهما مستمدان من العربية al barqouq البرقوق[1] ، ولكن التنقيب لا يقف عند هذا الحد بل يتابع المعجم الاشتقاقي التاريخي طريقه ليقول إنها في العربية مأخوذة عن اليونانية praecox ، أو اللاتينية praecoquus[2] ، والطريف أن (القاموس المحيط) يؤكد أن اللفظة « برقوق ـ وهو إجّاص صغير ، والمشمش ـ مولدة[3] » .

وفي الإطار ذاته يشير اللغويون إلى نوع من الاشتقاق العامي populaire ويسمونه أيضاً « (الخطأ الاشتقاقي ، أو الاشتقاق الجناسي) وهو شكل من العدوى اللغوية ، إنه غموض يعتري ذهن ذوي الثقافة المحدودة فيجعلهم يربطون الكلمة الغامضة بأخرى ذات أصول وشكول وهمية غير صحيحة ـ أي يشتق لفظ من آخر لا صلة جذرية حقيقية بينهما ـ مما يدفع إلى تغيير المعنى وتحوير الدلالة[4] » ومن أمثلة ذلك أن الفرنسية قد كونت لفظة (choucroute) ، الكرنب المخلل ، والعامة تعتقد أنها مؤلفة من chou الكرنب وcrout الأكل ، بينما هي مأخوذة عن الألمانية (منطقة الألزاس) : sur krut وتعني الكرنب اللاذع ، ويحلل المعجم الاشتقاقي في أصلها : kurt المقابل (crout يعني العشب و (sure) المقابل لـ (chou) يعني الحرّيف اللاذع ، وهكذا ندرك الوهم الكامن وراء استعارة لفظ واستعماله رغم التباين الكبير في معنى أجزائه بين الألمانية والفرنسية[5] .

---

(١) R Georgin , Guide de langue francaise p . 20 .

(٢) Dic . étymologique p , 4 .

(٣) القاموس المحيط (٣ / ٢١٤) ط الحلبي بالقاهرة .

(٤) Pierre Guiraud , La sémantique p , p . 69 p 70 , Dic de linguistique p , 199

(٥) Dic . de , ling , p , 199 Dic . étym , p , 165 .

ويتطلب المنهج العلمي الحديث زيادة وتفصيلاً في جوانب غير التي كانت تكتفي بها المدرسة التقليدية التي عرضنا لها في الأمثلة السالفة ، فبعض اللغويين الأوروبيين ينصُّ على « أن جهد الباحث الاشتقاقي الحديث لم يَعُدْ يقتصر على إيجاد الأصل الذي تقود إليه الكلمة (أو كلمة مركبة) بل إن النظرة الحديثة تقود إلى تتبع الكلمة في كل فترة زمنية كانت فيها جزءاً من اللغة ، وفي كل نسق من العلاقات كانت داخلة فيه دون التوقف عن وضع الأسئلة التي تكشف الاشتقاق (التقليدي) . وأول مجموعة من العلاقات هي التعلق بوحدات الحقل الدلالي الذي تتصل به الكلمة[1] » وتشير العبارة الأخيرة إلى الدراسة البنيوية المجددة .

وإذا ماأردنا مناقشة (الاشتقاق) العربي في ضوء الاتجاه التاريخي ـ كما يراه دارس الفرنسية ـ فإننا لانكاد نجد مواضع الالتقاء إلا إذا أردنا تحليل المادة الفصيحة في أطوارها الأولى ، وفي حياتها الجاهلية القديمة ، ذلك أن الصيغ والقوالب الصرفية والاشتقاقية لاتقبل التصرف بها ، بل إنها تحتفظ بخصائص تشترك في دلالة المادة التي تتشكل ضمنها . وتقليبنا صفحات الدواوين والمعاجم والكتب يثبت أن الصيغة لها شكل لا يتغير ، وأن التطور الطارئ على اختصاص هذه الصيغة ـ أو تلك ـ بوظيفة معينة طفيف وأمثلته قليلة يورد بعضها المستشرق « فليش » من وجهة نظره إذ يقول « إن صيغة فعّال التي لم تكن في لغة الشعر القديمة وفي لغة القرآن سوى اسم فاعل للمبالغة ـ قد تحولت بتأثير الآرامية إلى التعبير عن أسماء الحرف : نجّار ، بنّاء ، فخّار ، وزادها القياس في هذه الوظيفة التعبيرية الجديدة خصوبة وسعة حتى لتستعمل لقباً : كلاّب ، مربي الكلاب ، جمّال : حادي الإبل : كل هذه الأمثلة لأسماء الحرف (فعّال) لاتلحظ فيها أي علاقة بسلسلة الاشتقاق »[2] ولكننا نخالف هذا الرأي لأن الوشائج غير

---

(١) Dic , de , ling , p . 198 ,

(٢) العربية الفصحى ، هنري فليش ٧٩ .

خافية بين المبالغة والكثرة في صيغة فعال ، والاختصاص بحرفة ـ تقوم على دوام العمل في ضرب محدد من الأنشطة مما يبرز صورة التكرار والتكثر خاصة عندما نعلم إن الانتشار المشار إليه لم يتم إلا بعد التطور الذي شهده المجتمع العربي الإسلامي باتصاله بالأمم الأخرى وبنمو مظاهر الحضارة .

وثمة مثل آخر يسعى فيه (فليش) إلى إثبات إمكانية تطور بعض الصيغ فيتبعها ـ من ثم ـ تغير في مجالها فيقول « وليس مما يدعو إلى الدهشة أن نجد كلمة (يبرود) ـ وهي اسم بلدة سورية ـ وهي فعل قديم قد أصبحت اسم ذات بما طرأ عليها من طول في أحد مصوتاتها ، والفعل من هذه الكلمة ذاتها هو يبرُدُ . وكان من الطبيعي وقد دخلت هذه الكلمة في نطاق الأسماء أن يطرأ عليها طول في أحد مصوتاتها (الثاني) ، وربما كان ذلك لغاية بيانية نظراً لبرودة شتائها »[1] وأعتقد أن حديث (فليش) ههنا قد جانبه الصواب إلى حدٍّ كبير ، فانتقال الصيغ الفعلية إلى الأسماء معروف في أمثلة ونماذج قديمة (أحمد ، تغلب ، يزيد) وهي محدودة ، وتحري تعليلات القدماء في كتب الاشتقاق أو الأسماء قد يوضح السبيل في حركة الصيغة تاريخياً ، إضافة إلى أن الاسم المتناول ينتمي في الغالب إلى أصول آرامية / سريانية ، على الرغم من توافق الفعل والتسمية بين العربية وتينك اللغتين الساميتين . في السريانية يُعرف البرد (ܒܪܕܐ ب ر د ا)[1] ، وكذلك اسم البلدة المذكورة (ܝܒܪܘܕ ي ب ر و د)[2] ، وتعرف المنطقة الجغرافية التي تقع فيها البلدة بالبرد الشديد معظم أيام السنة (منطقة القلمون وسط سورية بين مدينتي دمشق وحمص) ، مما جعل البرد والمكان الآهل مقترنين ، ومن الظواهر اللغوية بين أهل المنطقة مَدُّ حركة الضم في الكلمات ، وقد تكون هذه الظاهرة قديمة فتحملنا على

---

(١) قاموس سرياني / عربي ، كوستاز (لويس) ٣٧ ط الكاثوليكية بيروت ١٩٦٣ م .

(٢) قاموس سرياني ، كوستاز ٤٠٩

تصور لتغير في الصيغة ثم تحوّلها من الفعلية إلى الاسمية فيقولون : يَبرد ثم ـ بالمد ـ يَبرود : أي كلّ من يقيم هناك يبرد برداً شديداً ، ومن ثم التصقت اللفظة محرفة بالمواضع (الأكثر شهرة على أنه موضع سكن) ، وتمكنت من مكانتها في الاستعمال .

ونحن نرى أن النشاط الأوربي للبحث عن أصول كلماته وكيفية صياغتها تطورياً وتاريخياً ، يقابله عندنا الجهد الذي يمكن بذله في تفسير العديد من الصور والأوزان والاشتقاقات ، وذلك بالتنقيب في النصوص القديمة والإشارات مع المقارنة (المتأنية) باللغات السامية، وإن غياب بعض الأصول في العربية المدونة (التي وصلت إلينا) ، قد يقابله استعمال في العبرية القديمة مثلاً أو المدونة (التي وصلت إلينا) ، قد يقابله استعمال في السريانية ، وإننا نستعمل : تَلمَذَ صيغة فعلية ولدينا الاسم : تلميذ ، أما الثلاثي فغير معروف إلا أنه موجود في السريانية (ܠܡܕ : ل م ا د) الفعل وإن لم ينص المعجم على تخصيصه بـ (التعلم) ، مع أنه جاء بصيغة الاسم منه (ܬܠܡܝܕܐ : تلميذ)[١] .

وقد يكون للتحكم المعياري ههنا مكانة لا ينال منها كثيراً النقد الموجه إلى الدرس الأوربي ، وذلك لاختلاف في طبائع اللغات ، والنقلة التي تُحوّل أو تحوّر يجب أن توزن بالقيم الصرفية الاشتقاقية العربية .

وأما المصطلح الآخر المتداول في علم اللغة ودراستها فهو dérivation الاشتقاق القياسي ، وهذا الإفراد إنما هو لواحد من استخداميه ، فهو يطلق أحياناً ليرادف الاشتقاق التاريخي « فيعني بهذه الصورة العامة تطور صياغة الوحدات المعجمية[٢] » ، والغالب عليه أن يفيد : طريقة صوغ الكلمات بإضافة اللواحق

---

(١) قاموس سرياني ، كوستاز ١٧٣ .

(٢) Dic . de linguistique p . 141 .

والسوابق على جزء ثابت (radical) وبذا يقابل ضرباً آخر من أبواب الصياغة الفرنسية هو (التركيب composition)[1] وقد تضاف أنماط فرعية تلحق بالاشتقاق القياسي الرئيسي كأخذ الفعل من الاسم border - bord أو العودة إلى الأصل اللاتيني للكلمة فـ (évolution) متطورة عن اللاتينية (evolutis) ، وعند اشتقاق الفعل يؤخذ من المصدر الأول فيقال (evoluer)[2] .

وهذه الصياغة الإلصاقية قد تكون من حيث الشكل أقرب إلى الإطار الاشتقاقي العربي مع فروق جوهرية ، فالإلصاق يحفظ (الثابت) المشترك على حالته ، وقد يضيف تلك السوابق واللواحق على أي جديد يجلبه ، بينما تتميز العربية بحيوية الأبنية وحركتها بإضافة الأحرف الزائدة بين حروف الأصل مما يشعر بابتناء هذه الأشكال وفق خصائص في القالب يتفاعل مع الدلالة التي يحملها ، وكذلك نلاحظ أن ثمة حدوداً لانطلاق الاشتقاقات من المصادر أو الأصول وسبكها على هيئة تتوالى بعدها الصيغ .

ويظهر (فليش) ملامح لهذه المسألة ، فهو يورد أولاً نماذج للإلصاق الفرنسي : (فالثابت Sable) : رمل يؤخذ منه الفعل : (Sabler) ، والأسماء والصفات : (Sableux , Sableur) هذا من إضافة الإلحاق ، وهناك السوابق أيضاً ـ متضافرة مع لواحق أخرى ـ ensablement , ensabler ويقول « هذه المفردات ـ وأخوات لها ـ تكوّن ما نطلق عليه : أسرة الكلمات ، إذ إن لها جميعاً (ثابتاً) مشتركاً ، وهكذا يمكن أن نصادف في الفرنسية عدداً مهماً من الأسرات متفاوتاً في عدد أفراده ولكن يظل الأساس الثابت فيها كما هو ... وهذه المجموعات من أسرات الكلمات إنما تكشف عن ميكانيكية لغوية ، ولكن تبقى بالنسبة إلى الاستعمال العام تدريبات يصفها النحويون أو المدرسون ، لأن الثوابت المستنبطة

---

(١) Dıc , de ling . p , 142 .

(٢) Dıc , étymologique p. IX

ليست سوى وحدات نحوية قلما يكون لها واقع في وعي الفرد المتكلم[1] » .

ويلتفت (فليش) إلى الطريقة العربية الاشتقاقية فيعطيها ميزاتها في الصياغة « فالنظام العربي نقيض ذلك ـ الإلصاق ـ تماماً ، إنه يستخدم أصلاً Racine لا جزءاً ثابتاً Radical والأصل مكون من صوامت (صوامت فحسب) تتصل بمجموعها فكرة عامة أقل أو أكثر تحديداً ، ويتم تحويل هذه الفكرة إلى الواقع في كلمات مستقلة بوساطة المصوتات التي توضع في داخل الأصل : فالمصوتات إذن هي التي يعبّر عنها الأصل »[2] . وإن فليش يضيف في فقرات لاحقة ضروب الزيادات الأخرى من الحروف الصامتة سواء بالتضعيف أو الإدخال[3] .

وإننا في دراستنا للتطور الدلالي ـ وعُظْم مادته قديم : جاهلي أو إسلامي متقدم ـ نفيد من نتائج هذه الآراء النظرية في الاشتقاق وأبعاده في البحث اللغوي العربي كي لا تتداخل المفهومات ـ العلمية بشكل يؤدي إلى الاضطراب ، فالمقارنة تجدي عندما لا تصطدم بالحقائق الأساسية وتعطلها .

٢ / ٣ الدرس التطوري في مناهج علم اللغة الحديث ، ودرس اللحن في العربية

إن درسنا للتطور الدلالي في نقد الشعر يستلزم مناقشة عامة لمفهوم التطور والكتب المدرجة ضمنه ، وذلك في إطار العربية والمدة الزمنية التي يقف عندها أو ما يحيط بها في بعض الأحيان قبلاً وبعداً .

وإن التناول التاريخي للغة من اللغات لمعرفة تاريخ ألفاظها ، وما طرأ

---

(١) العربية الفصحى ، هنري فليش ٥١ ـ ٥٢ .

(٢) العربية الفصحى ، فليش ٥٢ .

(٣) العربية ، فليش ٥٦ .

عليها من تبدلات وتحويرات لا يرجع إلى أغوار بعيدة من عهود البحث ، فقد استغرق الباحثون أزماناً طويلة وهم يحاولون إيجاد اللغة الأم التي تفرعت منها اللغات جميعاً . وخلال ذلك كانوا يقومون بالمقارنات بين اللغات الأوروبية وإنهم قرروا في أمد أن (العبرية) هي ذاك الأصل العتيق ـ مدفوعين بالمؤثرات الدينية ـ وأشهر الكتب ماألفه (بوستيل) في الأصول أو في قدم اللغة العبرية والشعب العبراني وفي تفرُّع سائر اللغات عنها ، في باريس ١٥٣٨ م[١] .

ولكن الآراء تعددت ولقيت هذه الفكرة معارضة علمية أسهم فيها ـ فيمن أسهموا ـ الفيلسوف (ليبنتز) في كتاب « أسماه : الموجز في الوصف الفلسفي لنشأة الجذور الأساسية المقتبسة عن اللغات المعروفة[٢] » .

ولقد كان اكتشاف اللغة السنسكريتية الحدث اللغوي الكبير الذي وجه الدراسات وجهة صحيحة ، وهي الوجهة المقارنة التي تمضي وفق أسس سليمة مستمدة من اللغة الهندية الأوروبية وأصولها القديمة ، وتم الاكتشاف وتكامل مع مطلع القرن التاسع عشر ١٨١٨ م[٣] ، ويطلعنا (مونان) على الملامح الدقيقة لتمايز الدراسات اللغوية « فنحن بوسعنا أن نقول بأن علم اللغة التاريخي قد نشأ عام ١٨٣٠ م بل عام ١٨١٩ م ويكفينا أن نستشهد بآثار غريم « وديز (Dize) ويمكننا من جهة أخرى أن نؤخر نشأة علم اللغة التاريخي حتى مجيء (شلايشر) أي حوالي ١٨٧٠ ، ويكون سندنا ظهور تلك الطرق العلمية التي لم تَعُدْ تستهدف إثبات القرابة بين اللغات ، بل معرفة جميع التطورات اللفظية في لغة ما من خلال مجموع تاريخها[٤] » .

---

(١) تاريخ علم اللغة ، جورج مونان ، ترجمة بدر الدين القاسم ، دمشق ، ورارة التعليم العالي ١٩٧٢ م ١٢٤ .

(٢) تاريخ علم اللغة ، مونان ١٤٩ .

(٣) تاريخ علم اللغة ، مونان ١٦١ ـ ١٦٤

(٤) تاريخ علم اللغة ، مونان ١٨٧ ـ ٢١٥

وظلت هذه النزعة التطورية ـ المقارنة هي السائدة حتى أتى ف. دوسوسير بالاتجاه الذي يشكل معها ثنائياً لدرس اللغة وهو الاتجاه (التزامني)[1] وإن يكن بعضهم يلمح أحياناً إلى أن الريادة يمكن أن تردَّ إلى العالم السويسري (أنطون مارتي) الذي دعا إلى علم لغوي وصفي متزامن (١٨٤٧ ـ ١٩١٤) إذا تأكد أن سوسير قد سمع آراءه في وقت مبكر[2] .

ونلاحظ أن الاهتام بالأصوات كان الغالب على المناهج التطورية ، ومن ثم أخذت النتائج المختلفة عنه ـ ومنها الجوانب الدلالية التي تتبعت المعاني وتغيرها أو تطورها بأشكال عدة ولأسباب متنوعة .

وإننا عندما نحلل مشكلة التطور الدلالي في العربية إنما نتخذ منطلقاً أساسياً هو تمييزنا بين مرحلتين للغة الفصحى هما : المرحلة القديمة والمنتهية بالإسلام ومن ثم تدوين اللغة وتقعيدها ، والمرحلة الأخرى هي ما يلي ذلك (التدوين) ، وقد اكتملت صورة التركيب العربي وصيغه وأوزانه ، والنظام الصوتي (مع اختلاف طفيف في الأداء الفصيح الذي تجعل القراءات القرآنية أعلى درجاته) فلا حديث يجري في التطوير والتغيير (ولا تغنينا هنا فكرة التسهيل والتبسيط فإنها لا تخرج على كل حال عن النظام الأساسي) أما المفردات فهي مجال خصب للتنويع والتكثير وفق القواعد والمناهج الموضوعة بعناية علماء النحو والصرف واللغة عامة ، أي أن الآلات تفيد في تطويع المادة الأصلية لتلائم العصور المتتابعة (وهذا لا يناقض ماقلناه من قبل بصدد المعجمات والهيكل العام للغة ، فالمجموعات المبتكرة تظل في حيز العصر إذ لا يكتب لكثير منها البقاء بزوال الأشياء أو الجزئيات الفكرية وبالتالي تكون المصنفات المعجمية المكملة مستقلة وذلك لاستخدام ضيق يختلف عن الاستخدام العام للمعجم الأساسي) .

---

(١) تاريخ ، مونان ٢١٧

(٢) تاريخ ، مونان ٢١٢

وإن الحاجة إلى استعمال واف للغة تحمل على تلمس السبل الأكثر نفعاً في الاشتقاق أو نقل المعاني أو تطويرها ، ويمثل الاهتداء بنهج القدماء جانباً هاماً في الحقب المتلاحقة بعد عصر التدوين والتقعيد ولقد سعى علماء اللغة والشروح ، وأصحاب المعجمات إلى التنبيه بطرق غير مباشرة على أساليب للعرب في استغلال حيوية العربية ، ونحاول في الفصل التطبيقي أن نكشف عن أمثلة في هذا الباب تضمنتها الشروح الأدبية من كتب النقد .

وشهدت الحياة اللغوية ازدواجاً أخذت الشقة بين طرفيه في الاتساع مع انتشار العربية في الشام وفارس وبلاد ماوراء النهر ومصر وإفريقية والأندلس ، فكانت الفصحى هي اللغة الرسمية في الدولة .

وهي لغة العلم ودرسه بمختلف ضروبه وصنوفه ، وهي لغة الدين الإسلامي الذي ضم أقواماً شتى من أرجاء الأرض التي وصل إليها الفتح ورسله ، وكانت هناك أيضاً الاستعمالات اللغوية غير الفصيحة وهي تتدرج بحسب المستوى الثقافي للجماعات ، وطبيعة تكونها البشري ، إضافة إلى عامل الزمن ذلك أن العصور العباسية أخذت الفصحى تضمحل فيها مع هيمنة الأتراك وجندهم على إدارة الخلافة وشؤونها ، بعد أن مضى عهد عمل فيه العباسيون على المحافظة على الروح العربية بقدر ماأتاحته لهم حياتهم البعيدة عن الصحراء والبداوة[(١)] . وهناك البيئات العلمية التي تظل لغتها أعلى سوية من البيئات الأخرى رغم تخفف بعض العلماء من الاستخدام المعرب أحياناً في الأحاديث العادية خارج التداول العلمي[(٢)] ، وثمة مؤثرات قديمة للغات السابقة على قدوم المسلمين كالآرامية والسريانية ، والفارسية ، واللاتينية الشعبية في إسبانيا القديمة ، والهندية (أو ضروب من فروع الأصل القديم الهندي السنسكريتي) .

---

(١) العربية ، فك ٥٤ ، ٩٤ ، ١٢٨ ـ ١٢٩

(٢) العربية ، فك ٤٠ ، ٧٥

ويبين لنا الجاحظ آثاراً فارسية في لهجة الكوفة ـ فكما حصل بالبصرة كان يرد على الكوفة سيل من التجار والصناع وغيرهم سرعان ما كانوا مع أسارى الحرب ذوي الأصل الفارسي جزءاً كبيراً من السكان ـ فقد أورد بعض الألفاظ المستعملة معربة : فالكوفيون يقولون : خيار بدلاً من قثاء ، وباذروج بدلاً من الحوك (البقلة الهوجاء ، الرجلة) وكل سوق بالكوفة تسمى (وازار) وهذا النطق مطابق للفارسية القديمة[1] . وذكر الجاحظ ـ بعض التأثيرات القديمة للجالية الفارسية في المدينة (يثرب) وما حولها من القرى ـ وهذا مما جعل اللغويين والرواة يشترطون في صحة المنقول أن يكون بعيداً عن الحواضر خاصة ما اتصل أهله بالأعاجم ـ وطبقاً لما ذكره كان أهل المدينة يستعملون كلمة خربوز الفارسية (المعربة إلى خربز) بدلاً من بطيخ ، وروذق بمعنى سميط واشترنج بدلاً من شطرنج ، وممزوز بدلاً من ممصوص أي هزيل[2] .

« وعندما نتحدث في تاريخ الأدب عن تغيُّر في اللغة والأساليب اللغوية إنما نشير إلى تنويع محدث متلون بالروح العامة للعصر ، كما يبدو في اختلاف لغة الأدب في شعر المحدثين في أوائل العصر العباسي كشعر بشار وأبي العتاهية وابن الأحنف اختلافاً كبيراً من حيث صوغ القوالب وتركيب الجمل وطرق التعبير عن لغة شعراء البادية ولكن عربية ـ هذه الحقبة ـ احتفظت بالتصرف الإعرابي وبقواعد الإعراب والتصريف احتفاظاً تاماً »[3] على النقيض مما آلت إليه اللهجات أو الاستعمالات العادية فقد تخلّت عن الإعراب بالتدريج . وحرّفت فيها الكلمات وتداخلت مع ألفاظ غريبة ، ونطالع في هذا المجال مصطلحات : المولّد ، والمعرب . وما شابهها . ولا نبتغي في بحثنا الخوض في تفصيلاتها بل إننا

---

(١) البيان والتبيين للجاحظ (١٩/١ ـ ٢٠) ، وينظر العربية لفك ١٧

(٢) العربية ، يوهان فك ١٩ ، والبيان والتبيين ٣٠١

(٣) العربية ، فك ١٠٠

نحدد مفهوماً يتفق ومنهجنا في (تعريف الفصحى ودرسها) فـالمولـد ينصرف إلى وجهتين : الأولى هي العامة إذ إنها تعني اللغة المتأثرة بالعناصر الأجنبية عموماً منذ القرن الأول الهجري في مجتمعات المدن والحواضر ، وأخذ هـذا المولـد في التوسع مع التزاوج وإنجاب جيل موزع بين عربية وعجمة[1] ، حتى طغى على عظم المساحـة اللغويـة الـدارجـة وإليـه يقصـد السيوطي في تعريفـه إذ يقول « هو مـاأحـدثـه المولـدون الـذين لا يحتج بكلامهم، والفرق بينـه وبين المصنوع أن المصنوع يـورده صاحبه على أنه عربي فصيح ، وهذا ـ المولد ـ بخلافه . وفي مختصر العين للزبيـدي (المولد) : من الكلام المحدث ـ وفي ديوان الأدب للفارابي ، يقال هـذه عربيـة ، وهـذه مولـدة ، وقـال : وكان الأصمعي يقـول : النحرير ليس في كـلام العرب ، وهي كلمة مولـدة . وقـال الخم : القوصرة يجعل فيهـا التبن لتبيض الـدجـاجـة ، وهي مولـدة »[2] ويتضمن كلام السيـوطي إشـارة إلى المرتبـة الفصحى والاشتقـاق فيها على الأوزان المعتمدة فهو : المصنوع ؛ وقد يكون من أصل قديم أو على قياسـه وزنـاً ، وكل مـاخرج على الصيغ والأقيسـة العربيـة فهو موضـوع في مستـوى غير فصيح (مولَّد) .

وأمـا مصطلح (المعرَّب) فـإنـه متـأخر ظهر في القرن السـادس مـع كتـاب الجـواليقي (المعرب من الكـلام الأعجمي) وتـوالت بعـده المصنفـات التي تبحث فيه ، ونجد تفصيلاً لمعنى الكلمة المعربة عنـد مؤلف متـأخر ونورده تقريراً لزاويـة تنـاقش في نتـاج المـدة القـديـة « فـالمعرب هو مـااستعملتـه العرب من الألفـاظ الموضوعة لمعان في غير لغتها »[3] أي لم يحدث عند استعمالـه أي تبـديل لمعنـاه وإن يكن التغيير ـ ممكناً ـ في شكله وصيغته .

---

(١) فك ٢٦

(٢) المزهر ، (٣٠٤/١)

(٣) المزهر (٢٦٨/١) .

وإننا نتفق مع يوهان فكْ في تحليله الجمل للعربية المولدة فهو يميزها من الفصحى بالتغير الذي طرأ على تكوينها وأبرز مظاهره ترك الإعراب[1] ، ولكننا نبني على هذه النتيجة فكرة مؤداها أن كل نظر تطوري في العربية لا بد له من أن يتأطر بإطار القوانين والأحكام الفصحى سواء في ذلك الجانب الصرفي والنحوي والدلالي ، أي أن (المعيارية) أساس العمل مع اعترافنا بضرورة التطور وتقبل العربية له ، ذلك أنه لو استمدت القواعد من الاستعمالات الدارجة غير المقيدة لأصابت اللغة انحرافات في المستويات الصوتية والصرفية : الصيغ والأوزان ، والتركيبة النحوية ، ومن ثم الدلالية.

وإن الحالة الخاصة للفصحى تنجلي إذا ماقارنا استمرارها واحتفاظها بكيانها الأصلي ـ رغم التلوين والتطوير الجزئي ـ بالصور التي وصلت إليها اللغات السامية الأخرى من جهة ، وتقارب هذا الوضع المتحول في الساميات مع صور للعاميات واللهجات العربية المتأخرة ، وأقصد أن الفروع السامية شهدت عدداً من التطورات بعد بلوغ درجة النمو المتكامل ، وأنها انحدرت وتخففت ـ افتراضاً مني ـ من الأنظمة المركبة إلى البسيطة السهلة بسبب عدم المحافظة على السويّة العالية استجابة لمتطلبات العامة الذين يبتعدون في الأعم الأغلب عن الثقافة اللغوية خاصة في الحقب التي يضعف كيان مجتمعهم السياسي ويخضع لحكم ضعيف أو أجنبي ، وسنقارن بين بعض الحالات القليلة ـ شواهد لا على أنها دراسة تفصيلية في هذا الباب :

والحالة العامة هي ترك الإعراب الذي تتميز به العربية الفصحى ؛ وقد بقيت اللهجات البدوية تحتفظ ببقايا إعرابية حتى الوقت الحاضر سواءٌ في ذلك بادية الشام وأطرافها المتاخمة للحواضر السورية والعراقية ، أو البوادي الحجازية النجدية

---

(١) العربية ، يوهان فك ١٠٥

ـ بحسب ما أعرف وألاحظ ـ ومثال ذلك ما يعرف في النحو بالأمثلة الخمسة[1] (المضارع المتصل به ضمير التثنية أو الجماعة ، أو المخاطبة المؤنثة) فالبدو أبقوا على النون في حالة الرفع مع ياء المخاطبة . وواو الجماعة : ترجعين ترجعون) .

والحالة الثانية هي التخفف من الأسماء الموصولة واختصارها إلى واحد يؤدي مهمتها في المواضع المتطلبة موصولاً : (الجمع ، والإفراد ، والتثنية ، والتذكير ، والتأنيث) والاسم المختزل « اللي » لا نستطيع الحكم على أصله وترجيحه ذلك أن حرف اللام مشترك وبارز بين الموصولات ـ عدا العامة من ، ما ، أي ـ : الذي ، اللذان ، التي ، اللتان ، الذين ، اللائي ، اللاتي)[2] وعندما تضاف همزة الوصل إليه (أل) ويتقدمان أسماء الفاعلين والمفعولين تعد اللام موصولة[3] .

والحالة الثالثة هي الاقتصار على استعمالات محدودة لصيغة التثنية وهي مخصوصة بحالتي النصب والجر إعرابياً : (الدارين ، الولدين ، العينين ، الرجلين) ، وأحياناً يعبر عن هذه التثنية لدى الرجل أو المرأة بصيغة الجمع : (الأكتاف ، العيون : بدلاً من الكتفين) ، ومما يتصل بهذا الجانب أننا نلاحظ الاكتفاء بصيغة واحدة للفعل المسبوق بمبتدأ مثنى أو في حالة الجمع : (الشجرتين حملوا .. ، الأولاد عملوا) وكل الأمثلة التي سقناها هنا تعد حالات مجتزأة من الهيكل اللغوي الصحيح الذي يوضّح ويفصّل بشكل يبعد أي لبس ، وإن سمة التركيب والتفصيل متصلة بالنضج والارتقاء الحضاري في الأداء اللغوي . وبمتابعتنا لعدد من اللغات السامية نجد ظواهر مشابهة أو قريبة مما ذكرنا (التثنية والموصول في العبرية والسريانية)[4] .

---

(١) شرح شذور الذهب ، ابن هشام الأنصاري ، التجارية ٦١ ، تحقيق محي الدين عبد الحميد .

(٢) شرح شذور الذهب ، لابن هشام ١٤١ ـ ١٤٢

(٣) مغني اللبيب لابن هشام الأنصاري (٤٩/١) ط محي الدين عبد الحميد .

(٤) الكنز ، بدر ، ٧٦ ، ٩٤ ، السريانية ، زاكية رشدي ٥٥ ، ٥٩ دار الثقافة القاهرة ١٩٧٨ م .

ولا يدرك بعض المستشرقين هذا التمايز بين الفصحى والاستخدام الدارج أو العامي ، وهم بذلك يخلطون بين واقع الدراسات الأوربية التي ترى أمثل طريقة في الانطلاق مما هو موجود لا مما يجب أن يكون ، أي بنبذ (المعيارية) والأخذ بمنهج (وصفي) ، وبين درس العربية . لذا فنحن لا نقبل قولة برجستراسر : إن الذي منع علماء الشرق من الاعتناء الكافي بالكشف عن تطور اللغة بعد الإسلام ... مداومتهم على السؤال عن الجائز في اللغة وضده ، وعلى المنع من كثير من العبارات ، وهذا وإن كان واجباً نافعاً فهو عمل المعلم لا العالم ، فالعالم يفحص عما يكون في الحقيقة لا عما كان ينبغي »[1] فإن نهجاً كهذا مبني على مغالطة في المقايسة بين اللغات .

وقد حملت لنا بعض المصنفات أشياء من التطور اللغوي عامة - والدلالي من خلاله - ، ولكن دارسين محدثين يرون في سياق تلك الكتب أمراً غير سوي إذ تتحدث عن (اللحن) والخطأ . وهي تسعى لإعادة المتجاوزين إلى جادة الصواب في الفصحى ، وإننا نفيد علماً بالتطور عن طريق غير مباشر فهم لم يقصدوا إلى إخبارنا به « ونستطيع من خلال تلك الكلمات التي جمعوها في كتبهم أن نلحظ بعض ملامح ذلك التطور ولا سيا في نواحي الأصوات والصيغ والدلالة . أما الجملة العربية ونظام الكلمات في بنائها . فإننا لا نستطيع معرفة نوع التطور الذي أصابها ، لأن المادة التي بين أيدينا لا يدخل في حسابها : الجمل والتراكيب ، ولا تمدنا إلا بالمفردات المجردة »[2] .

ونحن لا نرى في عمل المصنفين لكتب « اللحن » مفارقة بل إنهم يتوافقون مع

---

(١) برجستراسر في كتابه . التطور النحوي ، كما أورده رمضان عبد التواب في (لحن العامة) ٣١ ، ويقابل هذا الفهم المنحرف للعربية نظرة أقرب ماتكون إلى الصورة الصحيحة ، جاءت عند (يوهان فك) في مطلع مصنفه : العربية ٢

(٢) لحن العامة ، رمضان عبد التواب ٦٥

قوانين الحفاظ على العربية من الاندثار والامحاء ، ونستطيع معالجة القضايا الدلالية مما أوردوه على أسس من الصلة بين الأصل المنقول عنه المعنى ، والفرع الجديد في الأشياء والمسميات ، ومن اختبار القواعد الاشتقاقية والقياسية إضافة إلى المفهومات البيانية وخاصة المجاز المرسل بين خاص وعام ، وجزئي وكلي ، والحال والمحل .. فعلى هذا النحو من التناول لاترتفع الفواصل بين الدلالات القديمة والحديثة ، ولا نثبت كل مجاز آني ليحول معنى ثابتاً ، فقد يكون ثمرة سياق شعري أو تعبيري خاص يعطيه سياقه إشعاعاً ويمكن أن يعود إلى حيزه الأول ليغنى بألوان وإشعاعات أخرى ، فلا نميت ـ إذن ـ أصلاً لاستخدامه في حالات وسياقات خاصة ، وهذه الميزة الحيوية للعربية كفيلة بدفع أحاديث التطور ورفضها على أنها حلقات منفصلة .

ومن المصنفات التي تسلك في كتب (اللحن) حتى القرن الخامس أبواب وفصول في (إصلاح المنطق) لابن السكيت (ت ٢٤٤) و (أدب الكاتب) لابن قتيبة الدينوري (ت ٢٧٦ هـ) و (لحن العامة) لأبي بكر محمد بن الحسن الزبيدي (ت ٣٧٩ هـ) ، وثمة مؤلفات تضيء هذا الجانب الدلالي :

(١) إما بالتنبيه إلى ظواهر لغوية من ضمنها تخصص أصحاب الصناعات والفئات الأخرى بمجموعات لغوية دلالية كما صنع الجاحظ « فمن النفاسة ماذكره عن اللهجات واللغات الخاصة وألسنة الحرف والمهن فهو يبين أن كل مصر يتكلم على لغة من نزل به من العرب ، ويذكر أمثلة لفرق مابين مكة والبصرة في الاستعمال اللغوي ، وفي موضع من « البخلاء » يسوق الجاحظ خطبة في آداب المائدة ويعلق عليها بشرح عدد من الاصطلاحات التي يعبر بها عن مختلف العادات السيئة عند الأكل . وقد يستطرد أيضاً بذكر بعض القصص عن الملاحين مع ذكر اصطلاحات من لغة مهنتهم »[١] ، ويبرز الموازاة بين الكلمات العادية في

(١) العربية ، يوهان فك ١١٦ ـ ١١٨

التعبير اليومي أو غير المختص بفن من الفنون أو صناعة أو نشاط خاص ، وتلك المصطلحات التي تعد (لغة مجازية) قد تعبر عنها في العصر الحديث بـ (اللغة الفنية) أي الاصطلاحية « فهو ـ الجاحظ ـ يتفكه بالطبيب الذي يعبر عن الأمور المعتادة بالألفاظ الفنية ، ويسمى البحح المصحوب بالخاط باللفظ اليوناني الدخيل : بلغم »[1] .

(٢) وإما باستخدامها ـ أي تدوينها ـ الألفاظ المتأثرة باللغات الأجنبية كالفارسية وسواها ، وهذا ما نجده في كتاب المقدسي الجغرافي فالمجال العلمي الذي يخوض فيه تتنوع جوانبه ، لذا فإن (يوهان فك) يحلل صنيعه ويقول : إن المد اللغوي للعربية الفصحى لم يكن تسارعه بالقدر الكافي في « نتائج الصناعة ومحاصيل الزراعة والمهن والحرف ، والظواهر المختلفة للحياة اليومية »[2] ، فكان المقدسي يستعين « بالعربية المولدة ليسد الفجوة إلا أنه أحياناً كان يجنح إلى الفارسية في مصنفه حيث لا توجد أسباب واقعية لهذا »[3] .

ويُسلَك ابن النديم في هذا النوع من التأثر باللغات الأجنبية والمشاركة ـ التلقائية ـ في ظاهرة دلالية وهي اتساع مفردات العربية مما يتطلب تقصّي الجديد في (المعاني) وإمكانية الأصول الفصيحة ـ لفظاً ومعنى ـ في أداء هذا الجديد بالتطور الاشتقاقي ، أو بالمقايسة الشكلية الوزنية ، ويقصد هنا (الفهرست) المصنف الذي تركه ابن النديم سنة (٣٧٧ هـ)[4] .

ونورد بعضاً من الأمثلة التي جاءت في كتب (اللحن) حتى القرن الخامس لتكون مادة للمقارنة بين هذا الصنيع اللغوي في مجال الدلالة ، وما نحن مقبلون

---

(١) العربية ، فك ١١٨

(٢) العربية ، يوهان فك ٢٠٣ ـ ٢٠٤

(٣) العربية ، فك ٢٠٥ ـ ٢٠٦

(٤) العربية ، فك ٢٠٥ ـ ٢٠٦

عليه من تحليل المادة التطورية في نقد القرن الرابع ذاته ، ولا نغفل الفارق الأساسي الذي يفصل بين العمل التصحيحي في مصنفات اللحن وذاك النمط التحليلي في ثنايا الشرح الأدبي والعملية النقدية بعامة .

والنماذج الأولى نستقيها من (إصلاح المنطق) لابن السكيت ففيه بابان بعنوان « ومما تضعه العامة في غير موضعه »[1] وباب ثالث بـ « مما يضعه الناس في غير موضعه »[2] ، وأوضح ماجاء لديه : مما تضعه العامة في غير موضعه قولهم : أكلنا ملّة وإنما الملة الرماد الحار ، ومنه قول الشاعر (الراعي) .

جَلْد الندى زاهدٌ في كلِّ مكرمة كأنّما ضيفه في ملّة النار[3]

وقولهم : « خرجنا نتنزه إذا خرجوا إلى البساتين ، وإنما التنزه التباعد عن المياه والأرياف ، ومنه قيل فلا يتنزه عن الأقذار أي يتباعد منها .. وإنَّ فلاناً لنزيه كريم إذا كان بعيداً عن اللوم قال الشاعر :

أقبٌ طريدٌ بنزه الفلا ةِ لا يردُ الماءَ إلا ائتيابا

بنزه الفلاة يعني ماتباعد من الفلاة عن المياه والأرياف »[4] . ومما يضعه الناس في غير موضعه قولهم للمعلف ؛ آري وإنما الآري محبس الدابة ، وهي الأواري والآواخي ويقال قد تأرّى بالمكان إذا تحبس به قال الشاعر :

لا يتأرّون في المضيق وإن نا دى منادٍ كي ينزلوا نزلوا[5]

---

(١) إصلاح المنطق لابن السكيت ، تحقيق أحمد محمود شاكر ، وعبد السلام هارون . دار المعارف بمصر ط ٣ ، ١٩٧٠ ، ٢٧٤ ـ ٢٧٨

(٢) إصلاح المنطق ٣١٣

(٣) إصلاح المنطق ٢٨٤

(٤) إصلاح المنطق ٢٧٨

(٥) إصلاح المنطق ٣١٣ ـ ٣١٤ ، لرمضان عبد التواب فضل الإشارة العامة إلى هذه المواضع في (لحن العامة) ، وبذا فتح الباب لتحليلنا الدلالي .

وقد ينفع في هذا المقام التحليل المجازي الذي يعتمد على : المرسل منه ، والتشبيهي أو الكنائي ، فالعلاقة بين (الملة) : الرماد الحار أو النار عموماً وما يشوى عليها أو ينضج بينة وهي المسماة عند البلاغيين الحالية والمحلية ، وقريب منها المثال الثالث : الآري والمعلف إذ يتجاوران في الأعم الأغلب وقد يربط بينهما بالعلاقة المجاورة ، و (التنزه) أقرب إلى الكناية في قوله من الأصل ، وإن الاستعمال الذي يشير إليه ابن السكيت هو واحد من التطبيقات والتشقيقات المحتملة في أصل الفعل (تنزه) في شقه المادي : التباعد عن أماكن إلخ ... ، وقد يؤكد المنحى الجديد اقتران وزن (تنزه) بوزن آخر ملائم في إطاره وهو (تنسم : التمس النسائم وعبق الأزاهير) .

والمصنف الثاني هو (أدب الكاتب) لابن قتيبة ، وسنورد أمثلة منه بحسب الترتيب المنطقي الذي يقتفي أثر التقسيم العام لدى دارسي الدلالة الأوربيين منذ دار مستيتر وبريال ، وبول[١] : (التخصيص ، التعميم ، انتقال الدلالة) .

ففي باب (معرفة ما يضعه الناس في غير موضعه) يعرض ابن قتيبة للتخصيص فمن ذلك : الطرب يذهب الناس إلى أنه في الفرح دون الجزع ، وليس كذلك ، إنما الطرب خفّة تصيب الرجل لشدة السرور أو لشدة الجزع ، و « المأتم يذهبون إلى أنه : المصيبة : كنا في مأتم فلان وليس كذلك إنما المأتم النساء يجتمعن في الخير والشر ، وأيضاً : الدلج يذهب الناس إلى أنه الخروج من المنزل في آخر الليل وليس كذلك إنما الدلج سير الليل »[٢] .

ومن أمثلة التعميم في الدلالة والخروج بها عن نطاقها المحدود الأول : (يتصدق) فالناس يقولون بمعنى أعطى فلان : يتصدق ، وبمعنى سأل وهذا غلط ، والصواب : فلان يسأل ، وإنما المتصدق : المعطي ونلاحظ هنا أن مبعث

---

(١) Pierre Guiraud, La Sémantique p. 43.

(٢) رمضان عبد التواب ، ١٥٨ من (لحن العامة) .

الخطأ أو التجانف هو اختلاط في استعمال الوزن (تفعل) فمنه : تسور ، وتزين اللذين يقربان من معنى (استفعل) بعض الشيء مما دعا إلى ازدواج في دلالة يتصدق ، وحتى العصر الحديث يجنح العامة إلى مثل هذا عندما يقولون (فلان يتأمل من الله أن يرزقه ثروة) بمعنى يطلب ، أو يطلب الأمل رغم أن الفعل (يأمل) يفي بالغرض .

ومن أمثلة التعميم لدى ابن قتيبة : العبير إذ يقصد الناس به إلى أخلاط من الطيب ، وقد قال أبو عبيدة : العبير عند العرب : الزعفران وحده » .

ومن أمثلة انتقال الدلالة : أشفار العين إذ يذهب الناس إلى أنها : الشعر النابت على حروف العين وذلك غلط إنما الأشفار ، حروف العين التي ينبت عليها الشعر ، والشعر هو : الهدب » . وهذا المثال الأخير يشبه ماوقفنا عنده من كلمات لدى ابن السكيت وعلاقتها المجازية المرسلة ، ويؤلف أبو بكر الزبيدي الإشبيلي مصنفه (لحن العامة) متحدثاً عن عربية الأندلس متتبعاً ماانحرف فيه مدلول الكلام ومعناه في المفردات ، وههنا نتبع أيضاً في مطالعتنا لبعض الأمثلة الترتيب المنطقي[1] ، فمن تخصيص الدلالة أن عرب الأندلس يقولون : الوادي للنهر خاصة ، والوادي كل بطن مطمئن من الأرض ، وربما استقر فيه الماء ، ويطلقون اسم الريحان على الآس خاصة والريحان أعم إذ يشمل كل نبت طيب الريح كالورد والنعنع والنمام . ويطلقون لفظ الخمار على ماتغطي به المرأة رأسها من شفاف الحرير خاصة ، والخمار يشمل كل ماغطت به المرأة رأسها من ثوب أو غيره . وهذه الأمثلة التي اخترتها تدل على تخصيص متأثر بالبيئة الأندلسية ، وما اشتهرت به من ولع بالطبيعة وانتشار الرفاه وتلمس مظاهر الترف (الوادي ، الآس ، الخمار الحريري) . وبذا يمكن موافقة الزبيدي على عدها انحرافاً فيما لو

(١) الأمثلة مستمدة من بحث عبد العزيز مطر : لحن العامة ١١٠ ، ١١١ ، ١١٢

استحالت إلى حالة ثابتة هي البديل للأصل اللغوي أو غير مميزة منه لغوياً ذلك أننا عندما نفسرها بحدود بيئة معينة ، واستعمال عادي عامي فلا خطر من ورائها إلا أنها عندما تختلط في التعبير الأدبي والفصيح عامة فههنا مبعث الاضطراب ، فلا بد من النص على : وادي النهر ، خمار الحرير ، الآس من الرياحين .

ومن أمثلة الزبيدي على التعميم الدلالي « إطلاقهم : الاستحمام على ما كان بالماء الحار أو البارد ، والاستحمام خاص بالماء الحار . وفي هذا المثال تشدد واضح في التفسير ذلك أن قاعدة التغليب ممكنة التطبيق لأن الأعم هو الاغتسال بماء حار أو دافئ حتى إننا نطلق لفظ (الحمى) على الحالة المرضية التي يعاني فيها المرء من ارتفاع درجة حرارة جسمه وسخونته طوراً ؛ وفي طور آخر تصيبه قشعريرة من إحساس بالبرد شديد . وفي القاموس المحيط العديد من المعاني الفرعية (حمم) إلا أن المعنى المركزي المتردد هو أن مادة حم متصلة بالحرارة والنار (حَمَّ التنور سخن الماء وحَر الظهيرة ، والعين الساخنة من الماء)[1] ، وهي كذلك في السريانية حيث تدل كلمة ([illegible])[2] على : حار ، ينبوع حار ، وكذا على استحمام ، أي أن التفريع على مادة حمم بالاشتقاق يؤدي إلى الاستحمام ، وأما التخصيص بالابتراد وإفراده عن الحالة الأولى فهذا قليل يدرج أحياناً ضمن التسمية الأعم .

ومن الألفاظ التي غيّر مجال استعمالها في عربية الأندلس كما يراها الزبيدي (بلاط) فتطلق على البيت المحسن ، وهي الحجارة المفروشة (المنقوشة) و (صار) لعود الشراع في المركب ، والصاري هو الملاح ، ويقولون أيضاً (قلادة) للحزام ، والقلادة هي العقد الذي يوضع في العنق . ولقد تتالت مؤلفات في (اللحن) كانت نتاجاً للقرون التالية ، وإنْ رجعت مادتها في معظمها إلى القرن

---

(١) القاموس المحيط للفيروز آبادي (٤/١٠٠ ـ ١٠١) ، ط الحلبي القاهرة .

(٢) قاموس سرياني عربي كوستاز ١٠٧

الرابع ثم زيد عليها كما نجد ذلك في (تثقيف اللسان وتلقيح الجنان)[1] لأبي حفص عمر بن خلف بن مكي الصقلي (ت ٥١٥ هـ) ، الذي ذكر أخطاء العامة في جزيرة صقلية ، و (درة الغواص في أوهام الخواص) سنة ٥١٦ للحريري[2] ، وفي (تقويم اللسان) لأبي الفرج عبد الرحمن بن علي بن الجوزي[3] (ت ٥٩٧) ، الذي درس أخطاء عامة بغداد ، وفي (المدخل إلى تقويم اللسان) لابن هشام اللخمي الأندلسي الإشبيلي (ت ٥٧٧)[4] .

أمّا الحريري في درّة الغواص فنجد لديه تناولاً دلالياً من خلال تتبعه الأخطاء التي اتخذت سبيلها إلى أقلام الكتاب ممن « قد ضاهوا العامة في بعض ما يفرط من كلامهم »[5] . ويتجه جهد الحريري هنا إلى شطرين ؛ واحد منهما يدرج في مباحث الألفاظ الدالة ومساحاتها الدلالية ويبيّن فيه ما يغطي الدال كيلا يحدث التداخل والاشتجار بين الدالات ، ومن ثمّ يتجوّز في التعبير دون مسوّغ من حاجة إلى الجديد والمبتكر من الرموز اللغوية ؛ وهذا ما نفرد له حيّزاً في فصل الدال والمدلول .

والشطر الآخر نفيد منه حركة التطور الدلالية ، وإن لم يسمّها في كل حالة مؤلف درّة الغواص » ذلك أنها تعدّ من الأخطاء لديه .

فمن شواهد التطور من المحسوس إلى المجرّد ماأورده في (البشارة) التي تؤخذ من البشرة وما يظهر عليها من الانفعالات « فالعلّة أن البشارة إنما سمّيت بذلك

---

(١) لحن العامة ، عبد العزيز مطر ١٦٠ ـ ١٦١

(٢) لحن العامة رمضان عبد التواب ٢١٧

(٣) لحن العامة ، عبد العزيز مطر ١٩٦ ـ ١٩٨

(٤) لحن العامة ، رمضان عبد التواب ٢٣٥ ـ ٢٣٦

(٥) (درّة الغواص) ، الحريري ٣ .

لاستبانة تأثير خبرها في بَشَرة المبشَّر بها وقد تتغير البَشَرة للمساءة بالمكروه ، كما تتغير عند المسرّة »[1] .

ونعرض لعدد من حالات التطور الدلالي بالاتساع ، فنبدأ بقولهم « يستأهل » فقد اتسع ليعبر الجدارة والاستحقاق ، ونحن لانرى تجاوزاً للاستعمال الصحيح مادام التأويل المجازي قائماً ، فكل من غدا بعضاً من الأهل ينال ما ينالون ويصيب مما يصيبون ، وقد يكون الخلاف ههنا بيننا وبين الحريري في اكتساب الصيغة الاشتقاقية (استأهل) التطور والقيمة المجازية التي تؤديها الجملة والعبارة (هو أهل للمكرمة) ، ولا شك أن الأثر في غنى الرصيد اللغوي يظهر في البنية الصرفية الواحدة ، أو الإضافية بأكثر مما يكون في الجملة التي لا يتيسر دائماً تكرارها بتمامها ، بل يعمد الكتاب مرّة بعد مرّة إلى تغييرها وتحويرها بحسب إيقاع السياق[2] .

وكذلك تتسع دلالة (الفيء) لتدل على ما يكون في استتار بأردية الليل وظلامه وما يستظل به في النهار من الشمس ، فالكلمة كانت تخصّص للضرب الأول (في الليل) ثم انداحت متسعة ، وهذا ما يعدّه الحريري منافياً للاستعمال القويم لكننا نقرّ هذا التطور كما ثبّته صاحب (لسان العرب) في مادة (فيأ)[3] .

ويمكننا أن ندرج ضمن التطور بالاتساع ماطرأ على لفظ (أخطأ) بالصيغة الفعلية ؛ فالحريري يقول : « يقولون لمن يأتي الذنب متعمداً : قد أخطأ فيحرّفون اللفظ والمعنى لأنه لا يقال أخطأ إلا لمن لم يتعمّد الفعل أو لمن اجتهد فلم يوافق الصواب » .

---

(١) (درّة الغواص) ، ١٩٠ .

(٢) درّة الغواص ١٣ .

(٣) درّة الغواص ١٢٤ ـ ١٢٥ .

إن التقارب في الاشتقاق رجّح استعمالاً دون آخر « ما يدل على إتيان الذنب عمداً »[1] .

ومن الاتساع تحوّل دلالة (القافلة) من الركب العائدين إلى مطلق السفر سواء في الذهاب أم الإياب ، وفي مختلف أحوال هؤلاء المسافرين[2] ، ودلالة « لدغ » على ما يكون من الإيذاء المسبب عن الضرب بالمؤخرة كالعقرب ، وهو مخصوص لما يضرب بالفم (كالحيّة)[3] .

وثمّة لفظ تطور ليدل على ما هو أوسع من دلالته المخصوصة قَبْلُ : شفع الذي يدل على التثنية اسماً وفعلاً ، ثم كثر استعماله لمعنى الإضافة المطلقة لا ثانية . يقول الحريري : « يقولون شفعت الرسولين بثالث فيوهمون فيه ، لأن العرب تقول شفعت الرسول بآخر ، أي جعلتهما اثنين ، فأمّا إذا بعثت ثالثاً فوجه الكلام أن يقال : عزّزت الرسولين بثالث »[4] ، وأما الرأي ههنا فهو أن كثرة الاستخدام مع الدلالة المجازية للشفاعة وهي المؤدية دلالة : العزّة جعل شَفَع يؤدي ما نراه وهو تطور دلالي .

ومن أمثلة التخصيص التي يمكن تحليلها في عمل صاحب درّة الغواص : التطور الدلالي المصاحب للاشتقاق في (المائدة) ، فبعد دلالة الأصل على الحركة في تأويل أو العطاء المطلق في تأويل آخر تقلّص صيغة (مائدة) لترتبط بالخوان يوضع عليه الطعام . يقول الحريري : « وقد اختلف في تسمية المائدة فقيل لأنها تميد بما عليها ، أي تتحرك ، مأخوذ من قوله تعالى : ﴿ وألقى في الأَرْضِ رَوَاسِيَ

---

(١) درّة الغواص ١٥٢ ـ ١٥٣ .

(٢) درّة الغواص ١٥٩ .

(٣) درّة الغواص ٢١٩ .

(٤) درّة الغواص ٢٤٣ .

أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ ﴾ [النحل ١٦ / ١٥] ، وقيل : بل هو من ماد أي أعطى ، ومنه قول رؤبة بن العجاج :

إلى أمير المؤمنين الممتادْ

أي المستعطَى ، فكأنها تميد من حواليها مما أحضر عليها »[١] .

ومن ذلك تخصيص بعضهم (الراحلة) بالناقة النجيبة ، وكان اللفظ يدل على الجمل والناقة[٢] .

ومن أمثلة الانتقال الدلالي مما يلحظ فيه الأثر المجازي التطور الذي عاشته كلمة (شَحّاذ) ؛ فقد « اشتق هذا الاسم من قولك : شحذت السيف إذا بالغتَ في إحداده ، فكأن الشحاذ هو الملح في المسألة والمبالغ في طلب الصدقة »[٣] .

وكذلك تمثل دلالة (مَشُورة) انتقالاً من مجال إلى آخر « فقد اختلف في اشتقاق اسمها ، فقيل إنه من قولك : شرت العسل أشوره ، إذا جنيته فكأن المستشير يجتني الرأي من المشير ... »[٤] .

ونصل إلى الجزء الأخير في هذا الفصل لنقف فنبين الخطوط العامة للتطور الدلالي في بعض الدراسات الأوروبية الهامة ، وذلك ليستقيم ـ قدر الإمكان ـ الأخذ عنهم إن أخذنا ، والتعديل إذا ما رغبنا عن أشياء لا تتلاءم وخصائص العربية[٥] .

---

(١) درة العواص ٢٣

(٢) درّة الغواص ٢٦٨ ، وانظر أيضاً ٢٦٧ ، القينة : ١٠٦ الرياح .

(٣) درّة الغواص ٢٢٠ .

(٤) درّة الغواص ٢٨ .

(٥) أخذت مادة هذا الجانب التاريخي من كتاب : P . Guiraud , la sem , Chapitre . III , Iv ومواضع من كتاب أولمان ، دور الكلمة ، ١٦١ ـ ١٦٢ .

وأول الملامح الواضحة في درس الدلالة الأوروبي هو الصلة بالبلاغة قديماً والإفادة من سماتها ، فلقد رأى علماء الدلالة الأوائل كـ (دارمستيتر ، وبريال) في ضروب المجاز المرسل ـ وخاصة ذا العلاقة الكلية والجزئية ـ والاستعارة نماذج أساسية لتغييرات المعنى ، وعلى هديها قاموا بتصنيف منطقي يشمل : تخصيص الدلالة (أو حصرها) وتعميمها ، ونقلها إلى مجال آخر . فالمجاز المرسل ذو العلاقة الكلية والجزئية يؤدي إلى تخصيص عندما نورد الجزء للتعبير عن الكل ، أو النوع تعبيراً عن الجنس إلخ ... والتعميم (أو الاتساع في الدلالة) في الحالات العكسية . وتمثل الاستعارة حالات نقل الدلالة من مجال إلى آخر . ويعد كتاب : (حياة الكلمات) لدار مستيتر خيرّ مصدر فيه عرض لهذه المسائل .

ولكن استقلال علم الدلالة كان بفضل بريال الذي اتجه ـ وحذا حذوه آخرون ـ نحو تحليل مميّز من البلاغة فكانت المعايير الحديثة للدلالة ، فمن جهة برزت فكرة الثنائية في فهم الكلمات ، فثمة دالات ومدلولات ومن جهة أخرى نما التفكير في الطبيعة النفسية للعلاقات الدلالية ـ تحت ذاك الشكل المزدوج ـ للمماثلة (المشابهة) ، والمجاورة (الملاصقة) .

واقتضى الأمر انتظاراً حتى مطلع القرن العشرين إذ ظهر (تشوشاردت) و (وندت) ، وعلى الأخص (ف . دوسوسير) . وقدموا نظرية تغير المعنى مؤسسة على المعايير الرمزية (الإشارية) ، وآخذة في الاعتبار تلك الثنائية (المماثلة ، والمجاورة) والمقابلة بين (الدالّ ، والمدلول) ، وظل كتاب دي سوسير « محاضرات في علم اللغة العام » مرجعاً لكل الدارسين في هذا الحيز حيث أفاض في شرح الروابط النفسية في هذه الأقسام ، ولكل النظريات التي تستحق أن نقف عندها وأهمها دراسة (ستيرن) : (المعنى وتغيرات المعنى) التي أفاد فيها أيضاً من مفهوم العلاقة الثلاثية للكلمة (١ ـ اللفظ أو الرسم (الرمز) ٢ ـ الشيء المسمى ٣ ـ تصوره : دلالته) كما وردت لدى أوجدن وريتشاردز ، والدراسة الهامة

لستيفن أولمان (المبادئ الأساسية لعلم الدلالة) التي كانت أكثر دقة والتزاماً بالمنهج السوسيري ، فهو يحدد أولاً أنماطاً من التغييرات ويعزلها جانباً وهي المتصلة بما يسميه : غريزة البقاء اللغوية وهي تشمل التغيّرات ذات الأصول التاريخية ، وتلك الراجعة إلى أسباب خارجة عن اللغة نفسها أي إلى العالم الخارجي كتغير معالم اجتماعية ، أو صناعية آلية إلخ ... ، وبعد ذلك يضع جدولاً لحركة الدلالة وتجاورها ، وسنوردها نحن ههنا مختصرة مع أمثلة فرنسية مما جاء في كتاب بيير غيرو (علم الدلالة) :

١ ـ تحولات الاسم :

أ) عن طريق المماثلة (المشابهة) بين المعاني ، فكلمة قبعة chapeau تشابه معنىً أنواعاً من أغطية الرأس الخاصة ، أو ما يقرب منها كالغطاء الصوفي المميز للعمال في الأغلب (béret) أو الخوذة (casque) إلخ .

ب) عن طريق المجاورة بين المعاني : فالقبعة (تلاصق) الرأس tete أو البزة الكاملة veston .

٢ ـ تحولات المعنى :

أ) عن طريق المماثلة بين الأسماء : فالقبعة تشبه (قنزعة ، أو مقرعة في العربية) chapelle - chapeau مصلى ـ chapou : طير مسمن أو دالية عنب ، drapeau : علم .

ب) عن طريق المجاورة في الاستعمال بين الأسماء chapeau تقرب من claque مقرن melon بطيخ لأنهم درجوا على استعمال التركيبين التعبيريين chapeau-claque قبعة مقرنة الأطراف و chapeau-melon قبعة ذات شكل يشبه البطيخة .

وهناك ضرب من التحولات التي تنتج عن علاقات وارتباطات مركبة فتضم

في آن واحد : الاسم والمعنى مشتجرة صلاتها بغيرهما من الفروع المشابهة ، أو الكلمات والمعاني المجاورة والمقاربة[١] .

وننتقل إلى نظرة كلية للأسباب التفصيلية التي عالجها أولمان وستيرن وسواهما من علماء الدلالة ذلك أننا نهدف في بحثنا من أمثلتنا وشواهدنا العربية كما وردت في مصنفات اللغة والأدب ، وما وقوفنا عند التحليلات للغات الأجنبية هنا إلا من قبيل الاهتداء باتجاهات عامة ، وحوافز للمقارنة ولاستخراج ما هو متفق مع الأصول اللغوية الفصحى لا إلى أن نتابع المباحث الخاصة بالحيوية الدلالية في اللغة الفرنسية مثلاً أو الإنكليزية فنطبقها على عربيتنا حرفياً لأنه لا بد من تمييز بين آماد العربية الفصحى القديمة ، وما يتداول من العربية بعد اكتمالها .

والتصنيف الأكثر بساطة وتماسكاً من بين ما كتب في ترتيب أسباب تغير الدلالات هو ذاك الذي تركه أنطوان مايّه ، ونقّحه العالم الدانماركي نيروب Nyrop (ت ١٩٣١)[٢] ، فلدينا :

أ) أسباب تاريخية أو هي تغيرات في العلوم ، ومجالات التقنية ، والمؤسسات العامة ، والأخلاق والسلوك ، جاذبة تغييراً في الأشياء دون الأسماء ، وهو الذي لا يبلغ النظام اللغوي (المنظومة اللغوية) إلا بطريق غير مباشرة .

وهذا القسم يكاد الدلاليون أن يكونوا موافقين عليه جميعاً .

ب) أسباب لغوية أو هي تغيرات ناتجة عن أسباب صوتية ، أو لأسباب تتعلق بالصياغة والشكل ، أو أسباب تركيبية نحوية : بالعدوى اللغوية ، والاشتقاق العامي ، والتنازع الجناسي ، والاجتزاء .

---

(١) pierre Guiraud , La sémantique p , p . 49-50 .

(٢) p . Guiraud , sémantique p , 70 (K . Nyrop , grammaire historique de la langue francaise IV , Copenhagen 1913) .

ج) أسباب اجتماعية : (الاقتراض الاجتماعي)[1] ، والاستبدال للجو الاجتماعي للكلمة (وبالتخصيص ، أو بالتعميم) يجذبان استبدالاً للجو الدلالي للكلمة تقليصاً وتوسيعاً .

د) أسباب نفسية : وهي الرغبة في أداء تعبيري واف بالمراد ، والمحرمات لقداسة أو لحرج (التابو) ، والتوريات ، والقيم (القدرة) الانفعالية . (وهذا القسم أضافه نيروب) ويذيل غيرو تصنيف هذه الأسباب بإضافة هي « التمييز بين أسباب خارجية وهي التي يكون مصدرها : الأشياء المسماة ، والحياة التي يتقلب فيها المتكلمون ، وأسباب داخلية وهي المتصلة بالصيغ والأشكال اللغوية ، وعلاقاتها في كنف المنظومة الخاصة بلغة من اللغات وقوانينها[2] » .

ويؤكد غيرو أن الكثير من حالات التغير والتحول الدلالي إنما هي نتيجة لسبل عديدة لا يسهل حصرها لتشعبها ولغرابتها كذلك ، ويضرب مثالاً على التعقيد والالتواء في تقلبات الكلمات ومعانيها ، فإن (الكبد الفرنسية Le foie) كانت في اللاتينية بلفظ jecur إلا أنه كان في مدينة روما طبق شعبي خاص يصنع من الكبد وثمرات التين (هذا إذا لم يكن يقصد بالتين غذاء يخصص لأنواع من الإوز تعرف به) فيغدو اسمه مركباً بالإضافة jecur - ficatum ولكن التخفف والاختصار جعلاه ficatum على نحو ماتعرف الفرنسية الحديثة عندما تعبر عن البطاطس المحمرة بـ La pomme de terre frites وتختصرها فيما بعد بـ (frit : المحمَّرة) ولكنها تعود إلى استعمال هذا المختصر للدلالة على الثمرات الأصلية فيقال « المحمَّرة المسلوقة ويقصد البطاطس المسلوقة » و « محصول المحمرة بدلاً عن محصول البطاطس » وبذا غدت اللفظة اللاتينية ficatum هذه دالة على ذاك النوع من الكبد المطبوخ . وعلى العضو في الجسم (كبد) عامة بدلاً من (jecur)

---

(١) « Emprunts sociaux »

(٢) P. Guiraud, Sém. p. 71.

وإذا ماتقصّينا تطور الكلمة الفرنسية (foie) عن الأصل اللاتيني (بعد تقلبه ذاك واستبداله واختصاره) فإننا سنجد تطوراً صوتياً شاذاً ، وغير ممكن الشرح والتعليل[1] .

لذا كله - كما يقول غيرو - يبدو من الصعب أن نتحدث عن القوانين الدلالية بالدقة العلمية لمصطلح (القانون) .

وإننا نلاحظ في الأفكار التي يقدمها الدلاليون الأوروبيون (بعضهم) وأمثلتهم أنهم يعاملون اللغة على أنها ممتدة ومنتشرة في حقول عديدة منها : المتكلمون في جنبات الحياة كلها ، أي باللغة الأدبية والعلمية الرسمية ، بل إن العامية argot تدرج نتائجها في الدرس اللغوي ، وهم يتحدثون عن الاشتقاق العامي (populaire) إضافة إلى بحثهم في تاريخ الألفاظ اللاتينية واليونانية ، والتغيرات الطارئة عليها صورة ودلالة . وهذا يحملنا على التمييز بين التطبيقات الجزئية الأوروبية وما نحن بسبيله من حديث التطور ؛ ذلك أننا نشير دائماً إلى الفصحى والرسمية لا العامية - في أي عصر للعربية بعد التدوين - وكذلك نتنبه إلى حدود كل من المصطلحات المتداولة من مثل : (اللغة ، والكلام) لأن طبائع اللغات تباين العربية في أشياء يترتب عليها تفسيرات خاصة بالعربية .

عني اللغويين الأوروبيون - والمحدثون عموماً - منذ أن وضع دوسوسير ثنائية اللغة والكلام ضمن محاوره الأساسية في دراسة علم اللغة ، بإقامة حدود تفصل بين هذين القسمين من الظاهرة الحضارية (اللغة) ومن ثمّ تتحدث عن خصائص لازمة لكل منهما .

فاللغة La langue (Langage) تمثل نظاماً من الرموز (الكلمات) يتوزع

---

(١) Pierre Guiraud, La sémantique p, p. 71 - 72. et dictionnaire étymologique p. 312

على قوانين صوتية وصرفية وتركيبية (نحوية) وأسس دلالية ، ويُستوعب هذا النظام في كتب تحفظ المفردات ودلالاتها ، هي المعاجم ومصنفات تحدد القوانين في أبواب اللغة ثم يلحظ في (اللغة) الشمول والاكتمال ، والاستقرار الذي يخضع لبعض التبدلات ببطء وعبر أزمان متطاولة ، وكذلك يتبيّن دور الجماعة البشرية في تكوين اللغة وبنائها .

والكلام La parole (Speech) يعني تحقيقاً فعلياً (عملياً) لأجزاء من بنيان اللغة فهو فردي ، وآني وهو معرَّض للتبدل والتغيّر على نطاق واسع نتيجة اختلاف المتحدثين ومستوياتهم ، وتأثير ظروفهم والملابسات الخارجية واللغوية الداخلية ؛ واجتماع هذه الحالات من التبدّل يؤدي بعد إقرار الجماعة إلى تطور في (اللغة) ، ويمثل الكلام نوعاً من الاختيار أو الابتكار مقابل تعلّم (اللغة) بطريقة وكَمٍّ لا مجال للتحكم فيه ولا للاختيار[1] .

والإشكال في تطبيق هذه المفهومات بحرفية غير متبصّرة يكمن في عدم التنبّه إلى أن الكلام يلتبس بالعامية ، ونحن لا نوليها أي اهتمام ونعمل على تصحيح مجاوزتها لقوانين (الفصحى) وإعادتها إلى الصواب في الأصوات والصيغ والتراكيب ، لذا فإن عظم ما يعتمد عند اللغويين المحدثين المتأثرين بتقسيم دوسوسير ومن جاء بعده في ميدان (الكلام) ليس مقبولاً لدينا برسومه الأوروبية وفي اللغات الأجنبية ، وإننا نرى تفسيراً لهذا الجانب من الظاهرة اللغوية .

فاللغة يقبل فيها التصوّر المذكور مع إشارة إلى أن العربية الفصحى تحافظ على بنيانها المتكامل المحفوظ في المعجم ، ومصنفات النحو والصرف والأصوات

(١) De Saussure f. cours de ling. générale, payot, Paris 1975 P.P. 36 - 39

وينظر في دور الكلمة في اللغة ، أولمان ٢٨ ـ ٣١ ، ترجمة د. كمال بشر ، ط. مكتبة الشباب ، القاهرة ١٩٧٥ م

المعيارية وتبقى أبواب الدلالة للزيادة والنماء في المفردات ، إذ تتطور دلالياً بحسب قوانين التطور ، وتولّد وتبتكر الألفاظ من غير مباينة للأسس المعيارية ، فالكثرة والازدياد مقبولان في هذه الزاوية .

أما (الكلام) في الفصحى فهو استعمال لجزء من الرصيد اللغوي المتضمن في المعاجم في سياقات متعددة ومتنوعة دلالياً، وهو تحقيق فعلي لضروب من الأوزان والصيغ ، ولأنماط أساسية من ألوان التركيب النحوي . ونلحظ بعد ذلك أموراً :

١ ـ أن الجزء المستعمل من الرصيد (الدلالات) يغنى ويفصّل عندما يدور في بيئة تخصّصية علمية أو عملية ويجاوز (القدر المحدود العام) الذي يمثل عدداً من المفردات يدور على الألسنة ، ويدوّن في الكتابات السريعة (الصحفية والتعليمية المبسطة أو المتداولة خارج بيئات التخصص) .

٢ ـ أن الألوان التركيبية تتعدد وتغدو تفصيلية في التدوين الأدبي بمعناه الواسع أي عند الكتابة الشعرية والنثرية الفنية ، وكذلك عندما تؤلف المصنفات الفلسفية والفكرية .

٣ ـ أن الصيغ الصرفية تتعدد وتكثر في الحالتين السابقتين ، ففي الأولى تدفع الضرورة العلمية إلى المصطلحات ودقة أدائها ، وفي الأخرى يبحث الكاتب عن الظلال الدقيقة بين الدلالات لتأثيرها الفني والفكري ولبعدها عن اللبس .

وعلى هذا فمصطلح (الكلام) يعني لدينا : التحقيق الفعلي للحديث باللغة العربية في مجالات الحياة اليومية والعلمية ، والكتابة والتأليف بها (حتى ذاك الذي يخصّص للتمثيل في المسرح والسينما والتلفاز والإذاعة) ، وأما اللهجات فهي حالات طارئة نشعر بأنها تتأثر بدرجة التعليم والثقافة وتقترب شيئاً فشيئاً من الفصحى .

الفصل الرابع

التطور الدلالي

دراسة تطبيقية تاريخية

توطئة

نخصص القول في هذا الفصل لعرض حالات التطور الدلالي العربيّة كما وردت عند العلماء العرب في كتبهم وبحوثهم ، وهي موزّعة بحسب قوانين التطور الدلالي ، وسنعمد إلى تقسيم أساسي يتفرع فرعين : **الأول** منهما يهدف إلى إعطاء صورة مجملة من خلال حالات تتوزع على القرون : الثالث والرابع والخامس مع آراء أبداها عدد من رجال الثقافة ، ذلك أننا نبرهن بعرضنا في هذا المجال على أن مفهوم السياق وتكامل الدلالة فيه كان جزءاً من الجهود اللغوية والفكرية والعلمية ، إضافة إلى أن بحث التطور والتأصيل شغل أصحاب المؤلفات والمحاورات في البيئات العلمية والفكرية ، وهم(☆) يمثلون اللغويين والفقهاء ودارسي أصول الفقه وعلم الكلام والفلاسفة والكتاب وأصحاب الدواوين ، وسعينا بين مؤلفاتهم تطبيق لنظرتنا إلى ثقافتنا العربية المتنوعة والغنية بتداخلها وتفاعلها فيما بين النشاطات الحضارية .

أما الفرع الآخر من تقسيمنا فإننا نفرده لدراسة تحليلية موسّعة في بيئة أدبية ثقافية هي بيئة شراح الشعر العربي ونقاده ـ مع بعض المقارنات بجهود اللغويين ـ وسوف نتبعها بهوامش تستوفي قدراً أكبر من الحالات التطورية لإغناء نظرية التطور الدلالي .

ونعتقد بأننا نقدم في عملنا ههنا رؤية عامة ثم عملاً تفصيلياً يفتح الباب أمام الباحثين في الدلالة العربية ليسلكوا السبل التطبيقية في التراث العربي ، ومن ثمّ

(☆) سنقف عند أبي حاتم الرازي (٣٢٢ هـ) ، وأبي نصر الفارابي (٣٣٩ هـ) ، ومحمد بن أحمد الخوارزمي الكاتب (٣٨٧ هـ) ، وأبي هلال العسكري (٣٩٥ هـ) ، والإمام الغزالي (٥٠٥ هـ) ، وابن سينا (٤٢٧ هـ) وابن خلدون (٨٠٨ هـ) .

يجتمع لنا قدر عظيم من حالات التطور ومن المؤشرات التاريخية للكلمة العربية ودلالاتها .

- ١ -

١/١ الآفاق التطورية التي قدمها الدلاليون العرب

تناول أبو حاتم الرازي في كتابه (الزينة) مجموعة من الألفاظ الإسلامية المتطورة دلالياً ، وعرض في أثناء تحليلها لأمور تتصل بتاريخ العربية وتأصيل الدلالات واشتقاق الجديد من القديم ، فكان رائداً في تخصيص دراسة للدلالة العربية .

وقد بيّن الرازي أقسام الرصيد اللغوي للعربية[١] فهي : (١) إما قديمة موروثة ، وهذا يقابل مانشير إليه بالشطر المستمرّ من الدلالات ، (٢) وإما جديدة تضاف دلالتها وإن لم تكن حادثة ، أي أنها تحتمل زيادة في المعنى أو تطويراً بالتخصيص أو بالنقل وكانت صيغها مستعملة من قبل في دلالات أخرى ، (٣) وإما جديدة في صيغتها ودلالتها ، وهي من البنية الصرفية العربية ، (٤) وقد تكون الكلمات محوّلة ومكتسبة من اللغات الأجنبية (على أن تستوعب وتتمثل بوضعها في قوالب صرفية معتمدة) . فالرازي يقول : « فمن الأسماء ما هي قديمة في كلام العرب ، اشتقاقاتها معروفة ، ومنها أسامٍ دلَّ عليها النبي ﷺ في هذه الشريعة ونزل بها القرآن ، فصارت أصولاً في الدين وفروعاً في الشريعة لم تكن تعرف قبل ذلك ، وهي مشتقة من ألفاظ العرب .

وأسام جاءت في القرآن لم تكن العرب تعرفها ولا غيرهم من الأمم مثل : تسنيم ، سلسبيل ، وغسلين وسجّين والرقيم .

وقد قال قوم : في القرآن شيء من ألفاظ العجم ولغاتها ... قال أبو عبيد :

(١) الزينة ، أبو حاتم الرازي (١٣٤/١ ـ ١٣٥ ، ١٣٩) .

« الصواب عندي ـ والله أعلم ـ أن هذه الأحرف (الكلمات) أصولها أعجمية إلاّ أنها سقطت إلى العرب ، فعرّبتها بألسنتها : حوَّلتها من ألفاظ العجم إلى ألفاظها فصارت عربية . ثم نزل القرآن وقد اختلطت هذه الألفاظ بكلام العرب على التعريب ... » .

ويعرض الرازي جانباً من الكلمات المتطورة في حركة متصلة ويمثل بما يرتبط بالاشتقاق ، وقيمة هذا التحليل إنما تأتي من ورودها في بحث يلتفت إلى التأصيل سواء ما كان بالاشتقاق القريب أو ما يأتي بأساليب أخرى تغنى فيها اللفظة بالمشابهة وبطريقة استخدامها :

« فربّما دُعي الشيء باسم اشتق من معنى تقدّمه ، قد فسَّر العلماء اشتقاقه والمراد فيه ، كقولك : **آدم** ، قالوا : سُمّي بذلك لأنه أُخذ من أديم الأرض ، **والإنس** ، قالوا : سمّي الإنس بذلك لظهورهم ، ويقال : آنست الشيء إذا أبصرته ، **والجنّ** ، قالوا : سمّي الجن بذلك لاستخفائهم ، يقال : اجتن إذا استخفى »[1] .

أمّا الفيلسوف أبو نصر الفارابي فإنه يناقش الحاجة الحضارية المتجددة ؛ فيرى أنها تستدعي نشاطاً دلالياً ، ويشير إلى أسلوب (النقل) الدلالي بأن يطور مضمون لفظ أو ألفاظ لتعبر عن جزئيات في العلوم الحديثة أو الفنون والصنائع ، وينبّه (الفارابي) إلى أن الاستعارة بمعناها الأسلوبي لا تستعمل في هذه المجالات وإنما دورها في الأدب :

« فالأسماء المستعارة لا تستعمل في شيء من العلوم ولا في الجدل ، بل في الخطابة ، والشعر .

والأسماء المنقولة تستعمل في العلوم وفي سائر الصنائع ، وإنما تكون أسماء

(١) الزينة ، الراري ، (١٣٢/١)

للأمور التي يختص بمعرفتها أهل الصنائع . ومتى استعمل في العلوم أمور مشهورة لها أسماء مشهورة فإنه ينبغي لأهل العلوم وسائر أهل الصنائع أن يتركوا أسماءها في صنائعهم على ما هي عليه عند الجمهور . والأسماء المنقولة كثيراً ما تستعمل في الصنائع التي إليها نقلت مشتركة ، مثل اسم الجوهر فإنه منقول إلى العلوم النظرية ، ويستعمل فيها باشتراك ، وكذلك الطبيعة ، وكثير غيرها من الأسماء »[1] .

يتعمّق النظر في ذاك الجزء من الرصيد اللغوي وهو المتطور ، والذي سيستقر شيئاً فشيئاً وتتولّد من ثمّ حاجات جديدة ؛ فاللغة لا تتوقف عن الحركة والتدفق .

ويعدّ جهد محمد بن أحمد بن يوسف الخوارزمي من أكثر الأعمال اللغوية أهمية في ميدان الدلالة ، رغم أنه يتوجه إلى الكتّاب ويضع بين أيديهم قدراً وافياً من الاصطلاحات المتداولة في وجوه الحضارة العربية العباسية (العلم ، الصناعات ، الفنون ، شؤون الحياة) ، ليتم الاتصال الحيوي بامتلاك الأدوات الجديدة ، وهي الكلمات التي ارتبطت بالحديث من العالم المادي والفكري بين أصحاب المصالح في المجتمع .

يقول الخوارزمي الكاتب في مقدمة كتابه (مفاتيح العلوم) :

« دعتني نفسي إلى تصنيف كتاب يكون جامعاً لمفاتيح العلوم وأوائل الصناعات ، متضمناً ما بين كلّ طبقة من العلماء من المواضعات والاصطلاحات ، التي خلت منها أو من جلّها الكتب الحاضرة لعلم اللغة ، حتى أن اللغوي المبّرز في الأدب إذا تأمّل كتاباً من الكتب التي صنّفت في أبواب العلوم والحكمة ، ولم يكن

---

(١) العبارة ، الفارابي ، ٢٣ ـ ٢٤ ، وينظر في ٢٤ ، للمزيد من التحليل لهذه الظاهرة ، وكذلك لمتابعة فكرة التخصيص الدلالي .

شدا صدراً من تلك الصناعة لم يفهم شيئاً منه وكان كالأمّي **الأغتم** عند نظره فيه[1] » .

وينصّ في طرف آخر من حديث المقدمة على ألوان هذه الألفاظ الاصطلاحية ؛ فهي إما عربية اخترعت (بأساليب التطور الدلالي) أو ألفاظ أجنبية عرّبت تعريباً :

« ولم أشتغل بالتفريع المفرط والاشتقاق البارد ولا بإيراد الحجج والشواهد ؛ إذ كان أكثر هذه الأوضاع أسامي وألقاباً اخترعت ، وألفاظاً من كلام العجم أعربت . وسميت هذا الكتاب مفاتيح ؛ إذ كان مدخلاً إليها ومفتاحاً لأكثرها ، فمن قرأه وحفظ مافيه ونظر في كتب الحكمة هذّها هذاً وأحاط بها علماً وإن لم يكن زاولها ولا جالس أهلها[2] » .

نورد شرحاً جاء به أبو هلال العسكري لمصطلحات ذات صلة مباشرة بوجوه التطور الدلالي عندما وضّح الفروق بين (لاسم العرفي) و (الاسم الشرعي) ، ويظهر للقارئ أمران في هذا الشرح : (١) الاستعمالات اللغوية العامة ، (٢) الاستعمالات الخاصة للغة في مجال معيّن ، وهما يتداخلان وفق الضرورة الحضارية في حركة نشطة للدلالة :

« فالفرق بين **الاسم العرفي والاسم الشرعي** أن الاسم **الشرعي** ما نقل عن **أصله في اللغة** ، فسمي به فعل أو حكم حدث في الشرع نحو : الصلاة والزكاة والصوم والكفر والإيمان والإسلام وما يقرب من ذلك ، وكانت هذه أسماء تجري قبل الشرع على أشياء ثمّ جرت في الشرع على أشياء أخر ، وكثر استعمالها حتى

---

(١) مفاتيح العلوم ، للخوارزمي الكاتب ٢ ، ط . المطبعة المنيرية بالقاهرة .

(٢) مفاتيح العلوم ٤ .

صارت حقيقة فيها وصار استعمالها على الأصل مجازاً ، ألا ترى أن استعمال الصلاة اليوم في الدعاء مجاز وكان هو الأصل .

والاسم **العرفي** : ما نقل عن بابه بعرف الاستعمال نحو قولنا : دابة ، وذلك أنه قد صار في العرف اسماً لبعض ما يدب وكان في الأصل اسماً لجميعه .

وعند الفقهاء أنه إذا ورد عن الله خطاب قد **وقع في اللغة** لشيء واستعمل في العرف لغيره ووضع في الشرع لآخر فالواجب حمله على ما وضع في الشرع ؛ لأن ما وضع له في اللغة قد انتقل عنه وهو الأصل ، فما استعمل فيه بالعرف أولى بذلك ، وإذا كان الخطاب في العرف لشيء وفي اللغة بخلافه وجب حمله على العرف ... »[1] .

ويستخدم أبو هلال اصطلاح (اللغة) للتعبير عن أصل الدلالة قبل تحوّلها ، وكذلك (أصله في اللغة) ، ويعطي أيضاً تركيباً اصطلاحياً (عرف الاستعمال) ليدل على تخصيص الدلالة في بعض الجوانب أو البيئات .

يعطي ابن خلدون في مقدمته تصوّراً عن الدلالة السياقية النصيّة ، ويتخذ لذلك أسباباً فلابد من الدراية بالدلالة الوضعية الأصلية ، ثم تأتي مؤثرات النص الموقعية وتتفاعل ههنا الصيغة التركيبية في الجملة مع القيمة الصرفية وإطار الموضوع الذي تكون اللفظة جزءاً منه :

ففي كلام ابن خلدون على (أصول الفقه وما يتعلق بها من جدل وخلافيات) يقول : « ثمّ بعد ذلك يتعيّن النظر في دلالة الألفاظ ، وذلك أن استفادة المعاني على الإطلاق من تراكيب الكلام على الإطلاق يتوقف على معرفة الدلالات الوضعية مفردة ومركبة[2] » .

---

(١) الفروق اللغوية ، أبو هلال العسكري ٥٠ ـ ٥١ .

(٢) المقدمة ، ابن خلدون ٤١٩ ، ط . دار الشعب بالقاهرة .

« ثمّ إنّ هناك استفادات أخرى خاصة من تراكيب الكلام ، وهي استفادة الأحكام الشرعية بين المعاني من أدلتها الخاصة من تراكيب الكلام وهو الفقه .

ولا يكفي فيه معرفة الدلالات الوضعية على الإطلاق ، بل لابد من معرفة أمور أخرى تتوقف عليها تلك الدلالات الخاصة ، وبها تستفاد الأحكام بحسب ماأصّل أهل الشرع وجهابذة العلم من ذلك ، وجعلوه قوانين لهذه الاستفادة ، مثل أن اللغة لا تثبت قياساً ، و**المشترك** لا يراد به معنياه معاً ، والواو لا تقتضي الترتيب ، والعامّ إذا أخرجت أفراد الخاص منه هل يبقى حجة فيما عداها ، والأمر للوجوب أو الندب وللفور أو التراخي ، والنهي يقتضي الفساد أو الصحة ، والمطلق هل يحمل على المقيّد ، والنصّ على العلة كافٍ في التعدي أم لا ؟ وأمثال هذه ، فكانت كلها من قواعد هذا الفن ، ولكونها من مباحث الدلالة كانت لغوية[1] » .

ويمكن لكل متبصّر أن يجمع هذا الاتجاه في النظر في الدلالة السياقية ليطبّقه في الآفاق العلمية والأدبية الفنية ، وهذا ماأكّده عبد القاهر الجرجاني في (دلائل الإعجاز) عندما أنكر الدلالة المفردة للكلمة وبحث عنها متكاملة في التركيب والسياق المتكامل[1] .

٢/١ التطور الدلالي من المحسوس إلى المجرّد :

يشرح الرازي في (الزينة) تطور دلالة (غفر) من الطرف المحسوس إلى آفاق التجريد والإدراك العقلي والنفسي ، وتحليل مبكّر على هذا النحو يهدي إلى منهج سنجد النقاد يتجهون إليه ومعهم عدد من اللغويين لتبيان اكتساب اللفظ قيماً ذهنية بعد أن كان مستخدماً في الجوانب الحسية :

يقال : غفور وغفّار وغافر ثلاث لغاتٍ ، وهي من المغفرة ، والمغفرة :

---

(١) دلائل الإعجاز ، عبد القاهر الجرجاني ١٤ ـ ١٦ من المقدمة ، تحقيق د . رضوان الداية ، و د . فايز الداية ، دمشق دار قتيبة ١٩٨٣ .

الستر ، كأنَّه يستر ذنوبَ العبَاد إذا رضي عنهم ، فلا يكشفها للخلائق . ويقال في الدعاء : اللهم تغمّدني بمغفرتك ، أي استر ذنوبي . وأصله من غفرت الشيء إذا غطّيته . ويقال : ثوبٌ كثير الغَفْر ، أي كثير الزئبر إذا كان من خَزٍّ أو وَبَر أو صوف أو غيره ، سمّي بذلك لأنه يستر النسج بزئبره . ويقال : اضمم متاعك في وعائك ، واغفر متاعك في وعائك ، وهما بمعنى واحد . ويقال : غَفَر غَفْراً ، ومنه يقال : اللهم غفراً ، وقال الشاعر :

ليث يهاب الناسُ صولتَه جَمَع العقابَ وأحسنَ الغَفْرا

وقال الكميت :

في ظل من عنت الوجوه له ملك الملوك ومالك الغَفْر[1]

وفي موضع آخر يشرح اسماً آخر ويبرز قيمه الدلالية المجرّدة واستعماله في مجال مادي من قبل ، فيقول في (الزينة) :

ومن الأسماء ما يجرّ معنيين كقولك : الزكاة . قالوا : هو من النمو والزيادة . يقال : زكا الزرع إذا نما وطال وزاد . ويكون من الطهارة . قال تعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ﴾ [الشمس ٩١/٩] أي طهرها[2] » . ويذكر ابن ناقيا البغدادي (٤٨٥ هـ) في كتابه الجمان في تشبيهات القرآن تطور دلالة الأمرد ، فهو « مأخوذ من الشجرة المرداء ، وهي العارية من الورق . ومنه قولهم : شيطان مريد ، أي عارٍ ، معناه قد عَري من الخير . ومن ذلك قيل بناء ممرّد أي مملّس[3] » .

وأتينا على هذا الشاهد للبرهنة على أن الاهتمام الدلالي كان واسعاً بين المثقفين والأدباء في كتبهم وأحاديثهم .

---

(١) الزينة ، الرازي ، (٢/٩٧ ـ ٩٨) .

(٢) الزينة (٢/١٣٣) .

(٣) الجمان في تشبيهات القرآن ، ابن ناقيا البغدادي (عبد الله بن محمد بن الحسين) ٢٨٢ .

٣/١ التطور الدلالي بالتخصيص وبالتوسع :

تخصص دلالة (الفراني) بنوع من أنواع الحلوى التي تصنع في الفرن ، وكان يمكن للكلمة أن تدلّ على كلّ ما يخبز في هذا الفرن . يقول الخوارزمي في (المفـاتيح[١]) « الفراني جمع فرنيّ . قـال الخليل : هي خبزة غليظـة مشكّلـة مصعنبـة تشـوى ثم تروى لبناً وسمناً وسكراً ، وهو منسوب إلى الفرن وهو تنّور ضخم يخبز فيه » .

ومن شواهد التوسع الدلالي عند صاحب (الزينة) كلمة (اللوح[٢]) ؛ فهي دالّـة في الأصل على نوع من المواد التي يكتب عليهـا ثمّ عمّمت على سـائر الوسـائل الأخرى ، ثم نرى في طرف آخر انتقالاً دلالياً من الكتابـة إلى بنـاء السفن وأشكال الأخشاب :

« فقد قال بعض أهل المعرفة : سمّي **اللوح** الـذي يكتب فيـه لَوْحـاً ؛ لأنهم كانوا يكتبون في العظـام كعظم الكتف وغير ذلـك . فكل عظم كتبوا فيـه سمّـوه لوحاً . ثم قيل لكل ما يكتب فيه من الخشب لوحاً ، لأنه نحت على تلك الهيئة .

واللـوح العَظم . يقـال : رَجُـلٌ عظيم الألـواح ، إذا كان كبير عظم اليـدين والرجلين . وكلّ عظم يسمّى لوحاً .

قال الجعدي :

ولَـــوْحَي ذراعَيْنِ في بِرْكَـــــة إلى جُـــؤجُـــؤ رَهِـــل المَنْكِبِ

وسمّيت ألواح السفينـة ألواحـاً ، لأنهـا نُحتت على هيئـة الألواح التي يُكْتَب فيهـــا . قـــال الله عــزّ وجـل : ﴿ وَحَمَلْنَـــاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْـوَاحٍ وَدُسُرٍ ﴾ . [القمر ١٣/٥٤]

---

(١) مفاتيح العلوم ، الخوارزمي ٩٩ .

(٢) الـزينـة ، الرازي (١٤٧/٢ ـ ١٤٨) ، وانظر كـذلـك في (الـزينـة) (٨١/٢ ـ ٨٣) ، مـادة (الجبّار) .

٤/١ التطور الدلالي بالنقل من مجال إلى آخر

إننا نجد الألفاظ المتطورة في هذا الحيّز ترتبط بـالاستعـارة ومعنى التشبيـه ، لأن نقل اللفظ دالاً من مجال إلى آخر إنما يستنـد إلى مسوّغـات الشبـه الشكلي أو الوظيفي بين المجالين ، أو بين الجزأين الماديين اللذين تحرك اللفظ بينهما .

يقول الخوارزمي : « ومن آلات المنجنيق : **الكرسي** ، وصورته مثل صورة الشيء الذي يكون في المساجد يصعد عليـه لتعليق القنـاديل .

ثم يورد عدداً من الأسماء المتطورة في دلالتها الحديثة لعصرها ، وهي متصلة بجزئيات آلة مركبة هي الاصطرلاب :

الحُجْرة : هي الحلقة المحيطة بالصفائح الملصقة بـالصفيحـة السفلى ، **الأمّ :** هي الصفيحة السفلى ، **العنكبوت :** هي الشبكة التي عليها البروج والعظـام من الكواكب الثابتة ، **المقنطرات :** هي الخطوط المقوّسة المتضايفة المرسوم فيما بينها أعداد درج الارتفاع في الصفيحة وفوقهـا يجري العنكبوت ، **الفَرَس :** هو قطعـة شبيهـة بصورة الفرس يشـدّ بهـا العنكبوت على الصفـائح ، **الكرة :** معروفـة من آلات المنجّمين وبهـا تعرف هيئـة الفلـك وصـورة الكـواكب وتسمّى أيضـاً **البيضة**[٢] » .

فالكلمة هنا دالّة ـ إضافة إلى دلالتهـا الأصليـة ـ على مواد جـديـدة تفهم في السيـاق العلمي . ويُظْهِر لنـا الخـوارزمي الرابـط التشبيهي في مصطلـح (الفرس) ؛ لأن هذه القطعة في آلة الاصطرلاب[٣] تشبه في شكلها الحيوان الـذي

---

(١) مفاتيح العلوم ١٤٢ .

(٢) المفاتيح ١٣٥ ـ ١٣٦ .

(٣) الاصطرلاب : آلـة عربيـة قـديمـة تستخـدم لأغراض فلكيـة تحـدد بوسـاطتهـا مواقع النجوم ، وخطوط العرض ، واستفـاد منهـا البحـارة في رحلاتهم ، وهي صفيحـة على شكل دائرة عليهـا أجزاء أخرى وإشارات اصطلاحية فلكية ، ولها حجوم متعددة .

يحمل الاسم نفسه (الفرس) ، ويؤكد لنا الخوارزمي هذه الظاهرة الدلالية التطورية في عدد من اصطلاحات علم التشريح ؛ ذلك أن « طبقات العين سُمِّيت بالأشياء التي تشبهها ؛ **كالمشيمة** شبّهت وهي التي فيها الولد في البطن ، **والشبكية** شبّهت بالشبكة ، والعنكبوتية شبّهت بنسيج العنكبوت ، **والقرنية** شبّهت بالقرن في صلابته[1] » .

ويشير كذلك إلى جزء آخر من الجسم البشري وهو (الأعور) ذلك أنه : « مَعْيٌّ على هيئة الكيس ، وسمّي الأعور لأنه لامنفذ له ويُسَمّى المرغة[2] » . ويسرد الخوارزمي مصطلحات العروض والقافية ومعها أصولها اللغوية التي أخذت منها على نحو من التشبيه[3] .

ويأتي ابن ناقيا البغدادي على ذكر أصل لغوي قديم أخذ منه اسم (الثعبان) فيقول : « فأمّا قوله تعالى ﴿ فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ ﴾ [الأعراف ٧/١٠٧] إلى قوله ﴿ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴾ [الأعراف ٧/١١٧] ، فالثعبان : الحيَّة الضخم الطويل . **وأصله** من : ثعبتُ الماءَ أثعبُهُ ثعباً ، إذا فجرته ، فسمّي بذلك لأنه يجري كجري الماء عند الانفجار[4] » .

ويورد ابن سينا اصطلاح الاستعارة في هذا المجال « وأحسن من ذلك **ما يبنى على الاستعارة** ، فيقال مثلاً : إنّ الهيولى **أمٌّ حاضنة** ، وإن العفّة **اشتراك اتفاقي** ، وذلك لأن الاشتراك الاتفاقي قد يوجد في النغم ، وليست العفة موجودة فيها ، ولو كان الاتفاق جنساً لكان الشيء الواحد وهو العفة يقع في الفضيلة على أنها جنسها وفي الاتفاق فيكون للواحد جنسان متباينان ليس

---

(١) مفاتيح العلوم ٩٣ .

(٢) مفاتيح العلوم ٩٤ .

(٣) مفاتيح العلوم ٥٩ .

(٤) الجمان ، ابن ناقيا البغدادي ١٥٦ .

أحدهما تحت الآخر ، ولا يستندان إلى عام ، وهذا ماعلمت استحالته[1] » . ويفيد هذا الحديث عن النقل الدلالي اللغويين وأصحاب العلوم ، فتمايز العالمين اللذين تنتسب إليهما الدلالتان الأولى الأصلية والأخرى المستعارة (**الحاضنة**) لا يمنع التفاهم بهذه الكلمة ؛ لأننا نحتكم إلى السياق المحدّد لتوجهنا إلى التفسير .

نختم هذه الفقرة بعرض نموذجين للتطور الدلالي بالنقل وإن لم يكن المؤلّف قد أعطى التفسير المباشر ، فالخوارزمي يقول في مفاتيح العلوم :

« ومثال هذه المواضعات لفظة **الفَكّ** فإنها عند أصحاب **اللغة** ، والفقهاء مصدر فكّ الأسير أو الرهن أو الرقبة ، وأحد الفكّين وهما اللحيان ، وعند أصحاب **العروض** : إخراج جنس من الشعر من جنس آخر تجمعهما دائرة ، وعند الكتّاب : تصحيح اسم المرتزق في الجريدة بعد أن كان وضع عنها .

ولفظة **الوتد** عند **اللغويين** والمفسّرين أحد أوتاد البيت أو الجبل من قوله تعالى ﴿ وَالْجِبَالَ أَوْتَاداً ﴾ [النبأ ٧٨/٧] ، وعند أصحاب **العروض** ثلاثة أحرف : اثنان متحركان وثالث ساكن ، وعند **المنجّمين** أحد الأوتاد الأربعة ، التي هي الطالع والغارب ووسط السماء ووتد الأرض[2] » .

وإثر جولتنا العامة هذه مع الشواهد الدلالية في تطورها ، ننتقل إلى جزء تفصيلي من الدراسة يحلّل قدراً أكبر من الشواهد ، في مجموعة متيّزة من الكتب العربية نعدّها مثالاً لما يمكن أن يتابع في رصد الجهود الدلالية العربية التطبيقية[3] .

---

(١) الشفاء/الجدل ، ابن سينا ٢٤٤ ، تحقيق د . أحمد فؤاد الأهواني ، ط . الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٦٥ م .

(٢) مفاتيح العلوم ، الخوارزمي ٣ .

(٣) يسعى الباحثون في جامعة حلب لإجراء دراسات دلالية تطبيقية ، ومن ذلك بحث في الدلالة العربية في القرن الخامس الهجري ضمن كتب الشروح الشعرية .

٢ ـ التطور الدلالي بين اللغة والنقد

إننا نتجه في هذا القسم إلى النصوص النقدية بعد أن تناولنا القضايا النظرية المؤطِّرة لقضية التطور الدلالي في القرن الرابع، وتتسم دراستنا بأنها نصيّة أي أنها تنطلق من المعطيات التي اشتملت عليها الشروح والكتب المتناولة للشعر القديم والمحدث العباسي، وهي بذا لا تبحث عن الشواهد، بل تحلل مجموعة من النصوص تدور حول مسألة واحدة ذات وجهين الأول منهما لغوي والآخر نقدي.

ومعالجة التطور الدلالي وأشكاله إنما تتصل بصورة أولية بالجهود اللغوية والأبحاث الدلالية إذ تتبع أحوال الألفاظ والمعاني، وتشير إلى التغاير الذي طرأ على واحد من الطرفين ومدى تأثيره على الصلة الرابطة بينهما، وذلك بحسب الأزمنة المتعاقبة في مجتمع من المجتمعات، وقد ينعت العمل هنا بأنه نتيجة لغوية تستخرج من المجال النقدي الذي يظل في حيِّز بعيد عن التحليلات عما يدور في الجانب الدلالي هذا، إلا أن الأمر على غير هذا النحو إذ تتضح علاقة جدلية ـ لدى الشراح والنقاد ـ بين الناحية الأدبية والمادة اللغوية، فهم يوظفون ما بلغهم من الألفاظ ومعانيها في حالات تلتقي فيها أو تفترق، وذلك في سبيل تنوير الأعمال الشعرية التي يقفون أمامها شارحين ومفسرين. ونحن نقوم بتفصيل جوانب متداخلة ومركبة في عملهم كيما نفهم الظواهر اللغوية، ثمّ ندعو إلى الإفادة منها في تطبيقات تستغرق آفاقاً عدة أولها النقد الأدبي كما هي الحال في القرن الرابع مع فارق يحتمه التطور العصري وإضافة خبرات جديدة إلى ما كان قديماً.

إذن إن النتيجة اللغوية في الكشف عن قوانين عامة للتطور الدلالي هي أمر ثابت ويضم إلى الرصيد الغني ـ الذي نعرفه ـ للقدماء في درس اللغة، وهو كسب يثري الأفكار الجديدة المعاصرة لنا، إلا أن العلاقة بين نقد الشعر وهذه الظاهرة (الدلالية) لا تغيب أو تضعف في أي من الجزئيات التي نستحضرها ولا في الصورة العامة لها.

والمقارنة بين صنيع أصحاب المعجمات وما جاء في النصوص النقدية تؤكد ماذهب إليه من تميّز النقاد في تناولهم اللغوي ، فصاحب المعجم - أو المتن اللغوي كما في الرسائل السابقة على المعجمات الكبرى - يلجأ إلى استقصاء يستوعب المواد جميعها ، ثم يرتبها في نظام تتكامل فيه - سواء الألفبائي ، أو الصوتي أو البنيوي المعتمد على الصيغ الصرفية - وفي كل ركن يجهد ليصل إلى حصر ما يعرف من دلالات للفظ ومشتقات له ، ويمكننا وصف (المعجمي) بأنه (محايد) بدرجة كبيرة ، فهمه هو : السرد وإن تكن المعاجم العربية قابلة للتحليل الذي قد يؤدي إلى تبيان معالم تطورية ضمن مادتها فهي في هذه الحالة عامة الاتجاه أي أنها تستعرض مواقف تلونت معها المفردة أو طرف من أطراف الأصل اللغوي في حياة العربية - ويشترط عندها أن تحدد بالشعر أو بالنثر أو بالأقوال المشهورة وإذا ماانتقلنا إلى صنيع الشراح والنقاد فإننا نلحظ أن الأشعار هي التي تفتق وجوه النظر اللغوي ، فالشاعر يورد في أبياته ما يستدعي تبياناً وشرحاً ، فيشرع الناقد في عرض ما يمكن تسميته بالمعنى السياقي ، أو الدلالة التي يراها مناسبة للفظ أو التركيب المتناول ، ومن ثم يسعى إلى أن يعرض ملامح أخرى مفيدة للنص فيبين أولية الدلالة أو ارتباطها بمجالات أخرى إذا ماوجهت توجيهاً خاصاً ، أو يشير إلى الأصول الحسية المتحولة إلى أفق ذهني ، أو يبرز ماطرأ على الأصل القديم من عوامل تجعله ينكمش أو يتسع ، وفي كل هذا لاتغيب عن الناقد مهمته الأساسية وهي نَقل الإبداع الشعري إلى القارىء ومعه أجواؤه التي تخلق مشابهات لها لدى المتلقي ، وهكذا يوظف التحليل اللغوي - إضافة إلى الخصائص الأسلوبية والبيانية - ليشكل دائرة حول المحور الرئيسي ، ولانطالع متتابعات معجمية ساكنة بل بؤراً غنية بحركتها وفعاليتها .

وعلى الرغم من أن متابعة التطور الدلالي في كتب النقد لاتعطينا التاريخ التفصيلي فإنها تعد مؤشراً هاماً في هذا الميدان ، فالموروث الشعري المدروس يرجع

في عُظمه إلى الجاهلية ممثلاً بشعر المعلقات ، ويرجع قسم منه إلى العصر العباسي ، وفي كلتا الحالتين تظل الفصحى هي المحور ولا يخرج اللاحق من المعاني الأساسية عن التصور القديم الذي نضج مع التدوين . وبذا تكون الدراسة هنا مخصصة بتاريخ الفصحى ، فنحن نرى التحوّلات والتغيرات التي سجلها الرواة واللغويون لألفاظ اللغة ، وبفضل هذه الحيوية اللغوية نمت الحصيلة العربية واتسعت إلى أن بلغت الحد الذي نعرفه ـ دون أن نضع في حسباننا ما ضاع ولم يدون منها ـ والنتائج التي نستطيع بلورتها في هذا الفصل إنما هي اتجاهات عامة للتغير والنمو ، وليست مشخّصة لفواصل زمنية تظهر في كل منها حالة الألفاظ ودلالاتها ، وقد تظهر مثل هذه التحديدات المرتبطة بالأزمنة الدقيقة في حالة تقارن نتائجنا هذه بمعجمات الشعراء القدماء والمحدثين العباسيين فإننا أكثر دراية بتاريخ الشعراء من تاريخ اللغة حتى إننا عندما يعجزنا التحديد أو لا يتضح بالدقة اللازمة نستعين بسلسلة الرواية كما في سلسلة : طفيل الغنوي وأوس بن حجر اللذين روى عنهما زهير بن أبي سلمى ومن ثم روى شعره ابنه كعب والحطيئة[1] ، وكذلك يمكن الاهتداء بالرواية ضمن القبائل أو الجماعات المميزة كشعراء هذيل ، أو الشعراء الصعاليك . وهذه السبل المقترحة زيادة على ما يقدمه بحثنا تقتضيها الضرورة الملازمة للبحث في تراث له مواصفاته التي تستدعي طرائق خاصة غير التي تجدها في الأزمنة الحديثة كما هي الحال في المعجمات الاشتقاقية الأوربية وسواها .

وسنعمد في هذا الفصل إلى ضرب من الترتيب الشكلي يمكننا من استيعاب المواد التطورية كلها وذلك أننا سنورد الأمثلة في فئتين رئيسيتين واحدة صريحة في بيانها عن الأصل الذي كانت عليه المادة ، والأخرى غير منصوص فيها على هذا ، ثم نتجه بعد قدرٍ كافٍ من الشرح والتحليل إلى إيراد سائر المواد في جداول ملحقة .

---

(١) الشعر والشعراء لابن قتيبة (١٣٧/١ ، ١٤٣) .

والدافع إلى هذا المسلك في الدرس كامن في أن فكرتنا عن تطور الدلالة في الجهود العربية السالفة تُعَدُّ جديدة ، وهي أقرب إلى الافتراض عند كثير من الباحثين لذا فهي تتطلب أكبر قدر من الأدلة والبراهين ، وهذه الأدلة ماهي إلا المواد الخاضعة للتحليل التطوري في كتب النقد ، فلا مندوحة لنا عن أن ندعم نظرتنا وفكرتنا بما يؤكدها ونفيد أيضاً من هذا الشمول تمهيداً صالحاً للدراسات اللاحقة فيما بعد بدلاً من الإحالة إلى المصادر المتناثرة ففي العلم يحسن ألا تضيع الجهود بالتكرار لما هو منجز محقق .

وسيكون تناولنا للقضايا التطورية على النحو التالي : ١ ـ القسم الأول نعالج فيه التطور من المواد الحسية إلى المعاني المجردة الذهنية . ٢ ـ وفي القسم الثاني ندرس أحوال التطور فيما بين المحسوسات ، وذلك بالاتساع أو التخصيص أو بالانتقال من مجال دلالي إلى آخر . ٣ ـ وفي القسم الثالث نتابع الحركة الاشتقاقية المميزة أثناء تطور الدلالة في أمثلة منها . أي تظهر كيفية الانتقال من الأفعال إلى الأسماء ، ٤ ـ وفي القسم الرابع نبرز طريقة من طرائق التطور أولاً وهي نقل الألفاظ والدلالات من اللغات الأجنبية وهي إذ ذاك الفارسية والرومية على وجه الخصوص .

ولا يحول تخصيصنا قسماً للجوانب الاشتقاقية دون الإشارة إلى قضية الاشتقاق بعامة في الأقسام الأخرى لتزيد من وضوحها ، وسيكون القاسم المشترك الآخر هو ربط المواد اللغوية بالحياة الاجتماعية العربية القديمة ، وبعض جوانب من الطبيعة .

١/٢ التطور بالانتقال من المحسوس إلى المجرّد

إن هذا القسم من الدراسة يستدعي تمييزاً بين نوعين من التجريد ، ذلك أننا نبغي ههنا إظهار صور وأمثلة للتطور الدلالي بالانتقال من المجال الحسي إلى مجال المفهومات الذهنية المجردة ، ويعرف البحث اللغوي مصطلح (التجريد) مقروناً بمصطلح آخر هو التعميم عندما يشرح النقلة الكبيرة بين الإدراك الحسي للأشياء

والمواقف الجزئية لدى الإنسـان ، وذاك النمـط الإشـاري الـذي انتظم فيا بعـد على هيئة اللغة المختلفة رقياً وبـدائيـة ، ففي هـذا الحيز يكون (التجريـد) : « قيـام الأسماء أو الصفات مقام مسمياتها وموصوفاتهـا أو حلول الألفـاظ محل الأشيـاء التي تدل عليها[1] » أي أن الإنسان يصل إلى القـدرة على الفصل بين الإشـارة اللغويـة والمادة والموقف فيشير بالكلمة إلى الأشياء والأحداث سواء في الحاضر أو في المـاضي أو في المستقبل بينما تعـد إشـارات الحيوان مشخّصـة وملتصقـة بـالواقعـة[2] ، وأمـا اصطلاح (التعميم) فهو قدرة الإنسـان على التعبير عن أشيـاء وأحـداث بـألفـاظ وكلمات واحدة أي إدراك الخصائص المشتركة بينها وإغفال الفروق الفردية فكلمة منزل تنطبـق على كل مـا يسكنـه النــاس مـع اختـلاف الأشكال والتفصيـلات في النماذج المختلفة للمنازل في هـذه البيئـة أو تلـك . وبـذا نجـد أن التجريـد والتعميم يرجعان إلى مرحلة متقدمة من تطور اللغة في المجتمع الإنساني ، وبفضلها غـدا من السهل نقل الخبرات اللازمة والمعارف التي ساعدت على نماء قـدرة البشريـة وبنـاء حضارتها .

ويظل مصطلح (المفهـومـات المجردة) بحـاجـة إلى التخصيص ومـزيـد من البيان فهي عندنا تمثل مرحلة أخرى من النمو اللغوي الذي يعبر عن العالم الـذهني للإنسان ، فالمجردات لا تتنـاول المفردات أو الأعمـال الحركيـة أو المتصلـة بـالحواس الظــاهرة وإنمــا تعبر عن الحــالات النفسيــة والعقليــة ومفرداتها من الشعــور والانفعال ، والحكم ، في السلوك والحياة عامة وفي العلوم .

وثمة ربط بين أحوال المجتمع حضارياً ومدى غنى لغتـه بـالمجردات فـإنهـا تزداد وتنمو مع نماء ثقافته وتكامل أسباب التقـدم الحضـاري لهـا ، ويقول في هـذا المقـام كوند راتوف « إننا سنجد صعوبة شديدة في كتابـة علم الطبيعيـات بلغـة البوشمان

---

(١) اللغة والفكر ، نوري جعفر ٥٩ الرباط ، ١٩٧١ م مكتبة التومي .

(٢) الأصوات والإشارات ، كندراتوف ، ترجمة شوقي جلال ١٤ ، الهيئـة العـامـة للكتـاب القـاهرة ١٩٧٢ م .

أو بلغــة سكان أستراليــا الأصليين ، بـل من المستحيـل عمليــاً أن نعبر عن أسس الفيزياء النووية (وربما الرياضيات) باللغـة الروسيـة العـامية أو بـالإنجليزيـة العـامية ذلــك لأننــا سنضطر إلى إقحــام مفــاهيم ومصطلحــات علميــة مثـل (الكوانطا) و (السلب) الخ ...[1] ولهذا تبدو قيمة الكشف عن حركة اللغـة بين الأبعاد المـاديـة الحسيـة ، وتلـك الأبعـاد الـذهنيـة المجردة إذ تعكس قـدرتهـا على التشكل وفق الاحتياجات المتنوعة لحياة أكثر اتساعاً وأكبر تعقيـداً مع تقـدمهـا ، وتستوي عندنـا الأهميـة في المجـال العلمي ، وفي مجـال الفكر والفن ، فنحن نلتمس الطريق إلى أداء لغوي يستجيب لهذه الجوانب كافة .

وقد حلل أحمد بن فارس اللغوي في كتابه (الصاحبي في فقه اللغـة) مجموعـة من الألفاظ الإسلامية ، وبيّن المنطلق الحسي لعدد منها وسنعرض مـاجـاء لـديـه قبل تناول مـاأتى بـه النقـاد الشراح لنعقـد الأسبـاب فيما بين العمل اللغوي العـام واهتمامـه بـالظواهر الـدلاليـة ، والعمـل النقـدي فكـلاهمـا يشكـلان ـ في النظرة الكلية ـ نسيج القرن الرابع أدباً ولغة :

« فالإسلام والمسلم إنما عرفت العرب منه إسلام الشيء ، ثم جاء في الشرع من أوصافه ماجاء وكذلك كانت لاتعرف من الكفر إلا الغطـاء والستر . أمـا المنـافق فـاسم جـاء بـه الإسـلام لقـوم أبطنـوا غير مـاأظهروا ، وكان الأصـل من نـافقـاء اليربـوع ، ولم يعرفـوا في الفسـق إلاّ قـولهم : فسقت الرطبـة ، إذا خرجت من قشرهـا ، وجـاء الشرع بـأن الفسـق : الإفحـاش في الخروج عن طـاعـة الله ـ عـزّ وجل ـ وكـذلـك الزكاة لم تكن العرب تعرفهـا إلا من نـاحيـة النماء ، وزاد الشرع فيها مما لاوجه لإطالة الباب بذكره[2] » . ويورد ابن فارس هذه الأمثلة في سياق يضم مفردات أخرى كالصلاة والصوم والمؤمن ، وهو يفسرها على أنها مصطلحـات

(١) الأصوات والإشارات ٧٨ .

(٢) الصاحبي في فقه اللغة . أحمد بن فارس ٧٩ ـ ٨١ .

تنـاظر معـاني أخرى للألفـاظ كما يكون شـأن الكلمـات الاصطـلاحيـة في العلـوم والفنون كالنحـو والعروض والشعر ، ولنـا أن نقـول في هـذا المضار : « ثمـة اسمان لغوي وصنـاعي أو شرعي[1] » ممـا يحملنـا على شرحهـا بحسب المنطق ـ رغم أن ابن فارس يجهر بعدائه للفلسفة ـ فـالألفـاظ يزاد في منطوقهـا شروط وصفـات تجعل ما يصدق عليه التعريف يضيق إلى أن يختص بجـانب محـدد إضـافـة إلى نقلـه من الحيّز الحسي إلى المجال التجريدي باستخراج أوجه للشبه كما في (نـافق والمنـافقـة) والنـافقـاء التي تتخفى وتستتر في أفعـالهـا ، فـالمنـافـق إنمـا يبـدي أشيـاء ويضمر ما يخالفها ويستعين على أغراضه الخفية بالتستر بعيداً عن الأعين .

وثمة مصطلح يقترب ابن فارس من تحليله إلا أنـه لا يتعمق التـاريخ اللغوي بالقدر الكافي ، إنه يلجأ إلى المجاز في كلمـة : (التيمم) لمسح الوجـه من الصعيـد ، « فقـد قـال علمـاؤنـا : العرب تسمي بـاسم الشيء إذا كان مجـاوراً لـه أو كان منـه بسبب ، وإنما (التيمم) : الطلب والقصد يقال تيممتك وتـأممتـك أي تعمـدتـك . ومن ذلك تسميتهم السحـاب والمطر سماء[2] » ، وكان الأجـدر أن يعود ابن فـارس إلى معنى : (القصـد والطلب) في التيمم ويحلـل مـادة (ي م م) التي تعني في الأصول السامية : البحر ، النهر ، الغدير ، والماء عامة ، وفي السريانية كذلـك : (ي م ا : بحر ، نهر غدير ، و م ي ا : ماء)[3] . وإذا ما راجعنا الحصيلة اللغوية ممثلة بالقاموس المحيـط نجـد تردد الأصل اللغوي (ي م) دلالـة على البحر عـامـة وعلى مواضع عدة في الجزيرة العربية « يم ماء بنجد ، واليمامة : بلاد الجوّ في وسط الشرق عن مكـة ، واليمـة موضـع ، وبنـو يَمٍّ بطن[4] » وهـذا يـدل على أن العرب قـديمـاً عرفت مواضع الميـاه سواء الغـدران أو الأنهـار أو شـواطىء البحر ، ومن ثم

(١) الصاحبي ٨١ .
(٢) الصاحبي ٩٤ .
(٣) قاموس سرياني ، كوستاز ١٤١ ، ١٨١ .
(٤) القاموس المحيط (٤/١٩٣ ـ ١٩٤) .

يكـون : (التيم) هـو طلب المـاء والسفر إليـه ، وبعـد ذلـك عمّم المعنى فغـدت الدلالة شاملة كل قصد وطلب .

وهناك مصطلح أدبي تاريخي ذو صلة بالإسلام ، وما طرأ على الحياة العربية بقدومـه يعرضـه ابن فـارس وهو : (المخضرم) ويرجح واحـداً من احتمالين وأولها يجتاز مابين الحسي والمجرد الـذهني ، فـالمخضرم ، من خضرمت الشيء إذا قطعتـه وخضرم فلان عطيته أي قطعهـا ، فسمي هؤلاء ـ الشعراء ـ مخضرمين كأنهم قطعوا عن الكفر إلى الإسلام ، وثمة احتمال آخر ـ وهو مـا يفضلـه ابن فـارس ـ ينتج عن فهم خاص للشعر ، بل هو صدى لقولة الأصمعي في حسان بن ثابت وشعره الـذي لان لمـا دخـل في الإسـلام[1] : « ويمكن أن يكـون ذلــك ـ المخضرم ـ لأن هـؤلاء الشعراء نقصت رتبتهم في الشعر ، لأن حـالـة الشعر تطـامنت في الإسلام لمـا أنزل الله جل ثناؤه من الكتاب العربي العزيز وهذا عندنا هو الوجه ، لأنـه لو كان من القطع لكان كل من قطع إلى الإسلام مخضرمـاً والأمر بخلاف هـذا[1] » ، ولن نقف طويلاً أمام ترجيح المصنف ونكتفي بإيراد التعليل الأول على أنه يتسق والأمثلة السابقة وما سيأتي فيا بعد منها .

والمثال الأخير من أمثلة ابن فارس عام وهو يدعم هذا النوع من التحليل « فقـد قـال قوم اشتقـاق (المعنى) من الإظهـار ، يقـال : عنت القربـة إذا لم تحفـظ المـاء بـل أظهرته ، وعنوان الكتاب من هذا . وقـال قوم : المعنى من قول العرب : عنت الأرض بنبات حسن إذا أنبتت نباتاً حسناً[2] » وههنا تتقدم الدلالة الماديـة سواء في القربـة أو الأرض ، ومنهما ومن الصفات المتصلة بها تتخلق الدلالة المجردة الذهنية .

---

(١) ينظر في الشعر والشعراء لابن قتيبـة (٣٠٥/١) ، حيث يقول الأصمعي : « الشعر نكـد بـابه الشر ، فإذا دخل في الخير ضعف ، هذا حسان بن ثابت فحل من فحول الجاهلية ، فلما جـاء الإسلام سقط شعره » .

(٢) الصاحبي . أحمد بن فارس ٩٠ .

وتستوقفنا التفاتة للحاتمي في رسالته (الموضحة) إذ تناول تطور دلالة حسية جزئية لتغدو معنى مجرداً ذهنياً وذلك في بيت المتنبي .

وقتلنَ دفراً والدُّهيم فما ترى   أمَّ الدهيم وأُمَّ دفرٍ هابل

فهو يقول : « أما الدهم فمن أسماء الداهية ، والأصل في ذلك أن ناقة كانت لبعض الملوك تسمى الدهيم ، فقتلَ قوماً وبعث برؤوسهم عليها في غرارة ، فلما جاءت قالوا : عليها بيض نعام ، فقال الرسول انظروا عما يفرخ البيض ، فلما نظر إلى رؤوس أولاده قال :

وعند الدهيم لو أحلّ عقالها   فتصعد لم تعدم من الجن حاديا

ثم كثر تشاؤمهم بهذا الاسم حتى جعلوا الداهية دهياً[(١)] » ولقد روى ابن جني القصة معللاً التطور الذي خضعت له الكلمة في شرحه (الفسر) بشكل مختصر[(٢)] .

وإن صنيع الحاتمي يجعل ظاهرة التحليل الدلالي ومعرفة تطور الدلالات غير قاصرة على الشروح بل تتعداها إلى ضروب النشاط النقدي الأخرى . في المصنفات المعروفة في القرن الرابع وإننا بحاجة إلى التأكيد على الصلة القائمة بين عمل اللغويين كأحمد بن فارس وأعمال النقاد لأن ثقافة العصر لم تكن منفصلة أجزاؤها بعضها عن بعض ، بل هي متكاملة ، وهذا التداول للمعطيات اللغوية مخصصة الجانب الدلالي يعكس فهماً عميقاً لدور أداة الأدب : (اللغة) في تحليله وإدراك أبعاده عند أسلافنا النقاد والأدباء .

ويشير ابن النحاس إلى دلالتين ترتبطان بالإسلام وقيمه ، وذلك خلال شرحه معاني بيتين لطرفة وامرئ القيس ، فطرفة يأتي على ذكر (البرك) في معلقته إذ يقول :

---

(١) الموضحة للحاتمي ٦٠ .

(٢) الفسر الصغير لابن جني ٢٤٨ ب .

وبركٍ هجودٍ قد أثارت مخافتي نــواديَهـــا أسعى بعضب مجرد

ويلحظ الشارح أن القصد هنا من البرك : الإبل الباركة ، ويستطرد إلى الفعل المشتق (برك) إذا ألقى البعير صدره على الأرض ومنه سمي الصدر بركاً وبركة ، وينتقل إلى دلالة أخرى : فالبركة - يقال - مشتقة من البرك لأن معناها خير مقيم ، وسرور لازم ، وقولهم مبارك معناه الخير يأتي بنزوله ، « و﴿ تبارك الله رب العالمين ﴾ [الأعراف ٧/٥٤] منه »[1] فالتطور اتخذ طريقاً من الحسي المحدود إلى معنى مجرد لا ينحصر في الإطار المادي ، ولئن كانت النقلة سابقة على الإسلام في هذا الأصل اللغوي فإنها تأكدت وغدت ثابتة ضمن مفهوماته .

ويعرض الشارح لاستخدام مادي لامرئ القيس في معلقته ويرينا كيف يتأدّى المعنى إلى طرف آخر ذهني ذي صلة بالمعاني الروحية الإسلامية ، ففي المعلقة :

فلمّا أجزنا ساحة الحيِّ وانتحى بنا بطن خَبْت ذي قفافٍ عقنقلِ

« الخَبْت : هو ما اطمأن من الأرض ، والمخبت مشتق من هذا فمعنى المخبت : المطمئن بالإيمان بالله والتوكل عليه »[2] .

وهذان المثالان هما الموصلان إلى النماذج التالية التي تشتمل على صور من الحياة العربية القديمة بشكل عام إذ تستمد من المراحل السابقة من الأغلب على الإسلام . وسنبدأ بما هو صريح العبارة في مسألة النقل والاشتقاق من الأصل الحسي وسيتعدد النقاد كيما نؤكد البرهنة على (فرضيتنا) كما سيكون لنا التعليق أو إعادة التصور للتتابع الذي انتهجته المادة اللغوية المعالجة وسنحاول في كل موضع ألاّ نخرج عن معطيات نص الناقد وافتراضاته هو نفسه أي سنتصرف في

(١) شرح القصائد التسع المشهورات ، أبو جعفر بن النحاس ٢٧٦ .

(٢) شرح القصائد التسع . ابن النحاس ١٣٥ .

الترتيب وفق الحدود الاجتماعية والتاريخية واللغوية وبيت لبيد :

يعلــو طريقــةَ متنهـــا متــوتراً   في ليلــةٍ كفَرَ النجــومَ غمــامُها

يثير الدلالـة (كفر) ويجتمع ابن النحـاس ، وابن الأنبـاري عليهـا ويوردان عدداً من الـدلالات المـاديـة بمعنى غطّى ويكون المـآل : المعنى الإسلامي المخصّص اصطلاحاً . ونبدأ بالسياق وما تدل عليه الكلمة فيه « كفر : غطّى يريد الشـاعر أنها ليلة مظلمة قد غطى السحـاب فيهـا النجوم ، ويقـال : إنما سمي الكافر كافراً لأنـه غطى مـا ينبغي أن يظهره من دين الله جـل وعـز . وقيـل لأن الكفر كفر قلبه أي غطاه[1] » ، ويزيد ابن الأنباري أمثلة مادية ، فإنه « يقال كفرت المتاع في الوعاء إذا غطيتـه . ويقـال قـد كفر على درعـه بثوبـه إذا ستره ، والكافور من الطَلْع من هـذا مـأخوذ . وجمعـه كـوافير . وقـال الله تبـارك وتعـالى : ﴿ أَعْجَبَ الكُفَّارَ نَبَاتُهُ ﴾ [الحديد ٢٠/٥٧] : معناه أعجب الزراع ، واحـدهم كافر ، وإنما قيل للزارع كافر لأنـه إذا ألقى البـذر في الأرض غطـاه بـالتراب[2] » . وفي موضع آخر يؤكد ابن الأنباري معنى الغطاء في قول المتلمس :

وألقيتهــا بـــالثني من جنب كافرٍ   كــذلــك أقنـو كلَّ قــطٍّ مضلّـل

فقد قال أبو عمرو ـ بن العلاء ـ « **كافر** : نهر بالحيرة ، وقـال غيره : كافر نهر قــد ألبس الأرض وغطــاهـــا ، ويقـــال للسيـــل كافر ، لأنـــه يلبس كل شيء ويغطيه[3] » ، وتلاحظ الأصول السـاميـة متوافقـة في الجـانب المـادي من الأصل اللغوي ، وفي السريانية : ܟܦܪ : قرية و ܟܘܦܪܐ : كافر جاحـد)[4] ، ولقـد ظـل الاستعمال المتعلّـق بـالـزراعــة مستمراً حتى العصر الحـديث على شكل اسم

(١) شرح القصائد التسع لابن النحاس ٤٠٢ ـ ٤٠٣ .

(٢) شرح القصائد السبع لابن الأنباري ٥٦٠ .

(٣) شرح ابن الأنباري ١٢٤ .

(٤) قاموس سرياني ١٦١ .

للتجمعات السكانية حول مناطق زراعية في أرجاء شتى من الأقطار العربية ففي مصر تكثر تسمية (كفر) : كفر الدوار ، كفر الزيات ، وكذلك في سورية لدينا تسميات (كفر تخاريم في المناطق الشمالية) و (كفر سوسة ، وكفر بطنا حول دمشق) ، وهكذا يعايش المعنى الذهني الدلالة المادية في بعض صورها ، ولا يلغي الجديدُ القديم .

ويرينا النقاد ضرباً آخر من التحول إذ يمثل المنطلق بعض أجزاء الجسم فهي تحمل خصائص فيها دلالات مميزة تتنامى وتتخذ لها صيغاً واشتقاقات تجمع بين الأصل المادي ، والدلالة التجريدية الذهنية ـ النفسية ـ ويشرح لنا ابن الأنباري بيت عمرو بن كلثوم :

تريــكَ إذا دخلتَ على خـلاءٍ ... وقـد أمنتْ عيـونَ الكاشحينـا

« فالكاشحون : هم الأعداء واحدهم كاشح ، إنما قيل له كاشح لأنه يعرض عنك ويوليك كشحه ، والكشح والخصر والقرب واحد وهو ما يلي الخاصرة ، وقال آخرون : إنما قيل للعدو كاشح لأنه يضمر العداوة في كشحه ، ويؤكد هذا الرأي ابن النحاس في شرحه[1] وقالوا إنما خص الكشح لأن الكبد فيه فيراد أن العداوة في الكبد ، ولذلك يقال عدو أسود الكبد أي شديد العداوة قد أحرقت كبده[2] ، ويسهم ابن جني في هذا السباق ، فيذكر انتقال الدلالة للفظ (شغاف) من الغلاف الرقيق المحيط بالقلب إلى الحب والعشق بعد الإفادة من الاشتقاق باستعمال فعل من المادة اللغوية الأولى في بيت المتنبي :

إلى ذي شيمــةٍ شغفت فـؤادي ... فلـولاهـا لقلت بهـا النسيبـا

(فشغفت) ـ أي غلب على قلبي حبها . يقال شغف الرجل فهو مشغوف ،

---

(١) شرح ابن النحاس ٦٢٠ .

(٢) شرح ابن الأنباري ٣٧٨ .

وهو قد شغفها ، وبالكسر على وزن عشقها ومعناهما واحد ، وقضوا أيضاً : شغفها بالغين معجمة وفسروه : بلغ حبه شغاف قلبها وهو قميص القلب وغلافه[1] .

وتعرف المجتمعات البشرية في أوليتها الربط بين أعضاء الجسم والانفعالات لكنها تحتفظ بها مع التطوير الذي يلحق بها ، ويخبرنا يوجين نيدا ببعض مااستطاعت الدراسات أن تحصيه من هذه العلاقات لدى القبائل والشعوب التي تحيا حياةً أقرب ماتكون إلى الأشكال الأولى للمجتمعات البشرية ، فعلى سبيل المثال يتكلم سكان الموسيس في فولتا العليا عن معظم الحالات العاطفية في ضوء القلب (مثلاً : القلب عذب تعني الفرح ، القلب متلوف تعني الحزن . والقلب متعتم تعني الخنوع ، والقلب مجدب تعني الغيرة) ، وفي لغة الكونوب في غواتيالا تعتبر الأمعاء مركز الحياة العاطفية ، وفي لغة المارشال في ميكرونسيا يوصف عدد من الحالات النفسية استناداً إلى الحَنْجَرة ، وفي بعض اللهجات الميلانسية في نيوكاليدونيا يعتبر الجلد عضواً مهماً في الحياة الوجدانية وفي لغات أخرى خفيضة يمكن أن تستعمل المرارة والكلى والأحشاء كعناصر مركزية في وصف الحالات النفسية[2] » وعلى العموم فإن ردود الفعل الجسدية بيّنة في المجتمعات القديمة والحديثة ، ولكنها تظل محدودة مع التفريعات والابتكارات اللغوية ، وللعربية قدرتها على التوليد والخلق بعد أن تجعل الكلمة المادية بؤرة تشع الاستخدامات المختلفة .

ومن أمثلة ابن الأنباري ماجاء حول الغلو وانتقاله من الارتفاع المكاني أو المحسوس عموماً إلى المجرد الذهني ويكاد يكون بسط المسألة متدرجاً من المعنى المجرد إلى المحسوسات أي بعكس ماهي عليه في اللغة تاريخاً ، وما هذا من الشارح إلا

---

(١) الفسر الكبير ، ابن جني ، (٣١٧/١) .

(٢) نحو علم للترجمة ، (يوجين أ . نيدا) ١١٦ .

استجابة لمتطلبات عرض السياق أولاً ثم استيفاء جوانب الدلالات فالحارث بن حلزة يقول :

أن إخــوانـنـــا الأراقم يغلـــو ن علينـــا في قـــولهم إحفـــاء

فقوله (يغلون علينا) معناه يرتفعون علينا في القول ، ويظلموننا ، ويحملوننا ذنب غيرنا ، ويطلبون ماليس لهم بحق . وأصل الغلو في اللغة : الارتفاع والزيادة . قال الله عز وجل ﴿ لاتَغْلُوا في دِينكُمْ غَيْرَ الحَقّ ﴾ [المائدة ٥ / ٧٧] أراد لاتجوروا ولا ترتفعوا عن محجة الطريق ، وجاء في الحديث « من إجلال الله عز وجل إجلال حامل القرآن غير الغالي فيه ، والجافي عنه ، وإعظام ذي الشيبة المسلم » أراد غير المرتفع عن محجة القصد . ويقال : غلا السعر إذا ارتفع وزاد . ويقال غلا الصبي إذا شب وزاد . ويقال غلا النبات يغلو إذا طال ، ويقال فعل ذلك في غلو شبابه أي في أوله وزيادته . قال عبد الله بن قيس الرقيات :

لم تلتفت للـــداتهـــا ومضت على غلـــوائهـــا

أي سبقت نظراءها في السن ، وزادت عليهن[1] ، وكذلك يشرح انتقال فكرة التقويم من الدلالة الحسية في الرماح إلى أمور ذهنية ، فالثقاف في قول عمرو بن كلثوم :

إذا عضّ الثقــاف بهـــا اشمأزّت وولّتهم عشـــوزنـــه زبـونـــا

هي ماتقوم به الرماح ، وقد قال عبد الله بن مسعود (رضي الله عنه) : أعربوا القرآن فإنه عربي ، فإنه سيجيء قوم يثقفونه وليسوا بخياركم (فمعنى يثقفونه يقومون

(١) شرح ابن الأنباري ٤٠٤ .

حروفه كما يثقف المثقف الرمح) وهنا تظهر المشابهة بين استواء الرمح وصلاحيته ، وما تكون عليه الأفكار والألفاظ من صحة وإفادة دون خلل أو انحراف عن القصد .

وينفرد ابن النحاس كذلك بأمثلة نذكر منها تحديده الأصل المادي لمعنى السيادة في (البعل) والبعولة . فبيت عمرو بن كلثوم يثير المسألة :

أخـــذن على بعـــولتهن عهـــداً   إذا لاقـــوا فـــوارس معلمينـــــا

« إذ البعولة ههنا في النص : الأزواج ، واحدهم بعل . وأصل البعل في اللغة ماعلا وارتفع ، ومنه قيل للسيد بعل ، قال الله عز وجل : ﴿ أتدعونَ بعلاً وتذرون أحسنَ الخَالقين ﴾ [الصافات ٣٧ / ١٢٥] أي أتدعون ماسميتموه سيداً . ومنه قيل لما روي بالمطر بعل[١] » .

وإن مراجعة هذه المادة في اللغات السامية تؤكد معنى العلو والارتفاع فيها ، فاللفظ متداول على أنه من أسماء الآلهة المعروفة حتى عند الأمم العربية القديمة التي ذكرها القرآن الكريم كما يشير إلى ذلك صاحب القاموس المحيط « بعل : صنم كان لقوم إلياس عليه السلام » ويورد الآية التي استشهد بها ابن النحاس : ﴿ أتدعون ﴾ الآية ... وإن الدلالة على الأرض المروية بماء المطر دليل على الاتصال بين بعل (الإله) والعالي (السماء) حيث تتكون السحب والأمطار وتهطل ، ومن ثم تتطور الدلالة إلى معنى السيادة والهيمنة المجردين اللذين ينعكسان في أشكال أخرى ترتبط بالزوج ، والسيد ، وصاحب الشيء ، وليس في الأمر أي تعارض بين المعنى المقدس (بعل) والاستعمالات الأقل شأناً ، وذلك أن لفظاً آخر تزدوج فيه دلالتان واحدة قدسية وأخرى عادية : الرب ، فثمة أيضاً : رب الأسرة ،

(١) شرح ابن النحاس ٦٧٥ .

ورب العمل ، وربة البيت ، وإن يكن صاحب القاموس المحيط يذكر أنه لا يطلق باللام ـ أي مع أداة التعريف ـ لغير الله عز وجل[1] .

وفي بيت عنترة :

طوراً يجرَّد للطعّان وتارةً ... يأوي إلى حصد القسي عرمرم

يفسر الطور بالمرة والوقت ، ونجد البداية المادية لهذا المعنى المجرد في سياق شرح آية ﴿ وقد خلقكم أطواراً ﴾ [نوح ٧١ / ١٤] ، وأصل هذا من الناحية : ما يمر بطوار الدار أي بناحيتها ، وجاز فلان طوره أي ناحيته وحده[2] .

وفي جانب آخر يشرح ابن جني الأصل المادي لمعنى مجرد قريب كل القرب مما ذكره ابن النحاس ، فإن (تارة) في بيت الهذلي :

حين السيوف بأيدي القوم ناصلة ... تصدر عنهم وفيهم تارة ترد

ينبغي أن تكون عينها واواً اشتقاقاً وقياساً ، أما الاشتقاق ، لأنها من معنى (التور) أي الرسول والتقاؤهما أن الرسول من شأنه أن يذهب ويجيء ، والتارة هكذا معناها فهي ترد الشيء طوراً كذا[3] » فمن الحركة المرتبطة بالرسول والرسالة يرى ابن جني منطلق المعنى الذهني لـ (تارة) .

ويعرض ابن جني مثالاً آخر فيه انتقال المعنى الحسي بواسطة المشابهة إلى الدلالة الذهنية ، ذلك أن رواية لفظ (نلحاك) بالحاء تستدعي قوله بأن « فيه لغتين : لحوت ، ولحيت لحواً ولحياً ، ثم يقول وغصن ملحو وملحيّ ، ومنه

---

(١) القاموس المحيط مادة (ب ع ل) ، (ر ب ب) .

(٢) شرح ابن النحاس ٥٠٦ .

(٣) التمام في شرح بقية أشعار هذيل ، ابن جني ١٢٣ .

ـ أخذ ـ تلاحى الرجلان أي تشاتما ، وكأن كل واحد قشر صاحبه[1] » فهنا نرى أن الغصن يزال لحاؤه عنه فهو ملحو ، والرجل يغيب ذكر فضائله فهو ملحو كذلك وبذا يستقيم معنى لمن يشتق الفعل : تلاحى ، ولحاه .

ب ـ لقد وقفنا في النماذج السابقة على عبارات واضحة في بسطها للانتقال بين المجالين الحسي والذهني ، وفي هذه الفقرة سنورد أمثلة لمجموعة من المفردات لم ينص فيها ذلك النص الصريح ولكنها تومئ إلى التحول أو هي في أحيان تترك لنا المواد في حيز متقارب يسهل التصور فيه لذاك التحول ، وقد آثرت أن أفردها ـ حتى في الجداول الملحقة بالفصل ـ ليكون أمر مناقشتها لدى الدارسين ميسوراً ، فنحن نتناول مسألة ذات أهمية في التأريخ لتطور الدلالة في العربية .

وابن الأنباري يسرد عدداً من الدلالات لمادة (ج ل و) في عرضه لبيت امرئ القيس :

ألا أيها الليل الطويل ألا انجلي   بصبح وما الإصباح منك بأمثل

وينقل أولاً عن يعقوب بن السكيت قوله : (ألا انجلي) أي ألا انكشف ، والأمر الجالي : المنكشف ثم يشرح العبارة المشهورة (أنا ابن جلا) فهي : أنا ابن المنجلي : الأمر المشهور وغير المستور « وتتابع الدلالات فـ (الجلية) : الأمر المنكشف ، ومنه جلوت العروس جلاء وجلوة ، جلوت السيف معناه كشفته من الصدأ ويقال جلا القوم عن منازلهم جلاء إذا انكشفوا عنها . وقال الله عز وجل ، ﴿ ولولا أن كتب الله عليهم الجلاء لعذبهم في الدنيا ﴾[2] [الحشر ٣/٥٩] .

---

(١) التمام ، ابن جني ٢٢ ــ٢٣ .

(٢) شرح ابن الأنباري ٧٧ .

ولنا بعد هذا العرض الذي لايحرص فيه ابن الأنباري على الترتيب في الاشتقاق مبنى ومعنى أن نتصور الحلقات المتتالية لتطور الدلالة بحسب معطيات الحياة العربية القديمة ، ومسلكنا هذا يسوغه أن اللغة مرتبطة أشد الارتباط بالحياة الاجتماعية ، وما يتصل بها : فأول المراحل هي المتعلقة بالسيف ورفع الصدأ عنه والعروس وزينتها فهي تبدل هيئتها في ذاك اليوم المميز الحافل بالبريق والألوان الزاهية ، والمرحلة الثانية حسية كالأولى ، وفيها تظهر الديار التي جلا عنها أهلها خاصة أوقات الغارات والحروب فهي تبدو كالسيف الصقيل إضافة إلى معنى الإزالة بفضل القوة والغلبة كما يكون الشأن في إزالة الصدأ وأوضار الصحراء والعمل في حالة العروس ، والمرحلة الثالثة هي : التجريد الذهني المرادف للوضوح والظهور . في بيت عمرو بن كلثوم :

ونحن الحاكمون إذا أطعنْا ونحن العازمون إذا عُصينا

يشرح ابن الأنباري المعنى السياقي ، فنحن الحاكمون معناه : نحن الذين نمنع الناس من كل مالا ينبغي لهم الدخول فيه ، ثم يروي المعاني الدائرة حول المادة (ح ك م) فعن ابن الأعرابي أنه يقال : قد أحكمت الرجل إذا رددته عن رأيه ويقال : احكم بعضهم عن بعض « أي أردد بعضهم عن بعض . ويقال : إنما سميت حَكَمة الفرس حكمة لأنها ترد من غربه أي من حده . ويقال قد حكم الرجل يحكم إذا تناهى وعقل »[1] .

وفي هذه المسألة انتقال من المحسوس إلى المجرد الذهني ، فالدلالة في صورها الأولى إنما اتصلت بالضبط والتنظيم للأشياء فيما بينها ومن ذلك (حكمة الفرس التي تضبط حركته خاصة وأن مظنة الدمج بين أصلين ثنائيين قائمة بين (حَكّ ، وكمّ = حَكَم) فالصوت المنبعث من الحك والاحتكاك ، وكذلك من التكميم

---

(١) شرح ابن الأنباري ٤١٠ .

يتوافقان مع وظيفة الحكمة ، والمرحلة الثانية حسية أيضاً إذ يشتهر بعضهم بمهارتهم وقدرتهم على تنظيم الأشياء ويتأدى هذا إلى المعنى الذهني المرتبط بالعقل والتفكير مع ماللعقل من ارتباط بالمعاني الحسية (عقل الناقة : ربطها) .

ولدى ابن النحاس أمثلة يمكننا تحليلها لنشير إلى الأصول الحسية التي تفرعت منها المعاني المجردة الذهنية ، ودليلنا هنا كذلك القرائن المستمدة من حياة الجزيرة العربية في عهود النشأة والنمو للعربية وتستوقف الناقد كلمة (شطط) في قول الأعشى :

لا ينتهون ولا ينهى ذوي شطط   كالطعن يهلك فيه الزيت والفتل

فيقول : « الشطط : الجور . والفعل منه أشطّ ، ويقال شطّت داره إذا بعدت »[1] ، وإننا إذا رجعنا إلى القاموس المحيط وجدنا أن (الشط) شاطئ النهر جمع شطوط . وشطان ، والشط بلدة باليامة ، وأشط في المفازة ذهب ؛ وهذا يرجح أن الرمز اللغوي انصرف في البدء إلى المحسوسات ، فسواحل البحر والأنهار بعيدة عن قلب الجزيرة وأواسطها ، والرحلة إليها بعيدة حتى لتقترن بالهلاك (المفازة) لكثرة احتمالات الضياع في السفر البعيد ، ويمكننا تصنيف مراحل الدلالة كالتالي : ١ ـ الشط آخر مكان للإنسان قبل الخوض في الماء ٢ ـ بيته على الشاطئ ـ الشط وقد شط أي بعد ٣ ـ الشطط : الإيغال في التصرفات والأحكام (المعنى الذهني) .

وفي رواية لبيت عمرو بن كلثوم :

بأي مشيئة عمرو بن هند   تطيع بنا الوشاة وتزدرينا

ينتهي البيت بكلمة (يزدهينا) في رواية فيشرح ابن النحاس المعنى

---

(١) شرح ابن النحاس ٧٢٦ .

السياقي : زهى فلان علينا ، وازدهى بنا إذا تكبر علينا ، ويقال « زهاه الله أي جعله متكبراً » ، ثم يروي عن الأصمعي أنه يقال « أزهى النخل إذا ظهرت صفرة ثمرهِ ، وحمرتُه . ولا يعرف زها النخل بغير ألف » . وذكر غير الأصمعي : « زهى البسر إذا احمرّ أو اصفرّ[1] » . ونحن نرجح هنا الانتقال من الدلالة الحسية (أزهى النخل ، وزهى البسر) :

ففي هذه الحالة ينتقل الجمال والعلو ـ إلى المجرد الذهني : الخيلاء والتكبر ، مروراً بمرحلة يرتبط فيها التكبر بالهيئة المميزة (الملابس ، والزينة كزهو الزهر والثمر في عليائه وتفرده) .

ويعرض ابن جني في بيت أبي صخر الهذلي :

تجلو عن أوجه جنة وكشوحها   أو عن مهابلق بجو باقل

لصياغة لفظة (مها) ويستعرض عدداً من الدلالات يستنتج منها انتقال الدلالة في الأصل اللغوي (م و ه) من الماء إلى التحسين ، ومن ثم إلى الخداع والتضليل : فألف (مها) واو لأنه في الأصل : البلور ، ويقال إلى البلور ، ثم شبه النجوم بها وبقر الوحش أيضاً لبياضها ، ويدل على أن ألف (مها) بدل من واو أنه معنى الماء لبياض البلورة وصفائها . « وقد قالوا : موهت علي إذا حسن حديثه وجعله كأن عليه ماء[2] » .

ولنا أن نتصور انتقال صفاء الماء والبياض المنعكس إلى البلورة ثم الانتقال إلى الصيغ القريبة كالماوية : المرآة ، وكذلك إلى بقر الوحش لبياضها فتسمى (مها) وبعدها يكون الانتقال إلى المعنى المجرد : الخداع والتضليل سائغاً .

---

(١) شرح ابن النحاس ٦٥١ .

(٢) التمام ـ ابن جني ١٨٥ .

ويقف ابن جني أمامَ لفظ (طمام) في بيت من أرجوزة أبي نواس الرائية :

يمّـــن من جـــنَبي هجَـــر   أخضر طمَّـــــــــام العكر

فيقـول : « طمام مرتفـع بـزنـه (فعَّـال) من الطم ، ومنـه الطـامّــة وهي (فاعلة) من هذا المعنى ، ومنه قيل : هذا أطمُّ من هـذا أي أرفع منـه وأعظم[1] » ونستدعي بعض الاستعمالات يوردهـا صـاحب القـاموس « فـالأُطُم : القصر وكل حصن مبني بحجـارة ، وكل بيت مربع مسطح ، وأطم على البيت أرخى ستوره ، وآطم بابه أغلقه ، وتأطيم الهودج ستره بثيـاب[2] » وهنـا يرجع تفريع المعنى المجرد الذهني من المادي الحسي خاصة وأن (الطامـة) انتقلت من الوصفيـة إلى الاسميـة فكأنما المصيبة طامة ، أي بـالغـة مـدى بعيـداً وكبيراً ومغطيـة كل مـاعـداهـا من الظواهر وأمور الحياة ، ومن ثم تحولت الصفة إلى الاسمية .

وفي نهاية هذه الأمثلة نلحظ أن ميزة العربية في الاشتقاق واشتجار علاقـاتـه بـارزة في معظم المواضع التي ذكرنـاهـا ، فليس الأمر مقصوراً على مفردة تتحـول من مجـال حسّي إلى آخر ذهني مجرد ، وإنمـا هو الأصل اللغـوي فتتسـع الاحتمالات لفروع اشتقاقية وتستوي في الأهمية الأسماء المصدرية ، والأفعال ، والأسماء المشتقة في كونها منطلقاً لتحول الدلالة ـ وإن ما يخالف هـذه القـاعـدة من ورود التحول خـاصـاً بمفردة لا تنعكس على أصـل المـادة قليـل بـالقيـاس إلى معظم الحـالات (التارة ، الطور ، بعل) .

ولنـا تعليـل لاستعـانتنـا في شرحنـا وتحليلنـا بمواد لغـويـة من القـامـوس المحيط ،فهو يمثل حصيلة اللغة العربيـة الفصحى في حـدودهـا الاحتجـاجيـة التي

---

(١) تفسير أرجوزة أبي نواس ، ابن جني ١١٤ .

(٢) القاموس المحيط (٧٥/٤) .

أثبتنا أبعادها في الفصل الأول مما يجعل صنيعنا غير بعيد عن إطار القرن الرابع والمادة اللغوية المتداولة لدى النقاد واللغويين .

٢/٢ التطور بين الدالات على المحسوسات (التوسع ، التخصيص ، الانتقال)

في هذا القسم من الدراسة نعرض لنماذج من التطور الدلالي مختلفة عما سبق لنا الحديث عنه ، فلدينا عدد من الأمثلة التي ظلت في المجال المحسوس المتصل بالإنسان والحيوان والأشياء والطبيعة عامة ، ولكن استعمالها جعلها تتحول وتتغير أنماطاً من التغير تستجيب لذاك التقسيم الذي وصفه اللغويون الأوربيون بأنه منطقي أي أن الدلالات كانت تتجه ، إما (أ) نحو الاتساع والتعميم ، (ب) إما نحو التخصيص (ج) وإما طلباً لمجال حسي آخر .

ولا نريد في هذا الحيز أن نحمّل النقاد القدماء عبء المصطلح اللغوي الحديث فإنهم لم يصرّحوا بتسميات لأقسام ، وإنما هو تصرفنا نحن في الترتيب والتصنيف فالمادة اللغوية مستخدمة في المصنفات والشروح وفق فهم ومعايير ضمنية ودورنا هو إيضاح القضايا والمسائل الموجودة بأكبر قدر من المعاصرة ، وإذا ما كانت القضايا غير مطروقة بشكل مفصل لدى النقاد فإننا نبسط جوانب تكملها .

وسيكون تناولنا للمسائل بحسب النهج الذي اتبعناه في القسم الأول فنكتفي بأمثلة ونترك سائر المواضع التطورية إلى الهوامش التي تلحق جداولها بهذا الفصل .

أ ـ **أما الجزء الذي تتسع فيه الدلالة** بعد أن كانت حدودها التي تنتشر فيها ضيقة ففيه نطالع أمثلة لغير الشراح ، فثمة اللغوي أحمد بن فارس ، وصاحب كتاب إعجاز القرآن : الخطابي ، وكذلك الآمدي ، والمرزباني من أصحاب

التآليف النقدية التي تتخذ مساراً مختلفاً في أشياء في كتب الشروح ومكملاً لها . وهذا التعدد في الباحثين يجعل الظاهرة الدلالية أكثر رسوخاً في البناء الثقافي للقرن الرابع على الرغم من غلبة جهود الشراح في عرض تطور الدلالة وقد تكون الغلبة راجعة إلى طبيعة مصنفاتهم التي تسمح بهذا التميز .

إن أحمد بن فارس يقدم لنا مادة تعارف عليها نفر من اللغويين القدامى على رأسهم الأصمعي ، ولكن ابن فارس يعقب على ما يورده بما ينقضها وذلك بسبب نظرة خاصة له حول كون اللغة (توقيفاً من الله) وهذا الرأي فيه غرابة لا يعللّها إلا إيغال هذا اللغوي في كرهه للفلسفة وما يظن أنه متعلق بها ، فإنه يقول : « بوجود أصل وفرع ـ لغويين ـ ويأبى أن ينمو الفرع من الأصل في الجماعة العربية ويرى أنها كليهما موقوف عليه » والأمثلة التي علق عليها هي : « أن أصل الورد ـ كما يقول الأصمعي ـ إتيان الماء ، ثم صار كل شيء ورداً ، وأصل القرب طلب الماء ، ثم صار يقال ذلك لكل طلب فيقال هو يقرب كذا أي يطلبه ، ولا تقرب كذا » .

ويقولون رفع عقيرته أي صوته ، وأصل ذلك أن رجلاً عقرت رجله فرفعها ، وجعل يصيح بأعلى صوته ، فقيل بعد ذلك لكل من رفع صوته : رفع عقيرته .

ويقولون بينهما (سافة) وأصل هذا من (السوف) وهو الشم[1] .

فهذه الأمثلة (الورد ، رفع العقيرة ، السوف ، القرب) تعم فيها الدلالة مجالاً أكثر اتساعاً بأن تنتقل من أصل إلى فرع لا بمعنى الجزء بل بمعنى الاشتقاق المعنوي وتطويع المادة اللغوية إلا أن عبارة ابن فارس هي : « وقول هؤلاء

---

(١) الصاحبي في فقه اللغة ، أحمد بن فارس ٩٥ ـ ٩٦

ـ الأصمعي وأضرابه ـ (أنه كثر حتى صار كذا) ، فعلى ما فسرناه من أن الفرع موقوف عليه ، كما أن الأصل موقوف عليه »[1] .والنتيجة التي يمكننا استخلاصها هي وجود تيار أو مجموعة من الدارسين للعربية قديماً تتردد فيما بينهم فكرة (التطور) الدلالي . والخطابي صاحب (بيان إعجاز القرآن) يحلل اللفظين (أكل ، وافتراس التي تختص بفعل القتل دون شمول معنى الأكل) « فأصل الفرس : دق العنق ، والقوم ـ في الآية ـ إنما ادَّعوا على الذئب أنه أكله أكلاً وأتى على جميع أجزائه وأعضائه »[2] ، ويلتفت الخطابي بعد تمييزه هذا وتنبيهه على دقة التعبير عن حالة بعينها في القرآن دون الوقوع في تساهل بين عموم وخصوص ـ الأكل ، الفرس والافتراس ـ يلتفت إلى التوسع في الدلالات فيجعل الخاص عاماً « حتى يجعل العقر أكلاً وكذلك اللدع واللسع ، وحكى أيضاً عن بعض الأعراب : أكلوني البراغيث ، فجعل قرص البرغوث أكلاً ومثل هذا في الكلام كثير »[3] ، وبذا يجلو لنا المصنف مسألة التطور الدلالي ـ بالاتساع ـ دون لبس .

ويناقش الآمدي في الموازنة واحداً من أخطاء أبي تمام في البيت :

قَسم الزمان ربوعها بين الصَّبا وقبولها ودبورها أثلاثا

« فيقول إن الصبا هي القبول وليس بين أهل اللغة وغيرهم في ذلك خلاف »[1] ، ويورد احتمالات أخرى جاء بها أنصار أبي تمام ، كأن يريد المقابلة بين « الصبا وقبولها أي بين الصبا وسهلها ولينها ولا يكون يريد بالقبول اسمها المعروف » ويقبل الآمدي الفكرة من حيث هي احتمال لغوي عقلي لكنه يرفضها ويردها ، لأنه ماسمعنا مثل هذا في الريح ؛ ولا علمناه في اللغة ، ولا وجدنا في الشعراء أحداً قال : الصبا وقبولها ، ولا الجنوب وقبولها ، الخ ... » وأخيراً

---

(١) الصاحبي ٩٦

(٢) الخطابي أحمد بن محمد بن إبراهيم ، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن ٤١

(٣) البيان في إعجاز القرآن ، الخطابي ٤٢

يذكر رواية عن ابن الأعرابي في نوادره ـ تقول ـ إن العرب تسمي كل ريح طيبة لينة المس قبولاً ، وقال الأخطل :

فإن تبخل سدوس بدرهميها فإنّ الريح طيبة قبول[1]

فههنا يعرض الاحتمال الذي يعني اتساعاً في الدلالة إذ تخرج عن نطاق ضرب من الريح إلى صفة ـ تتحول اسماً ـ كل ريح طيبة .

وينص صاحب (الموشح) على توسيع دلالة المادة اللغوية (س ح ل) بالاشتقاق من حدود الصوت الذي يحدثه الحمار الوحشي لتغدو المسحل (أي الحمار الوحشي ذاته) فقد سمي مسحلاً لسحيله وهو صوته[2] .

ومن الاتساع في الدلالة أن (الوغَى) يدل على الصوت والجلبة في الحرب ثم عم ليدل على الحرب نفسها ، ولقد وقف عند حد الصوت كل من ابن الأنباري وابن النحاس دون ذكر التوسع إلا أنّ ابن جني يشكل ـ بتعليقه ـ تكاملاً إذ يشير إلى المسألة بطرفيها عقب بيت المتنبي :

ولو كان يوم وغىً قاتماً للبـــــاه سيفي والأشقر

« فالوغى : الحرب ، وأصله الصوت »[3] .

وابن الأنباري يحلل كلمة (غانية) ويبين أصلها المحدد ثم تطوره بالاتساع في قول عنترة :

وحليلِ غانيةٍ تركتُ مجدلاً تمكو فريصتهُ كشدقِ الأعلم

(وأصل الغانية : ذات الزوج) أي المستغنية بزوجها ، ثم قيل للشابة

(١) الموازنة ، الآمدي ١٦٣

(٢) الموشح ، المرزباني ٢٧٧

(٣) الفسر الصغير ابن جني ١٣٦ ب ، شرح ابن الأنباري ١٩٢ ، شرح ابن النحاس ٥٠٦

(غانية) ذات زوج كانت أو غير ذات زوج ، قال يعقوب أنشد أبو عبيدة :

أزمانُ ليلى كعابٌ غير غانية   وأنت أمرد معروفٌ لك الغزل

وأنشد ابن الأعرابي :

أحبّ الأيامى إذ بثينة أيم   وأحببت لمّا أن غنيت الغوانيا[1]

وثمة لفظ آخر تطور من المحدود إلى المتسع والأكثر عموماً فالخربات هي الأفعال القبيحة عامة ، وقد كان لها أصل بصورة اشتقاقية أخرى (خارب) تدل على السرقة ، ويقول ابن الأنباري حول بيت لعمرو بن كلثوم « الخربات الجنايات وما لا خَيْر فيه » . يقال رجل خارب ، وقوم خراب ، قال الطوسي الخربة الفعلة القبيحة . وقال أحمد بن عبيد : الخربة الفعلة الردية « أصل الخارب : اللص »[2] .

ويتحدث ابن النحاس عن أصلٍ وتفريع عليه بالاتساع حول بيت الأعشى :

قالوا ثماد فبطن الخال جارهما   والعسجدية فالأبواء فالرجل

« فالثماد جمع ثمد ، قال الأصمعي : الثمد وإن كان يستعمل لكل شيء قليل ، فإن أصله أن تكثر الأمطار فيحقن الماء تحت الرمل فإذا كشف ظهر . ويقال مثمود إذا كان مقتراً عليه الرزق ، وإذا وصف القوم بأنهم في حرب شديدة قيل : تركناهم يمضون الثمد ، ويقال : إن الإثمد من هذا لقلة ما يؤخذ منه وسرعة نصوله »[3] .

---

(١) شرح ابن الأنباري ٣٤٠ ـ ٣٤١

(٢) شرح ابن الأنباري ١٢٨

(٣) شرح ابن النحاس ٧١٢

فالمادة اللغوية (ثمد) كانت محصورة في حالة مـادية هي مـاتبقى من مـاء الأمطار في الرمل ، ثم اتسعت لتدل على مجالات حسية عـدة منهـا : القلـة بسبب الحرب ، والإثمد الـذي هو ذَر نؤور قليـل ليخلف نقـوش الـوشم ، وإن في عمليـة الوشم ذاتها تشابهاً إذ يذر القليل من النؤور ليختلـط بـالـدم في خطوط الرسم على ظاهر اليد أو الذراع أو الوجه ، وبالتالي تتسع لتدل على كل شيء قليل .

ويشرح ابن النحاس مادة (ركب) ويستشهد بنقل عن ابن السكيت الـذي ينص على أن الركاب لا تستعمل إلا في الإبل خاصـة . ويضيف ابن جني إلى هـذه الفكرة الاتساع الذي طرأ عليها وهو يشرح بيتاً من أرجوزة أبي نواس :

ركبٌ يشيـــــــــون مَطَر حتى إذا الظـــــــــل قَصَر

« الركب جمع راكب ، والراكب أصله لذي البعير أو الناقة »[1] . ونحن نفيـد من تكامل النصين اللذين وردا لدى كل من ابن النحاس ، وابن جني ، خاصة أن تعليق الأول كان على بيت لشاعر متقدم ـ عنترة :

إن كنت أزمعت الفراق فـإنمـا زمَّت ركابكم بليـــــل مظلم[2]

ب ـ ولقد اجتمع لي عدد من التحليلات الـدلاليـة ضمن جهود النقـاد الشراح في القرن الرابـع وهي ممـا تسميـه الـدراسـة الحـديثــة : **التخصيص أو تقليص الدلالة** ، إلا أننا لا نلاحظ غياب الأصل الذي أصـابـه هـذا التخصيص بل تثبت لدينا حقيقة ذات أهمية كبيرة في دراسة العربية وهي أن عامل الاشتقاق ومرونـة الانتقال بين ضروبه تجعل الأصل اللغوي قادراً على الوفاء باحتياجات عدة عندما تفرع الفروع متميزة في أحيان عن منبتها . أما اللفظ الواحد الذي يحتفظ بصيغتـه الصرفية وتتبدل دلالته جزئياً فهو من النماذج القليلة .

---

(١) الأرجوزة ، ابن جني ١٠٢

(٢) شرح ابن النحاس ٤٦٧ ـ ٤٦٨

ويقف ابن الأنباري عند بيت الحارث بن حلزة :

ومع الجون جون آل بني الأو س عنود كأنَّها دفواء

ويشرح المعنى السياقي للفظ (دفواء) فهو هنا ، كتيبة منحنية على من تحتها ، ويعني الشاعر أن هذه الكتيبة منعطفة على ملكها تمنعه ، ثم يسرد عدداً من المحسوسات التي تنطبق عليها دلالة : الميل مما يعني شيوع هذه التسمية : « الأدفى من القرون المنحنية والذي قد انحنى في عجب الوعل أو غيره يمنع ما تحته ولا يوصل إليه ، والرجل الأدفى : الذي في ظهره انحناء ، وكذلك المرأة الدفواء إنما أخذت من هذا ، وقال بعض الرواة : الدفواء : العقاب » ، ويمكننا استخلاص عموم معنى الميل ومع ذلك تخصص (الدفواء) لتكون اسماً لنوع من الطير الجارح (العقاب) وإن المعنى الوارد في بيت الحارث قائم على تشبيه الكتيبة بذاك الطير في حالة الانقضاض .

وتبدو عبارات ابن النحاس أكثر وضوحاً وتحديداً في المجال إذ يتحدث عن (المدامة) في بيت عنترة :

ولقد شربت من المدامة بعدما ركد الهواجر بالمشوف المعلم

« فالمدامة : الخمر وقيل سميت مدامة لدوامها في الدن ، وقيل لأنهم يديمون شربها ، وقيل : لأنه يغلى عليها حتى تسكن ، لأنه يقال : دام إذا سكن وثبت ، فإن قيل : فهل لكل ما سكن مدام ؟ قيل : الأصل هذا ، ثم يخص الشيء باسم »[1] . وهكذا نرى استعمال المادة في معناها العام وإلى جانب ذلك تنفرد دلالة خاصة ترتبط بالخمر ، ويحكم العلاقة هنا العرف اللغوي .

وفي إطار بيت للأعشى يحدد ابن النحاس تخصيص صيغة ترتبط بمعنى عام

(١) شرح ابن النحاس ٤٩٦ ـ ٤٩٧

في الأصل ، فالنائي : البعيد ومنه : النؤي لأنه حاجز يباعد السيل »[1] إذ لا تعطي الصيغة الاسمية (نؤي) دلالة عامة للبعد ، بل هي مخصصة لإبعاد ماء الأمطار عن الخيام .

ويثير بيت لأبي صخر الهذلي عند ابن جني مسألة تخصيص مادة لغوية مع بقاء استعمالها في معناها العام :

والجن لم تنهض بما حمّلتني   أبداً ولا المصباب في الشرم

« المصباب : السفينة ، والشرم ما لم يدرك غوره في البحر ، والقول في (الشرم) أنه سمي بذلك لأنه من شرمت الشيء أي شققته ، وذلك أنه الموضع المنشق الغائر من البحر ، وقيل له : شرم كما قيل له : بحر »[2] ، فالشرم هو الشق والكلمات المتصلة بهذا الأصل تحمل الدلالة العامة ولكن الصيغة الاسمية (الشرم) ، تختص بمسمى مخصوص هو : البحر .

ويشرح ابن جني صيغة مخصصة بمسمى معين مع صلاحيتها في الأصل للمعنى العام وذلك في الحديث عن بيت المتنبي :

رماه الكناني والعامري   وتلاه للوجه فعل العرب

تلاه : طرحاه على الأرض قال الله تعالى : ﴿ وتلّه للجبين ﴾ [الصافات ١٠٣/٣٧] . وكل شيء ألقيته على وجه الأرض مما له جثة فقد تللته ، ومنه سمي (التل) من التراب »[3] فكما يبدو أن المعنى العام (كل ماله جثة ملقى على الأرض) يخصص بوضع خاص من أوضاع الطبيعة : التل الترابي .

---

(١) شرح ابن النحاس ٦٩٦ ـ ٦٩٧

(٢) التمام ، ابن جني ٢٢٤

(٣) الفسر الصغير ، ابن جني ٧١ ب ، ٣٠١ ب .

وفي موضع آخر يورد ابن جني تحليلاً يحتمل المناقشة ، وذلك أن الدلالة تخصص فيه مرة ثم يكون لها منطلق لتتسع فهو يقول : « العفر اسم من أسماء الأسد وتوصف به الناقة لشدتها ، ومنه العفريت وهو بزنة فعليت » ، والمادة المعجمية تبين غلبة معنى التراب على (عفر) ومنه يمكن أن نستدل على تخصيص الأسد بالعفر فكأنما لوحظ في الأسد القوي الكثير الحركة أنه يثير غباراً في الصراع ثمّ يخرج منه منتصراً فرادفت الكلمة (عفر) معنى القوة والشدة ، ومن هنا نشأ تفريع آخر وهو تسمية الناقة (بعد انتقال الصفة إلى الاسمية في أحوال معينة) بالعفراء تشبيهاً لها في شدتها بالأسد القوي .

ونستطيع أن نتخذ من حديث ابن النحاس حول دلالة (المغار ، والإغارة) مجالاً لمحاورة حول تخصيص الدلالة ، فهو يشرح بيت امرئ القيس :

فيالك من ليل كأنّ نجومه بكل مغار الفتل شدت بيذبل

فيقول : « المغار : المحكم الفتل ، يقال : أغرت الحبل إغارة ، وأغرت على العدو إغارة وغارة »[1] ، فههنا يقوم احتمالان الأول أن تكون الدلالة للمادة (إغارة ، وغارة) هي الأصل ثم تخصص في واحد من تجهيزات الحرب (إعداد الحبال ، وإحكام فتلها) والاحتمال الآخر هو أن يكون الفعل المخصوص هو المنطلق للتعميم الأكبر .

ج ـ إن هذا الجزء يمتاز من سابقيه بأن الدلالة فيه تنتقل من مجال إلى آخر ، وهي لا تنكمش فيتضاءل المحيط الذي تتحرك فيه بعد اتساع وعموم ، ولا يتحول مجالها كذلك من ضيق وخصوصية إلى تعميم وشمول لما ليس لها من قبل . إن الطريقتين اللتين رأينا أمثلة لهما تختلفان عما نحن بصدده من نماذج التطور الدلالي ، فاللفظ يتخذ سبيلاً يجتاز فيه مابين نقطة تداوله ومعناه

(١) شرح ابن النحاس ١٦٢

الأول إلى نقطـة أخرى يجري استعمالـه فيهـا ، ولا يشترط هنـا التقفيـة على آثـار المرحلة الأولى بل يقوم احتمال تعايش الدلالتين إلى جانب احتمال طغيان الـدلالـة المتطورة على سابقتها .

ومما يلحظ في حالات التطور الدلالي في العربيـة أن عمليـة التغير أو التحور يرافقها في الأغلب نشاط اشتقاقي ، وذلك تبعـاً للبنيـة العـامـة للغـة ، فـالأصول تتنامى بـالتفريع ومع هـذا التشقيق يتسع التـدقيق اللغوي والتعبير عن الطبيعـة والمجتمع في الأحوال كافة وفي أكثر الصفات عموماً وخصوصاً ، وينشأ كذلـك تلوين تعبيري بفضل توسّع في بعض الدلالات أو تخصيصها وذلـك بنقلهـا من ميـدان إلى آخر يقاربـه أو يشـابهـه أو يتصل بـه على نحو من الأنحـاء ، وبـذا نرى في المجـال اللغوي دائرتين تتكاملان : الأولى هي المتعلقة بالمادة الأصلية وما يتوالد منها كأن تكـون (سمـع) فمنهـا استمـع ، وسماع ، وسميـع ، والسماع ، إلى مـا هنــالــك من اشتقاقـات ، والـدائرة الأخرى هي مـا يستعـار وينقل إلى الأولى بطرق التشبيـه والمجاز كأن يستعمل (أساخ وأصـاخ) للـدلالـة على تطلب سماع الصوت كما جرى لدى عمرو بن الداخل الهذلي :

تصيــخ إلى دويٍّ الأرض تهــوي بمسمعهـــا كما أصغى الشحيـــج

وقد قـالت العرب : أسـاخ بسمعـه وأصـاخ ، وقـالوا : سـاخ المـاء في الأرض يسوخ أي دخل فيها . والتقاء المعنيين أن المسيخ بسمعه مصغ إلى المسموع دائب في إدخـالـه أذنـه وإيصـالـه إلى حـاستـه كما يسـوخ المـاء في الأرض أي يصـل إليهـا ويخالطها ، وكذلك يصغي فيقـال : صغوه معـك أي ميلـه ، والمصغي إلى الشيء مـائل بسمعـه إليـه »[1] . وبهـذا تـزداد الثروة الـدلاليـة فيتمكن العربي من إعطـاء اللمحات المختلفة للنفس وللأفعال ، ولهيئات الأشياء .

---

(١) التام ، ابن جني ٢٦ ـ ٢٧

وفي هذه المجموعة من نماذج التطور سيتداخل أمران هما : الانتقال والتغير في الدلالة والقضايا المجازية أو الأساليب التشبيهية ، ولقد اقتضت الدراسة استيفاء هذه الزاوية مع الخصوص والعموم ، وسندرس بعض النماذج في فصل المجاز التالي .

ونبدأ بالعمل اللغوي الخالص لدى أحمد بن فارس ، ثم نثني بأمثلة النقاد الشراح ، وقد روي تطور دلالة (صرورة) في الحقبة السابقة على الإسلام فنقل عن ابن دريد أن أصل (الصرورة) أن الرجل في الجاهلية كان إذا أحدث حدثاً فلجأ إلى الحرم لم يهج ، وكان إذا لقيه ولي الدم في الحرم قيل هو صرورة فلا تهجه ، ثم كثر ذلك في كلامهم حتى جعلوا المتعبد الذي يجتنب النساء وطيب الطعام (صرورة وصروريا) وذلك عنى النابغة بقوله (صَرُورة المتعبّد) أي منقبض عن النساء . وبعد هذا الانتقال من (المحتمي بالحرم) ممن اقترفوا القتل إلى (المتعبد الناسك) ، تنتقل الدلالة في (صرورة) إلى مجال آخر ، ذلك أنه « لما جاء الله عز وجل بالإسلام وأوجب إقامة الحدود بمكة وغيرها سمي الذي لم يحج (صرورة) خلافاً لأمر الجاهلية كأنهم جعلوا أنّ تركه الحج في الإسلام كترك المتأله إتيان النساء والتنعم في الجاهلية »[1] . وهنا يبدو لنا المعنى مشكلاً ثلاث حلقات متتابعة .

ويعالج ابن الأنباري ثلاث حالات يبرز فيها عامل التشبيه بين الاستعمال الأول وما انتقل إليه اللفظ من مجال جديد ، ونعرض أولاً بيت امرئ القيس الذي يضم لفظ (هيكل) :

وقد أغتدي والطير في وكناتها بمنجردٍ قيد الأوابد هيكل

ذلك أن (الهيكل) هو العظيم من الخيل ومن الشجر ، ومن ثمة سمي بيت النصارى هيكلاً[2] ، والمرجّح أن الدلالة نشأت في الطبيعة لتشير إلى أغماط

---

(١) الصاحبي في فقه اللغة ، أحمد بن فارس ٩١ ـ ٩٢

(٢) شرح ابن الأنباري ٨٢

ضخمة من الشجر سواء في البيئات البدوية أو في التي تكثر فيها الأشجار ، ومن ثم انتقلت إلى الخيل تشبيهاً ، وفي مرحلة تالية تحولت إلى شكل جديد طارئ على أهل الجزيرة العربية شمالها وجنوبها (بيت النصارى) فهم سموا الكنيسة التي أريد لها أن تجذب انتباه العرب في الجاهلية إلى الجنوب بـ (القُلَّيس) وههنا نرى التعريب الحرفي للأصل اللاتيني (Ecclesia)[1] وفي (الهيكل) تتضح قدرة العربية على التكيف مع المستحدثات .

وفي بيت آخر لامرئ القيس تثير لفظة (أنابيش) تحليلاً يظهر استخداماً تنتقل فيه الدلالة من مجال إلى آخر :

كأن السبـــاع فيـــه غرقى عشيـــة بـأرجـائـه القصوى أنــابيشُ عنصـلِ

« فالأنابيش هي العروق ، وإنما سميت أنابيش لأنها تنبش ، أي تخرج من تحت الأرض » وهناك استعمال في أعمال الحرب لفعل مشتق من الأصل فيقال « نبشه بالنبل أي غرزه فيه »[2] وبذا يكشف محيط دلالي مغاير لما كان فيه اللفظ قبل .

ومن بيت لعمرو بن كلثوم يستخرج ابن الأنباري مادة (كتب) ويحلل حركتها من خرز الجلد إلى ضَم الحروف .

ألمـــا تعرفـــوا منـــا ومنكم كتـــائب يطَّعنَّ ويرتمينـــا

فإنه « يقال كتبت الكتاب أكتبه كتباً ، وإنما سمي الكاتب كاتباً لأنه يضم بعض الحروف إلى بعض من قولهم كتبت القربة ، إذا ضممت منها خرزاً إلى خرز قال ذو الرمة :

---

(١) Dictionnaire étymologique P. 256 . Larousse .

(٢) شرح ابن الأنباري ١١١

وَقْراء غرفيـــة أثـــأى خـــوارزهـــا   مشلشـــل ضيّعتـــه بينهـــا الكتب[1]

وهذا مثال لغلبة الدلالة المنتقل إليها فقد استقر مفهوم (الكتابة) للكلمات وامَّحى ذاك المعنى الأول من الاستخدام ـ بحسب اطلاعي ومعرفتي ـ أو كاد .

ويعرض ابن النحـاس لنماذج هي أقرب إلى صور المجاز المرسل « فـالمرأة التي يظعن بها أي يسافر سميت ظعينة ، وتقترن الرحلة بالهودج الـذي يتخـذ لهـا على ظهور الإبل ، ولقد انتقلت التسمية من المرأة إلى الهودج نفسه ، ونلحظ ما يـدعوه البلاغيون بعلاقة الحالية والمحلية ، فعند ذكر الظعينة يومئ المتحـدث إلى من يحل في الهودج على سبيل المجـاز ، ولكن الاستعمال المتتـابـع جعـل هـذا النمـط حقيقـة لغوية ، والناقد لا يغفل عن أن الحالتين متداولتان فالمرأة هي التي يذكرهـا زهير في بيته :

تبصَّر خليلي هـل ترى من ظعـــائن   تحملن بـــالعليـــاء من فـــوق جرثم[2]

ومثال آخر مقارب لكنه يمثل علاقة بين الفعل والزمن ، وتنتقل الدلالـة من الإشارة إلى الزمن لتغدو دالة على الفعل المخصوص الحادث فيه « فالعصر هو العشي وسميت الصلاة باسم الوقت كما سميت صلاة الظهر باسم الوقت »[3] وهذان المثـالان يتطابقان مع تحليل ستيفن أولمان الـذي يعرضـه غيرو ضمن ضروب المجـازات التي تتغير فيهـا الـدلالـة لملاصقـة الاسم للمعنى وهي : العـلاقـة المكانيـة (كما في مثـال المكتب « bureau ») حيث تنتقل الدلالة من منضـدة الكتـابـة إلى البنـاء الـذي يحتويها ، والعلاقة الزمانيـة : صلاة العصر ـ المسـاء (vêpres) الـذي يحتوي فعل تلك الصلاة ، والعلاقة السببية : بندقية (fusil) وههنا يمكن للاستعمال الشـامي

---

(١) شرح ابن الأنباري ٤١٤

(٢) شرح ابن النحاس ٣٠٧ ـ ٣٠٨

(٣) شرح ابن النحاس ٢٥٢

أن يشرح المثال الفرنسي إذ يطلق الشوام عليها اسم (بارودة) من البارود مما يطابق (fusil) على أنه القدح أو الزناد ـ الزند ـ[1] .

ولدى ابن النحاس مثال لعلاقة التشبيه في نقل الدلالة ، فهو يشرح المعنى السياقي لبيت عمرو :

ذراعَيْ عَيْطَلٍ أدماء بكر   تربعت الأجارع والمتونا[2]

« فالمتون جمع متن وهو الأرض الصلبة الجلدة » ، وبعدها يقول الناقد « ومنه يقال فلان متين » أي أن القدرة على تحمل المشاق والقيام بأعمال كبيرة تسوغ أن نقول : (المتين) دلالة على الرجل القوي فتنتقل الدلالة .

وسنقارن تحليلاً لابن جني يتناول فيه مادة لغوية ، ويشير إلى واحدة من حركاتها ، بالعرض الذي يقدمه القاموس المحيط ، وذلك للبرهنة على الفائدة المحصلة في ميدان التطور الدلالي عند إعادة قراءة المعاجم وفق الخطوط العامة التي استخلصنا قسماً وافراً منها في أعمال نقاد القرن الرابع التي استطعت الوقوف عليها .

والناقد ابن جني يشرح بيت المتنبي :

وعيون المها ولا كعيونٍ   فتكتْ بالمتيَّم المعمود

« فالمعمود الذي هدَّه العشق ، والمتيم : المذلل ، ومنه سُمّي تيم اللات أي عبد اللات »[3] ، ومادة القاموس المحيط تنص على أن « التَّيْمُ : العبد ، وتامّته المرأة ، والعشق والحب تيماً ، وتيّمته تتيماً عبّدته وذللته ، والتيمة الشاة تذبح في المجاعة ،

---

(١) P, Guiraud, La sémantique, P. 52

(٢) شرح ابن النحاس ٦٢١

(٣) الفسر الصغير ٩٤ أ .

والزائدة على الأربعين ، والتميـة : المعلقـة على صـدر الصبي ، وأرض تَيْماء : مقفرة مضلة مهلكة أو واسعة ، والتيماء : الفلاة »[1] .

والناقد في هذه المسـألـة يكتفي بـذكر حـالتين ويمكننـا استنتـاج الانتقـال بينهما ، فالعبودية ومـا يلزمُ عنهـا من ذل هي أسبق في الواقع الاجتماعي العربي ، ومن ثم تحولت بطرق المجاز الاستعاري إلى مجال آخر هو علاقة المحبين : فالمتيم تعني العاشق الذي سلبت إرادته فبدا خاضعاً لسيد هو المحبوبة .

أما صاحب القاموس فيضع بين أيدينا عدداً من الاستعمالات المتصلة بعادات وعقـائـد ترجع إلى آمـاد بعيـدة في تـاريخ الجزيرة قبل الإسلام ، ونستطيـع رسم تصور أولي لحركـة التطـور الـدلالي بـالانتقـال من إطـار إلى آخر قريـب منـه أو متصل به :

١) ارتبطت المـادة اللغـويـة (ت ي م) بـأخطـار تـدهم المجتمـع على شكل كوارث طبيعية ، وإن ما وصلنا من مشتقات المادة في هـذا المجـال هو : (التيمـة) أي الشاة التي تذبح في المجاعة وكـذلـك الشـاة التي ينـذر ذبحهـا إن تجـاوز القطيع الأربعين عدداً ، وذلك دفعـاً ـ في تصور الجـاهلي ـ لغضب الآلهـة ومـا يتبع هـذا الغضب من مجاعات تحوج إلى ذبح الشياه لعدم توفر الطعام لها .

٢) ثم نقلت المادة اللغوية في صورة (تيماء) إلى الـدلالـة على الأرض المقفرة المهلكة لمن يحاولون اجتيازها ، فهي فلاة واسعة مضلـة ، وكأنما ثبت في الأذهـان ذكريـات الجفـاف وذبح الشيـاه (التيمـة) لنقص في أعلافهـا ، ولإطعـام الأفـواه الغرثى .

٣) وبعد ذلك استخدمت المـادة في صورة (تميـة) أي هي رمز أو تعويـذة لدرء الخطر عن الأطفال ، وأكثر ما يرسخ في الصحراء وتخومها من أشكال المخاطر

---

(١) القاموس المحيط مادة (ت ي م)

هو الجوع والجفاف ، لـذا فمعنى الصيغـة إمـا سلب حـالـة (التيمـة) مستقبلاً ، أو اشتمال على معنى الخلاص .

٤) وإثر ذلك تصل المادة اللغوية إلى الدلالة على (العبـد) الـذي يُعَـد من حصاد الحروب والغزوات ، فهو في حـالـة الخضوع للآخرين ـ وقـد يكون سيـداً من قبل ـ يمتهنون كرامته وحريته إنما هو : هالك أو كالهالك أي (تيم) .

٥) أمـا المرحلـة الأخيرة فهي النقـل التصـويري في الشعر ـ على الأغلب ـ حيث نرى العاشق خاضعاً لمحبوبته ، أو يريها أنه كذلك ، فهو كالعبد لا يملك من أمره شيئاً وكل ما يخصه يرجع إلى : السيد : المحبوب .

ونحن في عرض هـذه الحـالات المتتـابعـة لانبتـدع الـدلالات التي يمكن أن تحملها الألفاظ بل إننا أفدنا مما سجلته الرواة ، وصنفـه أصحـاب الكتب اللغويـة والتحليلات الدلالية خاصة . وإضافتنا تنحصر في تفسيرات نستمـدهـا من تـاريخ المجتمع العربي القديم ، وملابساته الفكرية والاقتصادية والسلوكية . وهـذه الصورة التي نقدمها بحاجة إلى كثير من التـدقيق ولكن يظل المبـدأ العـام هو المطلوب أي مراجعـة النصـوص القـديـة وشـواهـدهـا ، وإعـادة ترتيبهـا بحيث تظهر الفروق الدلالية ، والأطوار التي مرت بها الأصول اللغوية .

٣/٢ ضروب الاشتقاق في العمليات التطورية

نعرض في هذا القسم تحليلات لضروب الاشتقاقات التي تظهر خلال عمليـات التطور الدلالي ، ذلك أنه من النتـائج التطبيقيـة الهـامـة لأنمـاط التطور : بروز أهمية الاشتقاق في تكوين مفردات العربية ، ففي أحيـان يكتسب الأصل اللغوي خصائص معينة (كأن يتسع مجاله ، أو يتحول إلى المجرد الـذهني) فينسحب هـذا على مشتقـات لـه ، وفي أحيـان أخرى نجـد التغير الجزئي يلحـق بعض المشتقـات خلال تفريعها من الأصل الذي يشترك معها في سمات عامة . وتعـد الحـالات التي يتمثل فيها التحول في مفردات معزولة عن سائر كلمات الأسرة الاشتقاقية قليلة .

والفائدة التاريخية للعربية الفصحى إنما هي معرفة طبيعة حركة النماء والتوالد سواء في منطلقها أو فيما تؤول إليه أي إننا نتقدم في ميدان البحث الدلالي عندما نبدأ بوضع خطوط تبدأ بالأفعال أو بالأسماء ، ومن ثم تنشأ عنها فروع أخرى ، وكذلك عند إدراكنا لأنواع الأسماء والأفعال تفصيلياً ، وبذا تتضح لنا صور من فاعلية الدلالة في أطوارها الأولى ؛ فالمواد اللغوية لم تبدأ جميعها من الأسماء المصدرية فالأفعال فبقية المشتقات . ولقد عرف الاستعمال اللغوي صوراً متعددة منطلقاً له ، ولا يظهر لنا بعض الملامح في هذا المجال سوى افتراض هيئات عامة مستمدة من استقراء لما بين أيدينا من كتب ومصنفات تعرض لتطور الدلالة ، وقد يكون في مراجعة المعاجم ومقارنتها بغيرها من أعمال اللغويين فائدة كبيرة أيضاً .

ولقد اجتمع لي من خلال استقراء حالات التطور الدلالي في كتب النقد للقرن الرابع عدد من صور الاشتقاق تنتظم في خطوط أربعة هي (١ ـ الانتقال من اسم إلى اسم . ٢ ـ الانتقال من اسم إلى فعل . ٣ ـ الانتقال من فعل إلى اسم . ٤ ـ الانتقال من فعل إلى فعل) وإن مانعرضه هنا إن هو إلاّ نماذج تحليلية ، ويمكن العودة إلى سائر الحالات لتلمس الشواهد التي تزيد تأكيدها :

١ ـ وأول أمثلة انتقال الدلالة باشتقاق اسم من آخر يسبقه في الاستعمال هو : (المأقط) الذي يرد في بيت لأم تأبط شراً :

يجدّل القرن ويروي الندمان ذو مأقطٍ يرمي وراء الإخوان

فيقول ابن جني إن « المأقط : مجتمع الجيش للحرب وهو (مفعل) من الأقط لأنه لبن يجمع[1] » ، وظاهر كلام ابن جني يدل على أن التفريع كان من الاسم (أقط) ، بينما يبدو الأمر لدى ابن النحاس أكثر تعقيداً فثمة احتمالات عدة لـ (منشم) وبداية حركته في بيت زهير :

---

(١) التمام ، ابن جني ١٣٦ .

تــداركتما عبســاً وذبيــان بعــدمــا		تفــانــوا ودقــوا بينهم عطر منشم

فالأصمعي[1] يقول : إن منشم اسم لامرأة من خزاعة عطّارة . فإذا أراد ـ العرب ـ الحرب أدخلوا أيديهم في عطرها ، ثم تحالفوا فصاروا يتشاءمون بها . وأبو عمرو الشيباني يقول إنهم إذا خرجوا إلى الحرب اشتروا الكافور منها لموتاهم فتشاءموا بها ، وعلى هذا يكون نقل الدلالة دون تغيير في الصيغة . أما أبو عمرو بن العلاء فيذكر أن (منشم) من التنشيم وهو الشرّ . وفي الحديث : « كما نشم الناس في أمر عثمان » . قال أبو عبيدة معناه ابتدؤوا في الشر . وقال منشم اسم للحرب لشدتها وليس ثم امرأة بهذا الاسم فالعرب تقول « جاؤوا على بكرة أبيهم وليس ثمة بكرة » وفي هذا التعليل نجد الانتقال بين الاسم المصدر ـ الذي يتعلق بفعل من مادته نشم ـ إلى اسم آخر مشتق هو منشم لكثرة الشرور في الحرب مما يتلاقى مع محيط الدلالة الأولى .

وثمة نمط من التغيّر الدلالي يكون مصحوباً بانتقال من صيغة التذكير إلى التأنيث كما نرى في مادة (لبن) في بيت عمرو بن كلثوم :

تجـور بـه اللبـانـة عن هـواه		إذا مـــا ذاقهـــا حتى يلينـــا

فيقول ابن النحاس ، ذو اللبانة أي ذو الحاجة ، وجمعها لبانات ، واللبان ـ بفتح اللام ـ الصدر ، وأنشد لعنترة :

... ... كأنهـــــــــــا		أشطــان بئر في لَبــان الأدهم[2]

وإننا لو أعدنا تصور التطور الدلالي في المادة اللغوية لرأينا ١ ـ اللبن دلالة على السائل المستمد من الثدي ٢ ـ ثم اللبان دلالة على الصدر في الإنسان خاصة لعلاقة مجازية مرسلة ، ولشدة حاجة العربي لفرسه وإعجابه بها استعار لها التسمية المخصوصة بالمرأة أولاً ثم المعمّمة لتشمل صدر الرجل ٣ ـ اللبانة وهذه صيغة

---

(١) شرح ابن النحاس ٣٢٠ ـ ٣٢١ .

(٢) شرح ابن النحاس ٧٧٤ .

مؤنثة دلت على الحاجة . والارتباط واضح في ضرورة اللبن للطفل فهو الحاجة الأولى والأهم مما عداها لذا يُتمثل بها للمطالب الأساسية .

٢ ـ ومن أمثلة الانتقال من الأسماء إلى أفعال من المادة اللغوية ذاتها مع التطور في الدلالة ، ما جاء لدى ابن النحاس حول بيت طرفة :

ووجه كأن الشمس حلت رداءها عليه نقيّ اللون لم يتخدد

فقوله : « لم يتخدد : أي لم يضطرب ، مشتق من الخد ، لأنه إنما قيل له خدّ لأنه يضطرب عند الأكل[1] » ، وفي قول لبيد :

فلحقن واعتكرتْ لها مدريةٌ كالسمهرية حدُّها وتمامها

فالسمهرية هي الرماح ، ومنه يقال : « اسمهرَّ الأمر إذا اشتد[2] » وفي قول عنترة :

أوروضة أنفاً تضمّن نبتها غيثٌ قليل الدّمن ليس بمعلم

فالأنف : التام من كل شيء ، وقيل : « هو كل شيء ومنه (استأنفت) الأمر[3] » وعبارة الشارح في كلّ من المواضع السابقة بيّنة في مسألة الاشتقاق .

ويورد ابن الأنباري واحداً من الأمثلة وهو يشرح بيت امرىء القيس :

فقلتُ له لما تمطّى بصلبه وأردف أعجازاً وناء بكلكل

« فقوله (لما تمطّى بصلبه) أي لما تمدد بوسطه . ويقال : تمطى الرجل إذا تمدّد أي مَد مطاه أي ظهره . ويقال مطوت أمطو إذا مددتُ في السير[4] » وهكذا نرى في هذه الحالة ـ أيضاً ـ اسماً يتحول بالاشتقاق إلى الحالة الفعلية وخلال ذلك تتنامى الدلالة .

وثمة مثال نلحظ فيه أن الانتقال إلى الفعل ضامرٌ لا يذكر ويكتفي ابن

---

(١) شرح ابن النحاس ٢١٩ .

(٢) شرح ابن النحاس ٤١٢ .

(٣) شرح ابن النحاس ٤٧٣ .

(٤) شرح ابن الأنباري ٧٥ .

الأنباري وابن النحاس بالإشارة إلى الاسم الأول والآخر المنتقل إليه في قول طرفة :

وأعلمُ مخروتٌ من الأنف مـــارن   عتيق متى ترجم بـه الأرض تـزدد

فيقال للدليل الهادي : الخِرِّيت ، وسمي بهذا لأنه يهتدي إلى مثل خرت الإبرة ـ كما يذكر الأصمعي ـ وقال الأسدي :

على صرمـاء فيهـا أصرمـاه   وخِريت الفلاة بها مليـل[1]

فاسم الفاعل للمبالغة يجعلنا نقول بوجود الفعل (خَرَت) أي مرَّر الخيط من عين الإبرة ومن ثم يشتهر من يقوم بهذا العمل بالبراعة وتنقل بعدها إلى المجالات الأخرى مع صيغ المبالغة (خِرِّيت) .

٣ ـ ومن الأمثلة على تطور الدلالة ، وذلك بالاشتقاق من الفعل إلى الأسماء : العميد ، فالعميد هو السيد كما جاء في بيت الأعشى :

لئن قتلتم عميداً لم يكن صدداً   لنقتلنْ مثلـه منكم فنمتثـل

وقال أبو زيد : « هو المنتهى إليه في الشدائد كأنه من عمدت للشيء أعمد إذا قصدت إليه[2] » ويجيء ابن جني بشرح يستطرد فيه فيبسط أصل (من أجلك) لمرادفتها (من جراك) ونرى أن « اشتقاقه من (أجلت) الشيء أجله إذا جنيته قال : في عاجل أنا آجله ، أي جانبه وجاره[3] » ، وفي موضع آخر يعلق على بيت المتنبي :

مثلك يابدر لا يكون ولا   يصلح إلا لمثلك الـدول

« فالدول جمع دولة ، والدولة مشتقة من تداول الشيء[4] » وإذا راجعنا

---

(١) شرح ابن النحاس ٢٥٢ .

(٢) شرح ابن الأنباري ١٨١ .

(٣) شرح ابن النحاس ٧٢٤ .

(٤) ابن جني الفسر الصغير ١٧٨ ب .

مفردات أخرى نجد ما يشبه الحركة الدائرية فالاسم (دولة) يشتق من الفعل (تداول) ومن ثم يؤخذ فعل (دالت) الدول .

وأتى ابن الأنباري بمثال (الغدير) فيظهر تخصصه بعد أن اشتق من الفعل ذي الدلالة العامة : (غادر) في بيت عنترة :

هل غادر الشعراء من متردَّم   أم هل عرفت الدار بَعْد توهم[1]

« فإنما سمي الغدير غديراً لأن السيل غادره أي تركه ، وقيل أيضاً إنما سُمي غديراً لأنه يغدر بأهله ، ويذكر الشارح في حديثه (الغدائر وهي الذوائب ، واحدتها غديرة) دون أن يشرحها مفصلة ولا يخفى أن الدلالة هنا مخصصة لأن هذه الذوائب تترك دون أن تضم الشعْر في عقاصه .

٤ ـ ومن أمثلة النمط الأخير وهو انتقال الدلالة من فعل إلى فعل مع تطورها ما جاء لدى ابن النحاس[2] وهو يشرح حديثاً عن الرسول (ﷺ) يقول : « إن أبغضكم إلي وأبعدكم عني مجالسَ يوم القيامة الثرثارون المتفيهقون » فيعلق قائلاً : « ويقال فهق النهر إذا امتلأ حتى يفيض » ، ونستنتج أن الحركة اتخذت مساراً من الفعل المادي المتصل بالنهر وفيضانه إلى الفعل الكلامي المشابه في تدفقه المتزيد فيه لما عليه مياه الأنهار في حالات خاصة ، وبعدها اشتق الاسم المحدد (المتفيهق) واستعمل .

والمثال الآخر مستخرج من مناقشة تدور حول بيت المتنبي المشتمل على فعل (التنهد) :

قالت وقد رأت اصفراري مَنْ به   وتنهدت فأجبتُها المتنهد

فأبو الفتح ابن جني يقول شارحاً : « التنهد هو التنفس بغلواء وشدة » ولكنَّ متعقباً له يحاول أن يخطىء الشارح لعويص شعر المتنبي فيقول الأصفهاني

---

(١) شرح ابن الأنباري ٢٩٥ .

(٢) شرح ابن النحاس ٤٧٥ .

صاحب (الواضح في مشكلات المتنبي) « هذا لا يعرف في العربية وإنما يقال نَهَد ثدي المرأة إذا خرج فهو ناهد ، ومنه نهد الرجل بزحفه إذا خرج للحرب ، ومنه ثُدي نواهد ونهد ؛ لخروجهن . وأما قول المتنبي : تنهدت أي تكلفت إخراج ثديها افتنانا له واختبالاً لقلبه[1] » .

ونحن نقبل تعليل ابن جني لأنه هو الصحيح إذا ماقيس بما هو واقع في الحياة العملية والسلوك العادي ، وبذا نجد التطور فيما بين الصيغتين (نهد) ، و (تنهد) فالأولى تعني ظهور الثدي ، أو البروز والخروج عامة ، والأخرى تفيد معنى إضافياً لازماً لبروز الصدر هو التنفس بشدة دليل التأثر الكبير والانفعال .

٤/٣ المعرّب والأعجمي في كتب النقد

لقد أصاب النقاد في القرن الرابع حظاً من الثقافة اللغوية رأينا في دراستنا ما يمت منه إلى الجانب الدلالي بصلات متينة ، واستكمالاً لتتبعنا للظواهر التطورية التي وقف عندها النقاد نحاول ههنا أن نرسم أجزاء من صور التطور ، وذلك بجمع نثارات موزعة في ثنايا الأبحاث والشروح .

والحديث عن التطور يُعْنى بنماء الثروة اللفظية ، وبالتحولات التي تطرأ عليها . ولدى ابن الأنباري إشارات ثلاث تظهر أنه كان على بينة من مسائل دلالية ، على الرغم من قلة تداوله لها في عمله النقدي ، وقد يكشف التتبع لمصنفات أخرى ـ غير التي درسناها في بحثنا ـ عن قيم فنية أو أحكام تقويمية مبنية على تلك المفهومات للدلالة وأحوالها .

ويعلق ابن الأنباري أولاً على بيت امرىء القيس :

فاليوم أشرب غير مستحقب ... إثماً من الله ولا واغل

فإن « الواغل هو الداخل في القوم وليس منهم ، والواغل في الخمر ، والوارش

---

(١) الواضح في مشكلات المتنبي لأبي القاسم الأصفهاني ٤٥ ط تونس ١٩٦٦ .

في الطعام ، وهو مثل الطفيلي ، والطفيلي مولّد من كلام العرب[1] » . فههنا مفهوم للمولد يقضي بأنه عربي ولكن في حالة مضافة إلى الرصيد الموروث ، ولا يحدّد لنا الزمن أو الكيفية التي تحول فيها الأصل اللغوي العتيق إلى صيغة جديدة واستعمال لم يكن وَوُلّد . وقد يكون منسوباً إلى شخص معروف واسمه (طفيل) خاصةً وأن هذا الاسم قديم جاهلي - ومن الشعراء المعروفين ممن سبقوا زهير بن أبي سلمى زمناً : (طفيل الغنوي) بل هو من أقربائه وأساتذته .

وتثير لفظة (سلكى) تساؤلاً يعقبه تفسير لها ، ولكن تضاف عبارة ذات أهمية في التاريخ للدلالة ، والبيت هو :

ونطعنهم سلكى ومخلوجة　　　كرك لامين على نابل

فقد قال أبو عبيدة : سلكى : مستوية ، ومخلوجة تختلجهم ، وقال : سألت عنها أبا عمرو بن العلاء فقال : سألت عنها فلم أجد من يعرفها ، وهي من الكلام الدارس ، وقال الأصمعي سلكى مستقيمة ، ومخلوجة : يمنة ويسرة ؛ ومثل من الأمثال : الرأي مخلوجة وليس بسلكى[2] وقد تعني (الدارس) أن هذه الصيغة من المادة اللغوية لم تعد مستعملة في هذا المعنى ، واستبدلت بصيغ من مواد أخرى ، وهؤلاء الرواة لا يذكرون أسبابا تعلل إهمالها . وقد تكمن القضية في ضياع المرويات المثبتة لها . وفي مثال ثالث لامرىء القيس يستطرد ابن الأنباري في الشرح ويشير إلى مستوى من الكلام ينسب إلى العامة :

ألا يالهف نفسي إثر قوم　　　هُمُ كانوا الشّفاء فلم يصابوا

وقاهم جدهم ببني أبيهم　　　وبالأشقين ما كان العقاب

فالجد ههنا : الحظ ومن ذلك قولهم : « ولا ينفع الجد منك الجد » وهو الذي تسمية العامة : البخت[3] » ويكتفي الناقد بهذه العبارة دون أن يعطي أيّة قيمة

---

(١) شرح ابن الأنباري ١٠ .

(٢) شرح ابن الأنباري ٩ - ١٠ .

(٣) شرح ابن الأنباري ٦ ، ٤٥٧ .

سواء أكانت لغوية أو جمالية أسلوبية لاستخدام ماتتداوله العامة (البخت) » ، وفي القاموس المحيط[1] : أن الكلمة معربة ، وفي حاشيته ذكر لاحتمالات عدة منها : التوليد والتعريب عن العجمة ، وحيرة بين أن تكون عربية أو لا تكون ذلك نقلاً عن أصحاب المعجمات كالمصباح - المنير - ، واللسان ، وتهذيب الأزهري ، وبعض الكتب كشفاء الغليل . وتبقى هذه الإشارة - لدى ابن الأنباري - معبرة عن أن الصفات النقدية لم تبعد عنها هذه الأضداء الدلالية .

وقد تُعَدُّ الملحوظات الدائرة حول الكلمات الأعجمية أبرز الجوانب الهامشية للتطور ، فالنقاد يتنبهون - بفضل ما يرد في كلام الشعراء - إلى الكلمات الأجنبية ، أو التي يُشَكُّ في عربيتها ، ومن ثم يمكننا عرض بعض الآراء في مسألة استعمال الأعجمي .

ويدور نقاش حول كلمة وردت لدى المتنبي هي (المخشلب) :

بياضُ وجهٍ يريك الشمس حالكةً   ودُرُّ لفظٍ يريك الدر مخشلبا

ونبدأ برأي ابن جني « فالمخشلب - أو المشخلب - هذا الخرز المعروف ، وليست عربية ولا فصيحة واللفظ العربي هو : (الخَضض) قال الشاعر :

فإن قروم خطمة أنزلتني   بحيث يُرى من الخضض الخروت

والمتنبي استعمل الكلمة على ما جرت عادة الاستعمال ، وقد فعلت العرب هذا ، فجاءت بغير لغتها اتباعاً للعادة ، وقد جاء الأعشى في شعره بـ (الإسفنط) ، ومن الرومي (القِسْطاس) ومن العجمي (الإبريق) و (الأساور) . وهذا أكثر من أن يحصى[2] » وبعد هذا التعليل الذي يُرَدّ إلى العادة نجد القاضي الجرجاني يتقدم خطوات لإيجاد الأسباب التي يمكن أن تقبل

---

(١) القاموس المحيط (١٤١/١) .

(٢) الفسر الكبير ، ابن جني ٢٥٦ - ٢٥٧ .

موضوعياً في جانب منهـا كأن يقول ـ بعـد أن رفض التسليم بكون مخشلب عربيـة فصيحة كما أراد المتنبي لها :

« إني أجد العرب تستعمل كثيراً من ألفاظ العجم إذا احتاجت إليـه لإقـامـة الوزن ، وإتمام القافية كما قال التغلبي :

وكنـــا إذا القيسي نبَّ عتــوده ضربنـــاه دون الأنثيين على الكرد

أراد الشـاعر هنـا : العنـق وهـو الكردن في الأصـل ـ فـأقـام بلفظـة الكرد قافيته » ، ويذكر القاضي الجرجاني حـالـة تبـدو قريبـة ممـا ذهب إليـه ابن جني « فقد تتجـاوز ـ العرب ـ ذلـك إلى استعمال الأعجمي مع الاستغنـاء عنـه كما سموا (الحَمَل) بـ (البرق) مع كثرة أسماء الغنم عندهم[1] » .

وهذه الملحوظات التي أتى بها الجرجاني على قلتها واختصارهـا تنبىء بـأن ثمـة تقاليد فنية في التعبير الشعري تسوغ للشاعر أن يستعير ألفاظاً غريبة عن العربية مع التصرف بهـا وذلـك للتغلب على مصـاعب في بنـاء الوزن في بعض الحـالات ، ولأسباب إيحائية أخرى لا نستطيع الآن ـ وكل مالدينا هـذه الإشـارات القصيرة ـ تحديدها بدقة ، ولكن قد يكون للبيئـات المختلفـة أثرهـا في تقبل تلـك الألفـاظ الأعجمية أو الرومية بحسب قربها من المواطن الأجنبيـة واحتكاكهـا بهـا ، ونـذكر هنا تقاليد فنية متأخرة نسبياً في العدوة الأنـدلسيـة ، فـإن القوم هنـاك اتبعوا في بناء الموشحات أنمـاطـاً من الترتيبـات للأوزان وتفعيلاتهـا ، وكان من المطلوب في المـوشـح أن يختم آخر بيت فيـه بمـا يسمّى بـ (الخرجـة) ويستملـح ـ أو يطلب ـ كونها بلغة الرومانس أي لغـة إسبـانيـا القـديمـة أو بلغـة العـامـة التي مزجت بين العربية ولغة الفرنجة في تلك البلاد[2] .

---

(١) الوساطة للقاضي الجرجاني ٤٦٠ ـ ٤٦١ .

(٢) ينظر في (الزجل في الأنـدلس) لعبـد العـزيـز الأهـواني ٤ ، ٦ ، معهـد الـدراسـات العربيـة ١٩٥٧ م .

وفي موضع آخر يقرر ابن جني أن العرب إذا استعملت الألفاظ الأعجمية تصرفت بها ، فكلمة : (النوروز) يذكرها سيبويه بالياء (نيروزنا) على هذا الأساس ، ويفهم أيضاً من كلام ابن جني وأستاذه أبي علي الفارسي أنه يستمد من الأعجمي ويشتق المشتقات بأوزانها العربية فمن (الزرجون) الذي هو الخمر ينبغي القياس (المزرجن) أي الذي شربه . وأما ما جاء في قول الشاعر :

هل تعرف الدار لأمِ الخزرج ... منها فظَلْت اليوم كالمزرَّج

فهو غير ملتزم بالحروف الأصول لأن النون في (زرجون) أصلية[1] .

ويستخدم النقاد مصطلحاً للتعبير عن التغيير الذي يجب أن يجري على الكلمات الأعجمية هو : (أعربته العرب[2]) سواء أكان بإبدال حرف مكان آخر كما في (دشت) الفارسية التي تعني الصحراء فتحول إلى (دست) في العربية فللمتنبي[3] :

إن النفوس عدد الآجال ... سقيا لدشت الأرزن الطوال

أو بصوغ تحذف معه بعض الحروف كما في (القرمد) الذي كان في الرومية : قرميدي فقد قال طرفة :

كقنطرة الرومي أقسم ربُّها ... لتكتنفاً حتى تشادَ بقرمد[4]

ونلحظ في أمثلة من الأعجمي رغبة بعض اللغويين والشعراء في أن يجعلوها عربية ، وهم يلتمسون التعليلات إما في الرواية ـ كما ذهب المتنبي في لفظ (المخشلب) فقال : إن الكلمة مروية عن العجاج ، ولكن القاضي الجرجاني لم يصادفها في شعر العجاج مع تقصيه لذلك ـ عن الفصحاء ، وإما بتحليل المعنى كما ذهب إلى ذلك ابن الأعرابي (فالإسفنط) مأخوذ من سفطت نفسي أي طابت ،

---

(١) الفسر الصغير . ابن جني ١٢٣ أ ـ ب .

(٢) شرح ابن الأنباري ١٦٦ ، الفسر الصغير لابن جني ٢٦٤ ب ، الموشح للمرزباني ١٣١ .

(٣) الفسر الصغير . ابن جني ٢٦٤ ب .

(٤) شرح ابن الأنباري ١٦٦ .

وهو أسفط نفساً من فلان ، وذلك لطيب الخمر وههنا يحكم ابن جني بضرورة الرجوع إلى « ماأطبقت الجماعة عليه ، فلم يذكر وزن أفعل لدى سيبويه[1] » وبذا لاتدخل إسفنط في المجموعة العربية الأصلية .

وقد اتبع النقاد أسلوب شرح معنى الكلمة الأعجمية في أصلها كما نرى في صنيع أبي هلال العسكري « فالحرباء كلمة فارسية معربة ، وإنما هي خربا ، أي حافظ الشمس ، والشمس تسمى بالفارسية (خر)[2] ، وابن النحاس بين أن « من أسماء الخمر الزرجون وهو بالفارسية لون يشبه الذهب[3] » وابن الأنباري يروي أن « السجنجل ـ كما قال يعقوب بن السكيت ـ رومي ويراد به : المرآة ، وهو أيضاً قطع الفضة وسبائكها[4] » ، « والمهضم هو ـ القصب ـ الذي قد غمر حتى انفضح وهو النرمثاي : ضرب من آلات الزمر[4] » .

وبصورة عامة لاتخرج المصطلحات هنا عن ثلاثة : (الأعجمي) ويشمل الفارسي والرومي ثم هناك : (الفارسي) مخصصاً ، وكذلك (الرومي) مخصصاً .

☆ ☆ ☆

---

(١) التمام . ابن جني ٢٠٨ ـ ٢٥٣ .

(٢) الصناعتين ، أبو هلال العسكري ٢٥٣ .

(٣) شرح ابن النحاس ٤٩٨ .

(٤) شرح ابن الأنباري ٥٩ ، ٢٣٠ .

التطوّر الدّلالي

الهوامش الدلالية

هامش ـ ١ ـ الانتقال من المواد الحسية إلى المعاني الذهنية المجردة

إننا نلجأ إلى هذا النمط من التهميش رغبة في الوصول إلى البرهنة الواضحة على قضية تناول التطور الدلالي في التراث القديم ، وكيلا نثقل فصل التطور بالتكرار والنماذج المتقاربة فههنا نورد سائر مانعرف من مواضع عَرَضت للقضية إما بشكل مباشر ونشير إليه بالقسم (أ) وإما بشكل غير مباشر وهو القسم (ب) ، وسنعمل على ذكر كلام الناقد ـ الشارح مع شاهده الشعري ثم نتبعه بتعليقنا مختصراً .

(أ)

١ ـ أنكرتُ باطِلَها وبؤت بحقها يوماً ولم يفخر عليَّ كرامها

(لبيد)

قيل : أصل الفخر الارتفاع والتعظم ، ويقال : دار فاخرة ، أي مرتفعة عظيمة وناقة فخور : عظيمة الضرع . قال القطامي :

وتراه يفخر أنْ تحلَّ بيوته بمحلة الزمر القصير عنانا[1]

● يتدرج المعنى لمادة (فخر) من الارتفاع المكاني والعظم المحسوس في الدار ، والناقة إلى أن يصل إلى الدلالة الذهنية المجردة .

٢ ـ رَجَعا بأمرهما إلى ذي مِرة حصدٍ ، ونجحُ صريمة إبرامُها

(لبيد)

رجعا بأمرهما إلى ذي مرة ، معناه كان ينازعها وتنازعه ثم رجعا بأمرهما أي صار الشأن إليه . و (المِرة) الرأي . وأصل المرة إحكام الفتل ، فضربه مثلاً .

---

(١) شرح ابن الأنباري ٥٨٧ .

وقال أبو زيد : يقال إن فلاناً لذو مرة ، إذا كان قوياً محتالاً . قال الله عز وجل ﴿ ذو مِرَّةٍ فاستوى ﴾ [النجم ٥٣/٦] معناه ذو عقل وشدة . وأنشد الفراء :

قد كنت قبل لقائكم ذا مرة عندي لكل مخاصم ميزانه[1]

● يبدو المعنى الحسي مرتبطاً بالحبل وإحكام فتله ثم يطلق على كل من اشتدت قوته كحبال جيدة الصنع وبعدها ينتقل إلى التجريد والدلالة الذهنية : الرأي ، العقل .

٣ ـ أفاطمُ مهلاً بعض هذا التدلل وإنْ كنت قد أزمعت صرمي فأجملي

(امرؤ القيس)

قال يعقوب : « الصرم : القطيعة . يقال : صرمت الشيء أصرمه صرماً ، إذا قطعته ، والصرم الاسم ، ومنه سيف صارم ، ومنه زمن الصّرام والصُّرام . ومنه الصرائم : قطع من الرمل تنقطع من معظمه ، ومنه الصريمة : العزيمة[2] » .

● إن الدلالة المجردة الذهنية لمادة (صرم) : القطيعة ، العزيمة تجد أصلها الحسي في معنى القطع للشيء اسماً وفعلاً وصفة ، صارم .

٤ ـ فتأوّت لهم قراضبة من كل حيٍّ كأنهم ألقاء

(الحارث بن حلزة)

« قوله : كأنهم ألقاء ـ واحد الألقاء لقى وهو الشيء المطروح الذي لا يكترث به ، واللقى من الرجال : الخامل الذي لا يعرف ، فذكره مطروح ملقى . ويقال لثياب المحرم إذا ألقاها عند فراغه من الحج : لقى وألقاء[3] » .

● في هذا المثال نجد الدلالة المرتبطة بالحسيات ، الأشياء ، وثياب المحرم خاصة ، وهي بعد ذلك تتخذ طريقها لتغدو في إطار ذهني مجرد تتعلق بالذكر

---

(١) شرح ابن الأنباري ٥٤٦ .

(٢) شرح ابن الأنباري ٤٤ .

(٣) شرح ابن الأنباري ٤٨٩ .

والمرتبة العلمية والاجتماعية . ونلاحظ تجاور الدلالتين بعد الإسلام .

٥ ـ لاتخلنا على غرائك إنا قبل ماقد وَشَى بنا الأعداء
(الحارث بن حلزة)

(الغراء) مأخوذ من قولك غريت بالشيء أغرى به ، إذا أولعت به ولزمته . يقال : غريت بالشيء أغرى به غراء . والغرا : ولد البقرة مقصور وأنشدنا أبو العباس في المعنى الأول لكثير :

إذا قلت مهلاً غارت العين بالبكا غِراء ومدَّتها مدامع حفّل

قال الأصمعي : « غارت فاعلت من غريت بالشيء ، أغرى ، إذا لزمته ، والغراء الذي يلزق به ، إذا كسر مُدَّ وإذا فتح قُصِر ، وقيل هو الغَرى[1] » .

● المعنى الحسي لمادة (لزق) يبدو مرتبطاً بمادة الصمغ التي تعلق بجذوع الشجر ـ وهنا يتبادر إلى الذهن لفظ اللحاء القريب مكاناً ووزناً ـ ثم يتحول إلى القرب والتجاور الطويل وبعد ذلك يدل على : الهوى والولع المجردين .

٦ ـ فصالوا صولة فين يليهم وصلنا صولة فين يلينا
(عمرو بن كلثوم)

« فصالوا صولة . معناه فحملوا حملة فين يليهم وحملنا فين يلينا ، والأصل في قولهم : صال فلان علي أي ترفع عليّ وأصل الصيال تخمط الفحل على الفحل ووثوبه عليه[2] » .

● ترتيب المعنى كما يتبدى ١ ـ الحسي في الوثوب والارتفاع في مشاهد الحيوان ، ثم ٢ ـ الوثوب في القتال والصراع ٣ ـ ثم (الترفع ، والتعالي) في المجتمع ـ معنى ذهني مجرد ـ .

---

(١) شرح ابن الأنباري ٤٥٤ ـ ٤٥٥ .
(٢) شرح ابن الأنباري ٤١٢ .

٧ ـ أم علينا جرى حنيفة أم ليـ ـس علينا فيما جنوا أنداء
(حارث بن حلزة)

« (والأنداء) جمع ندى وهو ما يلحق الإنسان من الشر يقال : لحقني من فلان ندى ، وماله علي ندى أي شر ، وأصله من ندى الأرض لأنه يبلّ ما حوله ويفسده[1] » .

● تنتقل الدلالة من المجال المحسوس في هيئة معينة : (الندى) في الأرض إلى المجال الذهني (الأذى والشر) عموماً .

٨ ـ إذا القوم قالوا من فتى خلتُ أنني عنيت فلم أكسل ولم أتبلد
(طرفه)

« يقال رجل بليد ومتبلد : إذا أثّر فيه الجهل ، حتى يذهب به عن فطن الناس واحتيالهم وكذلك يقال في الدواب ، وأصل البلادة والتبلد : من التأثير ويقال : في جلده ـ بلد ـ إذا كانت فيه آثار وكذلك يقال في غير الجلد ، ويقال لكركرة البعير (بَلدة) لأنها تؤثر في الأرض كما قال الشاعر :

أنيخت فألقت بلدة فوق بلدة قليل بها الأصوات إلاّ بغامها

ومن هذا سميت البلدة من البلد لأنه موضع مواطن الناس وموضع تأثيرهم[2] » .

● تنتقل المادة (بلد) من المعنى الحسي : التأثير (بعد تقلّب بين المحسوسات : الجلد ، الأرض ، البلدة) إلى المعنى المجرّد الذهني : البليد : المسلوب القدرة على الفعل الصحيح تحت مؤثر قوي : الجهل) .

٩ ـ يميناً لنعم السيدان وجدتما على كل حال من سحيل ومبرم
(زهير بن أبي سلمى)

---

(١) شرح ابن النحاس ٥٨٣ .
(٢) شرح ابن النحاس ٢٥٤ .

« يقال رجل مبرم . وقد أبرمني ، وقد برمت منه إذا ألح ومنه سميت البرمة لإلحاح الناس عليها بالنار »[1] .

● في القاموس المحيط : أبرم الحبل جعله طاقين ثم فتله ، وأبرم الأمر أحكمه والظاهر أن معنى الإلحاح المؤدي إلى الملل النفسي المجرد فترتب على التكرار المألوف في إحكام فتل الحبل وهذا المعنى المادي الحسي ظاهر أيضاً في البرمة وإنضاجها .

١٠ ـ ومن يــك قلبٌ كقلبي لــه   يشــق إلى العــز قلب التــوى

(المتنبي)

(التوى) الهلاك ، و (التوى) الفرد سمي بذلك لانفراده وضعفه[2] .

● ههنا عكس طريف فابن جني يرى التحول من المعنى الذهني : الهلاك إلى المدلول الحسي لدى الإنسان .

١١ ـ ولقد أقود الجيش أحملُ رايتي   للجيش يقــدمهم كميٌّ أســود

(أبو ضب الهذلي)

« لام (الكمي) ياء لأنه عندهم من كمي الرحل شهادته يكميها إذا سترها . والتقاؤهما أنه يستر بشجاعته من أن يعرض ضرب الخلل له وحكى أبو زيد في تكسيره (أكماء)[3] » .

● الأصل في المادة اللغوية (ك م ا ، ك م ي) حسي ومنه انتقل إلى الذهني المجرد ـ نفسي ـ ومما يؤكد هذا أصالة الاستعمال المحسوس في الحرب ، وفي القاموس المحيط حول مادة كمأ وكمأة (وهي مما ينبت في باطن أرض البوادي في الشتاء شبيهاً بثمار البطاطس) ... تكمأت عليه الأرض : غيبته ، ولعل لهذا صلة بـ كمي وأكماء .

---

(١) شرح ابن النحاس ٣٢٠ .

(٢) الفسر الكبير ، ابن جني ١٣٦ .

(٣) التمام في تفسير بقية أشعار هذيل ، ابن جني ٧٤ .

١٢ ـ أني تسـدّى طيف أمّ مسـافـع   قـد نـام يـاابن القـوم من هـو نـاعس

« لام تسـدى يـاء لأنـه من تفعّل من سَدَى الثـوب ، وهـو من اليـاء يجـوز إمالته ، وقـد قـالوا أيضـاً : سـدى إليـه يسـدي سـديـاً ، في معنى أسـدى إليـه ، والمعنيـان منضمان ، ألا ترى أنهم يصفـون السخي بـانبسـاط يـده ، واللئيم بانقبـاضهـا ، والسّدَى مـاانبسـط من غزل الثوب . ويجوز أن يكون (تسـدى) تفعّل من السدو وهو بسط البعير في سيره وهذا من الواو[1] » .

● الأصـل في المحسـوس للمـادة اللغـويـة (س د ى ، س د و) إمـا متعلـق ببسط غزل الثوب أو الثوب نفسه فيا بعد ، وإما متصل بحركـة منبسطـة للبعير ، وينتقل المعنى إلى التجريد أسدى المعروف وأسدى النصح / في القاموس : السـدى من الثوب مامُـدَّ منـه ، وقـد أسـدى الثوب وسـداه وتسـداه وأسـدى بينهما أصلح ـ بينهما ـ ، أسدى إليه : أحسن / .

١٣ ـ ومـدقعين بسبروت صحبتهم   عـارين من حلـل كاسين من درن

(المتنبي)

« السبروت ، والسبرات والسبريت ، كله الأرض التي لانبت فيهـا ، ومـدقع فقير قد بلغ الدقعاء وهي التراب[2] » .

● الانتقال تم من الحسي / الأرض والتراب إلى معنى الفقر المجرد .

١٤ ـ ولا تـلاوات سـور   يمسح مرفـانـا يسر

(أرجوزة أبي نواس)

« السور جمع سورة ، وكأنها ـ والله أعلم ـ سميت سورة لارتفاع قدرها ، لأنها

---

(١) التام ، ابن جني ٤١ .

(٢) الفتح الوهبي على مشكلات المتنبي ، ابن جني ١٧٢ .

كلام الله تعالى وفيها معرفة الحلال والحرام ، ومنه قيل : رجل سوار أي معربد . وإنما قيل له سوار لأنه يغلو في فعله ويشتط . ومنه قيل : السورة لأنها ترفع من يتلوها ، ومنه قيل : سور المدينة لأنه بناء مرتفع ، ويجوز أن يكون سوار المرأة من هذا لارتفاع قدره والسُّورة : الشرف وارتفاع الذكر قال النابغة :

ألم ترَ أن الله أعطاك سورةً ترى كل مَلْك دونها يتذبذب[1]

● الدلالة الحسية السابقة هي المتعلقة بالسور المحيط بالمدينة والمتميز بالعلو ، ومن ثم أطلقت تسميات فرعية عديدة مستمدة منها : السوار ، إلى أن بلغت المجال الذهني : القيمة الرفيعة والتشريف في السورة القرآنية والمرتبة عامة كما في بيت النابغة .

(ب)

١٥ ـ ورثنا المجد قد علمت معدٌّ نطاعن دونه حتى يبينا

(عمرو بن كلثوم)

« المجد : الفعال الصالح الكثير ، ويقال : أمجدت الدابة إذا أكثرت علفها ، ويقال مَجُد إذا كرم[2] »

فرب غلام علّم المجدَ نفسه كتعليم سيف الدولة الدولةَ الحربا

(المتنبي)

« المجد كثرة المآثر والشرف ، ومنه قولهم أمجدت الدابة إذا أكثرت لها من العلف »[3] .

---

(١) شرح الأرجوزة ، ابن جني ١١٦ ـ ١١٨ .

(٢) ابن النحاس ٦٣٥ .

(٣) الفسر الصغير ، ابن جني ٢٨ ، الفسر الكبير ١٦٤ .

● إنَّ الأصل المحسوس لـ (مجد) واضح والانتقال إلى المعنى المجرد الذهني تم بحسب معطيات البيئة العربية القديمة فكثرة الكلأ وتدفق الأموال تجعل الرجل مميزاً في العشيرة والقبيلة خاصة أيام الجفاف والجدب إذ يبرز القادرون وتستقر أوصافهم وتعم .

١٦ ـ يضاحك الشمس فيها كوكب شرق مـــؤزّر بعميم النبت مكتهـــل
(الأعشى)

« مكتهل : قد انتهى في التام واكتهل الرجل إذا انتهى شبابه[١] » .

ترعرع الملك الأستاذ مكتهلاً قبل اكتهالٍ ، أديباً قبل تأديب
(المتنبي)

« اكتهل تم واشتد ، ومنه اكتهل النبت إذا تم وعلا ، والكهل من الناس من سنه مابين أربع وثلاثين إلى إحدى وخمسين[٢] » .

● إننا نستنتج أصالة الاستعمال المادي المحسوس (كهل) في النبات وذلك لكثرة تداول صور الزهر والورد مقترنة بالشباب وبذا يمكن ترجيح الانتقال إلى المعنى المجرد دالاً على مرحلة من عمر الإنسان (اكتهل ، كهل) .

١٧ ـ وأتلع نهّاض إذا صعّدت بـه كسكان بـوصيّ بـدجلة مصعد
(طرفة)

(قوله : إذا صعدت به) معناه أشخصته في السماء ، ويقال : قد تصعد الأمر ، إذا أشقّ عليك ، ومنه قولهم : هو يتنفس الصعداء . وقال عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) : « ماتصعدتني خطبة كما تصعدتني خطبة النكاح » .

---

(١) شرح ابن النحاس ٦٩٣ .
(٢) الفسر الكبير ، ابن جني ٣٦٦ ـ ٣٦٧ .

ويقال قد أصعد في الأرض ، إذا أبعد فيها ، وقد أصعد في الجبل يصعد إصعاداً وقد صعد في الدرجة والسلم يصعد صعوداً . قال الله عز وجل : ﴿ إذ تُصعدون ولا تلوون على أحد ﴾ [آل عمران۳/١٥٣] . وقال الأعشى :

ألا أيهذا السائلي أين أصعدت   فإن لها في أهل يثرب موعدا[١]

● يمكن ترتيب الدلالات المعروضة بشكل تبدأ فيه ١ ـ من العلو والارتفاع إلى السماء وفي الجبل ثم يتحول إلى ٢ ـ الإبعاد سواء في العلو أو في الامتداد ، وبعدها ٣ ـ الصعداء ، وتصعد الأمر ـ ذهني مجرد : صعب .

١٨ ـ فكلاً أراهم أصبحوا يعقلونه   صحيحات ألف بعد ألف مصتّم

(زهير بن أبي سلمى)

« والعقل : الدية . قال الأصمعي : أصله أن يؤتى بالإبل فتعقل بأفنية أولياء القتيل ، ثم كثر استعمالهم لهذا حتى قالوه في الدراهم[٢] » .

● الأرجح انتقال الدلالة (عقل) من الربط المادي إلى الربط الذهني والحكمة بدلاً من القتال ثأراً مروراً بالدلالة على الإبل أو المال المساويين قيمة الدية .

١٩ ـ سعى ساعيا غيظ بن مرة بعدما   تبزّل مـا بين العشيرة بالدم

(زهير)

« تبزّل كان بينهم صلح فشقق بالدم . تبزل : تشقق وتفطر ، فسعى ساعيا غيظ بن مرة فأصلحاه ، ومنه قيل المبزل والبزال . ومنه بزول البعير بنابه ، لأنه يتفطر موضعه ، ومنه قيل بزلاء للرأي الجيد لأنها قد انتجعت وبزلت . ويقال

---

(١) شرح الأنباري ١٧٢ .

(٢) نفسه ٢٨٠ .

إنه لذو بزلاء »[1] .

● يمكن ترتيب الدلالة متدرجة من المعنى الحسي : التشقق ثم . ٢ ـ المعنى الذهني : البزلاء : الرأي .

٢٠ ـ وإن يقذفوا بالقذع عرضك أسفهم بشرب حياض الموت قبل التنجد
(طرفة)

« العِرض موضع المدح والذم من الرجل . والعرض : ريح الجسد يقال : إنه لطيب العرض ونتن العرض . وقال أبو جعفر : العرض رائحة الجسد .

ويقال امرأة حسنة العرض . وقال غيره : العرض : النفس . وأنشد لحسان يقول لأبي سفيان بن الحارث :

فإنّ أبي ووالده وعرضي لعرض محمد منكم وقاء

أراد بالعرض النفس . والطوسي : العرض : الجسد ، والعرض الأصل[2] » .

● الأرجح انتقال الدلالة من معنى الجسد والحفاظ عليه إلى الدلالة الذهنية : الشرف .

٢١ ـ وقد كان عمرو بن أمامة عرّس بجارية من مراد ، وكانت أم ولده الغسانية معه ، فسمعت جلبة الخيل فقالت ، أي عمرو أتيت ،! سال قضيب بماء وحديد ... فقال لها عمرو « وأنت غَيْرى نغرة ؟ » والنغرة : التي تغلي من الغيرة كما تنغر القدر أي أنك غرت علي فذهبت مثلاً[3] » .

● نرجح انتقال الدلالة من الجانب الحسي لتعدد الاستعمال في الماديات كما

(١) شرح ابن الأنباري ٢٥٣ .
(٢) شرح ابن الأنباري ٢٠٦ .
(٣) نفسه ١١٩ .

ورد لدى ابن الأنباري ـ وكذلك في القاموس « نغر وتنغّر : غلا جوفه وغضب . والناقة ضمت مؤخرها فمضت ، والقدر غارت ، وامرأة نغرة وغيرى ، ونغر بها تنغيراً : صاح بها » ـ ثم الاستقرار في الدلالة الذهنية : الغيرة دون أن تمحو الأولى .

٢٢ ـ ترقى وتقطع في العنان وتنتحي وِرْد الحمامة إذ أجدّ حمامها

(لبيد)

يقال : إذا كان لك صديق فلا تشاره ولا تماره « فمعنى تشاره : تغاضبه . وتأويل تشرى : تحمى وتزيد وتجدّ . ومعنى تماره تجادله حتى تستخرج غضبه . يقال مريت الناقة أمريها مرياً ، إذا استخرجت لبنها[1] » .

● الانتقال من المحسوس : مرى الناقة إلى الذهني ، استخراج الغضب والإثارة .

٢٣ ـ أمن أم أوفى دمنة لم تكلم بحومانة الدراج فالمتثلم

(زهير)

« الدمنة آثار الناس وما سوّدوه بالرماد وغير ذلك . إذا اسودّ المكان قيل قد دمّن هذا المكان . والدمن والبعر والسرقين ، والدمنة في غير هذا : الحقد وجمعها دمن قال الشاعر :

ومن دمنٍ داويتها فشفيتَها بسلمك لولا أنت طال حروبها[2]

● انتقال الدلالة من المجال الحسي ١ ـ البعر والسرقين ٢ ـ المكان المسود ، إلى المجال الذهني ـ النفسي ـ الحقد .

---

(١) شرح ابن الأنباري ٥٨٥ .

(٢) شرح ابن الأنباري ٢٣٧ .

٢٤ ـ لا يطبعون ولا يبور فعالهم   إذ لا تميل مع الهوى أحلامها
(لبيد)

« قوله : لا يبور فعالهم : معناه لا يهلك . يقال : قد بار الطعام ، إذا كسد وهلك . ويقال : نعوذ بالله من بوار الأيِّم : أي من كسادها . قال الله عز وجل ﴿ يَرجُوْنَ تِجارَةً لَن تَبُور ﴾ [فاطر ٣٥ / ٢٩] ويقال رجلٌ بائر ورجل بور ، ورجال بور ، وامرأة بور . قال : ابن الزبعرى :

يا رسول المليك إن لساني   راتق ما فتقت إذ أنا بورُ

وقال الآخر :

همُ أوتوا الكتاب فضيّعوه   فهم عميٌ عن التوراة بورُ

يقول ـ لبيد ـ فلا يهلك أفعالنا في الحمد فيذهب . بل يذيع فيبقى ذكره[1] » .

● المرجح استخدام المادة اللغوية في المحسوسات ١ ـ الطعام ، التجارة ٢ ـ ثم انتقالها إلى الأفراد والجماعة ، ٣ ـ إلى الاستعمال المجرد الذهني ، العمل البائر .

٢٥ ـ فقالت يمين الله ما لك حيلة   وما إن أرى عنك الغواية تنجلي
(امرؤ القيس)

« الغواية : مصدر غوى يغوي غياً وغواية . ويقال غوي الفيصل يغوي غوى ، وهو أن يشرب من اللبن حتى يختر ولا يروى . قال الشاعر :

معطفّة الأثناء ليس فصيلها   برازئها درّاً ولا ميت غوى[2] »

---

(١) شرح ابن الأنباري ٥٩٤ .

(٢) شرح ابن الأنباري ٥٢ .

● الاستعمال في المجال الحسي سابق ومنه انتقل إلى المجال الذهني . وقد يكون لحرف الغين في بناء الكلمة أثر في الدلالة الحسية إذ يشترك في بناء كلمات تدل على أصوات صغار الحيوان أو على الصغار عموماً : البغام ، والثغاء ...

٢٦ ـ وإن أدع في الجلّى أكن من حماتها   وإن يأتك الأعداء بالجَهد أجهد

(طرفة)

« الجلّى : الجليل ، وأتت على معنى القصة والحال ، ويقال لكل ما علا شيئاً : جلله ، ومن ذلك جلله بالسوط إذا ضربه به ، ومنه جل الدابة ، ويقال جليل وجلال كما يقال : طويل وطوال ، وقولهم : جَلل للعظيم والصغير . قال أصحاب الغريب المحض هما ضدان[1] » .

● تعدّد المحسوسات وتفاوتها في الأهمية والقدر يجعل الدلالة الأولى هي المادة الحسية ، لأن المجرد الذهني أبعد في علوه بحيث لا ينتقل منه إلى (جل الدابة) . أما الضدية المذكورة فمن باب التداخل بعد الاستخدام الطويل .

٢٧ ـ فعلوت مرتقباً على مرهوبة   حرج إلى أعلامِهنّ قتامها

(لبيد)

« وأصل (الحرج) الضيق ، ويقال للشجر الملتف بعضه إلى بعض حرج ، فالمعنى أن القتام هو الغبار قد كثر حتى بلغ إلى الأعلام وهي الجبال ، ثم تكاثف ، ويقال إن (حرجاً) بمعنى محرج ، فكأنه قد ألجئ إلى الجبال[2] » . « يقال : حرج الموت بآل فلان ، أي لصق وثبت والحَرْج والحَرَج أيضاً : الشديد الضيق . قال

---

(١) شرح ابن النحاس ٢٧٦ .

(٢) شرح ابن النحاس ٤٢٦ .

الله عز وجل : ﴿ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً ﴾ [الأنعام ٦ / ١٢٥] ـ وفي قراءة (حَرِجاً) : أي شديداً[١] » .

● يبدو لنا الاستعمال المادي الحسي سابقاً وقد تلاه التجريد الذهني ـ النفسي الذي أشار إليه ابن الأنباري في الآية الكريمة ، وثمة معنى آخر هو : الإثم يضاف إلى الضيق كما في قوله تعالى ﴿ لِكَيْلاَ يَكُونَ على المؤمِنِينَ حَرَجٌ في أَزْوَاجِ أَدْعِيائِهِمْ إذا قَضَوْا مِنْهنّ وَطَراً ﴾ [الأحزاب ٣٣ / ٣٧] .

٢٨ ـ أو رجع واشمة أُسفّ نؤوورها كِففاً تعرَّض فوقهن وشامها

(لبيد)

« والكفف والدارات من الوشم ، وكانوا يَشِمون بنقش ودارات والواحدة كِفّة « ويقال لكل مدوَّر كفة نحو كفة الميزان وما أشبهها ، ويقال لكل مستطيل كفة ، ومنه قيل لحاشية الثوب كفة ، وأصل هذا من الكف وهو المنع ، ومنه سميت اليد كفاً لأن الإنسان يمتنع بها ، ومنه قيل : مكفوف لأنه قد منُع التصرف[٢] » .

● إن المعنى الأول مرتبط بالحسية أي المنع الحسي ومنه تفرعت دلالات جزئية ، الكف ، الكفة المدورة والمستطيلة ، وجزء الميزان ، وبعد ذلك تجرد الفعل وغدا يحمل أيضاً الدلالة الذهنية للمنع .

٢٩ ـ أو نقشتم فالنقش يجشمه النا س وفيه الصحاح والأبراء

(الحارث بن حلزة)

« نقشتم استقصيتم ، يقال : نقشت فلاناً ، وناقشته إذا استوفيته دينه .

---

(١) شرح ابن الأنباري ٥٨٠ .

(٢) شرح ابن النحاس ٣٦٩ .

واستقصيت عليه وفي الحديث : « من نوقش الحساب عُذِّب » ويقال : نقشت الشوكة من رجلي ، وانتقشتها إذا أخرجتها حتى لا يبقى منها شيء[1] » .

● تصورنا للتطور هو أنه : أولاً بدأ من المحسوس (نقش الشوكة وسلبها أي إخراجها) ، ثم ثانياً استيفاء الدين واستخراجه من مكامنه كالشوكة تنتزع من اللحم ثم ثالثاً المناقشة في الحديث كأنما يستخرج المعنى ويجذب الرأي .

٣٠ ـ ومشك سابغةٍ هتكت فروجها   بالسيف عن حامي الحقيقة معلم
(عنترة)

(ومعنى هتكت فروجها) شققت ، وواحد الفروج فرج ، ويقال لموضع المخافة فرج أيضاً مثل الثغر ، والفرجة في الصف ، وغيره بضم الفاء . (والفرجة) كشف البلاء بفتح الفاء كما قال :

ربما تكره النفوس من الأمـ   ـر له فرجة كحلِّ العقال[2]

● يمكن لنا تصور التطور من المعنى الحسي إلى المجرد الذهني . فأولاً نجد أن الخطر كأنما يقفل الأبواب والمسالك ثم يكون ثانياً كشفه بالفرجه المادية وبعدها ثالثاً الفرج المجرد .

٣١ ـ إذا ما عيَّ بالإسناف حيٌّ   من الهول المشبَّه أن يكونا
(عمرو بن كلثوم)

« قوله : عي أصله عيي فأدغمت الياء في الياء ، يقال عيَّ يعيا عيّاً ، ورجل عيٌّ ، والعيي في المشي يقال : أعيا الرجل يعيي إعياء ، أو رجل معيٍ[3] » .

---

(١) شرح ابن النحاس ٥٧٣ .
(٢) شرح ابن النحاس ٥١٣ .
(٣) نفسه ٨٠٥ ـ ٨٠٦ .

● نرجح الأصل المادي الحسي ومنه أخذ المعنى المجرد الذهني ـ النفسي ـ : الإعياء عامة وفي القاموس المحيط ما يجعل رأينا أكثر قبولاً فهو يقول : « أعيا الماشي كلّ ، والسير البعير ، وإبل معايا ومعاي : ومعيية ، وفحل عياء وعيايـاء لا يهتدي للضراب ، أو لم يضرب قط ، وكذا الرجل جمع أعياء » وداء عياء لا يبرأ منه وأعياه الداء ، والمعاياة : أن نأتي بكلام لا يُهتدى له .. والعي بن عدنان أخو معدٍّ »

٣٢ ـ وثمانون من تميم بأيديـ ـهم رماح صدورهن القضاء
(الحارث بن حلزة)

« والقضاء : الموت ، ومنه قضى فلان إذا مات ، وأصل القضاء : الفراغ من الشيء ، ومنه قضاء القاضي ، ومنه قضاء الله وقدره ، ومنه : تقضّى النهار ، وما تنقضي عجائبي من فلان[1] » .

● إن إعادة أصل المادة اللغوية (قضى) إلى (الفراغ من الشيء) مبهمة والأصح : العودة إلى الأصل المادي الذي يرتبط بالصوت (قضّ : قطع) وما يتفرع منه مادياً محسوساً ثم ذهنياً .

٣٣ ـ أغالب فيك الشوق والشوق أغلب وأعجب من ذا الهجر والوصل أعجب
(المتنبي)

« يجوز أن يكون الشوق أغلب لي ويجوز أن يكون غليظ العنق[2] » .

ويقول في القاموس : « غلب كفرح : غلظ عنقه . والغلباء الحديقة المتكاثفة كالمغلولبة ومن الهضاب : المشرفة العظيمة ومن القبائل : العزيزة الممتنعة ، والأغلب : الأسد » .

---

(١) شرح ابن النحاس ٥٨٩ .

(٢) الفسر الصغير ، ابن جني ٦٦/ب .

● إن إيراد ابن جني للاحتمالين : الغلبة وغلظ العنق يثير مسألة الأصل والفرع ، والقاموس يساعدنا في تصور قريب : فالمصارع والمقاتل تلزمها الشدة والضخامة في الأعم ، وقد يكون هذا منطلق الدلالة على الانتصار في (غلب) وكذا الجانب الحسي للكبر ملحوظ في الحديقة الغلباء ، والقبيلة العزيزة .

٣٤ ـ ويخدا عرانين الملوك وإنها لمن قدميه في أجل المراتب

(المتنبي)

« العرانين جمع عرنين وهو الأنف ، وعرنين كل شيء أوله . ويخداها أي يجعل لها خداء »[1] .

● العرنين في الأصل دَلَّ على الأنف أي الحسي المحدود ومن ثم انتقل إلى كل مادي ؛ وبعدها وجد طريقه إلى التجريد الذّهني .

٣٥ ـ ولا فضل فيها للشجاعة والندى وصبر الفتى لولا لقاء شعوب

(المتنبي)

« شعوب : المنية بغير ألف ولام ، وقد قيلت الشعوب بالألف واللام ، وسميت شعوب لأنها تشعب أي تفرق ، ومنه شعبت القدح إذا فرّقته ، وإذا جمعته أيضاً وهو من الأضداد »[2] .

● الانتقال تمّ في المادة اللغوية (ش ع ب) من المحسوس إلى المجرد الذهني : الموت .

---

(١) الفسر الصغير ، ابن جني ٦١/ب .

(٢) الفسر الكبير ، ابن جني ١٤٥ .

هامش ـ ٢ ـ التطور بين المحسوسات

التوسع والتعميم : (أ)

٣٦ ـ فمثلك حبلى قد طرقت ومرضع   فألهيتها عن ذي تمائم محول

(امرؤ القيس)

« ومعنى محول : قد أتى عليه حول ، والعرب تقول لكل صغير : محول ومحيل ، وإن لم يأت عليه حول كما قال :

من القاصرات الطرف لو دَبَّ مُحْوِل   من الذّر فوق الإتب منه لأثرا[1] »

● تطورت دلالة (محول) من الطفل ذي الحول الواحد ، إلى كل صغير .

٣٧ ـ فإذا ظُلمت فإنَّ ظلمي باسل   مرٌّ مذاقته كطعم العلقم

(عنترة)

« والعلقم : الحنظل ، ويقال لكل مر علقم »[2] .

● الدلالة تطورت من المادة المحدودة إلى كل مُرّ .

٣٨ ـ هل غادر الشعراء من متردّم   أم هل عرفت الربع بعد توهّم

(عنترة في رواية)

« والربع المنزل في الربيع ثم كثر استعمالهم إياه حتى قيل : ربّع وإن لم يكن في الربيع وكذلك دار من التدوير ، ثم كثر استعمالهم ذلك حتى قيل : دار وإن لم تكن مدورة »[3] .

---

(١) شرح ابن النحاس ١٢٠ ـ ١٢١ .

(٢) نفسه ٤٥٩ .

(٣) شرح ابن النحاس ٤٥٥ ، ٣٠٦ .

٣٩ ـ يعطي فتعطى من لهى يـده اللُّهى   وترى برؤيـــة رأيـــه الآراء

(المتنبي)

« (اللُّهى) العطايا ، واحدتها لهوة ، وأصل اللهوة القبضة من الطعام تلقى في فم الرحى فشبهت العطايا بها قال عمرو بن كلثوم :

يكـون ثفـالهـا شرقيَّ نجـد   ولهـوتهـا قضـاعـة أجمعينـا[1] »

٤٠ ـ وهـل رَدَّ عنه باللقـان وقـوفـه   صـدور العـوالي والمطهمـة القبـا

(المتنبي)

« والعوالي جمع عالية : الرمح من ذراعين من أعلاه إلى نصفه ، ثم كثر ذلك حتى قيل للرماح : العوالي[2] » .

- الاتساع من جزء الرمح إلى الدلالة عليه كله باللفظ (عالية ، عوال)

٤١ ـ إذا جلب الناس الوشيج فـإنـه   بهن وفي لبـــــاتهن يحطم

(المتنبي)

« الوشيج عروق القنا ثم صار اسماً لها قال زهير :

....   وهـل ينبت الخطيّ إلاّ وشيجـه ؟ »[3]

- من الدلالة على الجزء إلى الدلالة على الكل (الوشيج) .

٤٢ ـ يـا برق يخفي للقتـول كأنـه   غـابٌ تشيّمـه حريـق يبَّس

(أبو قلابة الهذلي)

« قال (تشيمه) دخل فيه . هذا من قولهم : شمت السيف أي أغمدته[4] »

- تطور من الدلالة على الدخول المادي المحدود : السيف في الغمد .

---

(١) الفسر الكبير ، ابن جني ٩٢ ـ ٩٣ .

(٢) الفسر الكبير ، ابن جني ١٧٠ ، الفسر الصغير ٢٩ ب .

(٣) الفسر الصغير ، ابن جي ٢٧٤ ب ، ٢٧٥ أ

(٤) التمام ، ابن جني ٨٢ .

التوسع والتعميم (ب) :

٤٣ ـ وقوفاً بها صحبي عليّ مطيهم يقولون لاتهلك أسىً وتجمّل

(امرؤ القيس)

« المطية : الناقة ، وإنما سمّي المطية لأنه يركب مطاها ، أي ظهرها[1] »

● تطور من الجزء : الظهر ، إلى الناقة كلها (مطية)

٤٤ ـ أو ملمع وسقت لأحقب لاحه طرد الفحول وضربها وكدامها

(لبيد)

« والمُلمِعُ : الأتان التي قد استبان حملها في ضرعها ، وذلك أنه يُشرِقُ للّبن . يقال لذوات الحافر والسباع : قد ألمعت ؛ وهي أتنٌ ملاميع .

ويقال للشاة إذا استبان حملها فأشرق ضرعها ووقع فيه اللبن واللبأ : أضرعت فهي مضرع ، ويقال : سألت فلاناً فأضرع أي تغير وجهه ، يريد عند المسألة »[2] .

● من الدلالة على ضرع الشاة في حالة الحمل ، إلى تغير الوجه عند المسألة وما يشابهها .

٤٥ ـ ومن لا يذد عن حوضه بسلاحه يهدّم ومن لا يظلم الناس يظلم

(زهير بن أبي سلمى)

« قال يعقوب : يذد : يدفع . يقال ذدت الإبل فأنا أذودها ذوداً ، وذياداً عن الحوض ، وإذا نحيّتها عنه . وقد أذدت الرجل ، إذا أعنته على ذياد

---

(١) شرح ابن الأنباري ٢٤ ـ ٢٥ .

(٢) سرح ابن الأنباري ٥٤٢ .

الإبل»[1] .

● التطور من ذود الإبل والغنم منعها من الاندفاع إلى الحوض ، إلى منع الأعداء والدفاع عن الحمى .

٤٦ ـ إذ تستبيك بذي غروب واضح   عذب مقبّله لذيذ المطعم

(عنترة)

الوضح : البياض . والوضح : اللبن سمي وضحاً لبياضه قال الشاعر :

عقّوا بسهم فلم يشعر به أحد   ثم استفاؤوا وقالوا حبّذا الوضح

● جرى تعميم وتوسع في : (و ض ح) بعد اختصاص باللبن فغدا دالاً على كل أبيض[2] .

٤٧ ـ على الذبل جياش كأن اهتزامه   إذا جاش فيه حميه غلي مرجل

(امرؤ القيس)

« الجياش : الذي يجيش في عدوه ، كما تجيش القدر في غليانها ، وجاش يقع بمعنى التكثير[3] » .

● التطور ههنا يتخذ مسارين ١ ـ يتسع المعنى فيشمل غليان القدر ، وسرعة الفرس ثم تسمى الفرس نفسها بواحد من مشتقات الأصل اللغوي (ج ي ش) جياش .

٢ ـ تتطور الدلالة من المجال الحسي بطرفيه السابقين إلى مجال مجرد هو التكثير .

---

(١) شرح ابن الأنباري ٢٨٦ .
(٢) شرح ابن الأنباري ٣٠٧ .
(٣) شرح ابن النحاس ١٦٩ .

٤٨ ـ فبثّهن عليــــه واستمر بــــه	صمـع الكعـوب بريّـــات من الحردِ
(النابغة)

« الصمع : الضـوامر الـواحـدة صمعـاء ، ومنـه يقـال : أذن صمعـاء إذا كانت ملتزقـة بـالرأس ومنـه قيل : صومعـة لأن رأسهـا قـد دقق ، ويقـال : فلان أصمع القلب أي حديده[1] » .

● التطور يمكن تصوره منطلقـاً من الأذن الصمعـاء أي الـدقيقـة المتلزقـة ثم يتحول إلى الضمور في الحيوان وبعدها يعم الموجودات الأخرى فتسمى أشكال فيهـا تميز الدقة كالصومعة . ٢ ـ وثمة اتجاه آخر تتطور فيه الدلالـة من الحسيـة إلى مجـال ذهني نفسي : الشجاعة .

٤٩ ـ سلي عن سيرتي فرسي وسيفي	ورمحي والهملّعـــة الـــدقـــاقـــا
(المتنبي)

« الهملعة : الناقة الخفيفة وأصله الذئب لخفته في السير وحركته »[2] .

● الدلالـة على محسوس محـدَّد هو الـذئب تنتقل إلى محسوسـات أخرى بفعل الوصف (الناقـة) وبـذا تفتح مجـال التوسع كما يرى في بسـط المـادة في القـاموس المحيـط فهي تشمـل الحسي الأكثر اتسـاعـاً وكـذا المعـاني التجريـديـة الـذهنيـة : « الهملع : المتخطرف الذي يوقع وطأة توقيعاً شديداً من خفـة وطئـه ، والـذئب والخب : الخبيث ، ومن لا وفاء له ولا يدوم على إخاء ، والجمل السريع » .

٥٠ ـ وبمهجتي يـاعـاذلي الملك الـذي	أسخطت أعـذل منـك في إرضـائـه
(المتنبي)

---

(١) شرح ابن النحاس ٧٤٥ .

(٢) الفسر الصغير ، ابن جني ١٨١ أ .

« المهجة خالص النفس ، ويقال : المهجة دَمُ القلب ، ومنه قيل لبن أمهجان وأمهج وماهج للخالص »[1] .

● ١ ـ الدلالة تنتقل من محسوس معين (دم القلب) إلى اللبن وسواه مما هو خالص . ٢ ـ وثمة تطور من الحسي إلى المجرد الذهني : الخالص في المحسوسات إلى النفس .

٥١ ـ وتردي الجياد الجرد فوق جبالنا   وقد ندف الصنّبر في طرقها العطبا
(المتنبي)

« (تردى) من الرديان وهو ضرب من العدو . قال الأصمعي : سألت المنتجع بن النبهان ماالرديان ؟ قال : عدو الحمار بين آريّه ومتمعكه »[2] .

● الدلالة على حركة محددة تتسع لتدل على حركة أكبر مجالاً : حركة الجياد وكأنما حدث هذا بفعل التصوير متدرجاً .

٥٢ ـ نفذت علي السابري وربما   تندق فيه الصعدة السمراء
(المتنبي)

«السابري : يعني الثوب الرقيق ، وكذلك كل ثوب رقيق عندهم سابري ، قال أبو علي ـ الفارسي ـ يرفعه بإسناده إلى عكرمة في قوله تعالى ﴿ وقدر فيها أقواتها ﴾ [فصلت ٤١/١٠] قال : السابري لا يصلح إلاّ (بنيسابور) والعصب لا يصلح إلا باليمن »[3] .

● تتسع الدلالة هنا من نوع معين من الثياب (المصنوعة بنيسابور) لتشمل كل ثوب رقيق .

---

(١) الفسر الكبير ، ابن جني ٤٣
(٢) الفسر الكبير ، ابن جني ١٧٥
(٣) الفسر الكبير ، ابن جي ٧٢

٥٣ ـ يتخوف الخريت من خوف التوا   فيهـــا كا يتلــون الحربـــاء
(المتنبي)

« الخَريت الدليل ، وخُرت الإبرة ، وخَرْتها أيضاً ثقبها ، وكـذلـك خرت الأذن ، وسمي الـدليل خِريتـاً لاهتـدائـه في الطريق الخفيـة كخفـاء ثقب الإبرة ونحوها »[1] .

● ويظهر لنـا أن الـدلالـة تطـورت من الحسي المحـدود ـ خرت الإبرة ـ إلى أكثر من محسوس : ثقب الأذن والطريق الخفيـة وبعـد هـذا الاتسـاع في الـدلالـة الحسية غدا واحد من المشتقات منتقلاً إلى المجال التجريدي : الخريت : الماهر .

٥٤ ـ وبلـــدة فيهـــا زَوَرُ   صعراء تخطى في صعر
(أبو نواس)

« والزور : الاعوجاج ، ومنهُ شهادة الزور كأنها المعدولة عن جهتهـا ، ومنـه قولهم : زورت عليه كلاماً ، كأنه جاءه بمـا هو مخـالف للحق ومجـانب لـه . ومنـه قوس زوراء ، وهي المعوجة قال (امرؤ القيس) :

عـــــارض زوراء من نشم   غير بـــانـــاة على وتره

ومنـه بعير أزور ، وهو المـائل في شق . ومنـه قـولهم : أزور إذا جنـح قـال عنترة :

فـازور من وقـع القنـا بلبـانـه   وشكا إليّ بعبرة وتحمحم

يصف أنه مال عن الطعن »[2] .

---

(١) الفسر الصغير ، ابن جني ١١ ب .
(٢) تفسير الأرجوزة ، ابن جني ١٣ ـ ١٤

● يمكن تصور التطور بادئاً من محسوسات معينة كالقوس ثم اتسعت الدلالة لتشمل عدداً من المحسوسات كالفرس التي تميل ، حتى غدت مرتبطة بـ كل اعوجاج ، وبعدها انتقلت إلى التجريد : الشهادة .

التخصيص : (أ)

٥٥ ـ طيّ القراري الحبر لم يتقّعدها الطِّير
(لأبي نواس)

« الحِبَر جمع حِبَرَة وأصل التحبير : التحسين . وقيل لها حبرة لحسنها »[١] .

● الدلالة تخصص بنوع معين (الحبرة) بعد أن كان الأصل اللغوي عام الدلالة على التحسين .

٥٦ ـ إذا العرب العرباء رازت نفوسها فأنت فتاها والمليك الحلاحل
(المتنبي)

« الحلاحل : أصله الخالص من كل شيء ويقال للرجل إذا كان من صميم القوم : حلاحل »[٢] .

● خصصت دلالة اللفظ بعد عمومها : (الحلاحل) .

التخصيص : (ب)

٥٧ ـ ندامای بيض كالنجوم وقينة تروح إلينا بين بُرْد ومجسد
(طرفة)

« المجسد : الثوب المصبوغ بالزعفران حتى يكاد يقوم قياماً . والجساد :

(١) الأرجوزة ، ابن جني ١٣٣
(٢) الفسر الصغير ، ابن جني ٢٢٣ ب .

الزعفران ويقال قد جسد به الدم ، إذ يبس عليه واجتمع . والمِجْسد والمُجسد عن الطوسي : الثوب المشبع بالصبغ »[1] .

● تبدو الدلالة مخصصة بعد عموم فأصل الكلمة (مجسد) كل مصبوغ بالزعفران ولكنهم خصصوها بالدلالة على الثوب من المصبوغات .

٥٨ ـ وأروع نبّاض أحذ ململمٍ كمرداة صخر في صفيح مصمّد

(طرفه)

« أروع يعني قلبها ، وهو الحديد السريع الارتياع من القلوب لحدته . ويقال راعني الأمر يروعني روعة إذا أفزعك »[2] .

● تخصص دلالة (أروع) بالقلب بعد نقل الصفة إلى الاسمية بفك التركيب المؤلف من الاسم والصفة (قلب أروع) وما دام السياق يُفهم الدلالة فهي تمثل تحولاً دلالياً بالتخصيص ههنا .

٥٩ ـ كأن فتات العهن في كل منزل نزلن به حَبُّ الفنا لم يحطَّم

(زهير بن أبي سلمى)

العهن ـ ههنا ـ الصوف المصبوغ ، ويقال : لكل صوف عهن إلا في قول الأصمعي ، فإنه زعم أنه لا يقال له عهن حتى يكون مصبوغاً[3] .

● يمكن أن نستنتج هنا أن دلالة (العهن) كانت تصلح لعموم الصوف ، ثم خصصت بالمصبوغ منه .

٦٠ ـ ولست بحلال التلاع مخافة ولكن متى يسترفد القوم أرفد

(طرفه)

---

(١) شرح ابن الأنباري ١٨٩

(٢) شرح ابن الأنباري ١٧٩

(٣) شرح ابن النحاس ٣١٢

« ومعنى يسترفد يستعطي ، و (الرفد) : العطية وقيل الرفد : المعونة »[1] .

● يمكن أن يكون المعنى تحول من العموم (كل عطية) إلى خصوص هو : العطاء للمعونة ؟

٦١ ـ كأن دماء الهاديات بنحره عصارة حنّاء بشيب مرجَّل
(امرؤ القيس)

« الهاديات : يريد أوائل الوحش ، وأول كل شيء هاديه ، ومنه سمي العنق هادياً »[2] .

● بعد الدلالة على العموم (أول كل شيء) ينتقل إلى خصوص : (العنق : الهادي) .

٦٢ ـ وكذا الكريم إذا أقام ببلدة سال النضار بها وقام الماء
(المتنبي)

« النضار : الذهب ، وقال بعضهم : الذهب يقال له النضار بالكسر في النون لأنه جمع نضر وهو الذهب ، فأما النضار بالضم فهو الخالص من كل شيء »[3] .

● يمكن أن تكون الدلالة منتقلة من العموم (الخالص من كل شيء : النضار) إلى تخصيصها بالذهب .

٦٣ ـ فتبيت تسئد مسئداً في نيّها إسآدها في المهمه الأنضاء
(المتنبي)

---

(١) شرح ابن النحاس ٢٥٦

(٢) نفسه ١٧٨

(٣) الفسر ، ابن جني ٨٦

« (الإسآد) : إغذاذ السير ، ومثله (الإيساد) يقال : أسأدت السير وأوسدته أي أغذذته كلاهما بمعنى ، ويقال (الإسآد) : سير الليل خاصة »[1] .

● احتمال لتخصيص الدلالة (بنوع من السير) بدلاً من (السير السريع عامة) .

٦٤ ـ إذ سار ذو التاج الهمام بجحفل   لجب يجاوب حجرتيه صهيلا

(رجل من كنده)

« اللجب الكثير الصوت ، واللجب : الصوت بعينه »[2] .

● يمكن أن تستنتج أن المادة اللغوية (لجب) تستعمل للدلالة على كثرة الأصوات وهي تمثل خصوصاً يمكن نقله إلى عموم (الصوت) .

انتقال الدلالة : (أ)

٦٥ ـ مشعشعة كأن الحصّ فيها   إذا ما الماء خالطها سخينا

(عمرو بن كلثوم)

« (المشعشعة) الخمر التي أرق مزجها ، وما مزج فأرق مزجه فهو شعشع ومنه قيل رجل شعشاع إذا كان طويلاً خفيف اللحم »[3] .

● الدلالة تغير مجالها من اللون الذي يجد أصله ـ كما جاء لدى ابن النحاس ـ في الظل الرقيق وكأنه ناتج عن ضياء الشمس الخفيف من بين الغيم ، إلى آخر هو جسم الإنسان (فالشعشاع) هو (النحيف ، خفيف اللحم ، الطويل) .

---

(١) الفسر الكبير ، ابن جني ٧٨ ، الفسر الصغير ١١ أ .

(٢) شرح ابن الأنباري ١١

(٣) ابن الأنباري ٣٧٢ ، شرح ابن النحاس ٦١٥

٦٦ ـ فداني ولم يضنن عليّ بنصره ورِدّ غداة القاع ردّة ماجد

(عروة بن مرة الهذلي)

« (عين القاع واو) كأنه من معنى : قاع الفحل الناقة يقوعها قياعاً إذا علاها ، وذلك أن القاع كل مطمئن حرّ الطين . والتقاؤهما أن الأرض المنخفضة تعلوها الأشياء لانخفاضها »[1] .

● انتقلت الدلالة من تسمية الأرض في حالات خاصة ، إلى الفعل المخصوص وذلك بفضل الكناية .

٦٧ ـ ألا أبلغا أفناء لحيان آية وكنت متى تجهل خصيمك يجهل

(سويد بن عميرة الخزاعي)

« الأفناء مقصور مفرده ، ولامه مشكلة ، وينبغي عندي أن تكون من الواو من قولهم شجرة فنواء ووجه التقائهما أن أفناء الناس جهاتهم ، ونواحيهم ، وشجرة فنواء أي لها أفنان ونواح »[2] .

● الدلالة تنتقل من مجال تسمية الشجر الكبير ، إلى تسمية الجماعة من الناس . والربط هنا هو العمل التشبيهي لدى المستخدم للغة .

٦٨ ـ « وفي شرح لبيت هذلي يستطرد ابن جني فيشرح الصلة بين اسم المرآة : الماوية ، والماء فهو يقارن النسبة إلى الماء بالماوي إلى الشاة بالشاوي بحالة هي : الهداوة ويفترض أن أصلها هدأ . وإشارة الناقد التي نستنتج منها انتقال الدلالة هي أنّ « الماوية إنما هي منسوبة إلى الماء وبها سميت المرآة لصفائها وبريقها »[3] .

---

(١) التام في تفسير بقية أشعار هذيل ، ابن جني ٤٨

(٢) التام ، ابن جني ١٢٧

(٣) التام ، ابن جني٦٥

● (فالماء) مجال له خصائصه الجوهرية وأعراضه التي فيها صلاحيته ـ لصفائه ـ لأنه ينظر الإنسان فيه ليرى صورته منعكسة فيه ، و (الماوية) تمثل مجالاً آخر جوهره أن يعكس صور الإنسان والأشياء .

٦٩ ـ أصحرتَ إذ دبُّوا الخَمر شكراً وحرّ من شكر
(أرجوزة أبي نواس)

« يقال فلان يدب لي الخمر والضراء ، أي يساترني ، ولا يواجهني فيها . والخمر ما وراك من الشجر ، قال الشاعر :

ألا يا زيد والضحاك سيرا فقد جاوزتما خَمَر الطريق

ومنه قيل « الخمار : يستر الوجه . ويجوز أن تكون الخمر مأخوذة من هذا المعنى كأنها تغطي العقل ، وتستر عليه دون صاحبه »[١] .

● الدلالة تنتقل من مجال الغطاء المادي فتسمي الشجر ـ وغطاء الوجه ـ إلى مجال آخر هو : الشراب المسكر . ويمكن تصور نمو الدلالة بعد اتصالها بالشراب لتغدو من الدلالات المجردة .

٧٠ ـ بعيدة ما بين الجفون كأنما عقدتم أعالي كلّ هدب بحاجب
(المتنبي)

« والهدب : الشعر الذي على حروف العين ، ومنه هدب الإزار وهدّابه قال امرؤ القيس :

فظل العذارى يرتمين بلحمها وشحم كهدّاب الدمقس المفتّل[٢] »

---

(١) الأرجوزة ، ابن جني ١٦٦ ـ ١٦٧

(٢) المسر الكبير ، ابن جني ٣٣٥

● الـدلالـة انتقلت من الشعر في جزء من الوجـه إلى مجـال آخر هـو الثيـاب وأطرافها والرابطة هنا تشبيهية .

٧١ ـ إذا نكتت كنـانتـه استبنـا بـأنصلهـا لأنصلهـا نـدوبـا
(المتنبي)

● انتقلت الدلالة من الفارس إلى كنانته والرابط هنا علاقة مجازية مرسلة .

٧٢ ـ وصفراء البرايـة فرع قـانٍ تضمنهـــا الشرائـع والنهــوج
(عمرو بن الداخل الهذلي)

« كان أبـو علي ـ الفـارسي ـ يجعـل عين القـان يـاء ، ويـأخـذه من قيّنت الشيء ، أي حسنتـه وزينتـه ، ويـذهب إلى أن الشجر يحسّن موضعـه ويجملـه . وليس عندي أن يكون : العين هو القيد من هـذا ، وذلـك أنـه بمنزلـة الخلخـال ، والسوار من المرأة وهما للجمال والزينة ، قال ذو الرمة :

دانى لي القيـد في ديـومـة قَـذَفٍ قينيـه وانحسرت عنـه الأنـاعيم

ويكشف عما نحن بسبيله قول أبي نواس :

إذا قـام غنّتـه على السـاق حليـة لهـا خطـوة عنـد القيـام قصير

فجعل القيـد حليـة ، أي هـو في مكان الحلية من لابسهـا ، وهـو أيضاً من جوهر الأرض كالفضة والذهب »[1] .

● يتغير المجـال الـدلالي وتنتقل فيـه الـدلالـة من (القيـد والعبـوديـة) إلى (الزينة والتحسين) لمجاورة الأدوات في كلتـا الحـالتين فـالقيـد الحـديـدي يحيـط بالمعصم وبالأقدام ، وكذا أدوات الزينة كالأسـاور ومـا إليهـا وقـد يكون للتطور

---

(١) التام ، ابن جني ٢٩

الاجتماعي أثر في هذا فالقيان الأسيرات يتحولن إلى مغنيات وراقصات فترتبط صورتهن بجزئياتها بالتسمية المنقولة : القين .

انتقال الدلالة : (ب)

٧٣ ـ ألا كلّ ماشية الخيزلى فدا كلّ ماشية الهيدبى
(المتنبي)

« الخيزلى : مشية فيها تفكك وتحرك من مشي النساء ، ومن مشي الخيل أيضاً . يقال هي تمشي « الخيزلى » والخوزرى بمعنى واحد »[1] .

ويقول في القاموس المحيط :

« خزل والتخزل والانخزال مشية في تثاقل ... والأخزل من الإبل ماذهب سنامه كله ، والانخزال الانفراد والحذف والاقتطاع ... »

● الدلالة تنتقل من مجال الحيوان ـ اقتطاع سنامه ، ومن ثم ضعفه ومشيه المتباطئ ـ إلى الإنسان ومشيه بفعل المشابهة .

٧٤ ـ يعلمن حين تحيّي حسن مبسمها وليس يعلم إلا الله بالشنب
(المتنبي)

« الشنب هو برد الريق قال الراجز :

يا بأبي أنت وفوك الأشنب كأنما ذرّ عليه الزرنب
أو زنجبيل عابق مطيّب

ويقال هو حدة الأنياب »[2] .

---

(١) الفسر ، ابن جني ١٢١

(٢) الفسر الكبير ، ابن جني ٢١٤

● انتقلت الدلالة من الريق إلى حدة (الأنياب) من الأسنان بعلاقة المجاورة .

٧٥ ـ جمد القطار ولو رأته كما رأى بهتتْ فلم تتبجّس الأنواء

« الأنواء جمع نوء ، والنوء سقوط النجم في المغرب وطلوع آخر يقابله في المشرق ، ويسمى النجم نوءاً ، يقال : سقينا بنوء كذا ، أي من ماء السحابة التي نشأت في وقت نوء ذلك النجم »[١] .

● تنتقل الدلالة من النجم إلى الزمن الذي يتحرك فيه ومن ثم تسمى السحابة التي تنشأ في هذا الوقت : النوء وهذه العلاقة تندرج ضمن علاقات المجاز المرسل .

٧٦ ـ وتردي الجياد الجرد فوق جبالنا وقد ندف الصنبّر في طرقها العطبا (المتنبي)

« الصنبر : السحاب البارد ، والصنبر أيضاً هو اليوم الثاني من أيام العجوز . تقول العرب : صنٌّ ، وصنبّر ، وأختها وبرّ ، ومطفئ الجمر ، وملقي الظعن فذلك خمسة أيام وقيل إنها سبعة »[٢] .

● تنتقل الدلالة من مجال إلى آخر بفعل العلاقة المجازية المرسلة .

٧٧ ـ أجمعوا أمرهم بليلٍ فلما أصبحوا أصبحت لهم غوغاء

« فالغوغاء : الرذال من الناس . والغوغاء من الجراد : الصغار الذي يركب بعضه بعضاً »[٣] .

---

(١) الفسر الكبير ، ابن جني ٨٩

(٢) الفسر الكبير ، ابن جني ١٧٧

(٣) شرح ابن الأنباري ٤٥٢

● الدلالة تنتقل من مجال الدويبات الطائرة : الجراد إلى : الإنسان برابطة المشابهة .

٧٨ ـ باتت وأسبل واكفٌ من ديمة   يروي الخمائل دائماً تسجامها

(لبيد)

أسبل : سال واسترخى ، يقال : أسبل إزاره ورفله . ويقال : جاء يجر سبلته . إذ جاء يجر إزاره . وقال أبو زيد : يقال : أسبلت السماء إسبالاً وهو المطر وهو بين السحاب والأرض حين يخرج من السحاب ولم يصل إلى الأرض . والاسم السبل وهو المطر . قال أوس بن حجر .

وقتلى كمثل جذوع النخيـ   ـل يغشاهم سيلٌ منهمر

وقال جرير :

لم ألق مثلك بعد عهدك منزلاً   فسقيت من سبل السماك سجالاً

وقال عمر بن أبي ربيعة :

ألم تربع على الطلل   ومغنى الحيِّ كالخلل
تعفّي رسمه الأروا   ح مرَّ صباً مع الشمل
وأنداء تباكره   وجون واكف السبل[1]

● تنتقل الدلالة هنا من مجال : المطر في بعض صوره ، إلى : الملابس وأطرافها .

٧٩ ـ لخولة أطلالٌ ببرقة ثهمد   تلوح كباقي الوشم في ظاهر اليد

(طرفة)

---

(١) شرح ابن الأنباري ٥٥٨

« تلوح معناه تبرق . ويقال للثور الوحشي لَياح ولِياح ، لبريقه وبياضه »[1] .

● تنتقل الدلالة ـ بالاشتقاق ـ من مجال البرق ولمعانه إلى : الثور تسمية له والرابط المشابهة في الظهور والتميز على البعد .

---

(١) شرح ابن الأنباري ١٣٣

هامش ـ ٣ ـ الألفاظ غير العربية

(أ) مصطلح الأعجمي عامة :

٨٠ ـ جــاء نــوروزنــا وأنت مراده وورت بــالــذي أردت زنــاده
(المتنبي)

« ذكر سيبويه هذه اللفظة في باب للأسماء الأعجمية في حد ما لا ينصرف فقال : نيروزنا بالياء وحكى غيره من البغداديين نوروزنا بالواو[1] . وأنشدت العرب من الأعجمي الذي تصرفت فيه :

هل تعرف الدار لأمر الخزرج منهــا فظلت اليــوم كالمــزّرج

أي الذي شرب الزرجون وهو الخمر ـ أعجمي ـ »[1] .

٨١ ـ بركت على مــاء الرداع كأنما بركت على قصب أجشّ مهضّم

« المهضّم : الذي قد غمز حتى انفضح وهو (النرمناي) ، والنرمناي ضرب من آلات الزمر »[2] .

● نرجح كون « النرمناي » من الأعجمي رغم اكتفاء ابن الأنباري بإيرادها دون المصطلح . وقد جاء في القاموس المحيط بعض أسماء العلم والمواضع قريبة من هذا اللفظ : « نريمان علم ، نيرمان بلدة بهمذان » .

---

(١) الفسر الصغير ، ابن جني ١٢٣ أ ـ ب .

(٢) شرح ابن الأنباري ٣٣٠ ، والقاموس ١٨٠/٤

٨٢ ـ كقنطرة الرومي أقسم ربها   لتكتنفاً حتى تشاد بقرمد
(طرفة)

« والقرمد : الآجر ، واحدته قرمدة ، وهو أعجمي عرب وأصله قرميدي بالرومية فأعربتها العرب »[1] .

٨٣ ـ في تعليق لابن جني يقول : « قالوا في المترس : المطرّس ، وكلاهما أعجمي والعرب تسمي المطرس لِزازاً »[2] .

٨٤ ـ حذر الجور والتعدي ولن ينـ   ـقض ما في المهارق الأهواء
(الحارث بن حلزة)

« المهارق : الصحف . الواحدة مهرق ، وأصله أعجمي »[3] .

(ب) مصطلح الفارسي :

٨٥ ـ يصلّي بها الحرباء للشمس مائلاً   على الجذل إلاّ أنه لا يكبّر
إذا حول الظلّ العشي رأيته   حنيفاً وفي قرن الضحى يتنصر
(ذو الرمة)

« الحرباء دويبة كالعظاية تأتي شجرة تعرف بالتنضبة ، فتمسك بيديها غضية منها ، وتقابل بوجهها الشمس فكيفما دارت الشمس دارت معها ، فإذا غربت الشمس غربت معها ، والحرباء فارسية معربة »[4] .

---

(١) شرح ابن الأنباري ١٦٦ ، وينظر فقه اللغة للثعالبي ٣٠٧
(٢) التمام ، ابن جني ١٢٣
(٣) شرح ابن النحاس ٤٨١
(٤) الصناعتين ، أبو هلال العسكري ٢٥٣

٨٦ ـ في تعليق لابن النحاس يقول : من أسماء الخمر : الزرجون « والزرجون بالفارسية لون يشبه لون الذهب »[١] .

٨٧ ـ في تعليق لابن جني « الدشت بالفارسية الصحراء وإذا عربتها العرب قيل دست بالسين »[٢] .

٨٨ ـ فعدن كما أخذت مكرمات   عليهن القلائد والملاب

(المتنبي)

« الملاب ضرب من الطيب وهو فارسي معرب قال الهذلي :

أبيت على معادي فاخرات   بهن ملوَّب كدم العباط

ملوب أي يطيب بالملاب »[٣] .

٨٩ ـ تفل عليهم كل درع وجوشن   وتفرى إليهم كل سور وخندق

« الخندق فارسي وقد نطقت به العرب قديماً »[٤] .

٩٠ ـ فخمة ذفراء ترتى بالعرى   قردمانياً وتركاً كالبصل

(لبيد بن ربيعة)

« هاتان كلمتان بالفارسية وقد أعربتا (قردمانياً) أي عمل قديماً فبقي ، والترك : البيضة »[٥] .

---

(١) شرح ابن النحاس ٤٩٨

(٢) الفسر الصغير ، ابن جني ٢٦٤ ب .

(٣) الفسر الصغير ، ابن جني ٣٥ ب ، الفسر الكبير ١٩٥

(٤) الفسر الصغير ، ابن جني ١٨٤ أ .

(٥) الموشح ، المرزباني ١٣١

(ج) مصطلح الرومي :

٩١ ـ بإسفنط كرم ناطف زرجونة   بعقب سرى جادت به مزق قمر

« قال : واسفنط رومي اسم الخمر ، واجتمع الناس على ذلك إلا ابن الأعرابي فإنه قال : هو عربي »[١] .

٩٢ ـ مهفهفة بيضاء غير مفاضة   ترائبها مصقولة كالسنجنجل
(امرؤ القيس)

« وقوله كالسنجنجل قال يعقوب ـ ابن السكيت ـ هو رومي قال وأراد مرآة قال وهو أيضاً قطع الفضة وسبائكها .

وأبو عبيدة يرويه (مصقولة بالسجنجل) ويقال السجنجل : الزعفران ويقال هو ماء الذهب والزعفران »[٢] .

٩٣ ـ كقنطرة الرومي أقسم ربها   لتكتنفاً حتى تشاد بقرمد

« القرمد : الآجر . وقوله : كقنطرة الرومي قصد بناء الروم لإحكامه »[٣] .

٩٤ ـ ويذكر ابن جني أن : « القسطاس : رومي »[٤] .

☆ ☆ ☆

---

(١) التمام ، ابن جني ٢٠٨ ـ ٢١٠

(٢) شرح ابن الأنباري ٥٩

(٣) شرح ابن النحاس ٢٣٤

(٤) الفسر الكبير ، ابن جني ٢٥٦ ـ ٢٥٧

الفصل الخامس

الدلالة والمجاز

النظرية والتطبيق

منهج البحث في دراسة المجاز والدلالة

إنّ دراسة الجانب الدلالي في المجاز كما عرضه نقاد الشعر في القرن الرابع تنطوي على مخاطر عدة ، ذلك أن تطبيق المفهومات الحديثة للأبحاث والنظريات على الأعمال النقدية القديمة يحتاج إلى تنبُّه شديد ، والتزام بحدود القضايا المطروقةِ في كتب التراث ، فنحن نوضح خطتنا في هذا الفصل ونبيِّن كيفية التناول :

أولاً ـ ففي الجزء الأول من هذا الفصل نعرض لأبحاث في اللغة ـ وفي علم الدلالة خاصة ـ تدرس المجاز بضروبه (المرسل ، والاستعاري) في إطار دلالي ، أي أننا سنرى كيف وظّف المؤلفون هذه الدراسات لتخدم مسائل لغوية دلالية ، وهم يقدمون تحليلاً مفيداً للناقد ودارس الأدب إذا مانظرنا إلى القضية من زاوية النقد ، فالمادة المحلَّلة تتصل من طرف باللغة واستعمالاتها ، ولها طرف آخر يضيء النتاج الأدبي عامة ، والشعري خاصة ، وهكذا تستطيع كل طائفة من الدارسين الإفادة ـ مما عرض ـ بطريقتها الخاصة بها .

ثانياً ـ وفي القسم الثاني بعض الآراء التي بسطها النقاد في مصنفاتهم النظرية فيما يتعلق بالجانب الدلالي للاستعارة والمجاز عامة ، وعلى هذا نتمكن من متابعة الاهتمام اللغوي ـ دلالياً ـ في النظرية النقدية ذاتها مما يجعلنا على درجة أكبر من الاعتقاد بجدوى ذلك النمط الدلالي في التحليل الأدبي وفي إعطاء نتائج لغوية عامة .

ثالثاً ـ وفي القسم الثالث نتلمس المعالم الدلالية ـ أو لنقل الجذور ـ في كتابي

أرسطـو (فن الشعر ، والخطـابـة) حيث تنـوولت الاستعـارة ـ وكـذا التشبيـه ـ وذلك أن أثر هـذين الكتـابين واضح في العمل النقـدي ـ في جوانب كبيرة منـه ـ عند العرب ، وفي تشكيله للتعريفات الخاصة بالمجاز ، وهذه المحاولة تريد أن تبرز خيوطـاً تكاملت ـ بَعْـدُ ـ نسيجـاً لتحليلات دلاليـة سواء في كتب البـلاغـة أو في كتب اللغة المتطورة حديثـاً في أوروبـة ، لكنهـا لم تجـد من يصل بهـا إلى مرتبـة متقدمة في أوساط نقاد القرن الرابع الهجري .

رابعاً ـ أما في القسم الرابع فسنعرض لأعمال اللغويين والنقاد بحسب القضايـا التي بسطناها في الأقسـام السـابقـة ونعطي شواهـد تطبيقيـة على المجـاز والتطور الدلالي .

١ ـ البحث الدلالي ودراسة المجاز

إن نقطة الالتقاء بين الاهتمام البلاغي ـ النقدي بالمجـاز على اختلاف ضروبـه ودراسة علماء الدلالة لهـذه الأنواع من الاستخـدامـات الأدبيـة تتمثل في الانعكاس الذي يترك آثاره في اللغة العادية المتداولة دونما قصد إلى الإبداع والتميز ، فالنـاقـد يتتبع طرائق الشعراء والكتـاب في التعبير وابتكار الصور لإحـداث التكامل المؤثر في المتلقين ، ذلك أن الفكرة التي يطـالع بهـا المبـدع قـارئـه ، أو الانفعـال الـذي تتكون منه قصيدة يحتاجان إلى هيئة فنية خاصة تنحت من المـادة اللغويـة ذاتهـا بإيقاعها وموسيقاها وبحيوية فاعلة تجعل اللغة تتسع لتجربة فيها الصورة المجازية والاستعارية ، وههنا يمسك الباحث الدلالي طرف المسـألـة ليـدرس لغـة الشـاعر المجـازيـة وهي أعلى مرتبـة لاستخراج قـدرات البنـاء اللغـوي ـ من تغيير المعنى ونقله ، أو تحريكه في اتجاهات يتسع في بعض منهـا ، ويضيق في بعض آخر ـ مع الاحتفاظ بوهج الانفعال وحرارة التجربـة ، ومن ثم يعرض الـدلالي لنماذج يخفت فيها الوهج ، وترفع عنها أستـار السحر والتحريـك ، وتغـدو الأشكال التي تصنف

ظاهراً على أنها مجازية أدوات لغوية عادية قد تغني الرصيد اللغوي بمرادفات أو ظلال للمعنى إلا أنها تترك مكانها الأول في لغة الشعر ذات الخصوصية .

ولقد كانت تغيّرات المعنى قد حدّدت ووصفت منذ العهود القديمة في أوروبة ، وشكلت دراستها قسماً هاماً من البحوث البلاغية ، ولقيت نظرية الاستعارات التي ترجع في تاريخها إلى (أرسطو) اهتماماً واضحاً في عهد الشراح الاسكندريين ، وقد أحصى - بَعْدُ - النحاة اللاتين أربعة عشر نوعاً من أنواعها أبرزها : الاستعارة التشبيهية التكوين - والمجاز المرسل بعلاقاته المتعددة[(١)] .

وفي مطلع العصر الحديث للدراسات اللغوية الدلالية وجد علماء الدلالة وعلى رأسهم (بريال) و (دارمستيتر) في المجازِ المرسل ذي العلاقة الكلية والجزئية ، وذي العلاقات الأخرى كالسببية والمجاورة ، وفي الاستعارة نماذج أساسية لتغير المعاني - الدلالات - وتطورها ذلك أن المجاز ذا العلاقة الكلية والجزئية يشكل حالات الانكماش والاتساع في المعنى فالانكماش يتم إذ نستعمل لفظ الكل في الجزء ﴿ جَعَلُوا أَصَابِعَهُم في آذانِهم ﴾ ، [نوح ٧/٧١] والاتساع باستعمال الجزء معبراً به عن الكل « عين السلطة الغازية يتجول بين القوم » أما المجازات ذوات العلاقة السببية والمسببية ، والمجاورة والحالية والمحلية ، والاستعارات فهي تمثل نقل المعنى من مجال إلى آخر .

وهذه الطريقة تنسب إلى المنطق فهي تعيّن الاحتمالات الثلاثة (١ - توسيع المعنى ٢ - تضييق المعنى ٣ - نقل المعنى) دون احتمال آخر يضاف إليها ، وفي الآماد التالية نشطت الدراسات اللغوية وأدى نمو الكشوف في نظرية الإشارات ،

---

(١) نستقي مادة هذه الفقرة وتنظيم كل من ستيرن وأولمان من الفصلين الرابع والثالث من كتاب غيرو (علم الدلالة) ومن الفصل الثالث (من الباب الثالث) لكتاب أولمان (دور الكلمة في اللغة) ١٦١ - ١٨٧ . Guiraud , La Sém , chapitre III , IV ; p , p . 42 - 72 ,

وأساليب الدلالات إلى تعديلات في طريقة الدراسة الدلالية .

والتحليل الدلالي الحديث يعرض ـ متكئاً على التقدم الذي أحرزته البحوث اللغوية ـ معايير جديدة للتصنيف ، ومصطلحات تحدد بشكل واضح السمات الذاتية للنهج الدلالي القائم على ثنائية الدال Signifiant والمدلول Signifié والطبيعة النفسية والاجتماعية لعلاقاتها تحت الشكل الثنائي لها : المشابهة والملاصقة (المجاورة) ، وهكذا لا يقتصر الأمر على تحديدات وتقسيمات منطقية لتغير المعنى وتطوره ، بل إن التفسيرات النفسية تواكب تفسيرات أخرى اجتماعية فتعطينا قدراً أكبر من الأدلة التي تظهر العمليات الدلالية بشكل أوضح وخاضع لمقاييس وقواعد .

وسنتابع تصنيفين لتغيُّر الدلالات وتطورها الأول منهما للعالم ستيرن Stern والآخر لأولمان Ullmanne ونلحظ مواقع المجاز والاستعارة فيهما ، وكيفية تميز الأساليب التعبيرية من الطرائق الدلالية المعرفية للمجاز عامة .

ولقد عرف كتاب (المعنى وتغير المعنى) لستيرن في الثلاثينات (١٩٣١ م) وفيه قسم أنواع التغير إلى قسمين كبيرين الأول منهما راجع إلى أسباب غير لغوية تتعلق بالعالم الخارجي (المادي) كأن تتغير الأدوات المستعملة والأشياء دون أن تتغير الأسماء الدالة عليها فالريشة La plume كانت تدل على المادة الطبيعية (ريش الطير) ومن ثم تحولت إلى تسمية لأداة الكتابة الخشبية وبعدها المعدنية على اختلاف أشكالها ، وكذلك (الذرة) التي تنقلت من ذرات ديمقريطس اليوناني إلى الطاقة الذرية ومعادلاتها ومفهوماتها الحديثة ، والمباينة لما كان عرف عنها .

والقسم الآخر هو الراجع إلى أسباب لغوية هي علاقات المفردات فيما بينها ، وخصائصها الكامنة فيها فهناك :

١ ـ نقل الاسم وتطوره لأسباب صوتية تركيبية وما إليها مما يتصل بـالشكل وعلاقاته .

٢ ـ نقل العلاقة التصورية أي نقل المعنى ، وذلك بالنقل المقصود والمجازات .

٣ ـ نقل (أو تحويل) العلاقة الذاتية بين الكلمة ومتكلميها .

وسنقف عند الفقرتين الأخيرتين حيث يعالج المؤلف المجاز وأنواعه في الاستعمال اللغوي ، وهو يقول بأن (التسمية) تكون بإعطاء اسم جديد لواحد من التصورات ويفرق بين التسمية الإرادية المدركة لهدفها والنقل الدلالي غير المقصود مجازه ، والنقل الأسلوبي (استعارات ، ومجازات) :

أ ـ فهناك تسمية إرادية (مقصودة) عندما نصوغ حداً جديداً بواسطة التركيب breakfast , blakbird والاشتقاق بضروبه المختلفة .

ب ـ وهناك النقل الإرادي غير التصويري أي أن المستعملين لم يهدفوا إلى تحقيق تأثير معين . أو ابتكار أدبي عندما تداولوا مثل هذا النوع من الألفاظ ، وذلك في الاستعارات المفهومية الخالصة كأن نقول في الفرنسية عن المطرقة : قدم الغزالة Pied de piche أو عن نوع من الزهور : كرة الثلج Boule de neige الخ ... ويقابلها في العربية الدارجة (هات الخرطوم) دلالة على الأنبوب المطاطي المستعمل في نقل المياه ، فالأصل في الخرطوم أن تدل على الأنف[1] لكنها خصصت في الأزمنة الحديثة بأنف الفيل[2] ، ومن ثم استعير لذاك الابتكار المادي وغلب عليه دون أن يوحي بأي إحساس غير الاستجابة التلقائية لمتابعة العمل واستخدامه .

---

(١) القاموس المحيط هامش نصر الهوريني مادة (خ ر ط) ط مؤسسة الحلبي .

(٢) نقصد التداول العام ، فأنف الفيل هو الخرطوم كما يذكر الثعالبي في (فقه اللغة) ١٢٥ ، تحقيق مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري ، وعبد الحفيظ شلبي ، ط مكتبة مصطفى البابي الحلبي ، القاهرة ١٩٧٤

ج ـ وهنـاك الصور الأسلوبيـة (المجـازات) ذات الغرض التعبيري ، ونخص منها الاستعارة الأسلوبية . وههنا تمثل تسمية خاصة تتجاوز العرف العام للغـة في مقام خاص فيكون للتسمية وقعها وفاعليتها المميزة .

وأما علاقة المتكلم بالأشياء التي يتحدث عنها (ستيرن) فتتضح منعكسـة في أشكال مجازية : أو لنقل علاقات المجـاز والاستعـارة ، وستيرن يستخـدم مصطلح (الاستبـدال) أولاً فيقول : إن الاستبـدال ينتـج عن تركيز المتكلم على خصيصـة معينة أو ملمح من ملامح الشيء ، ومن ثم يكون محور اهتمامه فيعبر بـه في أسلوب يشمل ضروب المجاز المرسل في البلاغـة القـديمـة سواء بعلاقتـه الكليـة والجزئيـة أو بعلاقـاتـه الأخرى ، فنحن نشير إلى المركب الـذي يتراءى لنـا في الأفق فنقـول : (ذاك شراع يتهادى) فنكتفي بالجزء عن الكل ، وكذلك عندما يقول الباريسي لقد شربت أقـداحـاً من (البوردو Bordeaux) فيطلق اسم المـدينـة المنتجـة للخمر على مـا يشرب ، وهنـاك ضرب يـورد ستيرن مثـالاً عليـه ـ أو لعلـه غيرو الـذي يعرضه ـ هو استعمال المادة للدلالة على الشيء فالمتحدث يشير إلى (المرمر) بـدلاً من التمثال المصنوع .

ومن ثمّ يذكر ستيرن مصطلحاً آخر هو (التلاؤم) ويقول إنه طريقة خاصة من طرق الاستبدال وهي تنتج عندما يلمح الـذهن سمـة جـديـدة في (الشيء) . وذلك كما في قرن النفخ الخاص بالصيادين الذي أخذ اسمه من قرن الوعل بواسطـة الاستبدال المجازي وبعد ذلك اضمحل التعليل الاشتقـاقي للتسميـة ، وغـدت السمـة الأسـاسيـة للقرن هي أنـه شكل تنبعث منـه أنمـاط خـاصـة من الأصـوات عنـد الصيـادين ، ولقـد استخـدمت الكلمـة (قرن) للـدلالـة على (البـوق النحـاسي الموسيقي) رغم أنـه لا علاقـة تربـط بين قرن الغزال (أو الوعل) والبوق سواء من حيث المادة المكونة أو الشكل ، ويعبر العـالم اللغوي (دارمستيتر) عن هـذا النوع من الاستعمال الدلالي بأنه (المتسلسل) .

ويقسم أولمان في كتابه (أسس علم الدلالة) تغيرات المعنى (وتطوره) إلى نوعين كبيرين : في الأول : تصنف التغيرات التاريخية والناتجة عن علاقات وأسباب غير لغوية ، وهو يردها إلى ما يسميه : غريزة البقاء اللغوية .

وفي الثاني : تصنف التغيرات التي نتجت عن أسباب لغوية فهناك :

١ ـ نقل (تحويل) الاسم :.أ ـ للتشابه بين المعاني .
ب ـ للمجاورة (الملاصقة) بين المعاني .

٢ ـ نقل (تحويل) المعنى : أ ـ للمشابهة بين الأسماء .
ب ـ للمجاورة بين الأسماء .

٣ ـ تغيرات مركبة من الأسباب السابقة .

وفي هذا الترتيب يضع أولمان نصب عينيه خصائص الدلالة ومحوريها الدالّ والمدلول وكذلك يراعي الطبيعة النفسية والاجتماعية لهذا الأسلوب بشكله المزدوج : المشابهة والمجاورة في المشاهدة في المشاهد الذهنية المترابطة (التصورات)[1] .

وإنّ نقل (تحويل) الأسماء للمشابهة بين المعاني هي الطريقة الأكثر تكراراً في تغير المعنى وتعد الاستعارة النموذج الأكثر دوراناً فيها ومشابهة المعاني إنما تكون :

أ ـ ذات (جوهرية) في مشابهة الشكل بين ورقة الكتابة والورقة الطبيعية ، وفي المشابهة الوظيفية والمشابهة الموقعية .

ب ـ متزامنة حسياً : وذلك بتشبيه الصوت باللون (يعزف بطريقة أكثر زرقة) واللون بالرائحة (الأبيض المنعش) .

---

(١) كنا ضربنا أمثلة مما عرضه غيرو من مذهب أولمان في تقسياته في الفصل الثالث من البحث .

جـ ـ انفعالية : عنـدمـا يُشَبَّه إحسـاس مـابشيء مـادي رابطـةً بينهما بعض الخواص : (صداقة دافئة) ، (خلق حلو ، طيب) .

ويحدثنا غيرو ـ شارحاً أولمان ـ عن الاستعارة المباشرة كالتي عرفنا بعضـاً من نماذجها قبل الاستعارة غير المباشرة ، ذلـك أن الفعل (جلا) يستعمل في أوسـاط العامة الفرنسية ، وجماعات اللصوص خاصـة بمعنى (سرق) ولكنهم يستعملون في هـذا المجـال عـدداً من مرادفـات (جـلا) مثـل : نظّف ولمّـع ، كأن يقـول اللص لـزميلـه : لقـد نظّفت الخـزائن في المتجر ليلـة أمس ، فيجيبـه الآخر وأنـا لمّعت صندوق المجوهرات .

وثمة ظاهرة أخرى هي أن التشابه يمكن أن يكون مركزاً لحقل دلالي تتعـدد فيـه الاستعـارات[*] والتحويـلات ، فقـد كان مشهـوراً بين أوسـاط الجنـود ـ من العـامـة ـ في الحرب العـالميـة الأولى ١٩١٤ تعبير : (المطبخ المتنقل[١]) دلالـة على (الدبّابة) وكذلك (حبـات الفـاصوليـا) دلالـة على (رصـاصـات شربنل[٢]) ، وكذلك كانوا يستعملون « الفعل : يفصّص حبات الفاصوليـاء في مجـال : يقـذف رصاصات الرشاش الآلي » .

وفي الاستعمال العربي نجد واحدة من الاستعارات المطبخيـة في هـذا المضمار ! فيقال : لقّم المدفع بمعنى زوّده بالقذيفة ، وهكذا يمكن للاستعمال الدارج أن يشتق عدداً من الاستعارات المتقاربة : فهذه لقم عسيرة الهضم ، وإنه لا يبلع الخ ..

وأما عن نقل (تحويل) الاسم لمجاورة المعـاني (ملاصقتهـا) : فـإن ضروب المجاز المرسل بعلاقاته تعد تحويلات للاسم إثر مجـاورة المعـاني ، وهي تقوم بـأخـذ

---

(١) تشبيهاً بما كان مألوفاً من المطابخ المتنقلة في الجبهة .

(٢) نوع من الطلقات كانت معروفة .

(*) يعرف معجم علم اللغة الاستعارة على أنها ضربـان واحـد منها هو التشبيـه البليغ في العربيـة ، والآخر هو الاستعارة التي يحذف أحد طرفي التشبيه فيها :

(Dic de ling . p . 317 – 318 , larousse)

الجـزء تعبيراً عن الكل وبـالعكس ، والمضمـون تعبيراً عن المكان (أو الحـاليـة والمحلية) ، والأداة عن الفعل .

ويمكن أن تكون مجاورة معنيين : مكانية ، أو زمانية ، أو سببية :

أ ـ المكانيـة : كما في كلمـة Bureau فهي تـدل في الأصـل الفرنسي على نسيـج (قماش) يغطي الطاولة الخشبية المخصصة للكتابة ، ومن ثم دلت على الطـاولـة ، وبعدها غدت دالة على المكان الذي توجد فيه ، وهذا المثـال (المكتب) مطبق في العربيـة عـدا مرحلتـه الأولى ، وقـد اتسع نطـاق الـدلالـة إلى مجموعـة غرف بـل أصبحت الكلمة تدل على مجموعة الموظفين العاملين في إدارة معينة فيقـال : (اجتمع مكتب الإعلام بجامعة الدول العربية) .

ب ـ الزمانية : وذلـك في إطلاق أسماء (الصبح ، الظهر ، العصر ، المغرب ، العشـاء) على الصلوات التي تؤدى في هـذه الأوقـات ، فـالأصل تحـديـد الزمن ثم أطلق على الفريضة الـدينيـة المؤداة فيـه (وفي الفرنسيـة تـدل كلمـة Vêpres على صلاة المساء النصرانية) .

جـ ـ السببيـة : في كلمـة Fusil حيث يعبر عن السـلاح : البنـدقيـة بـأداة الإشعال ذلك أن Fusil في الفرنسية تعني (حجر القدح للنار) ، وفي العربية نجد مقاربة لهذا المثال ، فالزناد يستعمل على أنه أداة إطلاق الرصـاص في البنـدقيـة ، وهو في الأصـل : عـود الإشعـال : (الـزنـد[1]) ، وكـذلـك (البـارود) في كلمـة (البارودة) في استعمال الشوام دالة على البندقية .

ويبين غيرو[2] إسهـام تلـك الضروب من تغير المعنى في : التسميـة المعرفيـة ، فنحن نعطي أحد الأشياء اسماً كان لآخر فنقيم رابطة بينهما : تكون في الاستعـارة مشابهة ، وفي ضروب المجاز : المجاورة .

---

(١) الزند : العود الذي يقدح به النار ، القاموس ، مادة (زند) .

(٢) P . Guiraud . Sémantique P . 57

وفي هـذا النطـاق تتبـادل العوالم المختلفـة التسميـات : فنرى في البحر : سبع البحر ، والكلاب ، والنجـوم أسماء لكائنـات بحريـة ، وفي البستـان : فم الثعلب ، وأرجل القبرة وكرة الثلج ، وفي مشغل الفنان : قدم الغزالـة (مطرقـة) ، وذيل السنونو (نوع من المبـارد) ، وكـذا ذيـل الفـأرة queu de rate (مبرد مـدوّر) . ونلاحظ أن الجسم البشري مصدر ثر للاستعـارات المعرفيـة : رأس الجسر ، أسنـان المنشار ، قدم الجبل ، بطن الوادي ، عين الماء ، ظهر البيدر ، فم النهر .

وتلعب هذه الاستعارات دوراً في تسمية المفهومات المجردة التي ترتبط بأشيـاء أو بأسـاليب مـاديـة (في الفرنسيـة : فكر Penser أخـذت عن وزَنَ في اللاتينيـة Pensare ، والفكر والروح Esprit أخذت من الريح في اللاتينية Spiritus .

وأما التسمية التعبيرية[1] فهي تتميز من المعرفية (التي تصف الشيء في حالتـه الراهنة وبخصائصه الموضوعيـة : الشكل ، الوظيفـة ، العلاقـات ، وهي تحـدده في ذاته) بأنها تعيِّن العلاقة بكل ما يعبر عن القيمـة الانفعـاليـة والجمـاليـة والأخلاقيـة المرتبطـة بـالمتكلم عنـدمـا يتحـدث عن الشيء أو الموضوع ، والمثـال الـذي يظهر الفروق بين المعرفيـة ، والتعبيريـة ، هـو أننـا في الفرنسيـة نطلـق على نـوع من الروافع الآلية تسمية Chevre : (ماعزة) للمشابهة بين هيئـة هـذا الحيوان عنـدمـا يتطاول ليتناول أطراف شجيرة أو نبات جبلي ، وهيئة الرافعة الشائلـة إلى أعلى ، ولكن هذه الاستعارة المعرفية لا يتخللها أي انفعال أو إحساس كامن لـدينـا كما لو قلنا مشيرين إلى فرد ما : إن التيس Bouc كان في الطابق الأسفل ، فههنا نلحـظ الإيحـاء المتضمن في (التيس) بـأن المتكلم يقصـد إلى أشيـاء عـدة ممـا يتصف بـه الشخص ، فإمـا أن يصور وفيـه كل السلبيـات ليكون كبش الفـداء وتلقى عليـه الأخطاء جميعها ، وإما أن ينبيء عن التصرف الأحمق الذي يخلو من التعقل .

---

(١) P. Guiraud. Sém. P, 58

ودراسة هذه القيم التعبيرية مقصودة لذاتها تتصل بعلم الأسلوب ، إلا أن علم الدلالة لا يهملها ـ مع ذلك ـ فهي الأصل لضروب من تغير المعنى تتحول عبر سلسلة من التطور واضمحلال التعليل للروابط بينها وبين الأصول .

ويشترك يوجين نيدا في دراسة جوانب من المجاز وصلته باللغة العادية في كتابه (نحو علم للترجمة[1]) فالباحث الدلالي تستوقفه كلمات كثيرة تمتلك عوالم ذات نتوءات هامشية ، وهي بذا تختلف عن النماذج المألوفة المنتظمة عندما تنظر إليها من وجهة معجمية ، ومن أسباب الهوامش التي تلحق الكلمة : الأسلوب المجازي ويعطي (نيدا) مثالاً هو كلمة : الكلب dog في الانكليزية إذ إنها تشير إلى عدد من المدلولات المجازية إذا مااستعملناها خارج إطار الحيوانات الأليفة ، فهي (١) الشخص الخسيس ، (٢) أبراج سماوية ، (٣) جهاز ميكانيكي لقبض شيء أو مسكه (كلاّبة) ، (٤) منصب توضع فوقه قدر الطبخ ، (٥) التظاهر He put on the dog (٦) الخراب He went to the dogs[1] . ومع ذلك تعد هذه المدلولات جزءاً من بناء دلالات ألفاظ الكلمة (dog) ، ويرتب نيدا على هذه المسألة فرعين من التحليل :

أ ـ يحلل البناء المجازي : فالمدلولات المجازية تنتج عن عملية انتقاء عنصر أساسي أو أكثر لمعنى مصطلح لغوي (كلمة) مثل المظهر المادي ، أو المزاج النفسي أو علاقات الحيز وفي علاقة الجزء بالكل ، أو التشابه الوظيفي وتوسيعها بحيث تغطي شيئاً ملموساً لم يكن وارداً ضمن عالم تلك الكلمة .

ويقول نيدا : « إنه إذا أدخل هذا الشيء الملموس بشكل دائم في كلمة معينة (المستعارة) لم يَعُدْ هناك وجود للمدلول المجازي الفعال (أي الاستعارة) وكل ما يبقى هو حصول زيادة في مساحة معنى المصطلح الذي نحن بصدده[2] » .

---

(١) نحو علم للترجمة (يوجين أ . نيدا) ١٩٢ ـ ١٩٣ .

(٢) نحو علم للترجمة (يوجين أ . نيدا) ١٩٣ .

ويقصد هنا بحديثه ماكان أشار إليه أولمان بالتسمية المعرفية المميزة عن التعبيرية ، وكذا ماوقف عنده ستيرن .

ب ـ ومن جهة أخرى يقترح نيدا أن نهتم بتحليل الكلمات إلى عناصرها الأساسية وخاصة عندما نتناول بالتفسير المدلولات المجازية ، فهي تعتمد على التقاء في عناصر معينة ، « خصائص مشتركة » بين أطراف المجاز .

وإن التشبيهات الكلامية تبنى عموماً على خصيصة معينة يشخصها أُناسٌ في مجتمع كلامي خاص بوصفها تشبيهات سائدة ؛ ففي الذئب تكون السمة البارزة : الافتراس خلسة وفي (الثعلب) الانسلال والحذق والمكر ، وفي الخنزير : النهم القذر ، وفي الظربان الأمريكي : نتن الرائحة المقيت[١] . وههنا بمقدورنا أن نفيد من ضروب التحليل إلى العناصر الأساسية في الاتجاهات البنيوية ، وهي تنطلق في أساسها من منطلق منطقي في التعريفات والحدود الأرسطية ، وَمَا جَد من محاولات تفصيلية في مدارس البنائية[٢] .

ويرى نيدا أن الجزء الأساسي من القوة الإيصالية للتشبيهات الكلامية (والاستعارة) يستمد من المعنى المركزي للكلمة الذي يستمد قوة فعالة ، وماإن يضيع المعنى المركزي الذي يمدنا بأساس مدلول صفة معينة ذات قيمة تكوينية ـ حتى تفقد هذه القوة الإيصالية ، لأن قوة التشبيه تكمن في العلاقة المتأسسة بين المعنى المركزي أو الجوهري وامتدادات المعنى[٣] . أي كلما ابتعدنا عن الجوهر زاد البعد عن الفعالية ، وقد يكون لهذه الفكرة أثر في توجيه الأدباء والشعراء عندما يجنحون إلى الابتكار المجازي المفتقد للصلة الموضحة لخطوط الالتقاء بين أطراف المجاز ، ولا نستهدف ههنا التضييق بل نطلب إمكانية التواصل والمعايشة ، فنحن بحاجة إلى ذاك المشترك في الآفاق المتحركة في أخيلة المبدعين .

---

(١) نحو علم للترجمة ١٩٣ ـ ١٩٤ .

(٢) G. Mounin. la Sémantique P. 39 – 42

(٣) نحو علم للترجمة ١٩٥ .

ويشير نيدا إلى العلاقات الواشجة بين المجاز والجوانب الثقافية والاجتماعية للمجتمع ـ أو المجموعات اللغوية ـ ففي مناطق أوربية كثيرة لاتستخدم كلمة بقر الوحش ، والظبي antelope في الاستعارات اللفظية رغم أن هذه الكلمة تستعمل بشكل واسع في أفريقيا .

وقد يجتمع الاستخدام في بيئتين للفظ الواحد في استعارات ومجازات إلا أن التوجيه يختلف اختلافاً بيناً ، ففي الانكليزية الأمريكية يُعَدُّ مصطلح ـ كلمة ـ (coon مختصر raccoon) اسماً مجازياً لتحقير الجنس الأسود ، وترتبط به مدلولات مجازية تتفرع منه على نحو واسع ، وفي بعض اللغات الأمريكية الهندية يستعمل مرادف raccoon بمدلولات مجازية تشمل : البراعة العقلية والذكاء[1] .

وتختلف ـ كذلك ـ اللغات في أساليب تعبيرها المجازية ، فالاستعارات الحيوانية في اللغة الانجليزية ترمز إلى مميزات نفسية مفترضة (الثعلب ، الفأر ، الدب ، الثور ، الدودة) أما في لغة (زوني) فتستخدم استعارات ماقبل اللغة الكولومبية : الكلمات التي ترمز إلى الحيوانات لتشير إلى مميزات جسمية مادية : فَيَدُ المرء ، خشنة خشونة أقدام الديك الرومي « وإن شخصاً ما يعد أصلع أو أملس الرأس كفرخ العقاب » وإن عيني فلان « تنتآن كما تنتؤ عينا الجرذ » وإن شخصاً آخر له ساقان نحيفتان كساقي الطير » .

واللغة الانكليزية تحفل بعدد من الاستعارات المستمدة من الحيوانات والخضروات والفواكه إلاّ أن هذه الاستعارات تتضاءل أمام تلك الاستعارات الشائعة في اللغة البرازيلية ـ البرتغالية التي تحظى فيها جميع الحيوانات والفواكه تقريباً بمدلولات استعارية للمعنى ، وينحدر الكثير منها إلى المستوى المبتذل[2] .

ونلاحظ في التحليلات التي يقوم بها علماء اللغة والدلاليون بشكل

---

(١) نحو علم للترجمة ١٩٤ ، Raccoon نوع من الحيوانات آكلة اللحوم .

(٢) نحو علم للترجمة ١٩٤ ـ ١٩٥ .

خاص ـ أنها تفتح أبوابا كثيرة للنظر في المجاز ـ على اختلاف ضروبه ـ فهي ترجع إلى اللغة وعلاقاتها مستفيدة من القيم النفسية والاجتماعية للغة ذاتها ككيان له حركته الخاصة من جهة ، وله تفاعله مع التكوين الأكبر : المجتمع وثقافته من جهة أخرى .

٢ ـ الدراسة الدلالية للمجاز في نظرية الأدب

إننا نستطيع تبين الآثار الدلالية في عدد من الدراسات النقدية التي تناولت بالبحث ضروب المجاز والاستعارة بصورة خاصة ، وقد شهد مطلع هذا القرن بعضاً من تلك الدراسات : (أصول المجاز البلاغي) لهاينز ويرنر /١٩١٩/ إلا أن الثلاثينات عرفت وفرة في النتاج النقدي الدائر حول البلاغة ـ في الوقت الذي صنف العالم الدلالي ستيرن فيه مؤلفه (المعنى وتغير المعنى) /١٩٣١/[١] ـ فقد قدم ريتشاردز : فلسفة البلاغة ١٩٣٦ ، إضافة إلى كتبه الدلالية الأخرى : (معنى المعنى ، مبادىء النقد الأدبي) وكونراد : دراسة الاستعارة /١٩٣٩/ ، وميلمان باري : المجاز التقليدي عند هومير ١٩٣٣[٢] ، وأعطى ستانفورد (الغموض في الأدب اليوناني) /١٩٣٩/[٣] ، (وإمبسون تلميذ ريتشاردز) سبعة نماذج للغموض /١٩٣١/[٤] .

وكان التمييز بين الاستعارات الشعرية المفعمة بالتوتر الانفعالي ، وتلك التي باتت بعيدة عن الخصوصية الأدبية غرضاً أساسياً في المناقشات التي أثارها النقاد فإن « رجل الكرسي ، وأخمص البندقية وعنق الزجاجة كلها تطبيقات بالمماثلة من أجزاء الجسم البشري على أجزاء من أشياء جامدة ، وعلى كل فإن هذه الامتدادات

---

(١) P. Guiraud, Sém P. 45, et bibliographie

(٢) نظرية الأدب ، ويليك ـ وارين ٤٤٠ ، ٤٧٩ ، ٤٩٢ .

(٣) المبدأ الدلالي ، كلينث بروكس ، (١١٨/٤)

(٤) المبدأ الدلالي (١١٨/٤) .

قد تم تمثلها في اللغة ولم نعد نشعر بها إجمالاً على أنها مجازية حتى ولو عن طريق الحساسية الأدبية واللغوية ، فهي استعارات ذاوية أو ميتة[1] » . ويدخل ريتشاردز هذه الأمثلة ضمن ما يسميه « مبدأ الوجود الشامل للغة » من ضروب الاستعارة مميزاً له من الاستعارة الشعرية التي يحتج على معاملتها على أنها انحراف عن الممارسة اللغوية المألوفة وسنقف بشيء من التفصيل على آراء توضح مرمى ريتشاردز ـ ، وكان جورج كامبل ـ في فلسفة البلاغة ١٧٧٦ ـ قد اقترح أن يهتم النحويون بالضرب الأول من الاستعارات فهم يقدرون الكلمات بحسب اشتقاقها ، وأن يعنى البلاغيون بالثاني من الضربين لأنهم يبحثون عن مفعول الاستعارة لدى السامع ، ويرى (فونت) بأن الشرط المطلوب لتحقق الاستعارة هو القصد المتعمَّد والمحسوب للكاتب في خلق مثل هذا المفعول الشعوري « ويقابل كونراد بين الاستعارة اللغوية ، والاستعارة الجمالية ، ويبين أن الأولى إنما تبرز السمة الظاهرة في الشيء في حين أن الاستعارة الجمالية تدرك بإعطاء انطباع جديد للشيء[2] » . وكأنما يريد أن استعمال الكلام في الاستعارة اللغوية يجري وفق قانون الاتفاق الجمعي على الرموز ومدلولاتها بينما يخلق الاستخدام في (الجمالية) جواً يحيط بالشيء نتيجة المعادلات الجديدة بتداخل الرموز والمدلولات على نحو يرتبط بالتجربة ، والموقف الإبداعي .

ويخصص ريتشاردز جانباً من حديثه عن الخيال لزوايا دلالية في مؤلفه (مبادىء النقد الأدبي) /١٩٢٨/ ، وهو يرى أن الاستعارة ـ والتشبيه أيضاً[3] ـ تقوم بعدد من الوظائف أبرزها ١ ـ التوضيح والتبيين . ٢ ـ خلق علاقات بين

---

(١) نظرية الأدب ٢٥٣ ، ويطلق عليها معجم علم اللغة : Catachrése, dic . de ling P 77

(٢) نظرية الأدب ٢٥٣ .

(٣) مبادىء النقد الأدبي ، ريتشاردز ٣٠٩ ، وينظر في تعريف (معجم علم اللغة) للاستعارة Dic . de ling P 317 - 318

العناصر في التجربة الشعرية لتكتمل ، وهي :

١) تؤدي الوظيفة الأولى عن طريق إحلال « مثل محسوس لعلاقة كان لابد من وضعها في لغة مجردة لولا هذه الاستعارة[١] » فهذا الاستبدال لعناصر لغوية تنتمي إلى عالم المحسوسات ، والتعبير عن أفكار ومجردات يُعَدّ في مرتبة لاترقى إلى الذروة العليا في الشعر ، وهذا هو الاستخدام العلمي أو النثري الشائع للاستعارة ، وهو استخدام نادر في لغة الانفعال والشعر ، ويكاد يكون قول شيلي : الحياة مثل قبة زجاجية متعددة الألوان « هو المثل الوحيد الذي يطرأ للذهن لهذا النوع من المجاز[٢] » . وينبه ريتشاردز ـ قبل أن ينتقل إلى بسط الوظيفة الهامة الأخرى ـ إلى أن التوضيح كغاية مستقلة ادعاء لا يسلّم به إذ لا يمكن للمتكلم أن ينفصل عن موضوعه ، فالاستعارة وسيلة تعبير عن موقفه وذلك كما في كلمة المؤرخ (جيبون) عما لاقاه من منتقديه وفيها نحس بشيء من الاعتزاز بالنفس والاستهزاء بهؤلاء الذين يشير إليهم إذ يقول « إن الحرية التي في كتاباتي قد أثارت ضدي قبيلة لاتعرف الرحمة ، ولكني كنت في مأمن من لدغاتهم ، وسرعان ماعودت نفسي على طنين زنابيرهم[٣] » .

٢) وفي الطرف الآخر يقول ريتشاردز : « إن الاستعارة هي الوسيلة العظمى التي يجمع الذهن بواسطتها في الشعر أشياء مختلفة لم توجد بينها علاقة من قبل ، وذلك لأجل التأثير في المواقف والدوافع ، وينجم هذا التأثير عن جمع هذه الأشياء وعن العلاقات التي ينشئها الذهن بينها ، إذا فحصنا أثر الاستعارة جيداً وجدنا أن هذا الأثر لا ينشأ عن العلاقة المنطقية إلا في حالات قليلة جداً . إن الاستعارة وسيلة شبه خفية يدخل بواسطتها في نسيج التجربة عدد كبير من

---

(١) مبادىء النقد الأدبي ، ريتشاردز ٣٠٩ .

(٢) مبادىء النقد الأدبي ٣٠٩ .

(٣) مبادىء النقد الأدبي ، ريتشاردز ٣١٠ .

العناصر المتنوعة اللازمة لاكتمالها[1] » وإذا ما حلل هذا الرأي بحسب معطيات علم الدلالة فإن ما جاء هنا يفسر لنا الفاعلية الخاصة للاستعمال اللغوي عند الشاعر عندما يتخيَّر تكوينه لتجربته من خلال المجاز ، ذلك أن المبدع لا يقنع بالعلاقات الدلالية بين المفردات في التركيب اللغوي بإسناد الصفات والأفعال كما أُلِفت في المتعارف اللغوي للغة ما ، بل إنه ينفذ إلى سمات خاصة يراها هو متأثراً بموقفه الانفعالي في الألفاظ ومابينها من ترابط فيعقد الوشائج بينها ، ويصبها في قالب تعبيري فيحدث هذا التغاير في مساحات الدلالة في الألفاظ ، وتداخلها في الهيئة الجديدة يحدث الدهشة ويجر القارىء - أو السامع - إلى الحيز الذي يقف عليه الشاعر أو يحلِّق فوقه .

وقد يكون لعبارة (العلاقة المنطقية المتضمنة) عند ريتشاردز دلالة على المتقارب أو الواضح من العلاقات والمشابهات ذلك أنه يقول : « إنه من المشكلات الصعبة مشكلة تفسير السبب الذي يجعل القصيدة تعجز عادة عن توليد أي أثر في نفوسنا حينما تبدو غاية الشاعر فيها واضحة جلية أكثر مما ينبغي[2] » ، وقد أظهر فيما بعد أن غموض الكلمات ليس مطلقاً ، وأن الشرط على اتفاق عام بين المتكلمين هو شرط للتواصل ، فما من أحد يحلم بالتخاصم . لأن اللغة واقعة اجتماعية مثلما هي جزء من التجربة الشخصية[3] » .

ويفسر ريتشاردز علاقات الاستعارة وأبعادها الدلالية في كتابه (فلسفة البلاغة) وذلك في ضوء نظرية السياق التي يفصلها هناك حيث « تظهر الاستعارة على أنها مثل نموذجي لامتزاج السياقات ، فهي ضماد يربط بين سياقين قد يكونان متباعدين تماماً في الحديث التقليدي على الأقل ، وليست الاستعارة

---

(١) مبادىء النقد الأدبي ، ريتشاردز ٣١٠ .
(٢) مبادىء النقد الأدبي . ريتشاردز ٣١٠ .
(٣) المبدأ الدلالي ، كلينث بروكس ، (١٢٧/٤) .

الحيوية محققة لنسخة منقّحة لمعنى مقرر بل تندفع المخيلة إلى أرض جديدة من خلال المعنى الجديد المكتسب[1] » .

وتحدّد الفروق بين الاستعارة العادية ـ الحرفية ـ والاستعارة ذات الفاعلية الأدبية من خلال الحديث عن السياق ، فإن ما يعيّن في الواقع أن استعمالاً مااستعاري وليس حرفياً هو هذه الصلة بالسياق الثاني ، ويتمثل ريتشاردز بسؤال هملت ـ كحالة اختبارية ـ « لماذا يتوجّب على أمثالي أن يزحفوا بين الأرض والسماء[2] ؟ » فهل يجب أن نأخذ (يزحف) مأخذاً حرفياً أو استعارياً ؟ إن ريتشاردز يجيب بأنه يجب أخذها على أنها استعارة ، فالطفل ـ حرفياً ـ يزحف في بعض الحالات وفي بعض الحالات ـ حرفياً ـ يزحف الرجل . وأما هنا « فتوجد إشارة لا تخطئها العين إلى أشياء أخرى تزحف كالأفاعي والصراصير . فإذا وضعنا بدلاً من يزحف : يمشي أو كلمة أكثر حسماً (يتحرك) فإننا سنغلق السياق على المخلوقات التي تزحف ويغدو الاستعمال حرفياً .

إن الاستعارات تموت في التعبيرات الثابتة والحرفية حين يقصرها الاستعمال العادي على سياق واحد (فرجل الكرسي) و (عقارب الساعة) تعبيران فقدا قوة الاستعارة[3] .

وثمة استعارات يصعب تصنيفها في واحد من القسمين اللذين عرفناهما في مناقشات النقاد ، وذلك أن قسماً كبيراً منها ـ وهي التي نصطلح عليها بأنها

---

(١) المبدأ الدلالي (١٢٧/٤) .

(٢) النص في الترجمة العربية لهملت ٨٣ ، حيث يخاطب أوفيليا : « إني شديد الكبرياء ، حقود الثأر ، عنيد الطموح ، رهن إشارتي من الآثام ما يعجز فكري عن حصره ، وخيالي عن تحديد شكله ، ووقتي عن تنفيذه ، فالذي يترتب على الذين هم مثلي أن يفعلوا ، إذ يزحمون بين السماء والأرض ؟ كلنا أنذال وأوغاد ، إياك أن تصدقي واحداً منا ، اذهبي وترهبي » . ترجمة جبرا إبراهيم جبرا ، دار الهلال ، فبراير ١٩٧٠ ، القاهرة .

(٣) المبدأ الدلالي ، بروكس (١٢٧/٤) .

تقليدية ـ يشيع في مدرسة أدبية أو جيل من الأدباء كما في الاستعارات الأليزابثية : (الأسنان اللؤلؤية) و (الشفاه العقيقية) و (الأعناق العاجية) وكذلك استعارات هوميروس الثابتة مثل : أصابع الفجر الوردية ؛ وقد استعملها سبعا وعشرين مرة في الكتاب الأول من الإلياذة[1] ، و (الكلمة المجنحة) التي تتصل بها (مثوى العظام) و (زَخَم الكلمة) من استعارات الشعر الانكليزي القديم[2] .

وهذه الاستعارات « تعدّ جزءاً من ثقافة الشاعر المهنية ، وهي تسر السامعين بتقليديتها ، وبكونها تنتمي إلى لغة الشعر الحرفية والشعائرية . والعنصر المجازي فيها لا هو متحقق كلياً ولا مفقود كلياً ، شأنها شأن الرمزية الإكليرية قد تقال لجانبها الطقوسي[2] » ويظهر خطر هذا الجانب الدلالي في تحليل الاستعارة عندما يقبل القارىء على مطالعة الآداب الأجنبية بلغاتها فهو يظن أن كثيراً من هذه الاستعارات التقليدية إبداعات فردية ودليل قدرة فذة تؤدي دوراً مؤثراً في إثارة الانفعالات لتفردها وابتكارها ، وهي في الحقيقة لا تكاد تبين لأهل اللغة عندما يقرؤون نصوصها[3] .

ويناقش اوستن وارين فكرة حول الاستعارة يعرضها هانزويرنر إذ يقول بأن : « الاستعارة تنشط فقط لدى البدائيين شأنها شأن (التّابو) فهي تمنح الأسماء الملائمة لما يمكن ألا يسمى » وهذا يذكر بما يسود العهد القديم من تجنب ذكر لفظ (الله) والكناية عنه مجازاً بالعديد من الأسماء (الشمس ، الصخرة ، الأسد) ، ولكن ـ كما يقول وارين ـ يتضح لنا أن الحاجة المخيفة ليست هي الباعث الوحيد على الاستخدام المجازي ـ الابتكار ـ فنحن نكني عما نحب ، وعما

---

(١) لم تحتفظ الترجمة العربية إلا بواحدة واضحة وأخرى مجتزأة : إلياذة هوميروس ترجمة أمين سلامة ـ مطبوعات كتابي ٥٧ ، ٦٠ ، د . ت .

(٢) نظرية الأدب ٢٥٤ .

(٣) نظرية الأدب ٢٥٤ .

نود أن نتلكأ أمامه ، ونطيل التأمل لنراه من كل زاوية مستخدمين التشابه مع أشياء كثيرة تعكسه[1] .

وقد تكون عودة ويرنر إلى المجتمعات البدائية غير مفيدة لنا في تحليل الاستعارة فهو يحصرها في ضرب من أساليب التفكير البدائي لا يمكن تعميمها إلا أن كلمات ريتشاردز حول اللغة الانفعالية قد تسهم في تنوير مسألة الارتداد إلى العالم المحسوس في الأسلوب المجازي الاستعاري ، فيقول في (مبادىء النقد الأدبي) : « ما من شك في أن اللغة برمتها انفعالية في الأصل ، وفي أن استخدامها العلمي إنما هو تطور متأخر ، وأن معظم اللغة ما زال انفعالياً ، ومع ذلك فقد أصبح هذا التطور المتأخر يبدو هو الاستخدام الطبيعي العادي[2] » ويرى أن سبب ذلك راجع إلى أن من جعلوا اللغة موضوع دراسة وتأمل كانوا إذ ذاك يستخدمون اللغة على نحو علمي[3] . وهذا يؤدي إلى أن تداول المصطلحات المجردة والإغراق في البعد عن الماديات إلى الذهن وقضاياها يبتعد بشكل مجمل عن الانفعالات والألفاظ والتركيبات المثيرة لها ، لذلك فإن العودة إلى تحقيق الانفعال وإثارة الإحساس تقتضي الاستعانة بالصور والمجازات التي تفيد من العالم المحسوس على نحو ما كان سائداً من قبل في الأطوار القديمة للمجتمعات . وهكذا يشهد الاستخدام اللغوي حركة دائرية تتكامل في تناوبها على أطراف العلاقات الحسية والذهنية .

٣ ـ الدراسة الدلالية للمجاز في الآثار الأرسطية عند العرب

١/٣ رأينا في القسمين السابقين القضايا التي شغل بها الباحثون اللغويون من جهة ، والبلاغيون والنقاد من جهة أخرى لدراسة المجاز والاستعارة دلالياً ،

---

(١) نظرية الأدب ٢٥٤ ـ ٢٥٥ ، ويُستعاض في العبرية الحديثة عن لفظة (يهفه : الله) بـ (أدوناي : سيدي) .

(٢) مبادىء النقد الأدبي . ريتشاردز ٣٤٦ .

(٣) نظرية الأدب ، أوستن وارين ٢٥٢ ـ ٢٥٣ .

وهذه الجهود والأبحاث ثمرة لتطور المناهج العلمية في الدراسات اللغوية والنقدية ، وقد بنيت على تراث يرجع إلى أعمال أرسطو الفنية ونقصد إلى كتابيه : فن الشعر ، والخطابة أساساً وما كان له من تعليقات فنية في ثنايا كتبه الأخرى ، ويرى أوستن وارين - من بين باحثين عديدين - أن أرسطو كان في نتاجه ممارساً لدور مزدوج ، ذلك أنه عني بالتنظير النقدي والبلاغي وإضافة إلى هذا حفلت أعماله الفنية بالإشارات والملحوظات اللغوية[1] .

ونحاول في هذه الدراسة أن نحدد بعض المسائل المتصلة بالتحليل الدلالي للمجاز والاستعارة في (فن الشعر) و (الخطابة) ، ومن ثم نعرض لمدى إفادة المسلمين منها في الأمد الذي يشمل القرن الرابع وفيه يتجلى نشاط النقاد الذين ندرس مصنفاتهم ، فقد كانت الترجمة قد حملت إلى المسلمين آثاراً يونانية في الطب والعلوم والفلسفة ، وتداخلت التقسيمات فَعُدَّ هذان الكتابان من المنطق وعلى هذا فُسر ما فيهما .

يذكر المؤرخون أن حركة الترجمة في القرن الثاني (نهايته) الهجري نقلت إلى العربية كتب أرسطو المنطقية وفيها (فن الشعر ، والخطابة[2]) إلا أن أقدم المخطوطات التي وصلتنا هي نص قديم فيه ترجمة حرفية للخطابة لا تدل على فهم مَنْ نقلها لموضوعها ، ومصطلحاتها على نحو جعلها غير مفيدة لمن يطلع عليها[3] ، والمخطوط الآخر هو ترجمة أبي بشر متى بن يونس لفن الشعر ، ويكثر النقد لعمل

---

(١) نظرية الأدب ، أوستن وارين ٢٥٢ - ٢٥٣ .

(٢) مسالك الثقافة الإغريقية إلى العرب ٢٣٨ ، والفكر العربي ومكانه في التاريخ ١٢٩ ، ديلاسي أوليري .

(٣) مقدمة الترجمة القديمة ، عبد الرحمن بدوي ص (و) ، ويتضح لنا الأمر في المواضع التي كان يجب أن تعرف الاستعارة فيها ٨٦ - ٨٧ ، الخطابة : الترجمة العربية القديمة ، أرسطوطاليس ، النهضة المصرية ١٩٥٩ .

المترجم ههنا مما يبعدها عن دائرة التأثير الفعال في بيئة الفلاسفة أو الأدباء[1] .

وتحظى أعمال الفلاسفة العظام في هذا المجال بأهمية كبيرة ذلك أنهم يحاطون بكوكبة من التلاميذ ، ولآرائهم ذيوع وانتشار بين الناس ، وخاصة بين المثقفين الذين يسعون إلى تمثّلها في مؤلفاتهم ونتاجهم سواء الإبداعي أو النقدي ـ على الأقل لدى بعض من هؤلاء ـ .

ويعدّ الكندي بؤرة إشعاع هامة لمكانته التي تبوّأها في التفكير الفلسفي وقد امتدت حياته بين القرنين الثاني والثالث الهجريين (ت ٢٥٢ هـ أو ٢٦٠) ، وثبت في المصادر القديمة أن الكندي اتصل بالتراث الأرسطي وكانت له مشاركة في التصنيف الذي يمتح من معينه كما ذكر ابن النديم في الفهرست : « أن للكندي مختصراً لكتاب الشعر » ، ويضيف ابن أبي أصيبعة أن له (رسالة في صفة البلاغة)[2] ، ولم يصلنا أي من مصنفات الفيلسوف العربي في الشعر أو الخطابة لكن هذا لا يدفع ـ على الأقل من باب الظن الراجح ـ أن تحيط دائرة تأثير الجانب الأرسطي الفني بعدد من الأدباء والدارسين في عصر الكندي .

أما الفارابي (ت ٣٣٩ هـ) فإنّ مابقي لنا من مخطوطات تآليفه في الشعر والخطابة لاتدل دلالة واضحة أو دقيقة على مابلغه من مكانة سامقة في الفلسفة والدراية الأرسطية ـ وهو المعلم الثاني ـ ، فبين أيدينا الآن أوراق باسم (جوامع الشعر) ، و (مقالة في قوانين صناعة الشعراء) وهذان العملان يمتحان من (فن

---

(١) مقدمة (فن الشعر) عبد الرحمن بدوي ٥٠ ، ويلزم شكري عياد جانب الحذر في هذا الموقف ، كتاب أرسطوطاليس في الشعر ٢٢٦ ، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر القاهرة ١٩٦٧ .

(٢) ينقل عن الفهرست : بدوي مقدمة فن الشعر ٥٠ ، سليم سالم في مقدمة المجموع أو الحكمة العروضية ٣ لابن سينا ، مركز تحقيق التراث ، القاهرة ١٩٦٩ ، وشكري عاد كتاب الشعر ١٩٣ ، ويضيف نقل ابن أبي أصيبعة .

الشعر) ولكن بصورة موجزة تقرب من تعبيرنا المحدث (لمحات) ، وثمة عمل ثالث هو كتاب في (الخطابة) أورد فيه الفارابي الجوانب المنطقية بأكثر مما تحدث عن الفن الخطابي لدى أرسطو ، ويؤكد محقق هذا النص أن الأصل الموسع الذي ذكره ابن النديم لم يصلنا[1] ، ومع هذا كله فإن الباحثين يعرفون للفارابي أثره الكبير بفضل ابن سينا الذي حكى لنا كيف أفاد من شروح المعلم الثاني الفلسفية[2] ، ويرجّح بعض الباحثين أنه أفاد أيضاً في تلخيصه لفن الشعر ، من عمل الفارابي في هذا الموضوع ، وكذلك يردد ابن رشد أسماء مؤلفات المعلم الثاني ومنها الخطابة[3] .

إن هذا التأثير في اثنين من الفلاسفة عاش أولهما بين القرنين الرابع والخامس والآخر في القرن السادس الهجري يجعل من قولنا بوجود آثار لتلخيص الفارابي وشروحه المتعلقة بالخطابة والشعر ـ في القرن الرابع أمراً طبيعياً في الإطار العلمي .

وبلغ ابن سينا الذروة في تمكنه من الفلسفة اليونانية وعرضها والإفاضة عليها من أفكاره واجتهاده ، وقد خلّف لنا ضمن موسوعته (الشفاء) كلاً من (الخطابة) و (الشعر) على أنهما : الفن الثامن والفن التاسع من الجملة الأولى من المنطق الأرسطي ، وإضافة إلى هذا ترك أحد مصنفاته المبكرة ، وهو موجز لفن الشعر أسماه (المجموع أو الحكمة العروضية)[4] .

وإن الصورة العالية من الإتقان والوعي بمضمون الفلسفة الأرسطية ـ وما

---

(١) مقدمة جوامع الشعر للفارابي ، سليم سالم ١٦٧ (ضمن تلخيص كتاب الشعر لابن رشد) .

(٢) مقدمة فن الشعر ، بدوي ٥٠ ـ ٥١

(٣) مقدمة جوامع الشعر للفارابي ، سليم سالم ١٦٧

(٤) قام بتحقيق فن الشعر بتلخيص ابن سينا عبد الرحمن بدوي ضمن مجموع (فن الشعر) ، وحقق سليم سالم (المجموع أو الحكمة العروضية) .

ألحق به من جوانب فنية ـ لدى ابن سينا تربط بقدراته الذاتية العظيمة[1] ، لكن هذا لا يحجب حقيقة أن الثقافة العربية الإسلامية في القرن الرابع الهجري كانت مشتملة على مؤلفات وشروح في فروع العلم والفن تؤدي إلى نتائج في تمثلها والإفادة منها تتدرج من المرتبة التي يحل فيها ابن سينا ـ إلى مراتب أخرى دونها ، وقد يقوم اعتراض ههنا يستند إلى أن استيعاب المسائل في الإطار الفلسفي مختلف عنه في المجال الأدبي والنقدي ، ولئن وافقنا على أن ثمة فروقاً بين الحالتين لقد يكون ثابتاً مقدار غير قليل من التأثر بالآراء والقواعد الفنية في البيئات الثقافية المتعددة .

وستكون أعمال ابن سينا مقياساً لوضوح أفكارٍ مما جاء لدى أرسطو متصلاً بالمجاز والتحليل الدلالي ، وبعض المسائل القريبة منه .

٣ / ٢ إن أبرز المسائل التي تستوقفنا في حديث أرسطو عن الاستعارة مما يتصل بالدلالة هي : تعريفه للاستعارة ، وبسطه لأمثلة على ضروبها ، وهذا ماعرض له في فن الشعر ، ومن ثم تناوله في (الخطابة)[2] ، وأضاف إليه هناك فكرة التقارب بين أطراف الاستعارة .

١) يعرف أرسطو الاستعارة بأنها : « نقل اسم شيء إلى شيء آخر »[3] .

٢) ثم يفصل هذا النقل « فإما أن ينتقل من الجنس إلى النوع ، أو من النوع إلى الجنس أو من نوع إلى نوع ، أو ينقل بطريق المناسبة »[4] .

---

(١) مقدمة إبراهيم مدكور لمدخل الشفاء ٦ ، ط وزارة المعارف العمومية القاهرة ١٩٥٢ م .

(٢) يستفاد من إشارة لأرسطو في فن الشعر أنه صنف قبل (الخطابة) فن الشعر ٥٠ ، ط بدوي ، حيث يقول : « أما مايتصل بالفكر فقد يجب أن يجد مكانه الطبيعي في الرسائل المخصصة لعلم الخطابة ؛ لأنها أمس رحماً به » .

(٣) فن الشعر لأرسطو ١١٧ ـ ١١٨ ، ط عياد ، ٥٨ ط بدوي .

(٤) فن الشعر لأرسطو ١١٧ ـ ١١٨ ، ط عياد ، ٥٨ ، ط بدوي .

٣) ويورد الأمثلة على الزمرة الأولى فيقول : « أعني بنقل اسم الجنس إلى النوع مثل قوله : هذه سفينتي قد وقفت فإن الرسو ضرب من الوقوف ، وبنقل اسم النوع إلى الجنس مثل : أما لقد فعل أوديسيوس عشرة آلاف مكرمة ، فإن عشرة آلاف كثيرة وهي مستعملة هنا بدلاً من (كثيرة) وبنقل اسم النوع إلى نوع آخر مثل قوله : « اقتص حياته بسيف من برنز » ، وقوله : « قطع البحر بسيفين من برنز صلب » ، فههنا استعملت (اقتص) بدلاً من قطع ، وقطع بدلاً من اقتص وكلاهما نوع من الأخذ » .

ويشير في الزمرة الثانية إلى أنه يقال : « هناك مناسبة إذا كانت نسبة الاسم الثاني إلى الأول كنسبة الرابع إلى الثالث ، فيصح عندئذ أن يستعمل الرابع بدلاً من الثاني ، والثاني بدلاً من الرابع وربما زادوا على ذلك ، فذكروا بدلاً من الشيء الذي هو موضوع القول ما ينسب إليه هذا الشيء أعني - مثلاً - أن نسبة الكأس إلى ديونيسوس كنسبة الدرع إلى آرس ، فيسمى الكأس درع ديونيسوس وتسمى الدرع كأس آرس ، ونسبة الشيخوخة إلى العمر كنسبة المساء إلى النهار ، فيسمى المساء شيخوخة النهار ، وتسمى الشيخوخة مساء العمر أو مغرب العمر كما يقول أمبدو كليس » ، ويضيف أرسطو إلى هذا أن « بعض المتناسبات ربما كان غير موضوع له اسم فيعبر ههنا بالمناسب » فإلقاء الحَبّ في الأرض يسمى بذراً ، أما إلقاء الشمس بنورها علينا فليس له اسم يدل عليه ، ولكن نسبة هذا الفعل إلى الضوء كنسبة البذر إلى الحب فلذلك قيل (تبذر نورها القاسي)[1] .

ويقول أرسطو في مواضع من الخطابة مضيفاً إلى هذه المسائل - التي ذكرت أيضاً في الخطابة - : « إن الاستعارة هي التي تعطي قبل كل شيء الجلاء والمتعة

---

(١) فن الشعر لأرسطو ١١٨ - ١١٩ ، ط عياد ٥٨ - ٥٩ ط بدوي .

وجواً غريباً » ، و « يجب أن تكون مناسبة وغير بعيدة عن الأذهان »[١] .

ويعد حديث أرسطو عن الانتقال اللغوي في الاستعارة ، وأشكال هذا التبديل في مواقع الدالات والمدلولات أساساً ومركزاً تفرعت منه الفروع في الأبحاث البلاغية بعد ذلك لدى الدارسين الأوربيين ، وقد تداخلت فيها النظرات اللغوية والنقدية والبلاغية إلى أن بدأ علم الدلالة ينحو منحاه علماً مستقلاً بقضاياه ومناهجه ومنطلقاته على يد (بريال ، ودار مستيتر ، وبول) وركبت مسائل جديدة من تفاعل التصنيفات التي وضعها هؤلاء وأسلافهم لضروب الاستعارة والمجاز المرسل ، ولما عرف بتغيرات (وتطورات) المعنى ـ الدلالة ـ ، فكان التقسيم المنطقي الأول بفروعه الثلاثة : التوسع ، الانكماش الانتقال ، وفيها تلحظ حركة مساحات الدلالات كثرة وقلة (جنس ـ نوع / نوع ـ جنس) أو تبادل المواقع بالانتقال[٢] .

وقد يكون للوقوف عند القرب والبعد بين أطراف الاستعارة أثر في العناية بكل منها وتقصّي عناصره على هدي من أسلوب التعريف المنطقي وتحليله ، مما أدى أيضاً إلى معرفة أكثر دقة بجوهر الألفاظ وملامحها ، والحيز الذي تشغله معانيها : مدلولاتها .

أما عن التأثير الأرسطي ـ فيما يتعلق بالاستعارة وتحليلها الدلالي ـ فقد اقتصر لدى ابن المعتز على تعريف مجتزأ إلا أنه يظل في دائرة أرسطو : « فمن

---

(١) النقد الأدبي ، ويليام ك . ويمزات ١٠٦ ، ترجمة د . حسام الخطيب ، ومحي الدين صبحي ، دمشق ١٩٧٣ ، المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم والاجتماعية . وتتأكد هذه الفكرة في تلخيص ابن سينا لخطابة أرسطو ٢٠٥ ، تحقيق سليم سالم ، وسنعرض لها بعد ، وما إشارتنا بواسطة ويمزات إلا ضرورة اقتضاها عدم توفر الأصل .

(٢) P , Guiraud , La stylistiquc , que sais - je ? presses Universitaires de France Paris 1975 P, 56 et P, Guiraud , la sém . P . P . 42 - 43 .

الكلام البديع قول الله تعالى : ﴿ وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴾ [الزخرف ٤/٤٣] ، ومن الشعر البديع :

والصبح بالكوكب الدري منحور

وإنما هو استعارة الكلمة لشيء لم يعرف بها من شيء قد عرف بها »[1] ، وههنا تقتضي منا الدراسة النصية لكتاب (البديع) وقفة تدفع إلى ترجيح استفادة ابن المعتز من (فن الشعر) فكرة رئيسية ، وأخرى جزئية تمثلت في تطبيق لا في عمل تنظيري ، وينفي الاعتراض على ما نذهب إليه اجتماع أكثر من مسألة ـ متطابقة ـ في جانب متخصص (النقد ، والمجاز) ، إضافة إلى أن المصنف أتم عمله في عصر عرفت فيه تلخيصات وشروح لفن الشعر والخطابة ـ أنهى ابن المعتز مصنفه سنة ٢٧٤ هـ[2] وكان الكندي توفي سنة ٢٥٢ هـ .

إن الرأي الذي عرضه ابن المعتز في كتابه يقوم على أن الأنماط التي تشتمل عليها تسمية (البديع) قديمة ومعروفة لدى العرب في عهودهم الماضية وفي بيان القرآن ، وقد ساق الأمثلة والشواهد على هذه الفكرة ، ودعمها بقول له : حول إفراط المحدثين من الشعراء في إيراد الاستعارات وسائر ضروب البديع وما استتبعه صنيعهم من انحراف عن الطريق السوي في الصناعة الشعرية ، ويستشهد بشاعر محدث أغرق في إيراد الأمثال في شعره ولو أنه فرقها بين قصائد له لأوفى بالغاية وسنورد كلمات ابن المعتز لنقرنها بالفكرة الأصلية التي جاءت لدى أرسطو ، فنرى التقارب ـ إن لم يكن تطابقاً ـ المسوغ لترجيحنا : « ثم إن حبيب بن أوس الطائي من بَعدهم شعف به حتى غلب عليه وتفرع فيه وأكثر منه فأحسن في بعض ذلك وأساء في بعض ، وتلك عقبى الإفراط وثمرة الإسراف ، وإنما كان يقول

---

(١) البديع لابن المعتز ٢

(٢) البديع لابن المعتز ٥٨

الشاعر من هذا الفن البيت والبيتين في القصيدة وربما قرئت من شعر أحدهم قصائد من غير أن يوجد منها بيت بديع كان يستحسن ذلك منهم إذا أتى نادراً ، ويزداد حظوة بين الكلام المرسل ، وقد كان بعض العلماء يشبه الطائي في البديع بصالح بن عبد القدوس في الأمثال ، ويقول لو أن صالحاً نثر أمثاله في شعره ، وجعل بينها فصولاً لسبق أهل زمانه ، وغلب على مَدّ ميدانه ، وهذا أعدل كلام سمعته في هذا المعنى »[1] .

ولقد كان أرسطو تعرض للعبارة وتأليفها ، فتحدث عن مكوناتها من الألفاظ وحدد الجيد منها إلا أنه نبه إلى أن الإغراق فيها ينجم عنه فساد الغرض ، لذا يجب الابتعاد عن هذا الإيغال في تطلب العناصر ذات الفاعلية الشعرية ـ وإننا نعقد المقارنة رغم أن وجهة ابن المعتز كانت القصيدة كلها ـ يقول أرسطو : « وجودة العبارة في أن تكون واضحة غير مبتذلة ، فالعبارة المؤلفة من الأسماء الأصلية هي أوضح العبارات ولكنها مبتذلة ، ومن أمثلتها شعر كليوفون وستانلس ، أما العبارة السامية الخالية من السوقية فهي التي تستخدم ألفاظاً غير مألوفة ، وأعني بالألفاظ غير المألوفة : الغريب والمستعار ، والمحدود ، وكل ما بعد عن الاستعمال ، ولكن العبارة التي تؤلف كلها من هذه الكلمات تصبح لغزاً أو رطانة ، فملؤها بالاستعارات يجعل منها لغزاً ، وملؤها بالغريب يجعل منها رطانة ، فينبغي الجمع بين هذه الأنواع على نحو ما ، فالغريب والاستعارة والزينة ، وسائر الأنواع التي ذكرناها تنأى بالعبارة عن السوقية والابتذال والاستعمال الأصلي يكسبها وضوحاً »[2] .

وهكذا نرى أن أرسطو وجه إلى الأسلوب الأمثل بإيراد الاستعارات والكلمات التي تحدث الأثر في المتلقي بالقدر الذي لا يثقل العمل ويحوله إلى ألغاز

(١) البديع لابن المعتز ١ ـ ٢

(٢) فن الشعر لأرسطو ١٢٤ ، ط عياد ، ٦١ ط . بدوي (من الفقرة : ٢٢) .

ورطانة ، أي أن الأداة لاتتحول إلى غاية في ذاتها فيخرج الشاعر عن الهدف من إبداعه في مجال معين ، وهذا الرأي نجده في كلمات ابن المعتز واعتراضه على مذهب المحدثين ـ من الشعراء ـ من تغليب للأدوات ـ التي لا ينكر أهميتها ومكانتها في العمل الأدبي ـ على الغاية من صنيع الشاعر .

أما الفكرة الجزئية التي وجدت تطبيقاً في بديع ابن المعتز فهي مثال أرسطو الذي ساقه على التناسب بين طرفي الاستعارة « فنسبة الشيخوخة إلى العمر كنسبة المساء إلى النهار ، فيسمى المساء شيخوخة النهار ، وتسمى الشيخوخة مساء العمر أو مغرب العمر »[1] ولقد افتتح ابن المعتز أمثلة الاستعارات المحدثة ببيت من شعره يستخدم فيه استعارة بحسب ماجاء لدى أرسطو ـ شباب النهار ـ ويثنّي ببيت لأبي الشيص فيه كذلك ـ الليل قد شاب رأسه ـ : « وقلت ـ ابن المعتز :

اسقني الراح في شباب النهار ... وانفِ همي بالخندريس العقار

فكأن الربيع يجلو عروساً ... وكأنا من قطره في نثار

وقال أبو الشيص :

سقاني بها والليل قد شاب رأسه ... غزال بحنّاء الزجاجة مختضب[2]

ونخلص إلى أن ابن المعتز قد عرف طرفاً من أفكار (فن الشعر) لكنه لم يوغل في ثنايا تحليل الاستعارة على نحو يتجه بها إلى مسافات أبعد في النظر الدلالي ، ولقد وقفنا عند هذا المصنف لأثره الكبير في الحركة النقدية في القرن الرابع .

أما الحديث عن ابن سينا فلن يكون مبحثاً في التأثر وإنما نشير إلى صورة بحث الاستعارة من الزوايا الدلالية لديه ، فهو يصنف (الخطابة) و (الشعر)

---

(١) فن الشعر لأرسطو ١١٨ ، ط . عياد ٥٩ ط بدوي .

(٢) البديع لابن المعتز ٢٠

ضمن الأقسام المنطقية للشفاء التي تفيد هيكلها وموضوعاتها من المصادر الأرسطية ـ وما قد يكون من مصادر يونانية أخرى ونبدأ (بكتاب الشعر) فقد تبع ابن سينا أرسطو في الفصل الذي يشرح الاستعارة : (٢١)[☆] وفي هذا الموضع فرّق بشكل واضح بين النقل الذي يغدو فيه اللفظ المنقول مرتبطاً بمدلوله ارتباطاً دائماً فلا يدخل ضمن التعريف ، وذاك التحويل المستخدم في موقف تعبيري خاص (استعارة) ، وعندما ننصرف عنه نرجع إلى المتعارف اللغوي له أي أن الحقيقة هي استعمال الألفاظ دالة على معانيها المستقرة . والاستعارة هي حالة خاصة لمفارقة الأسماء لمدلولاتها ، يقول ابن سينا :

« وأما النقل فأن يكون أول الوضع والتواطؤ على معنى وقد نقل عنه إلى معنى آخر من غير أن صار كأنه اسمه صيرورة لا يميز معها بين الأول والثاني ، فتارة تنقل من الجنس إلى النوع وتارة من النوع إلى الجنس ، وتارة من نوع إلى نوع آخر ، وتارة إلى منسوب إلى شيء من مشابهة في النسبة إلى رابع مثل قولهم للشيخوخة إنها مساء العمر أو خريف الحياة ، وأما المتغير وهو المستعار والمشبه على نحو ما قيل في الخطابة »[1] .

وفي موضع سابق كان ابن سينا قد ربط بين الاستعارة والمجاز ومصطلح التبديل في إطار المحاكاة : « أما الكلام في الشعر وأنواع الشعر وخاصة كل واحد منها ووجه إجادة قرض الأمثال والخرافات الشعرية ، وهي الأقاويل المخيلة ، وإبانة أجزاء كل نوع بكميته وكيفيته ، فسنقول فيه إن كل مثل وخرافة فإما أن يكون على سبيل تشبيه بآخر ، وإما على سبيل أخذ الشيء نفسه لا على ما هو

(☆) رقم الفقرة .

(١) الفن التاسع من الجملة الأولى من كتاب الشفاء ، ابن سينا ، كتاب الشعر ١٩٢ ط بدوي ، ويقابل هذا النص ١١٧ ـ ١١٨ ط . عياد من فن الشعر ٥٨ ـ ٥٩ ط . بدوي لفن الشعر الأرسطي .

عليه بل على سبيل التبديل وهو الاستعارة والمجاز ، وإما على سبيل التركيب منهما »[1] .

ونطالع في (الخطابة) ـ التي تقع قبل الشعر في الترتيب المنطقي للشفاء ـ فصلاً يخصصه للكلام « في التحسينات واختيار الألفاظ للتعبيرات »[2] وتجد الاستعارة شرحاً وافياً وتفصيلاً لتكوينها وغايتها وما يستحسن منها في الفن الخطابي دون الشعري بسبب الاختلاف في الغاية بينهما :

١) ويحدد أهمية الاستعارة والتشبيه في القول الخطبي « فإن القول يرشق بالتغيير وهو أن لا يستعمل كما يوجبه المعنى فقط ، بل أن يستعير ، ويبدل ، يشبه »[3] .

٢) ثم يبين وظيفة الاستعارة « فالرونق المستفاد بالاستعارة والتبديل سببه الاستغراب والتعجب وما يتبع ذلك من الهيبة والاستعظام والروعة »[4] .

٣) ويظهر الفروق في أهمية الاستعارة في الشعر والخطابة ـ والنثر ـ « فاستعمال الاستعارات والمجاز في الأقوال الموزونة أليق من استعمالها في الأقوال المنثورة ، فإن الخطابة معدّة إلى الإقناع ، والشعر ليس للإقناع والتصديق ولكن للتخييل »[5] .

٤) والقضية الهامة في تكوين الاستعارة هي « المقاربة بين أطرافها »[6]

---

(١) كتاب الشعر ، ابن سينا ١٦٨ ط . بدوي .

(٢) الخطابة ، ابن سينا ، تحقيق سليم سالم ١٩٧ ، وهذا مكانه في الكتاب الثالث من خطابة أرسطو ، ينظر ويزات ، النقد الأدبي (١٠٦/١) .

(٣) كتاب الخطابة ، ابن سينا ٢٠٢ ، تحقيق سليم سالم .

(٤) الخطابة ، ابن سينا ٢٠٣

(٥) الخطابة ، ابن سينا ٢٠٣

(٦) النقد الأدبي ، ويزات (١٠٦/١) .

ولكننا نلاحظ أن التركيز على هذا الموضع يحد بالخطابة « فينبغي للخطيب إذا أراد أن يستعير ويغير حيث يريد التحسين أن يأخذ الاستعارة والتغيير من جنس مناسب لذلك الجنس ، محاكٍ له غير بعيد منه ، ولا خارج عنه ، فإنه إذا أراد أن يحقّر إنساناً ويقبحه ، فيجب محالة ألاّ يحاكيه بشيء من جنس ما يفعله بل يقول . إن أراد أن يقبح ملتمساً ويحقره : إن فلاناً ليتكدى ، وإذا أراد أن يفخم أمراً حريزاً لم يبعد بالمحاكاة »[1] وأما في الشعر فالأمر مختلف ، لأنه يجوز أن تختلف الاستعارات الغريبة في الكلام الشعري »[2] .

٥) ونصادف عبارة خطيرة في الجانب الدلالي إلا أنها غير مبسوطة الشرح لدى ابن سينا فهو يستطرد خلال تفصيله لمسألة التقارب في أركان الاستعارة ، وطلبه أن تكون « المعاني التي يستعار منها لطيفة معروفة محمودة » ، ويقترح أن تجلب من المستعمل في المتعارف من الكلام مثل قول القائل « فوابرداً على كبدي ، ويعلق بأن أمثال هذه الاستعارات قد صارت لفرط الشهرة كأنها غير استعارات »[3] والحديث عن بلى الاستعارات والمجازات وتحولها إلى الاستعمال العادي (Catachrese) يتصدر الموضوعات الدلالية وتطور الدلالة في العصر الحديث ، ولا نستطيع الحكم على القدر الذي كانت المسألة واضحة ـ فيه ـ أو قابلة للتفصيل اللغوي عند ابن سينا ومعاصريه بحسب إيجاز العبارة ههنا .

٦) وينهي ابن سينا هذا الفصل بالتميز الذي أقامه أرسطو بين « التشبيه الذي يجري مجرى الاستعارة .

لكن الاستعارة تجعل الشيء غيره ، والتشبيه يحكم عليه بأنه كغيره ، لا غيره

---

(١) الخطابة ، ابن سينا ٢٠٥ ـ ٢٠٦ ، ٢١٢

(٢) الخطابة ، ابن سينا ٢٠٧

(٣) الخطابة ، ابن سينا ٢٠٧

نفسه (إن اخيلوس وثب كالأسد)[1] » .

وهكذا نجد أن النقاط التي عرضناها من خلال مصنفي ابن سينا في الخطابة والشعر تستغرق ما كنا وقفنا عنده في كلام أرسطو فيا يتصل بالمجاز والملامح الدلالية ، ويبدو أن صاحب الشفاء التزم بالجو العام للمنظومة المنطقية الفلسفية ، لذا فلا نعثر على ما يتصور أنه تطوير وتطبيق لتلك الملامح ، وتظل الحقيقة التي نبهنا إليها قائمة وهي أن نتاج ابن سينا ـ أنهى الشفاء سنة ٤١٨ هـ كما يقول إبراهيم مدكور في مقدمة (المدخل[2]) ـ يعني إمكانية فهم هذه المسائل في القرن الرابع بما أتيح من ترجمات وتعليقات على الآثار الأرسطية .

أما ما يعد ظلاً للأصول الدلالية في بحث أرسطو للمجاز في مؤلفات نقاد الشعر في القرن الرابع فإننا نؤثر جمعه مع مسائل الدلالة لديهم في القسم المفرد لهم .

٤ ـ الآثار الأرسطية في الدلالة عند نقاد العرب

٤ / ١ إن التعريف الأرسطي للاستعارة بأنها نقل لغوي يجد صدى لدى عدد كبير من النقاد الذين نعرض لهم ونلحظ أنهم لا يتجاوزون الكلمات المحدودة الدالة على هذا الغرض العام ، فليس هنالك الشروح التفصيلية ولا التعليقات ، وإن مقارنة تقوم بين ما أتى به ابن سينا ـ متتبعاً أرسطو ـ وما نراه من تحديدات النقاد تفيد في معرفة أكثر دقة لكيفية تداول المعارف الفنية الاغريقية ، أو لنقل جوانب منها ، في البيئة الأدبية فهؤلاء النقاد الذين يشكلون قسماً بارزاً فيها .

وقد يكون في ظاهر قولنا بأثر أرسطي في تعريف الاستعارة غلو ، ذلك أن بعض الدارسين لا يسلمون بالتفاعل التلقائي بين المؤثرات الجديدة والأعمال

---

(١) الخطابة ، ابن سينا ٢١٢ .

(٢) مقدمة مدخل الشفاء للدكتور إبراهيم مدكور ٦ .

الأدبيـة المبـدعـة من جهـة والكتـابـات النقـديـة من جهـة أخرى ، ويـدفع هـذا الاعتراض ثبوت مفهوم النقل اللغوي في معظم المواضع ، وإن لم يتخذ لفـظ النقل بذاته ، وكان هؤلاء النقـاد في حل من اختيـار هـذا التعبير مـادام عنصر المشـابهـة متداولاً بين مصطلحاتهم إلا أنهم اتبعوا هـذا النهج ، وإن القـاضي الجرجـاني وقف ـ في الوساطة ـ أمام مسـألـة التشبيـه البليغ الـذي يـدرجـه بعضهم في الاستعـارة وأبدى رأيه الفارق بين الاستعـارة ، ومثـال هـذا النوع من التشبيهـات ولا تغيب عنا المقارنة التي عرفت في خطابة أرسطو للمسألة[1] .

ولقد كانت ثقافة قدامة بن جعفر ـ وما تبدّى في كتـابـه ـ ترشّح كي يـأخـذ بالتحديد الأرسطي ، فإنه ضرب بسهامه في ميدان الفلسفة والمنطق ، وإن إدراك رغبة قدامة في التميّز بعد سبق ابن المعتز له في ميدان التصنيف النقـدي يفسر لنـا كيف توارت الاستعـارة في زاويـة تكاد لا تبين في (نقـد الشعر) ، وقـد استبـدل بمصطلح (التمثيل) ذاك المصطلح الذي تصدر (بديع ابن المعتز) وساق مـا يفسره على أنه « من نعوت ائتلاف اللفظ والمعنى (ويكون) التمثيل : أن يريـد الشـاعر إشـارة إلى معنى فيضع كلامـاً يـدل على معنى آخر ، وذلـك المعنى الآخر والكـلام ينبئان عمّا إليه يشير[2] » ويستشهد بعـد ذلـك بـالبيت الـذي افتتح بـه ابن المعتز شواهده .

أوردتهم وصـــدور العيس مُسْنفــــة والصبح بـالكوكب الـدرّي منحـور[3]

ويفيد قدامة كذلك من شواهد (استعارة) ابن المعتز عندما يشرح المعاظلـة بأنها : (فاحش الاستعارة) فإثر مثال المعاظلة كما جاءت في شعر أوس بن حجر :

---

(١) سنعرض هذه الفقرة للمسألة عند القاضي الجرجاني .

(٢) نقد الشعر ، قدامة ٥٨ ـ ٦٠ ، وينظر البديع لابن المعتز ٢ .

(٣) نقد الشعر ٦٧ ، والبديع ابن المعتز ٧ ـ ١١ .

وذات هـدم عـارٍ نـواشرهـا تسمِّط بـالمـاء تولبـاً جـدعـا

يذكر « أشياء من الاستعـارة استعملهـا كثير من الشعراء الفحول الجيـدين ، ليس فيها شناعة كهذه ، وفيها لهم معاذير إذا كان مخرجها التشبيه » وهنا يسرد عدداً من الأبيات التي اختارها ابن المعتز في كتابه»[1] .

ويؤكد سعي قدامـة إلى التفرد بـالمصطلح استبـدالـه (المطـابقـة) بـالتكافؤ وجزءاً من التجنيس (الجناس الاشتقاقي) بالمطـابقـة[2] ، وليس غرضنـا مقـارنـة صنيع كل من صـاحبي (البـديع) و (نقـد الشعر) وإنمـا نهـدف إلى تبيـان الأثر الأرسطي في عمل قدامة رغم الغموض والتعقيد اللذين أحاطا به .

أما الآمدي فإنه يرى أنه « تستعار اللفظة لغير ما هي لـه . إذا احتملت معنى يصلح لذلك الشيء الذي استعيرت له ويليق بـه[3] » ، وينبسـط (هـذا النقل من موضع إلى آخر لم يكن لـه) في موضع آخر ويستخـدم الآمـدي مصطلح (المعنى) إلى جانب (اللفظة) فإنما « استعارت العرب المعنى لما ليس هو له إذا كان يقاربـه أو يناسبه أو يشبهه في بعض أحوالـه ، أو كان سببـاً من أسبـابـه فتكون اللفظـة المستعارة حينئذ لائقة بالشيء الذي استعيرت له وملائمة لمعناه »[4] .

ويحلل الآمـدي العلاقـة الاستعـاريـة (لغـة) على أنها عـارضـة ـ منقولـة ـ وليست ثابتة جوهرية في المعنى الـذي آلت إليـه في التعبير الشعري ـ والاستعـاري عامة ـ فالشاعر أبو تمام لا يطلب منه أن يوازن عباراتـه فيلتزم مـا يستتبع اللفـظ المستعـار في سـائر كلامـه ، بل إنـه يستطيع تجـاوز هـذا فيقـول بعـد : (صبغت

---

(١) نقد الشعر ٦٧ ، والبديع ابن المعتز ٧ ـ ١١

(٢) نقد الشعر ٥١ ـ ٥٣ و ٦٠ .

(٣) الموازنة (٢٠١/١) .

(٤) الموازنة (٢٦٦/١) .

أخلاقي برونق خلقه) : (عدلت أجاجهن بعذبه)[1] « ذلك أنه ليس هنـاك صبغ على الحقيقة فيقابل بذكر لون حتى يتكافأ المعنيان ، وإنما هـذه استعـارات ينوب بعضهـا عن بعض ، ويقوم بعضهـا مقـام بعض لأنهـا ليست حقـائـق فيا استعيرت له »[2] .

والقاضي الجرجاني يعد (الاستعارة) ، أحد أعمدة الكلام ، وعليها المعول في التوسع والتصرف وبها يتوصل إلى تزيين اللفظ وتحسين النظم والنثر »[3] ، بعد أن كان أورد في صدر الوساطة أن « العرب لا تحفل بالإبداع والاستعارة إذا حصل لها عمود الشعر ونظام القريض »[4] .

ونحن نجد لديه تعريفاً واضحـاً فيـه (التغيير) في موضع الكلمـة المستعـارة « فإنما الاستعارة ماكتفي فيها بالاسم المستعار عن الأصل ونقلت العبـارة فجعلت في مكان غيرها »[5] وسبَق هذا التحديد تمييز فرق فيه القاضي الجرجاني بين أمرين يختلطان على دارسين وأدبـاء ، يقول : « رأيت بعض أهل الأدب ذكر أنواعـاً من الاستعارة عدَّ فيها قول أبي نواس :

والحب ظهرٌ أنت راكبـــــــــه فــإذا صرفتَ عنـانـه انصرفـــا

ولست أدري هذا وما أشبهـه استعـارة ، فهو إمـا ضرب مثل أو تشبيـه شيء بشيء[6] » وبهذا يستدرك مـافـات عـدداً من النقـاد ـ وابن المعتز يسرد في أمثلتـه للاستعارة شيئاً من هذا التداخل[7] ـ وتقدم ماجاء بعد ذلك في (أسرار البلاغـة)

(١) الموازنة (١/٤٠٣) .
(٢) الموازنة (١/٤٠٣) .
(٣) الوساطة للجرجاني ٤٢٨ .
(٤) الوساطة ٣٣ ـ ٣٤ .
(٥) الوساطة ٤١ .
(٦) الوساطة ٤١ .
(٧) البديع ، ابن المعتز ٥ ـ ٦ : « العلم قفل ، مفتاحه السؤال » .

لعبد القاهر[1] .

ونطالع في (الموضحة) عند الحاتمي ما كتب حول الاستعارة فنجد أن حقيقتها : « نقل كلمة من شيء قد جعلت له ، إلى شيء لم تجعل له »[2] وهي لديه ثلاثة أضرب (المستحسن) ، والمستهجن ، واستعارة اسم ما يعقل لما لا يعقل .

ونعثر في (الخصائص) على تعريف الحقيقة والمجاز ، رغم تعدد كتب الشروح الشعرية عند ابن جني ، ذلك أنه اكتفى في هذه المصنفات بتعليقاته ، وكان في بعض الأحيان يغفل ذكر المصطلحات النقدية للمجاز والاستعارة كما في مواضع كثيرة في « الفتح الوهبي على مشكلات المتنبي »[3] .

يقول ابن جني : « إن الحقيقة : ما أقرَّ في الاستعمال على أصل وضعه في اللغة والمجاز ما كان بضد ذلك - ويقصد هنا الاستعارة - ، وإنما يقع المجاز ويعدل إليه عن الحقيقة لمعان ثلاثة وهي : الاتساع ، والتوكيد ، والتشبيه »[4] ، والتصريح بأصل يترك إلى استعمال فيه اتساع ليس إلاّ تفسيراً لعملية النقل اللغوية التي ينطبق عليها مصطلح (الاتساع) أساساً ويعلل بالتشبيه وإننا نتأكد من هذا عندما يبسط ابن جني (الاتساع) في البيت :

تغلغل حُبٌّ عثمة في فؤادي فباديه مع الخافي يسير

قائلاً : « ذلك أنه لما وصف الحب بالتغلغل فقد اتسع به ، ألا ترى أنه يجوز على هذا أن تقول :

---

(١) أسرار البلاغة لعبد القاهر الجرجاني ٢٧٧ ط المنار ط ٤ ، ١٣٦٧ هـ ١٩٤٧ م ، للشيخ محمد رشيد رضا .

(٢) الموضحة للحاتمي ٧٢ .

(٣) ينظر الفتح الوهبي ٥٢ ، ٥٧ ، ٦٥ ، ٣٨ ، ١٧٩ ، ١٤٥ على سبيل المثال .

(٤) الخصائص لابن جني (٤٤٢/٢) .

شكـوت إليهـا حبهـا المتغلغـلا فمـا زادهـا شكـوي إلاّ تـدلـلا

فيصف بـالمتغلغل مـاليس في أصل اللغـة أن يوصف بـالتغلغـل ، إنمـا ذلـك وصف يخص الجواهر لا الأحداث »[1] .

ونسلـك مـع ابن جني ـ في هـذا المقـام ـ اثنين من اللغـويين لتزداد الصـورة وضوحاً أمامنا في المجـال الأدبي والمجـال اللغوي : وإن ابن فـارس في (الصـاحبي) يمس المسـألـة مسـاً رفيقـاً إلا أنـه لا يبعـد عمـا يـذهب إليـه الآخرون ممن عرفنـا نظراتهم ، فهو يقول « ومن سنن العرب الاستعارة ، وهو أن يضعوا الكلمـة للشيء مستعارة من موضع آخر » ، ويأتي بمثال (كشفت عن ساقها الحرب)[2] ، ويذكر أيضـاً « أن العرب تعير الشيء مـاليس لـه فيقـولـون : « مَرَّ بين سمـع الأرض وبصرها[3] » .

أما الثعالبي في (سر العربية) فإنـه يخصص فصلاً للاستعـارة لأن « من سنن العرب أن تستعير للشيء مـا يليق بـه ، ويضعوا الكلمـة مستعـارة لـه من مـوضـع آخر » ويأتي بشواهد منها : رأس المال ، عين المـاء ، انشقت عصـاهم ، افترَّ الصبح عن نواجذه[4] » .

وفي الصنـاعتين لأبي هلال العسكري نرى أن الاستعـارة « هي نقـل العبـارة عن موضع استعمالها في أصل اللغة إلى غيره لغرض ، وهذا الغرض : إمـا أن يكون شرح المعنى وفضل الإبانة عنه ، أو تأكيده والمبالغة فيه ، أو الاشارة إليـه بـالقليل

---

(١) الخصائص لابن جني (٢/٤٤٤) .

(٢) الصاحبي لابن فارس ٢٠٤ ـ ٢٠٥ .

(٣) الصاحبي ٢٥٧ .

(٤) سر العربية المطبوع من فقه اللغة ، الثعالبي ٣٨٣ ، تحقيق مصطفى السقا وآخرين ط مصطفى البابي الحلبي ١٩٧٤ .

من اللفظ أو تحسين المعرض الذي يبرز فيه[1] » ، والعسكري يميز في الاستعمال الاستعاري بين الحالة الجيدة ـ أو الطارئة ـ والدلالة الحقيقة على المعنى ـ أو الموقف ـ وهذا أمر هام لديه كما تظهر قيمة النقل والتغيير بما تحدثه من آثار جمالية وتعبيرية كانت تفتقد لولاه ، ففي قول امرىء القيس :

وقد اغتدي والطير في وكناتها ... بمنجرد قيد الأوابد هيكل

كانت الحقيقة (مانع الأوابد) فجيء باستعمال (قيد الأوابد) الاستعاري ، ويضيف العسكري ههنا فكرة المعنى المشترك بين المستعار والمستعار منه : (الحبس وعدم الإفلات)[2] .

ونجد فكرة النقل أيضاً ، والمعنى المشترك عند لغوي نحوي آخر هو الرماني في رسالته عن إعجاز القرآن[3] .

٤ / ٢ إننا نطالع في حديث المجاز لدى النقاد ظاهرة هي جزء من تصورهم للعملية الاستعارية ، ذلك أنهم يطلبون من الشاعر ألا يبعد في استعارته ، وألاَّ يوغل في تخيله ، ومعيار الجودة هو أن يظل قريباً من الحقيقة ، وأن يقرن بين المتقاربات من المعاني فيستعير هذه لتلك دون أن يفجأ بإغراب منكر لم يألفه ، ولم ترد أمثاله في كتب الأشعار ومرويات الرواة .

ولا نستطيع أن نرد ما يذهب إليه هؤلاء النقاد من تطلب المقارنة في عناصر الاستعارة إلى مشكلات الدلالة ، فهم لا يقيمون الموازنة بين المفهومات اللغوية ومن ثم يقبلون من المجازات ما اقتربت فيه مكونات الطرفين بعضها من بعض ، وينكرون ماتباعدت جزئيات مفهوماتها كأن يربط بين مجالات متباعدة تباعداً

---

(١) الصاعتين ، أبو هلال العسكري ٢٦٨ .

(٢) الصناعتين ٢٧١ .

(٣) النكت في إعجاز القرآن ، علي بن عيسى الرماني ٨٥ ـ ٨٦ .

كبيراً فلا يجد المرء سبيلاً إلى الجمع بين أشياء مشتركة ـ ولو ضئيلة ـ فيا بينها . إن النقاد لم يسلكوا هذا السبيل في تحليلاتهم لصور الاستعارة المبالغة أو المتمثل فيها الغلو ، والإغراب ، ولو فعلوا ذلك لاستطعنا تأويل صنيعهم بأنه يسعى إلى الحفاظ على القاسم المشترك بين المبدعين من الشعراء والكتاب وقرائهم ومستمعيهم في إطار المتعارف اللغوي ـ الاتفاقي ـ على الرغم من أن الشعراء لهم أن يذهبوا في أحيان إلى مسافات أبعد مما نألف كيا يبعثوا الحيوية في التكوين اللغوي بدافع من حسهم المتقدم بضرورة تجاوز بعض المدلولات المألوفة والمتحولة إلى قوالب في الميراث التصويري .

ونعرض لبعض المواقف التي تحدث النقاد فيها عن هذه الظاهرة بادئين بابن طباطبا الذي يقول : « ينبغي للشاعر أن يستعمل من المجاز ما يقارب الحقيقة ولا يبعد عنها ، ومن الاستعارات ما يليق بالمعاني التي يأتي بها[1] » ، ويناقش بيتي المثقب في وصف ناقته :

تقول وقد درأت لها وضيني ... أهذا دينه أبداً وديني
أكلَّ الدهر حلٌّ وارتحال ... أما يبقي عليَّ ولا يقيني

« فهذه الحكاية كلها عن ناقته من المجاز المباعد للحقيقة » ، وكانت تجب الإشارة إلى أنها لا تتحدث حديث البشر ولكن لو تكلمت لأعربت عن شكواها ، وهذا ما يحرص عليه عنترة وبذا فهو مصيب وغير بعيد عن الحقيقة :

فازورَّ من وقع القنا بلبانه ... وشكا إليَّ بعبرة وتحمحم

فالفرس حديثه الحمحمة ، وكذا ينص : بشار على أن شكوى (العانة) ليست بخطاب الناس :

---

(١) عيار الشعر لابن طباطبا ١١٩ ـ ١٢٠ .

عدت عانة تشكو بأبصارها الصدى إلى الجأب إلا أنها لا تخاطبه[1]

وهذه الأمثلة ستجد مكانها في كتب كثيرة تالية (لعيار الشعر) كما في الموضحة ، والموشح ، والصناعتين ، وشرح الأرجوزة[2] .

ويفتتح الآمدي موازنته برأي لخصوم أبي تمام في شعره فهو « عَدَلَ في شعره عن مذاهب العرب المألوفة إلى الاستعارات البعيدة المخرجة للكلام إلى الخطأ أو الإحالة[3] » وإن المصنف يتحدث عن المقاربة وحدود الاستعارة في مواضع من كتابه بما يقرب من هذا الرأي ، فهو يرى « الاستعارة لا تستعمل إلا فيما يليق بالمعاني ، ولا تكون المعاني به متضادة متنافية ، ولهذا حدود إذا خرجت عنها صارت إلى الخطأ[4] » ، وعندما يتجه إلى تطبيقها تحكمه معايير (١) متابعة القديم المألوف عند العرب . (٢) عدم الإيغال في تجسيم المجردات أو الحيوان وأعضاء الإنسان (٣) الاحتكام إلى الواقع .

١) فقول أبي تمام : (أمر التجلد بالتلدد حرقة) لا يسوغ فأي لفظ أسخف من أن يجعل الحرقة آمرة - وإن كان ليس خطأ - وإنما العادة في مثل هذا أن تكون باعثة أو جالبة ، أو نحو هذا ، أما الأمر فليس هذا موضعه[5] » .

٢) وفي بيت أبي تمام :

لا تلمني على البكاء فإني نضو شجو ما لمت فيه البكاء

---

(١) عيار الشعر لابن طباطبا ١١٩ - ١٢٠ .

(٢) الموضحة للحاتمي ٩٤ - ٩٥ ، الموشح للمرزباني ١٤٣ ، الصناعتين للعسكري ١٦٣ ، وشرح أرجوزة أبي نواس لابن جني ٩٦ - ٩٩ .

(٣) الموازنة للآمدي (٢٣/١) .

(٤) الموازنة (٢٥٤/١ ، ٢٧٥ - ٢٧٦) .

(٥) الموازنة (٢٢٢/١) ، والموازنة (٤٤/٢ - ٤٥) .

مجال لمحاورة طويلة حول بعد الاستعارة « فالمجاز لا يتسع لأن نلوم البكاء كما نلوم العين ولا لأن نلوم انحدار الدمع ، كما نلوم الدمع ، ولا تنتهي الاستعارة إلى هذا الموضع ، وإذا استجزنا أن نلوم البكاء فينبغي أن نلوم أيضاً : الضرب ، والقتل والقيام وسائر أفعال الفاعلين »[1] .

٣) ومن أمثلة الاحتكام إلى الواقع الطبيعي (الحرفي) تعليق الآمدي على استعمال مجازي لأبي تمام :

وأقاحٍ منوَّر في بطاحٍ ... هزّه في الصباح روضٌ أريض

فقوله : وهزه روضٌ أريض « ليس بالجيد اللائق ، لأن الأقاحي هي من الروض والروض إنما يهزه ويحركه الندى والنسيم ، لا أن يهز بعضه بعضاً »[2] .

وتتردد هذه الأفكار والمعايير في أحكام النقاد الآخرين ممن جاؤوا بعد الآمدي فالحاتمي يصنف الاستعارات بحسب ماعرف منها وما قرب إلى الحسية في طرف منه ، وإنه لينكر على المتنبي أن يجعل (الظنون تظلع) فلم يُعرف للظن فعل ليستبدل بفعل آخر[3] ، أما استعارة الظلع للريح فهو أقرب وإنْ يكن غريباً ، والسبب في القبول هنا يرد إلى أنه يقال ، ريح حسرى وريح مريضة ، يريد كلالَها ونقصان هبوبها فجاز أنْ يوضع مكان الكلال الظلع »[4] فهنا يعلل الحاتمي حكمه بالتعارف على هذه التعبيرات وأن تكون مستعارة ، وقد يكون لحركة الريح وتأثيرها الحسي أثر في تصور استعارات : (الضعف والقوة) في الريح .

---

(١) الموازنة (٥٥١/١ ـ ٥٥٢) ، الموازنة (٤٩/٢ ، ٨٩ ، ٩٨) .

(٢) الموازنة (١٠٥/٢) .

(٣) الموضحة للحاتمي ٧٣ ، والرسالة الحاتمية ٢٧٧ .

(٤) الوساطة للقاضي الجرجاني ٤٣٢ ـ ٤٣٣ ، وكذا ١٨١ ، وينظر في الصناعتين لأبي هلال العسكري ٣٠٣ ، ٢٠٦ ، ٣٢٠ .

ويبين القاضي الجرجاني الخطر الذي يتهدد كيان اللغة إذا ما أسرف الشعراء في استعاراتهم وأغرقوا في التجسيم على نحو تختلط فيه الأشياء والكلمات ، ويحدد الخطوات التي ينبغي أن تتبع ، وهي منوطة بالتوسط والاعتدال ، وقد استجاز العرب أن ينسبوا إلى الدهر الجور والميل ، وأن يقذفوه بالعسف والظلم ، وقالوا : قد أعرض عنا وأقبل على فلان وكان الميل / والإعراض / إنما وقع بانحراف الأخدع وازورار المنكب ، فاستحسن أبو تمام أن يجعل للدهر أخدعاً وأن يأمر بتقويمه في قوله :

يا دهر قوّم من أخدعيك فقد أضججت هذا الأنام من خرقك

ويجمل القاضي الجرجاني المسألة « فهذه أمور متى حملت على التحقيق ، وأجريت على المسامحة ، أدّت إلى فساد اللغة ، واختلاط الكلام ، وإنما القصد منها التوسط والاجتزاء بما قرب وعرف ، والاقتصار على ما ظهر ووضح »[1] .

وهكذا نرى أن تفسير هذه الظاهرة في تحليل نقاد القرن الرابع للاستعارة يحتمل - بأدوات بحثنا - الحمل على الخصائص الدلالية ، وإضافة إلى هذا لا نستطيع أن نجد الأثر الأرسطي الذي يدعو إلى تخير الاستعارات فلا تتباعد عن موضوعاتها المنقولة إليها ، فالروح المهيمن على مصنفات النقد لا يمتح من المعين الأرسطي ، وإن يكن التشابه العام الباهت مغرياً بالربط بينهما .

٥ - تحليلات اللغويين والنقاد للتطور الدلالي في المجاز

تشغل الباحثين المحدثين في اللغة والنقد - كما رأينا في هذا الفصل - مسألة تحوّل الاستعارة من مستوى التأثير الجمالي والانفعالي إلى مستوى الاستعمال اللغوي العادي ، أي أنّ عملية النقل التي أحدثت - وتحدث - الهزة النفسية ، زادت

---

(١) الوساطة للقاضي الجرجاني ٤٣٢ - ٤٣٣ ، وكذا ١٨١ ، وينظر في الصناعتين لأبي هلال العسكري ٣٠٣ ، ٣٠٦ ، ٣٢٠ .

القدرة الدلالية للألفاظ فواكبت ـ أو لنقل كونت ـ مع العناصر لأخرى ـ رؤية الشاعر في تعبيره ، إنّ هذا النقل غدا مألوفاً ، وأدرج ضمن لألفاظ المتعارف عليها تقليدياً أي أضيف إلى الرصيد اللغوي كلمات أخرى ، إن تكن ثمة ظلال تعطيها بعض الكلمات في دقة التداول ، لا في الانفعال لضروري لأداء التجربة الشعرية . نقطة التلاقي بين البلاغة والنقد من طرف والدلالة اللغوية من طرف آخر هي محور هذا الجانب من دراستنا ، ونحاول عرض جوانبها النظرية بشيء من الإجمال السريع : ثم نبسط قدراً وافراً من الشواهد على الاستعارة المعرفية والمجاز المرسل بضروب له ، فنكون ربطنا الأقسام السابقة من هذا الفصل بالتطبيق القائم على استقراء عدد من الآثار اللغوية والبلاغية (أسرار البلاغة لعبد القاهر الجرجاني ، وجمهرة اللغة لابن دريد الأزدي ، والأمالي للقالي ، ومفاتيح العلوم للخوارزمي الكاتب ، والجمان لابن ناقيا البغدادي ، وأساس البلاغة للزمخشري) .

يناقش عبد القاهر الجرجاني مصطلحي (المجاز والاستعارة) ، فهو يضع القواعد والقوانين البلاغية النقدية ، لذلك يسعى إلى التمييز بين أفق فني مجاله الأدب شعراً ونثراً ، وأفق أكثر اتساعاً تنتشر فيه اللغة واستخدامات لها فيها طبقات لغوية . تشتمل على المألوف والمتغيّر .

يقول عبد القاهر « وأمّا ماتجده في كتب اللغة من إدخال ماليس طريق **نقله** التشبيه في الاستعارة كما صنع أبو بكر بن دريد في الجمهرة ، فإنه ابتدأ باباً فقال (باب الاستعارات) ثم ذكر فيه أن الوغى اختلاط الأصوات في الحرب ثم كثر وصارت الحرب وغىً ، وذكر فيما ذكره لهذه الكلم أشياء هي استعارة على الحقيقة على طريقة أهل الخطابة ونقد الشعر لأنه قال : الظمأ : العطش وشهوة الماء ، ثم كثر ذلك حتّى قالوا « ظمئت إلى لقائك » ، وقال : الوَجُور : ما**أوجرته** الإنسان من دواء أو غيره ، ثم قالوا : أوجره الرمحَ إذا طعنه في فيه ، فالوجه في هذا الذي رأوه من إطلاق الاستعارة على ماهو تشبيه كما هو شرط أهل

العلم بالشعر . **وعلى ماليس من التشبيه في شيء ولكنه نقل اللفظ عن الشيء إلى الشيء بسبب اختصاص وضرب من الملابسة بينهما وخلط أحدهما بالآخر**[1] » .

ويعطي عبد القاهر مثلاً آخر على عدم التقيّد بمفهوم (الاستعارة) الفنية ، وذلك (أنه) ربما وقع في كلام العلماء بهذا الشأن (الاستعارةُ) على تلك الطريقة العامية إلا أنه يكون عند ذكر القوانين وحيث تقرر الأصول ، ومثاله أن أبا القاسم الآمدي قال في أثناء فصل يجيب فيه عن شيء اعترض به على البحتري في قوله :

فكأنّ مجلسَـــةُ المحجَّبَ مَحْفِـلٌ وكأنَّ خلـوتَـه الخفيَّـةَ مَشْهـدُ

« إنّ المكان لا يسمّى مجلساً إلا وفيه القوم ، ثمّ قال : ألا ترى إلى قول مهلهل :

واستَبَّ بعدك ياكليبُ المجلسُ

على الاستعارة ، فأطلق (الآمدي) لفظ الاستعارة على وقوع المجلس هنا بمعنى القوم الذين يجتمعون في الأمور ، وليس المجلس إذا وقع على القوم من طريق التشبيه بل على حدّ وقوع الشيء على ما يتصل به وتكثر ملابسته إيّاه »[2] .

نحن نرى أن حماسة عبد القاهر لقوانينه وتأصيله للقواعد البلاغية وراء هذه الحِدّة في تناول قضيّة الاستعارة والمجاز ، فهما يحتملان الوجهتين اللتين ذكرناهما أي البعد الفني والبعد التطوري الدلالي . ولا شك أن ثمة مسافة فاصلة لابد من

---

(١) أسرار البلاغة ، عبد القاهر الجرجاني ٣٦٩ ـ ٣٧٠ ، ط . ريتر استانبول ١٩٥٤ م .
(٢) أسرار البلاغة ، عبد القاهر الجرجاني ٣٧٠ ـ ٣٧١ .

التدقيق فيها كما نضع الكلمة في إطارها وهنا نذكر مصطلح (بلى الاستعارة) ونضيف إليه (انتشار ضروب المجاز المرسل) ؛ فهي تبدأ فنية وتعمّ لتؤدي دوراً دلالياً لُغَوياً .

نبهتنا إشارة عبد القاهر إلى تحليلات دلالية غنيّة سنبدأ بتناول ماجاء منها عند ابن دريد في الجمهرة[1] . فهو يذكر عدداً من حالات التطور متصلة بالاستخدام المجازي المرسل (الكلية والجزئية والمجاورة ، فيكون التوسع والتخصيص) والاستعاري ، فيكون الانتقال :

١ ـ شواهد التوسع الدلالي :

(**النُجعَة**) ، طلب الغيث ، ثم كَثُر فصار كلّ طلب انتجاعاً . ☆ (**والمنيحة**) أصلها أن يُعْطَى الرجلُ الناقةَ أو الشاة فيشرب لبنها ، ويجتز وَبَرها وصوفَها ، ثمّ صارت كل عطيّة **منيحة** ☆ ويقال (**فَلَوتُ**) المهر إذا نتجته وكان الأصل الفطام ثمّ كثر حتى قيل للمنتج مفتليً .

☆ (والقَرَب) طلب الماء ثمّ قالوا : فلان يقرُب حاجته أي يطلبها .

☆ و (الوغى) اختلاط الأصوات في الحرب ، ثمّ كثر فصارت الحرب وغىّ وقولهم (جزّ **رأسه**) وإنما هو جَزّ شعر رأسه فاستعمل على هذه السبيل ☆ وقولهم (أخذت من **ذقنه**) أي من أطراف لحيته ، فلما كانت اللحية في الذقن استعمل في ذلك ☆ و (**الورْدُ**) إتيان الماء ؛ ثمّ صار إتيان كلِّ شيء ورْداً ، وكثر حتى سمّوا المحموم موروداً لأن الحُمّى تأتيه في أوقات الورْد ☆ (**الرّكَض**) الضرب

---

(١) جمهرة اللغة ، لأبي بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي (ت ٣٢١ هـ) (٤٣٢/٣ ـ ٤٣٤) ، باب الاستعارات ط . دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن ١٣٤٥ هـ وقد نقل هذا الجزء من الجمهرة صاحب المزهر : جلال الدين السيوطي ، انظر المزهر (٤٢٧/١) .

بالرجل ثم كثر ذلك حتى لزم المركوب وإن لم يحرك الراكب رجلّه فيقال : رَكَضت الدابة ، ورُكِضَتْ هي اللغة العالية[1] .

ونضع في هذا الإطار الدلالي من التوسع مجموعة من الحالات التي يرتسم فيها أثر **علاقة المجاورة** أو علاقة السببية .

☆ (**الغيث**) المطر ؛ ثمّ صار مانبت بالغيث غيثاً ، ويقال أصابنا غيث ، ورعينا الغيث ☆ و (**السماء**) المعروفة ثمّ كثر ذلك حتّى سمّي المطر سماء ، وتقول العرب مازلنا نطأ السماء حتّى أتيناكم أي (نطأ) مواقع الغيث ☆ و (**الندى**) الندى المعروف ، ثمّ كثر حتى صار العشب ندى ☆ و (**الخُرْس**) ماتطعمه المرأة عند نفاسها ثم صار الدعوة للولادة خُرْساً ☆ وكذلك (**الإعذار**) : الختان وسمّي الطعام للختان إعذاراً ☆ و (**الراوية**) البعير الذي يُسْتَقى عليه ؛ ثم صارت المزادة راوية ☆ و (**العقيقة**) الشعر الذي يخرج على المولود من بطن أمّه ثمّ صار ما يذبحَ عند حَلْق ذلك الشعر عقيقة ☆ و (**الحِلْس**) ماطرح على ظهر الدابه نحو البرذعة وما أشبهها ثم قيل للفارس الذي لا يفارق ظهر دابته (**حلس**) وقالوا : بنو فلان أحلاس الخيل ☆ و (**الصَّبْر**) الحَبْس ثم قيل قُتِلَ فلان صبراً أي حُبس حتّى قتل ، وفي الحديث « اقتلوا القاتل واصبِروا الصابر » وأصل ذلك أن رجلاً أمسك رجلاً لرجل حتّى قتله فحُكِمَ أن يقتل القاتل ويحبس المسك[2] . ☆ و (**الظعينة**) أصلها المرأة في الهودج ثم صار البعير ظعينة والهودج ظعينة) ☆ و (الخَطْر) ضرب البعير بذنبه جانبي وركيه ثم صار مالصق من البول بالوركين خطراً .

---

(١) جمهرة اللغة ، ابن دريد (٣/٤٣٢ ـ ٤٣٣) .

(٢) جمهرة اللغة ، (٣/٤٣٢ ـ ٤٣٣) .

٢ ـ **ومن شواهد التخصيص الدلالي :**

☆ (**الحجُّ**) قصدك الشيء ، وتجريدك له ، ثمّ سُمِّي قصد البيت حجّاً[(١)] .

٣ ـ **أما شواهد النقل الدلالي بالاستعارة فهي :**

قالوا ☆ (**همدت**) النار ، ثم قالوا : همد الثوب إذا أخلق أيضاً ☆ وأصل (**العَمَى**) في العين ، ثم قالوا : عميت عنا الأخبار إذا سترت عنا ☆ و (**الدفن**) : دفن الميت ثم قيل : دفن سرّه إذا كتمه ☆ وتقول (**نام**) الإنسان ثم كثر حتى قيل نامت الليلة السماءُ برقاً ، وقالوا : نام الثوب أيضاً إذا أخلق . ☆ (**والظمأ**) : العطش وشهوة الماء ثم كثر ذلك فقالوا ظمئت إلى لقائك ☆ و (**المجد**) : امتلاء بطن الدابّة من العلف ، ثم قالوا : مَجُدَ فلان فهو ماجد إذا امتلأ كرماً ☆ و (**القفر**) : الأرض التي لاتنبت شيئاً ولا أنيس بها ثم قالوا : أكلت طعاماً قفاراً بلا أُدْم وقالوا : امرأة قَفْرة الجسم وقَفِرة الجسم أي ضئيلة ☆ و (**الوَجور**) : **ماأوجرتَه** الإنسانَ من دواء أو غيره ثم قالوا أوجره الرمح إذا طعنه في فيه . فأما قولهم أجرّه الرمخ فليس من هذا . هو أن يطعنه ويدع الرمح في بدنه ☆ و (**الغرغرة**) أن يغرغر الرجل الماء في حلقه فلا يُسيغُه ، ثم كَثُر حتى قالوا غرغره بالسكين إذا ذبحه ☆ و (**القرقرة**) صفاء هدير الفحل وارتفاعه . ثم قيل للحسن الصوت قرقار ☆ و (**الأَفْن**) : قلّة لبن الناقة ، ثم قالوا : أُفِنَ الرجلُ إذا كان ناقص العقل فهو أفين ومأفون ☆ و (**البَسْر**) : أن تلقح النخلة قبل أوانها ، وبسر الناقة الفحل قبل ضبعتها ، ثم قيل : لاتبسر حاجتك أي لاتطلبها من غير وجهها .

☆ وقولهم (ساق إليها مهراً) وإنما هي دراهم ، وكان الأصل أن يتزوجوا على الإبل والغنم فيسوقونها وكثر ذلك حتى استعمل في الدراهم ☆ ويقولون (بنى

---

(١) جمهرة اللغة (٤٣٣/٣ ـ ٤٣٤)

الرجل بامرأته) إذا دخل بها ، وأصل ذلك أن الرجل من العرب إذا تزوّج بني لـه ولأهله خباء جديد فكثر حتى استعمل في هذا الباب[1] .

ونجمع إلى هذا الرصيد الغني دلالياً عدداً من الاستعـارات المعرفيـة التي جـاء بها مؤلفون لكتب في اللغة والبلاغة وعلم المصطلح (نقصد كتاب مفاتيح العلوم) ونمهـد لهـا بـأفكار نظريـة كان أثـارهـا الغـزالي وابن سينـا حـول (الاستعــارة) و (النقل) .

يقول الغزالي في حديث عن (اللفظ المطلق بالاشتراك على مختلفات) :

اعلم أنّ اللفظ المطلق على معانٍ ، ثلاثة أقسام :

مستعـارة ، ومنقولـة ، ومخصوصـة بـاسم المشترك . أمّـا المستعـارة : فهي أن يكون اسم دالاً على ذات الشيء بـالوضع ، ودائمـاً من أوّل الوضع إلى الآن ، ولكن يلقّب به في بعض الأحوال لا على الـدوام شيء آخر لمنـاسبتـه للأوّل على وجـه من وجوه المناسبات من غير أن يجعل ذاتياً للثاني ، وثابتاً عليه ومنقولاً إليـه . كلفـظ (الأمّ) فـإنـه **موضـوع** (للـوالـدة) ويستعـار لـ (الأرض) يقـال : إنهـا (أمّ البشر) بل ينقل إلى (العناصر الأربعة) فتسمى (أمهات) على معنى أنها أصول .

والأمّ أيضاً أصل لـ (الوالد) . فهذه المعاني التي استعير لها لفـظ (الأمّ) لهـا أسماء خـاصـة بهـا ، وإنمـا تسمى بهـذه الأسـامي في بعض الأحـوال ، على طريـق الاستعارة ، وخصّص باسم (المستعـار) لأن (العـاريـة) لا تـدوم ، وهـذا أيضاً يستعار في بعض الأحوال[2] .

وكان ابن سينا قد أورد في (الجدل) أن من الأسماء « مـا يقـال بـالاتفـاق ،

---

(١) جمهرة اللغة ، ابن دريد (٣/٤٣٢ ـ ٤٣٣) .

(٢) معيار العلم ، الغزالي ، ٨٥ ـ ٨٦

وقد صار الاسم فيها اسماً لما يتفق فيه بالحقيقة ، ومنها ما يقال بالاستعارة وقد اشتهرت ، ومنها ما يقال باستعارة مبتدعة لم تشتهر »[1] .

فهذا التناول إنما يعطي تصوّراً عن مرونة الاستعمال الاستعاري في الآفاق اللغوية والفنية ، وينوّر حركة الكلمات بين الأصل وفروع تتجه إليها من غير أن تترك ذاك الأصل ، فإما أن تكون استعارة شعرية خاصة ، أو استعارة معرفية في جانب معين اصطلاحي ، أو أنها تغني جانباً من الحياة بالتخصيص والتفصيل الدقيق .

فمن الاستعارات المعرفية الاصطلاحية ما أورده الخوارزمي الكاتب من أسماء الأدوية المتداولة عند الصيادلة والأطباء تحت عنوان : **(في ذكر أدوية مشتبهة الأسماء)** **الأصابع الصفر** : نبات ينفع من الجنون ، **إكليل الملك** : نبات معروف ، **الأظفار** (بالفارسية : ناخُنَه) تستعمل في الطيب ، **آذان الفار** : حشيشة تنفع وتمنع من الظفرة ، **بصل الفار** : هو أسقيل ، بقلة الحمقاء : هي الرجلة ، ويقال لها البقلة اليمانية ، **جار النهر** : يشبه النيلوفر ينبت في شطوط الأنهار ، **ذَنَب الخيل** : نبات قابض ذو ثلاث شعب ، **رِجْل الغراب** : حشيشة ، **عصا الراعي** : نبات قابض ، **عنب الثعلب** هو (روباه زِرك) ويقال هو العَنَم ، **لسان الحمل** : نبات قابض يجفف ، **لسان الثور** : نبت مفرح ، وهو حارٌّ ورطب ، **مزمار الراعي** من أدوية الحصى ؟ **عين البقر** : هو البهار الأصفر »[2] .

ومما يمكن الإفادة منه في إطار الاستعمال الاستعاري وإن كان صاحب الدراسة لا يصرّح بالتفسير الدلالي بشكل واضح ، إلا أن مصطلح (الاطراد) قد

---

(١) الجدل من (الشفاء) ، ابن سينا ٢٤٤ ـ ٢٤٥ ، تحقيق د . أحمد الأهواني ، وينظر في فصل (العام والخاص) من المزهر (٤٢٦/١) ، للسيوطي .

(٢) مفاتيح العلوم ، الخوارزمي الكاتب ١٠٢ ـ ١٠٣

يشير إلى انتشار يقرب مما يتمّ للتطور الدلالي في بعض الأمثلة ، فهذا ابن ناقيا يقول :

« وقد نقلت العرب كثيراً من أوصاف النبات والشجر إلى أوصاف الناس ، واطّرد ذلك في كلامهم لوقوع المناسبة بين الحالين ، وذلك يحسِّن التشبيهات والاستعارات في هذا الباب ، فقالوا : فلان كريم المَغْرِس ، وعريق الحسب ، وما أنجب عودَه وأذكى نباته ، وقال اللهُ تعالى في ذكر مريم : ﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ ﴾ [آل عمران ٣/٣٧] ؛ وقال جَلَّ اسمُه : ﴿ واللهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الأَرْضِ نَبَاتاً ﴾[1] [نوح ٧١/١٧] .

ونجد أن عدداً من الحالات التي أوردها (الثعالبي) ، في كتابه (فقه اللغة) ، تحت (فصل في الاستعارة) مما يدخل في الاستعارة المعرفية كقولهم في استعارة الأعضاء لما ليس من الحيوان : رأس الأمر ، رأس المال ، وجه النار ، عين الماء ، حاجب الشمس ، أنف الجبل ، أنف الباب ، ريق المزن ، لسان النار ، يد الدهر ، جناح الطريق ، كَبِدُ السماء ، ساق الشجرة »[2] ، فهذه استعارات كثر تداولها إلى أن تحوّلت إلى الرصيد الدلالي العام ، وتحمل قدرتها الإيحائية في النصوص القديمة لأننا عند قراءتها نتهيّأ في إطارها وسياقها التاريخي مما يحفظ تلك الحالة الانتقالية معها .

يحمل نصّ في أمالي القالي قيمة هامة في تفسير الاستعارة المعرفية في حركتها الدائبة بين العوالم المادية فمن ذلك أنّ « في الفرس من أسماء الطير عدّة : **الهامة :** العظم الذي في أعلى رأسه ، **والفرخ :** وهو الدماغ ، **والنعامة :** الجلدة التي تغطي الدماغ . **والعصفور :** العظم الذي تنبت عليه الناصية ، **والذبابة :**

---

(١) الجمان ، ابن ناقيا البغدادي ٢٨٠

(٢) فقه اللغة ، الثعالبي ٣٨٢

النكيتة الصغيرة التي في إنسان العين فيها البصر . **والصُّرَدان** : عرقان تحت لسانه ، **والسَّمَامَة** : الدائرة التي في صفحة العنق . **والقطاةُ** : مقعد الردف (خلف الفارس) **والغرابان** : رأسا الوركين فوق الذنب . **والحمامة** : القصّ . **والنَّسر** : كالنوى والحصى الصغار يكون في الحافر مما يلي الأرض . **والصقران** : الدائرتان في مؤخر اللبد دون الحجبتين . **واليعسوب** : الغُرَّة على قصبة الأنف **والناهض** : اللحم الذي يلي العضدين من أعلاهما المجتمع . **والخَرَب** : الهزمة التي بين الحجبة والقُصرى في الورك . **والفَرَاش** : العظام الرقاق في أعلى الخياشيم ، **والسَّحَاة** : كل مارقّ وهش من العظام التي تكون في الخياشيم وفي رؤوس الكتفين »[1] .

نطالع في مقدمة ابن خلدون تقويماً لعمل الزمخشري اللغوي ، ويتميّز هذا التقويم بأنه ينفذ إلى جوهر أصيل في البحث الدلالي ذلك أنه قال :

« ومن الكتب الموضوعة أيضاً في اللغة كتاب الزمخشري **في المجاز** وسمّاه (أساس البلاغة) ، بيَّن فيه كلّ ماتجوّزت به العرب من الألفاظ ، وما تجوّزت به من المدلولات ، وهو كتاب شريف الإفادة[2] » ؛ فابن خلدون يهتمّ (بأساس البلاغة) درساً للمجاز اللغوي ولا يلتفت إلى معجميّته وكأنما يراه كتاباً له وظيفة تحليلية للألفاظ ودلالاتها ويعمّق السبل للوصول إلى فاعلية الدلالة العربية إلا أن وضع عمل الزمخشري في مجموعة المعجمات أبعده عن الزاوية المناسبة له بين الدارسين وهي زاوية التطور الدلالي .

وإننا نرشّح هذا الجهد الدلالي الهام للزمخشري في أساس البلاغة ليكون ركيزة في مشروع المصنف الدلالي العربي الذي يجمع تعليقات اللغويين والأدباء

---

(١) الأمالي ، لأبي علي القالي (٢٥٢/٢ ـ ٢٥٣) وفي المزهر (٣٧٧/١ ـ ٣٨٧) .

(٢) المقدمة ، ابن خلدون ٥١٨ .

والفلاسفة والمتكلمين والفقهاء حول دلالات الألفاظ . ونرى أنه يمثل مجالاً للتطبيق على علاقات المجاز والاستعارة إضافة إلى ماذكره عن الكناية والمثل .

نبسط بعض الشواهد في (أساس البلاغة) فتكون بداية لتحليلات أخرى شاملة : يقول الزمخشري في مادة (أذن)[1] ومن المجاز : فلان أذنٌ من الآذان إذا كان سَمَعَةً ، وهي أذنٌ وهما أذنٌ وخذ بأذن الكوز وهي عروته ، والأكواب كيزان لا آذان لها ☆ ومضت فيه أذنا السهم ☆ وجاء فلانٌ ناشراً أذنيه أي طامعاً ، وجاء لابساً أذنيه أي متغافلاً . وفي المثل : أنا أعرِفُ الأرنب وأذنيها أي أعرفه ولا يخفى عليّ كما لا تخفى عليَّ الأرنب . وتقول « سياه بالخير مؤذنة ، والنفس بصلاحه موقنة » ، وقد آذن النبات إذا أراد أن يهيج أي نادى بإدباره » .

● (١) فنلحظ علاقة المجاز المرسل الجزئية المتحوّلة إلى الكل بالتوسع (أذن) سَمَعَةٌ وهي تماثل ما يدرج عادة في المشترك اللفظي مع (العين) عندما تدّل على من يجمع الأخبار ويطلع على أحوال الخصوم والأعداء متجسّساً ، والزمخشري يورد في موضع آخر من كتابه علاقة مجازية مرسلة (سببية) في لفظ (اليد) (٢) ثمّ نجد الاستعارة المعرفية وهي (أذن الكوز) وكذلك (أذنا السهم) . (٣) ثم نصادف استعارة تحوّلت إلى قيمة معرفية ثم قامت بدور الكناية في الدلالة غير المباشرة « جاء فلان ناشراً أذنيه ولابساً ... » (٤) وفي المثل نجد أن صفة في أذن الأرنب عممت لتدل على كل ظاهر بارز وإن كان صاحبه يظنّه خفياً ، وذلك بالتطور الدلالي وحيوية الاستعمال والقيمة الأساسية في هذا العرض هي أن المساحة الاستعمالية ليست محصورة في النصوص الأدبية وإنما تتسع لكل وجوه الحياة ولأبناء اللغة عامة . ولكننا في الوقت نفسه لا نحجب عن الشعراء والكتاب توظيف هذه التطورات في بناء فني لأن الأمر مردّه إلى السياق الذي يتم

---

(١) أساس البلاغة ، الزمخشري ، (٨/١) ، ط دار الكتب والوثائق ، القاهرة ١٩٧٢ م .

فيه تفاعل التجربة وصوغها جمالياً من خلال اللغة وما دمنا نقول بدلالة السياق متكاملاً فقد تعود لفظة تحوّلت أمداً إلى الرصيد العام المألوف إلى الاشعاع الفني بين يدي أديب فذّ ، ولعلّ هذا يكون مع تباعد الآماد وتميّز **بعض** التجارب الشعوريّة .

☆ وفي مادة (ب ر ى) يقول الزمخشري « ومن المجاز ☆ بريتُ الناقةَ بالسير ، وبراها السفرُ ، وناقةٌ ذاتُ بُراية : بها بقيةٌ بعد بَرْي السَّفَر إياها ☆ وإنك لذو بُرَايـة : لمن فيه بقية بعد السفر ☆ وفلان يباري الريح جوداً ☆ وأعطته الدنيا بُرَتها إذا تمكّن منها وحَظِي بها »[1] .

● **نلحظ أن هذه المادة يتركز التطور فيها على الاستعارة .**

☆ وفي مادة (ب ر ق) يقول في أساس البلاغة « ومن المجاز ☆ فلان يَبْرُقُ لي ويَرْعُدُ إذا تهدّد ☆ ورأيت في يده بارقةً وهي السيف ، والجنة تحت البارقة أي تحت السيوف ☆ وحدثته فأرسل بَرْقاوَيْه أي عينيه لبرق لونيهما .

☆ وبرّق عينيه : فتحهما جداً ولَمّعهما ☆ وأبرقت لي فلانة وأرعدت إذا تحسنت لك وتعرّضت »[2] .

نرى أن التطور الدلالي يمرّ بالمجاز المرسل (البارقة) فالجزئية تعبّر عن الكلّ وهو السيف ، ويفيد من الاستعارة في ربط التهديد بالبرق ، وفي سياق آخر يربط الحسن والتعرّض بالبرق فكما يلمع فلا يخفى ويجذب الانتباه بصورة لا يملك المرء تجاهلها تبدو هذه المرأة في أبهى حللها وألوانها ، ونلحظ أيضاً علاقة الكناية في دلالة (بَرّقَ عينيه) .

---

(١) أساس البلاغة ، الزمخشري (١/٨) .
(٢) أساس البلاغة (١/ ٤٣) .

☆ وفي مادة (ن ظ ف) يقول الزمخشري « نَظُفَ الإناء ، ونظَّفْتُه ، فهو نظيف ومن المجاز ☆ استنظف الوالي الخراجَ : استوفاه نحو قولهم : استصفى الخراج ، وعن بعض أهل اللغة الصواب بالضاد من انتضف الفصيل ما في الضَّرع ، والإبلُ ما في الحوض إذا اشتفَّته ☆ ورجلٌ نظيف الأخلاق : مهذَّب ، وهو يتنظَّف يتنزَّه من المساوئ »[1] .

يلفت الانتباه في تطور هذه المادة أمران : الأول الاستعمال الاستعاري ، والآخر هو غنى مادة (ن ظ ف) في المجالات المعاصرة عربية وأجنبية .

أبو منصور الثعالبي (٣٥٠ - ٤٣٠ هـ) في معجمه (فقه اللغة)

« إنَّ عمله المعجمي يعني إحصاء الكلمات التي تستخدم في نطاق التعارف اللغوي (الاتفاقي) بما لا يخرج عن الحدود العامة الثابتة لفصاحة الكلمات . لذا فإنه عندما يأتي على ذكر الأسماء والصفات التي كانت ضمن استعارات ، وتشبيهات يؤكد مساراً لغوياً دلالياً بانتقال الألفاظ إلى دائرة الاستعمال العادي ، ففي مجال الحديث عن (الجلود) يخصص قسماً هو (فصل في تقسيم الجلود على القياس والاستعارة) ويشتمل على (مسَكْ) الثور والثعلب ، (مسلاخ) البعير والحمار ، و (إهاب) الشاة ، والعنز ، و (شكوة) السخلة ، و (خرشاء) الحية ، و (دواية) اللبن »[2] .

وهذه الألفاظ التي أصبحت تعني (الجلد) في كل نوع من الأنواع المذكورة كانت قبل في تراكيب مجازية أو تشبيهية ، وعلى سبيل المثال يشرح (القاموس) الشكوة « بأنها : وعاء أدم للماء واللبن » ، و « دوَّاية : ما يعلو الهريسة ، واللبن ونحوه إذا ضربتها الريح »[3] .

---

(١) أساس البلاغة (٤٥٦/٢) .

(٢) فقه اللغة للثعالبي ١٣٧ ، تحقيق مصطفى السقا وآخرين .

(٣) القاموس المحيط : مادة (ش ك و) و (د و ي) ط . مؤسسة الحلبي القاهرة .

موضع آخر يدعوه الثعالبي (فصل في أوصاف للفرس جرت مجرى التشبيه) نجد فيه أسماء ثلاثة : (هيكل ، صلدم ، مشذب) تحل محل لفظ (الفرس) في استعمالات وقد انسحبت من قبل على نحو تشبيهي ـ استعاري ـ : « فإذا كان ـ الفرس ـ طويلاً ضخماً قيل له (هيكل) تشبيهاً له بالهيكل وهو البناء المرتفع ، إذا كان محكم الخلقة قيل له (صلدم) تشبيهاً بالصلدم وهو الحجر الصلد وإذا كان طويلاً مديداً قيل له : (مشذب) تشبيهاً له بالنخلة المشذبة »[1] .

وهذا المنحى الذي ينحوه الثعالبي يفتح الباب أمام مراجعات للمعاجم الأخرى ومقارنة العديد من الألفاظ والاستعمالات الشعرية في الأزمنة المتتابعة والتي سبقت تدوين اللغة وتصنيفها لتميِّز بين ضروب الاستعارة ، وما تكون آلت إليه من ستقرار على وضع اتفاقي في المعجم ، ولنا عندها أن نحلل الوضع الدلالي ، ومدى ما يستطيعه الشاعر من بعث الحياة من جديد في المواد والصور القديمة ، وذلك بضروب الاشتقاق والتركيبات الجديدة .

أما ابن جني فقد اتخذت لديه هذه المسألة شكل تنويعات على النغمة الأساسية في (الخصائص) وههنا تجدر الإشارة إلى تميُّز شخصية هذا المصنف في العربية ، فقد جمع أطرافاً من ضروب الثقافة لعصره تجعلنا نقرأ آثاره بمزيد من التمعن باحثين عن تفسيرات وإيضاح لقضايا المجاز والدلالة ، فهو لغوي موغل في التحليل والتعليل للبنية اللغوية العربية ، وهو كذلك مسهم في الأعمال النقدية بشروحه المتعددة للشعر القديم والمحدث .

ومن السمات البارزة في عمل ابن جني مزجه بين الحالات الصرفية والنحوية وتلك الحالات التي تكون في صلب المادة الأدبية فيقول « ألَا تراهم ـ العرب ـ يعلُّون المصدر لإعلال فعله ، ويصححونه لصحته ، ذلك نحو قولك قمت قياماً

(١) فقه اللغة للثعالبي ١٧١ ، وكذلك ١٠٦ ، ٢٣١ .

وقاومت قواماً ، فإذا حملوا الأصل الذي هو المصدر على الفرع الذي هو الفعل ، فهل بقي في وضوح الدلالة على إيثارهم تشبيه الأشياء المتقاربة بعضها ببعض شبهة[1] » ؟ .

ونلاحظ كذلك أن تمثله للعناصر الثقافية بدرجة عالية كان يمكنه من الإفادة منها في الجوانب المختلفة ، بل إننا نلمح بعض الآثار الأرسطية الفنية كفكرة المحاكاة والتصوير في ثنايا مناقشة فرعية حول المجاز تدور بين ابن جني ورأي لأبي الحسن الأخفش[2] النحوي المعتزلي وذلك في الآية الكريمة ﴿ وَكَلَّم اللهُ مُوسَى تَكْلِيْماً ﴾ فالأخفش يقول بأن « الله خلق لموسى كلاماً في الشجرة فكلمه به » ، ويرى صاحب الخصائص « أن المتكلم يستحق هذه الصفة بكونه متكلماً لا غير ، لا لأنه أحدثه في آلة نطقه[3] » ، ويتطرق إلى افتراض إمكان أن تصنع آلة مصوّتة تقلد الحروف التي يستعملها الإنسان ويظهر شكه في قدرة الآلة على إخراج مايحاكي الفعل البشري ، وههنا يعقد المقارنة بين حالتين من الخلق الأولى هي إبداع (القديم سبحانه) والأخرى ما ينسب إلى الفنان ، ونلحظ بوضوح كيف طوع ابن جني العبارة وحورها من الطبيعة إلى ما يتلاءم والعقيدة الإسلامية .

فهؤلاء المستعملون للآلات يأتون بأصوات فيها الشبه اليسير من حروفنا ، فلا يستحق لذلك أن تكون كلاماً ، ولا أن يكون الناطق بها متكلماً كما أن الذي يصور الحيوان تجسيماً أو ترقيماً لا يسمى خالقاً للحيوان ، وإنما يقال مصور وحاكٍ ومشبه ، وأما القديم سبحانه فإنه قادر على إحداث الكلام على صورته الحقيقية ،

---

(١) الخصائص ، ابن جني (١١٣/١) .

(٢) بغية الوعاة للسيوطي (٥٩٠/١ ـ ٥٩١) ، سعيد بن مسعدة الأخفش الأوسط .

(٣) الخصائص (٤٥٤/٢)

وأصواته الحيوانية في الشجرة والهواء ، وما أحب سبحانه وشاء[1] .

إذن إننا نعرض الأمثلة هنا كما يصنع الأثري بقطع متناثرة لآنية قديمة محاولاً إعادة تشكيلها ليدرس الخصائص الفنية وما وراءها من أبعاد حضارية ، خاصة وأن شرح ديوان المتنبي الكبير - الفسر - لم يدخل بتمامه في دراستنا - لعدم توفر المخطوط ، وتأخر نشر الأجزاء التالية للقسم الأول المطبوع - وقد يكون في ثناياه ما يغني البحث الدلالي وينوره :

١ - يهتم ابن جني بذاك التحول الذي تنتقل فيه المجازات إلى الاستعمال العادي فيذهب رواؤها وخصوصها ، وتعالج القضية بطريقة عقلانية منطقية في جانب منها وتشمل طرفاً مبالغاً فيه مع آخر لا يبعد كثيراً ، فابن جني يقول : « إن أكثر اللغة مع تأمله مجاز لا حقيقة ، وذلك عامة الأفعال نحو قام زيد وانطلق عمرو وانطلق بشر ، وجاء الصيف وانهزم الشتاء ، ألا ترى أن الفعل يفاد منه معنى الجنسية ، ولا يجتمع لإنسان واحد (في وقت واحد) ولا في مئة ألف سنة مضاعفة القيام الداخل تحت الوهم ، لذا يعد (قام زيد) من المجاز لا من الحقيقة[2] » وإذا ماتركنا الإيغال الذي قاد ابن جني إلى أن يعد الأفعال كلها من المجاز ، فإننا ندرك أهمية وقوفه على المجازين (جاء الصيف ، وانهزم الشتاء) وتحولهما إلى عبارتين مجردتين من قدراتها الاستعارية .

٢ - ويقدم ابن جني نمطاً آخر لأثر التداول الكثير وبُعْدِ الزمن في بعض الاستعارات فهناك من يحاول أن يربط بين التكوين اللغوي (ع ق ر) ودلالته على الصوت في قولنا : (رفع عقيرته) ، وهذا الجمع بينهما يؤدي إلى تعسف في

---

(١) الخصائص (٤٥٤/٢ - ٤٥٥) ، وقد يكون القسمان: ١ ، ٢٥ من فن الشعر الأرسطي هما أقرب المصادر لحديث ابن جني هنا ، ينظر فن الشعر ٢٨ ، ١٤٢ - ١٤٤ ط . شكري عياد ، و ٤ ، ٧١ ط . عبد الرحمن بدوي .

(٢) الخصائص (٤٤٧/٢)

التحليل والتفسير . ذلك أن أسباب التسمية تخفى لبعدها في الزمان عنا ، وكما يقول سيبويه « لعل الأول وصل إليه علم لم يصل إلى الآخر ، يعني أن يكون الأول الحاضر شاهد الحال فعرف السبب للتسمية[1] » وكان الأصل في هذا الشاهد الذي ندرسه « أنّ رجلاً قطعت إحدى رجليه ، فرفعها ، ووضعها على الأخرى ثم صرخ بأعلى صوته فقال الناس (رفع عقيرته)[2] » وهكذا نرى أن امّحاء الأصل جعل المتأخرين يعاملون المادة الاستعارية على أنها حقيقة لغوية : « العقيرة » .

٣) ويروي لنا ابن جني أيضاً تطوراً أصاب مادة لغوية استعيرت في البدء ثم تحولت إلى حقيقة فهم يقولون : قد بنى فلان بأهله ، وذلك أن الرجل كان إذا أراد الدخول بأهله بنى بيتاً من أدم أو قبة أو نحو ذلك من غير الحجر ، ثم دخل بها فيه ، فقيل لكل داخل بأهله[3] .

٤) ويلتفت ابن جني إلى مسألة فرعية تتجاوز الحديث المجرد عن ألفة الاستعارات والمجازات ذلك أنه يذكر نحواً من التصرف يحلُّ ما يتصور من إشكال فني عندما تتكرر الصور في الموروث الشعري ، وقد كانت العادة والعرف ـ الأدبيان ـ « أن تشبه أعجاز النساء بكثبان الأنقاء كقوله :

ليلى قضيب تحته كثيب ... وفي التِّلاد رشأ ربيب

وكقول أبي تمام :

وكم أحرزت قضب الهنديّ مصلتةً ... تهتّز من قضبٍ تهتزّ في كثب[4] »

---

(١) الخصائص (٤٤٧/٢) .

(٢) الخصائص (٦٦/١) .

(٣) الخصائص (٣٩/١ ـ ٤٠) .

(٤) الخصائص (٣٠٠/١ ـ ٣٠٣) .

وهنا ـ كما يرى ابن جني ـ أصل الحقيقة هو الكثيب المستعار في صورة غزلية متداولة ، وفرع (المجاز) هو المرأة الحسناء مشبهة به ، ويلاحظ أنهم « لما كثر استعمالهم إياه وهو مجاز استعمال الحقيقة واستمر واتلأب ، تجاوزوا به ذلك إلى أن أصاروه كأنه هو الأصل والحقيقة[1] » ، ولكن هذه المرحلة من تطور الاستخدام لا تعد عقبة بضمور الجانب التصويري بسبب من اعتياده والعود إلى ما يقرب من الحقائق اللغوية ، وذلك « أنهم عادوا فاستعاروا منه لأصله ، فقال طرفة :

ورملٍ كأوراكِ العذارى قطعته إذا ألبسته المظلمات الحنادس

وبذا جعل الأصل فرعاً ، والفرع أصلاً ، وهذا من باب تدريج اللغة[2] » ، ونتابع عدداً من الأمثلة التي يسوقها المصنف في البابين اللذين درس فيهما المسألة وهما يفتحان المجال واسعاً أمام دراسات المجاز الدلالية التي تقتضي أنماطاً من المجازات الدائرية الحركة بانتقالها من الحيّز المسمى بالحقيقة ، والطرف الآخر المجازي في اللغة ، ويمكننا أن نقول ـ بشيء من الحذر العلمي ـ بأن مثل هذه الحركة تعطي الأدب حيوية دلالية ضرورية ، ولن يكون الانتقال العكسي الذي نراه هنا هو الوحيد من الاحتمالات فالتوليدات تتعدد باتجاهات مختلفة .

٥) وثمة مسألة جانبية متفرعة من قضية كثرة المجاز وتداخله مع الحقيقة أو تمايزه منها فالأخفش الأوسط لا يجيز القياس في ضرب من المجاز وهو القائم على حذف المضاف كقوله تعالى ﴿ واسأل القرية ﴾ أي أهل القرية ، ويناقش ابن جني هذه الفكرة ويرد المحاذير التي يعرضها الأخفش من اختلاط بين المجازات والحقائق لدى السامع أو القارئ ، فنحن نعلم كثرة المجاز في ضروبه الأخرى وسعة

---

(١) الخصائص (١٧٧/٢) .

(٢) الحصائص (٣٠٠/١) ، والخصائص (١٧٦/٢ ـ ١٧٧) .

استعماله وانتشار مواقعه كقام أخوك ، وجاء الجيش ... « وكل ذلك مجاز لاحقيقة وهو على غاية الانقياد والاطراد ، وكذلك حذف المضاف مجاز لاحقيقة وهو مع ذلك مستعمل[1] » ، ويبلور المصنف في هذا المقام حكماً قياساً على حالات فيها الحذف « كأن تقول : ضربت زيداً ، وإنما ضربت غلامه وولده ، فهذا باب إنما يصلحه ويفسده المعرفة به ، فإن فهم عنك في قولك ضربت زيداً أنك إنما أردت بذلك ضربت غلامه أو أخاه جاز ، وإن لم يفهم لم يجز[2] » ويريد المصنف هنا أن يجمل الحكم فيشمل ذاك النمط من المجاز فلا خشية من التداخل مادام اللبس مأموناً ، ولكننا نلحظ أنه كان حرصاً على القرائن في تعريفه للمجاز « فلو عري الكلام من دليل يوضح الحال لم يقع على الفرس لفظ (بحر) المستعار ، لما فيه من التعجرف في المقال من غير إيضاح ولا بيان ألا ترى أنه لو قال : رأيت بحراً وهو يريد الفرس لم يعلم بذلك غرضه فلم يجز قوله لأنه إلباس وإلغاز على الناس[3] » .

وتبقى هذه المسألة ذات أهمية في معالجتها جانباً يتصل بانتقال المجاز إلى حدود الحقيقة .

ومن المواضع النادرة في كتب النقد مانصادفه لدى أبي هلال العسكري إذ يتحدث عن الحقيقة والتوسع ، وكيفية تطور الاستعمال الذي يؤدي إلى ألفة لهذا المجاز « فكثرة الاستعمال جعلت تسمية المزادة راوية كالحقيقة ، وكان الراوية حامل المزادة وهو البعير وما يجري مجراه ولهذا سمي حامل الشعرراوية ، ومثل هذا كثير ليس هذا موضع استيعابه »[4] .

---

(١) الخصائص (٤٥١/١) .

(٢) الخصائص (٤٥١/٢ ـ ٤٥٢) .

(٣) الخصائص (٤٤٢/٢ ـ ٤٤٣) .

(٤) الصناعتين لأبي هلال العسكري ٦ ـ ٧ .

الفصل السادس

المعجم الشعري والدلالة الحديثة

المعجم الشعري والدلالة الحديثة

ـ ١ ـ

الدارس الدلالي العربي يتطلع إلى تطبيقات في عالمنا المعاصر بعد أن قمنا بالبحث في أصول علم الدلالة العربي . ولدينا عدد من المجالات التي يفيد فيها ما وصلنا إليه من نتائج التطور الدلالي وأساليبه وقوانينه ، فثمة :

(١) تعريب العلوم النظرية والتطبيقية والجوانب المهنيّة المتصلة بها .

(٢) الكلمات اليومية في حياتنا العربية المتطورة مع مستجدات مادية وأخرى فكرية وفنية .

(٣) اللغة الفنية في الأدب شعره ونثره في المسرح والتمثيلية المتلفزة والمذاعة .

وسنتخيّر جانباً أساسياً منها ثم نقارنه بصورة موجزة ببعض الصور الأخرى ، أقصد أننا نعطي ههنا نموذجاً للمعجم الشعري الذي يطبق معطيات البحث الدلالي . ولعلنا نصل ما بين اللغوي والأديب والناقد ـ وكنا وقفنا عند هذا الائتلاف في الفصول السابقة ـ في الدراسات العربية المعاصرة ، فقد وقر في أذهان كثيرين أن النقد اللغوي إنما يتصيّد أخطاء نحوية لا يكاد يغادرها إلى طبيعة التجربة الشعورية وآفاقها الجمالية وتفاعلها مع الحياة من حولها أو في رؤى مستقبلية ، وذهب بعض الأدباء والنقاد إلى الطرف المناقض الآخر ، فهم يعرضون عن اللغويين وكذا يظهرون عدم اهتمامهم بهذه اللغة ـ مع أنها السبب في مواقعهم التي هم فيها ـ وقواعدها .

إننا نقول إن الصلة بين هذين الطرفين يمكن أن تقوم على التعاون المؤدي إلى

تعميق تجربة القارئ بعالم الأدباء ، فكل قراءة متوهجة تعني خلقاً أو تخلقاً للعمل الإبداعي عند متذوقيه ، والدرس الدلالي يحقق جزءاً من هذ المهمة فهو يرصد أحوالاً لغوية ويبرز قسماتها فيعين على تفهّم المرونة العربية واتساع الساحة التي تستطيع أن تغطيها ، ومن الجهة الأخرى يعطي الدارس الدلالي مادة موضوعية للنقد الأدبي تنبع من النّص الشعري ـ وبعد من النصّ الأدبي عامة ـ ذاته قبل التحليلات الخارجية التي تعصف رياح الأهواء والمذاهب النقدية والعلمية في كثير من الأحيان بجوهره أو بجزء غير يسير منه . فنرى في تلك الكتابات النقاد والمعلقين بأكثر من رؤيتنا للأديب أو الشاعر تخصيصاً .

درس الأدب من داخله هو مانراه نقطة البداية الصحيحة فالتجربة تتبدى من خلال اللغة التي كتبت بها . وبوساطة أسلوب تحقق جمالية التوصيل إلى القرّاء والمتلقين ومن ثمّ التواصل ، ومن التوصيل والتواصل يتضح مدى صلة هذا النتاج بالحياة وبالأصول والمستقبل .

ونؤمن أن الأدب الحقيقي جدير بالدراسة لما فيه من تجارب تشكل بعضاً من نفوسنا ، وكما قال أرسطو مما يجب أن يكون أو مما يمكن ـ في تصوّر الفنان ـ أن يتخلّق في المجتمع البشري ، وكذلك ندرس هذا الإبداع لأنه مستقر اللغة في صورة حيّة وخلق لاستعمالات لغوية متجددة ، لأن الأديب الحقيقي هو من يتمثل لغته بكل مافيها من إحساس وفكر ، ويتوهج من خلالها تعبيراً متميّزاً لا يخرج عن قواعدها وأصولها ويعطي المتألق في آن .

ولقد رأيت أن ندرس عدداً من دواوين الشعر العربي المعاصر ، ونحلّلها دلالياً ؛ لأن قسمات التطور بادية فيها ويستطيع الباحثون تتبعها وتأصيلها ثم يكون الانتقال إلى الدواوين الشعرية القديمة ، لنرى التحوّلات الدلالية والإضافات في كل جيل إلى الرصيد القديم الدائم .

والمنهج الذي أتبعه ـ مع الباحثين من طلبتي في جامعة حلب ـ يقوم على التقسيم التالي :

(١) رصد الدلالة الحديثة في لغة الشاعر مما يتصل بالحياة بجوانبها الفكرية والفنية والمحسوسة . والدراسة تؤصل قدر المستطاع الأصل اللغوي ثم تبيّن الدلالة الحديثة وتربطها بمعجم معاصر أو كتاب علمي أو اقتصادي تداول هذه الحقائق المادية أو الفكرية ، فيظهر التفاعل في السياق وكذلك ترصد الكلمات الأجنبية التي حوّرت أو لم تحوّر .

(٢) تتبع الدلالة في الصور الفنية الحديثة ، وههنا نقصد الأشكال البلاغية من تشبيه واستعارة ومجاز مرسل وكناية . سواء جاءت هذه الحداثة من كلمة أو من تركيب كلمات في سياق معين لأن جزءاً من عالم الشاعر وآفاقه المتميّزة إنما ترسمه الكلمات الحديثة .

(٣) رصد الرموز العامة ـ وهي كلمات ـ أي ماجاء من الأساطير القديمة من التاريخ العربي الممتد ثلاثة آلاف عام قبل الميلاد في بابل وإيبلا وأوغاريت ومصر القديمة واليمن وسائر الحواضر العربية إلى أن كانت العربية الفصحى التي هي امتداد للأصالة العربية القديمة ، وكذلك نقصد بالرموز ههنا ماله صلة بالتاريخ الأدبي والاجتماعي ، وماجاء من أساطير وحكايات للأمم والحضارات الأخرى . وههنا نحن مطالبون بالوصل وتوضيح جنبات الرمز .

(٤) متابعة الرموز الخاصة وهي الاستعمالات اللغوية ـ المفردة وتركيبها الإضافي والوصفي ورمزيتها الفنية ـ التي يلحّ عليها الشاعر سواء كانت مفردات من أصل اشتقاقي واحد أو كلمات من إطار دلالي معين وانفعالات ، أو صور للكون ، أو رؤى تلوّن الأشياء ، ونلجأ هنا إلى التفسير ونؤكده بتبيان مدى تكرارها في ديوان الشاعر .

وسأتخذ مثالاً تطبيقياً على العمل في المعجم الشعري المعاصر وهو جزء من ديوان الشاعر العربي صلاح عبد الصبور (أقول لكم) ، وكنت أجريت دراسة عن شعره الغنائي كاملاً إلاّ أن حيّز كتابنا ههنا لا يتسع لتفصيلات ما كنا أنجزناه وفيه قسم إحصائي شامل للأبنية الصرفية للغة الشاعر (الجوامد والمشتقات ، والأسماء والأفعال والحروف) وعدد مرّات تردّدها في القصائد جميعها .

صور للمعجم الشعري لصلاح عبد الصبور من خلال قصائده

(١) ـ السلام	٣٣ ـ ٣٥
(٢) ـ الحزن	٣٦ ـ ٣٩
(٣) ـ عيد الميلاد	٤٠ ـ ٤١
(٤) ـ سوناتا	٤٢ ـ ٤٣
(٥) ـ الرحلة	٤٤ ـ ٤٥
(٦) ـ الوافد الجديد	٤٦
(٧) ـ الإلّه الصغير	٤٧ ـ ٤٩
(٨) ـ الأطلال	٥٠ ـ ٥٣
(٩) ـ ذكريات	٥٤ ـ ٥٦
(١٠) ـ الملك لك	٥٧ ـ ٦٣
(١١) ـ لحن	٦٤ ـ ٦٦

٢ ـ الدلالة الحديثة

١ ـ درب الزحام ٣٣ ، ٤٣

☆ « لك ، لي ، لمن داسوه في دَرْبِ الزحام
ألقي السلامْ »

« وفي العصر شُفْتُــك يــافتنتي ولم نفترق في الــزحــام البليــدْ »

☆☆ إن دلالـة (الـزحـام) قـديمـة فنقـول : « زحم القـومُ بعضُهم بعضـاً يزحمونهم زَحْماً وزِحاماً ، ضايقوهم » ، إلاّ أنها اكتسبت بعداً جديـداً من طرفين : الأوّل موقعيتها عندما تصوّر مدينة حديثة وما يكون من اختلاط الناس ، وعدم تمييز الغريب في كثرة الناس ، والطرف الآخر هو التركيب الإضـافي من (درب) و (الزحام) ..

٢ ـ صدر زجاجيٌّ خرب ٣٣

☆ « وتمطّت الرئتان في صَدْرٍ زجاجيّ خرب » .

☆☆ إن التطور الـدلالي تحقق من مـوقعيـة التركيب (صـدرٌ زجـاجيٌّ) ثم (خرب) فهذا السياق لمريض مسلول قد أنهكه مرض الصدر ، وههنا يتبـادر إلى القارئ المعاصر التشخيص الطبي وصور الأشعة وكيف تتراءى أعضاء الجسم فيها .

وظهر لنـا كيف تمّ التطور الموقعي فكل مفردة في التركيب مـألوفـة من قبل إلاّ أن اجتماعها معاً هو الذي منحها المساحة الجديدة في التصوّر والواقع .

٣ ـ قافلة البيوت ٣٤

☆ إني انهزمتُ ، ولم أصِبْ من وسعها إلا الجدار
والنورُ والسعداءُ من حولي وقافلة البيوت

☆☆ الدلالة المتطورة إنما جاءت من نقل (القافلة) لتعبر عن مجموعة البيوت بعد أن كانت تستخدم في مألوف اللغة لجماعة المسافرين ولما يحملهم ـ على اختلاف العصور فقديماً كانت الحيوانات تحمل هؤلاء المسافرين ، وفي العصر الحديث غدت العربات بأشكالها تنطلق بطاقة النفط وتشكل قافلة كذلك ـ ، وتتميّز الدلالة هنا بأنها صالحة للتداول وليست استعارة فنية فحسب تُحْصَر في استعمال أدبي محدّد .

٤ ـ الدخّان ٣٤

☆ « **بالكتْبِ والأفكارِ والدخّان والزمن المقيت** » .

☆☆ الأصل اللغوي يقول : دخَنتِ النارُ تدخِنُ دُخَاناً ، أي ارتفع دخانها[1] . لكنّ الكلمة تحمل مدلولاً جديداً هو عادة حرق اللفائف التبغية ونفثها بالفم ظناً بأنها تسرّي عن النفس وتدفع بالتعب ، وقد جلب المستعمرون الأوربيّون هذه العادة بعد اكتشاف أمريكا ، وكانت في البدء مرتبطة بالعلاج الطبي ثم تحوّلت إلى المجال العام في القرن السادس عشر الميلادي ، ومن ثمّ انتقلت إلى بلاد آسيا وأفريقيا وتطورت صناعة التبغ وزرع في بقاع كثيرة بعد ذلك .
[الإدمان ٢٥٠ ـ ٢٥١]

☆☆ وقد خصصت الدلالة كما نرى بنوع من أنواع الدخان : التبغ ولغاية

---

(١) الوسيط مادة : دخن .

خاصة هي حرقه ونفثه باستنشاقه مع هواء الشهيق ثم دفعه مع الزفير . وتدلّ الكلمة على حالة نفسية تصاحب هذا الفعل (التدخين) عند الإنسان المعاصر فهي الكآبة والضيق ، أو محاولة الخلاص منها .

٥ ـ الشاي ٣٦

☆ « ورجعت بعد الظهر في جيبي قروشْ
فشربت شاياً في الطريق »

كلمة (شاي) معرّبة حديثة يشرحها (الوسيط) بأنها : نبات يُغْلى ورقُهُ ويُشرب محلًّى بالسكر في المعتاد ، ينبت في أصقاع من آسيا .

وقد عرف شراب الشاي في الصين ثم اليابان ونقله الأوربيون إلى بلادهم وأولهم الهولنديون في القرن السادس عشر الميلادي ثمّ أنشئت شركات تسويقه من أشهرها « شركة الهند الشرقية البريطانية ١٨٠٠ م » وأصل الكلمة صيني : تاي وتشا وهي في الفرنسية thé وفي الانكليزية tea . أمّا في البلاد العربية فقد انتشرت عادة شرب الشاي في القرن العشرين مع قدوم الأوروبيين وخاصة في مصر . [انظر في الإدمان ١٩٦ ـ ١٩٨] .

☆☆ ونرى استخدام الشاعر لهذه الكلمة التي غدت رمزاً لجزء من وجبات الناس البسطاء من الفلاحين وسكان الأحياء الشعبية ، فكوب الشاي في الصباح أو في أطراف النهار والمساء هو عون الفقير على استقبال يومه . هذا لا يمنع بالطبع أن عادة شرب الشاي غدت عامة في البيئات الاجتماعية لكنها تخصص في سياقات معينة بالوجه الأول الذي ذكرناه وهو ما عليه سياق قصيدة (الحزن) .

٦ ـ القرش وقروش ٣٦

☆ القرش : نوع من النقد يُتَعامل به ، وقد اختلفت الأقطار في مقداره فهو جزء من مئة من (الجنيه) أو (الليرة) معرّب . [الوسيط ق ر ش] .

ويذكر العاملي صاحب (ردّ العامي إلى الفصيح) أن العثمانيين استعملوا الاصطلاح بالغين (غرش) منذ ١٢٥٦ هـ ، واتخذ الاسم أيام الانتداب الفرنسي لسورية ، وهو يجعل التسمية عربية من مادة (قرش) وإن كان بعضهم يزعم أنها من الألمانية Groschen . [ردّ العامي إلى الفصيح ٤٥١] .

☆☆ والدلالة المتطورة لها جانبان الأوّل هو أن هذا الجزء من العملة يعدّ جديداً لأن تداول (الجنيه المصري ـ وأجزائه) يغطي مساحة عصرية . والآخر هو ما استقر من أن هذا (القرش) هو أقلّ مقدار نقدي مما يكون بين أيدي الناس .

٧ ـ عشرة أو عشرتين ٣٦

☆ « ولعبت بالنرد الموزّع بين كفّي والصديق
قل ساعةً أو ساعتين
قل عشرةً أو عشرتين » .

إن الرقم (عشرة) الوارد في النصّ يحمل دلالة حديثة لنوع من أنواع اللعب بالنرد (الطاولة) وكذلك بالورق ، ويعني دوراً من اللعب بين المشتركين فيه بانتهائه يحدّد الغالب والمغلوب ، والشاعر أدخل جزءاً من تفاصيل الحياة المادية والنفسية من خلال هذين اللفظين المعاصرين . [ينظر في الوسيط مادة (ورق) و (ط و ل)] .

٨ ـ غرفتي ٣٧ ، ٤٠ ، ٦٣

☆ « في غرفتي دلَفَ المساء
والحزن يولد في المساء لأنه حزن ضرير » ٣٧

☆ « ماذا عليّ لو انعطفت لغرفتي حتى أنام
وأغوص في بحر السلام » ٤٠

☆ « أواحدتي في المساء الأخير
ألوبُ إلى غرفتي
ويزحم نفسي انبهار غريب » ٦٣

☆☆ الأصل اللغوي القديم هو أن الغرفة (هي العِلِّيّة والجمع غُرُفَات وغُرَف) . أمّا الشّاعر فالكلمة **تتسع** دلالتها لتغدو معبّرة عن كل غرفة عالية أو جزء من الدار أو المنزل الحديث لا يكون مرتفعاً أي هي حجرة (جزء) من المنزل الذي يسكنه المرء ، **وتحتمل دلالة عصرية خاصة** في سياق محدّد فهي حجرة تستأجر من منزل متعدد الغرفات وهذا دليل الفقر أو الاضطرار لأنها تعني قيداً في الحركة ، وضيقاً في المكان ، وهذه الحالة معروفة في المدن الكبرى غالباً ـ وتعرفها مدن مصر خاصة ـ .

٩ ـ نصنع الأفراح ٣٩

☆ « سنعيش رغم الحزن نقهره ، ونصنع في الصباح
أفراحنا البيضاء ، أفراحَ الذين لهم صباح » .

☆☆ إن السياق يعطي دلالة موقعيّة لاقتران كلمة (أفراح) بلفظ (البيضاء) وهي سمة العروس تلبس البياض في احتفال يُسمّى (الفرح) بمِصْر أي : حفلة العرس [الوسيط مادة فرح] . وعلى هذا فالدلالة حديثة سواء أراد

بها حفلة العرس أو أشار إلى السعادة والبهجة لأنها اقترنا بدليل سياقي هو (البيضاء) إضافة إلى ارتباط دلالة الصناعة وهي العمل أساساً بجانب مجرّد فيكون انتقالاً من المحسوسات إلى المجرّدات .

١٠ ـ الذوق ٣٩

☆ « زوّق حديثك ، كل شيء قد خلا من كلّ ذَوْق »

☆☆ إن دلالة الكلمة في الأصل القديم كانت تتوزع الجانبين المادي في تذوق الطعام وأمور تتصل به .

وكذلك المعنوي في (علم وأدب يتعلّم [اللسان] ، وحسن الذوق للشعر [أساس البلاغة]) ، إلا أنّ الجدة في دلالة (الذوق) تأتي من هامش عصري هو انتشارها الواسع وجعلها مقياساً من مقاييس التحضر الحديث في جوانب الفن والأدب والسلوك ، فالكلمة واشتقاقاتها قديمة لكنها تحمل ظلاً عصرياً .

١١ ـ سوناتا ٤٢

☆ عنوان قصيدة في الديوان .

☆☆ الكلمة أجنبية معروفة في اللغات الأوربية الفرنسية والإنكليزية وقبلها في الإيطالية ، وتدلّ على قطعة شعرية مؤلفة من أربعة عشر بيتاً في رباعيتين وثلاثيتين تتنوع فيها القوافي

Dictionnaire de langue française V . 6 . P . 485 , Sonnet

١٢ ـ الموسلين ٤٢

وثوبُك خيطٌ من الموسلين وخيطٌ من الذهب الأصفر »

☆ تدلُّ الكلمة في هذا السياق على ضرب من الثياب الرفيعة والثمينة والكلمة

منقولة حديثاً عن اللغات الأوروبية التي كانت أخذتها عن العربية إبّان استمداد أوربة لأصول حضارية من أصقاع العروبة ويقصد بها (المَوْصِلِي) نسبة إلى الموصل ، كا قالوا : داماسكو أي الأقمشة الدمشقية المذهبة والمقصّبة ، وفي التاريخ الحديث يروى أن ثوب زفاف ملكة بريطانيا إليزابيث الثانية كان من أقمشة الداماسكو انظر : Dic , de - Langue . Franç V . 4P . 684 : Mousseline
و Damas , Damasquiner . 1080 . V . 2P .

١٣ ـ القطار ٤٣

« ودوّى القطـارُ ومـاج الطريـقُ زحـامـاً من الأرض حتّى السماء »

☆☆ « القَطْر في الأصل اللغوي : المطر جمعه القطار ، والقِطْر : النحاس الذائب والقِطَار : أن تشدَّ الإبل على نسق واحد خلف واحد وقَطَرَ الإبلَ يقطرها : قرّب بعضها إلى بعض على نسق . جمعه : قُطُر وقُطُرات » [اللسان] .

☆☆ وقد اكتسبت الكلمة دلالتها الحديثة باختراع العربات التي تجرّها القاطرة البخارية والكهربائية على خطوط حديدية في مسارات معينة ، وإيحاؤها المعاصر لا يقتصر على الدلالة المادية وإنما هي تحمل بعداً للسفر والغربة ، واختلاط الناس في المحطّات وما يكون من فراق ولقاء مع أسفارها ، وقد نضيف ظلاً دلالياً في مصر لأنها عرفت الخطوط الحديدية في وقت مبكر فدخلت الحياة الاجتماعية والنفسية إذ امتدت من شمال الوادي إلى جنوبه مع النيل ومدنه وقراه .

١٤ ـ النافذة ٤٤

☆ « ونجيمة تغفو بنافذتي لحظت شرودي لحظَ مبتسم »

☆ الأصل اللغوي : النفاذ : جوازُ الشيء والخلوص منه ، ويقال : سهم نافذ ، وطعنة نافذة ، وطريق نافذ : سالك ، وقد نفذ إلى موضع كذا ينفُذُ ، والنوافذ : كلُّ سَمٍّ يوصل إلى النفس فرحاً أو ترَحاً .

☆☆ وقد استُخدمت الكلمة حديثاً للدلالة على ما يطلق عليه (الشُّبّاك) ، وهو جزء فارغ من الجدار يغطّى بشبك الحديد أو الخشب ، ومع التطور سُتِر بالزجاج لينفذ منه الضوء ، والهواء عندما تفتح أجزاء منه . [الوسيط ن ف ذ] وهذا الاستعمال فيه تخصيص لدلالة (نافذة) في مجال السكن والمنازل .

١٥ ـ تانجو ٥٢ Tango

☆ « أطلال ... أطلال
(تانجو) ترنّ هناكْ
أزهارها أشواكْ
وشطّها خدّاعْ
والركب لا يدري . »

☆☆ الكلمة أجنبية تعرفها الفرنسيّة والإنكليزية وهي من أصل أمريكي جنوبي (الأرجنتين) إذ كانت تعني رقصة شعبية مصحوبة بألحان لها ثمّ حوّلت إلى رقص صالونات مصحوب بألحان اشتهرت بهدوئها ، وغدت دُرْجة (Mode) معروفة في العالم وعندما يشار إليها تلحظ سيا الأجواء المتفرنجة الهائمة والغارقة في رومانسية ناعمة . [Dic. de lang. franc V. 6 P. 651]

١٦ ـ الشُّرفَةُ ٦٤

☆ « جارتي مدّت من الشرفة حبلاً من نغم »

☆☆ تدل الكلمة في أصلها على « أعلى الشيء . والشَّرَفُ : كالشرفة والجمع

أَشْراف ☆ والشرفة : ما يوضع على أعالي القصور والمدن ، والجمع شُرَفٌ » [اللسان] .

☆☆ وفي الوسيط أنها « بناء خارج من البيت يستشرف منه على ما حوله (محدثة) » [الوسيط مادة ش ر ف] .

☆☆ نلحظ تطوراً عصرياً لدلالة « الشرفة » فهي جزء من المنازل الحديثة ، وتعطي إشعاعاً موقعياً عندما ترتبط بسكان القصور والدارات المترفة .

١٧ ـ ونشير في هذا الهامش للدلالة الحديثة إلى عدد من الكلمات التي تحمل بعداً حديثاً يأتيها من موقعيتها في أعمال صلاح عبد الصبور ، لارتباطها بالبيئة الريفية أساساً وبعض تقاليدها أو علاقاتها الاجتماعية ، فهناك **المِصَطْبة ص ٥٨** ، وهي دلالة قديمة إلا أنها تعني تجمع عدد من الفلاحين من أسرة واحدة أو مع الجيرة للسمر والاستروح .

وكذلك تأتلف دلالة الكلمات (**دجاج وبط وخبز ص ٥٩**) لتعطي مفهوم الشبع والاكتفاء بزاد وفير ، فالريفيّون المصريون يحتفلون بضيف الأسرة أو بكبيرها أو بالشخصية المتميّزة بوليمة فيها الدجاج أو البط ، ويحملُ المسافرون الهدايا من الريف إلى المدينة وهي (دجاج وبطّ) .

٣ ـ الدلالة الحديثة في الصورة

نعرض في هذا القسم من الدراسة الدلاليـة للمعجم الشعري صوراً كان للكلمـة الجديدة دور في تطوير عالمهـا ، ذلـك أن التجربـة الشعوريـة إنمـا تتفتح آفـاقهـا وتتلون بوساطة الأداة اللغوية الطيّعة بين يدي الفنان الشاعر الـذي يركب فرس الإبداع الجموح ، فلا يكفي أن يحس هذا أو ذاك من الخلق ليكون فناناً ، بل لابد له من بلورة انفعالاته جمالياً ، والقـدرة على نقلهـا وتوصيلهـا إلى الآخرين مؤثّرة فاعلة في النفوس لتحيا لديهم وتمنح أيامهم التي يتقلبون بين جنبـاتهـا ، أو أيـامهم الآتية عبقاً فيه النشوة وصحوة للنور واتساع السبل .

وقد تأتي الجـدة من التركيب اللغوي ، أي أن جزءاً منـه يشعّ فيخلق إطـاراً موقعياً له أبعاد عصرية (فكريـة ، اجتماعيـة ، ثقـافيـة ، نفسيـة) ، وهـذا يجعل الكلمة الأخرى ذات دلالة مميّزة من دلالتها العامة قبل ارتباطها بهذا السياق .

إننا اقتطعنا من الـدراسـة الموسّعـة لشعر صلاح عبـد الصبور مقطعـاً (يمثل عدداً من القصائد) قد لا يقدّم كلَّ الحداثة في صوره ، لكنه يومئ في بعض منهـا إلى التأثير الحديث للثقـافـة المتشكل لغويـاً . ونحن لا نهـدف إلى دراسـة تحليليـة نقدية بل إلى إرساء أسس دلالية يفيد منها الناقد والمحلّل ، لـذا فـإنّـا سنختصر في الحديث مكتفين بتحديد المواقع واللمحات اللغويّة الدلاليـة . ولا يفوت الـدارس أن التخصيص ههنا يجعلنا نفرد الفقرة للألوان البلاغية ثم نعرض الصورة في الرمز فيما بَعْدُ :

١ ☆ « والبسمة البيضاء تهمر فوق خدّيه مَحبّة » ٣٣

إن الاستعارة (تهمر) تكتسب جدتها من ارتباطها المجازي بالبسمة الحاملة صفة (البياض) ، وقديماً عرفوا في الشعر الوجه المشرق الأبيض ، وربطوا بين العطاء والمطر وانهاره إلا أن العلاقة بين أجزاء التركيب هي الجديدة مع اختيار الفعل (يهمر) .

٢ ☆ « تمطّت الرئتان في صدرٍ زجاجي خَرِبْ » ٣٣

☆☆ إنّ جدة الاستعارة لا تأتي من ربط الفعل (تمطّى) بـ (الرئتين) وإنما تعطي هذه الدلالة الحديثة الموقعيّة العصرية المتمثلة في الصورة العصرية العلمية للرئة عند جمهور الناس لا الأطباء أو الدارسين فقد انتشرت في الصحف والمجلاّت الملوّنة ، وكذلك درج التصوير الشعاعي وصار شكل الصدر بأضلاعه ورئتيه مما يتداوله الناس في علاجهم ، وتنقّلهم بين الطبيب ودار الأشعة .

٣ ☆ « وامتدّت الأنفاس مجهدة **تراوغ** أن تبوح بالانكسار » ٣٣

☆☆ استعارة « تراوغ » حملت جِدّةً في تصويرها الأنفاس بديلاً من صاحبها الذي يكابر ، ويبذل الجهد كيلا يسقط ضعيفاً لقد (ألقى السلام) ٣٤ أخيراً .

وأكثر ما يكون من دلالة « راوغ ، يراوغ » في المدافَعة والمصارعة ، فالشاعر أتى بالفعل مستعاراً في موقف جديد على التعبير ـ فيما أرى ـ اللغوي عندما ربطه بالأنفاس .

٤ ☆ « ومشت إلى النفس **الملالة** والنعاس إلى العيون » ٣٤

☆☆ إن دلالة الملالة الحديثة تهين على الصورة الشعرية الاستعارية في (مشت) لأن من سمات العصر المادي ضغطه النفسي ومحاصرته للإنسان بين جدران المدينة ، وفي أصداء جلبتها .

٥ ☆ « نصنع في الصباح أفراحنا البيضاء » ٣٩ .

☆☆ إنّ استعـارة الفعل (نصنع) في أجواء نفسيّـة هي (الفرح) والسعـادة تحمل الجدة فقديـاً ربطت الكلمـة الأدوات والمصنوعـات ، وتقلت إلى جـانب أعم وهو الصنيعـة أي أن يقـدم المرء لأخيـه وللنـاس خيراً سواء في الأمـور المـاديـة أو المعنويـة ، إلاّ أن الموقعيـة ههنـا هي التي تـؤدي التفرّد المعـاصر ، ففي مصر تعني (الفرح) تخصيصاً (حفلة العُرس) ، وفيه أيضاً ثوب الزفاف الأبيض ، لذا فـإنّ الفرح الأبيض غدا صورة تتحرك لتدل على قمـة السعـادة التي يبلغهـا الإنسـان في تطلعاته .

٦ ☆ « حزن تمدّد في المدينة » ٣٧

٧ ☆ « الحزن يفترش الطريق » ٣٨

☆☆ إن الصورتين عصريتان بسبب موقعية (المدينـة) المعـاصرة ، وطرقهـا كذلك ، فالاستعارة في (تمدد) و (يفترش) تغطيها ملامح نراها بين سبل المدن وجنباتها الملأى بالغريب ، وبالفقراء الـذين لا يظهرون في ألقهـا وبريقهـا ، بل ينسون في شوارعها الخلفية أو على أرصفتها .

٨ ☆ « ياوحدتي ! الليل راح لابد من خوض الصباح
... إلى الجراح إلى النواح » ٤٠

☆☆ استعـارة جـديـدة في (خـوض) الصبـاح وكان الفعـل لخـوض المـاء والحرب ، وقـد يكون مجـازاً على نحو آخر في (خوض الحـديث) ، إلا أننـا ههنـا نفاجأ بالنور والشمس يسعى إنسـان ليخوض فيها ، وهو يقصـد مواجهـة المواقف بين الناس ومادة يهتمون بها منذ الصباح .

٩ ☆ « وغربتُنا المرفأ المنتظر » ٤٢

☆☆ تمنح دلالة (الغربة) الحديثة إضاءة جديدة للصورة القائمة على التشبيه فهي غربة في المكان والزمان وبين الناس تتعدد ولكنها تؤول إلى حـالـة لا تتغير :

التنـاقض بين تطلعـات الإنسـان نحـو الأفضـل في الحيـاة وفي أعمـاق الإحسـاس الإنساني ، وما يعترض من تجـاهل وعـدم القـدرة على التواصل المؤدي إلى الحركـة والاندفاع إلى جانب مشرق تنوّره المحبة والألفة .

١٠ ☆ « ودوّى القطّارُ ، وماجَ الطريقُ زحاماً من الأرض حتى السماء » ٤٣ .

☆☆ إن القِطَار يحـدّد الموقعيـة في هـذا السيـاق وهو الـذي يجعل الصورة في (ماج) جديدة ، لأن الفروع المجازية في (الموج) واشتقاقـاتـه معروفـة من قبل إلاّ أننا نحس بإيقاع العصر من تجاوب الأنغـام الجـديـدة منـذ أن نتخيل محطـات القطارات وأفواج الناس فيها .

١١ ☆ « ولم نفترق في الزحام البليد » ٤٣ .

☆☆ إن الصورة تقوم من اجتماع (البليد) (بالزحـام) المـادي ، ونـدرك كم هو ثقيل على نفس الشاعر مروره في خضم الضجيج والجلبة والتـدافع بـالمنـاكب . إنه ليس زحاماً موسمياً في القرية بل هو أمر يوميّ يجابه في جنبات المـدينـة لـذا فهو يبدو كائناً ثقيلاً من ثمرات الحواضر المخيفة .

١٢ ☆ « والبدر لَمْلَم فوقَ قريتنا أستار أوبته » ٤٤

☆☆ إن كلمـة (أستـار) محـور في الصـورة فهي ترتبـط بـالأوبـة من طرف وبالفعل (لملم) من طرف آخر ، وإيحاؤها العصري جاءها من (المسرح) وحركة (الستار) ما بين بدء الحفل التمثيلي وانتهائه .

١٣ ☆ « جارتي مدّت من الشرفة حبلاً من نغمْ
نغم قاسٍ رتيب الضرب منزوفِ القرارْ » ٦٤

☆☆ إن الاستعـــارتين (**حبـــل** من نغم) و « **منزوف** القرارْ » تتصـلان

بالإيقاع الموسيقي واصطلاحات له مما يجعل التصوير جديداً في دلالته وفي إيحائه الـذي تستجيب لـه النفس ، لأن عصرنـا هـذا يحفـل على نحـو واسع بـالآلات الموسيقيـة وبـأجهزة الاستماع في كل الأمكنـة ممـا يسّوغ ازدحـام الكلمـات الـدالـة عليها .

١٤ هناك صور أخرى تحتمل التحليل الدلالي الكاشف لحداثتها إلاّ أننا أوردنا هذا القدر ، ونقول أيضاً إن مجال المناقشة مفتوح في بعض الزوايا فالاجتهاد فيهـا أمر مستحسن .

٤ ـ الرمز العام

١ الزحام ٣٣ ، ٤٣

« لكَ ، لي ، لمن داسوه في درب الزحام » ٣٣

« ولم نفترق في الزحام البليدْ » ٤٣

« ودوّى القطار ، وماج الطريقُ زحاماً من الأرض حتّى السماء » ٤٣

☆☆ الزحام ظاهرة من ظواهر الحياة في المدينة الحديثة خاصة ، وهو إشارة حادّة إلى نمط المعيشة في الحواضر المتطورة . وكان (إليوت)[1] قد جاء بها في قصيدته (الأرض الخراب) :

« المدن الزائفة ،
والجموع المتزاحمة تعبر قنطرة لندن
في فجر يوم من أيام الشتاء وكان الضباب داكناً
إنني ما كنت إخال الموت قد طوى مثل هذا العدد الضخم »

[إليوت د . فائق متى ١٠٥]

وتعطي الدلالة في هذا الرمز إضاءة لضياع الإنسان في خضم الكثرة

---

(١) ت . س . إليوت (١٨٨٨ ـ ١٩٦٥ م) شاعر وناقد أمريكي الأصل تنقل بين الولايات المتحدة الأمريكية وانكلترا ثم استقر بلندن ، له شعر ومسرحيات وآراء نقدية ، تأثر به عدد من الأدباء العرب في العصر الحديث ، من أعماله المعروفة (قصيدة الأرض الخراب ، ومسرحية جريمة قتل في الكاتدرائية) .

المتدافعة في المدينة تحت وطأة علاقاتها المادية الطاحنة وغياب اللمحات الإنسانية الحقيقية .

٢ آلهة ٣٤

☆ « كنا على ظهر الطريق عصابة من أشقياء
متعذّبين كآلهة »

☆☆ إنّ الحديث ههنا يتصل بثقافة الشاعر فهو يستمد تصوراته من الأدب الأوربي والأدب اليوناني القديم ، وهناك يسود المفهوم الأسطوري للآلهة وناسوتيتها . وتداول أسمائها في الشعر والفن على نحو واسع ؛ فالأدباء المحدثون أخذوا يسايرون ماعليه الأدب الأوربي ـ والحديث عموماً ـ في هذا المضار [ينظر في : أساطير العالم القديم : مايكل جيمسون ١٩٩ ، والديانة اليونانية القديمة : هـ ، ج . روز ١٩] ، يقول جيمسون :

« عانت الأساطير الإغريقية في الأعوام الأخيرة من غزارتها وسعة انتشارها ، ذلك لأنّ أكثر أساطير العالم الغربي هي أساطير إغريقية ـ تُقْرأ للأطفال وتُعلّم في المدرسة ، كما يحلم بها كما يقال لنا ـ علماء طائفة من المحللين النفسيين . فلا عجب أن أصبحت تبسط وتكسى بالسُكّر .

ولعلّ أسوأ من كل شيء أنها تؤخذ كقضية مسلّم بها . وكان من الخطأ الكبير أنّ المفسّرين الغربيين الذين يتحدثون إلى غير المختصين ليستغلّ تعليمهم الكبير في إنشاء حصون راسخة من الخيال الأسطوري . ومع ذلك فمن الحق أن كثيراً من الاهتمام بالعالم القديم والأساطير بعامة قد اتخذ مبدأه احتمالاً من معرفة قديمة بالأساطير الإغريقية ولكي نعطيها ماتستحق ، فنحن محتاجون إلى رؤيتها في الأشكال التي عرفت بها واستعملت عند الإغريق أي في أشعارهم ومسرحياتهم وأعمالهم الفنية » ١٩٩ .

☆ ونحترز ههنا كيلا يذهب بعض الباحثين إلى تفسيرات ترتبط بثقافة الشاعر العربية ، ذلك أن طبيعة تداول هذا الرمز يعود إلى الجانب الأوربي من المؤثرات الثقافية لديه ، أما ما يتصل بتاريخ العرب في الجاهلية فإنما نفسره في إطار موضوعات لها خصوصيتها التاريخية في موضوعها .

٣ المَلَك (الملاك) ٣٤

☆ « ومَضَى ولا حسٌّ ولا ظلٌّ كما يمضي ملاكْ
وتكوّرت أضلاعُه ، ساقاه ، في ركن هناك
حتى ينام
من بعد أن ألقى السلام »

☆☆ « المَلَك واحد الملائكة ، وقد قيل إن مَلَكاً أصله مَلأك ، فخفف بحذف الهمزة وبعد نقل حركتها إلى اللام ، والملائكة جنس من خلق الله تعالى ذوو أجسام لطيفة نورانية ، يستطيعون أن يتشكلوا فيما يشاؤون من الصور . منهم الرسل إلى الأنبياء بالوحي ، ومنهم من ينفذ من الأمور في هذا العالم ما يؤتمر به ، ومنهم من تخصّص للعبادة » [معجم ألفاظ القرآن الكريم (٤٦٤/٢) ، والتعريفات للسيد الشريف الجرجاني ٢٠٥] .

☆☆ أراد الشاعر أن يعطي صفة الطهر والسمو من خلال استعمال رمز المَلَكَ ، وأشار المعجم الوسيط إلى أن استخدام الملاك موضع المَلَك من أساليب العامة [الوسيط : ملك] .

٤ خبز أيامي كفاف ٣٦

☆ « وغمست في ماء القناعة خبزَ أيامي الكفاف
ورجعت بعد الظهر وفي جيبي قروش »

☆ الرمز مستمد ـ فيما يظهر ـ من كلمات الإنجيل « خبزَنا كفافنا أعطنا اليوم » [متى ـ الإصحاح السادس ـ ١١ ـ العهد الجديد] .

☆☆ يريد الشاعر في هذا السياق أن يجعل الرمز يعبر عن أقلّ قدر مما يكون لإنسان في معاشه : (الكفاف) . ويقرن هذا الرمز بكلمات من واقعه المباشر (قروش) .

٥ الجحيم ٣٧

☆ « والحزنُ يولد في المساء لأنَّه حزنٌ ضرير
حزن طويل كالطريق من الجحيم إلى الجحيم »

☆☆ « الجحيم : اسم من أسماء النار . وكلٌّ نار عظيمة مَهْواة فهي جحيم ، قال ابن سيده : الجحيم النار الشديدة التأجّج » [اللسان : ج ح م] وقد استعان الشاعر بهذا الرمز ليدلّ على شدّة يعاني منها ، ويبدو الحزن عميقاً لا انقضاء له وكلما حاول الهرب منه يجد امتداداً وعذاباً كالجحيم في لظاها ونيرانها . والرمز يبرز تجربة الإنسان في غور بعيد لها .

٦ الصمت ٣٧

☆ « حزن صموت
والصمت لا يعني الرضاء بأنّ أمنيةً تموت »

☆☆ استفاد الشاعر من متداول (الصمت) في سياقات أخرى حيث يؤدي دلالة الرضا ، ذلك أن الفتاة البكر تستشار في مسألة زواجها ولئن صمتت لقد يكون هذا جواباً بالإيجاب منها وفي الحديث النبوي الشريف « البِكْر تستأمر في نفسها وسكوتها رضاها » [المبسوط للسرخسي ج ٥ ص ٨] ورغم أن الشاعر يريد أن يبرهن على الردّ والرفض في هذا السياق فهو يتكئ على الطرف الآخر

من الدلالة المتداولة أي (الصمت هو الرضا) ثم ينطلق من ذاكرة القارئ وصدى الأحاديث الاجتماعية ، وإنه يفيد من أسلوبه في العرض ووضع مرتكز له في تطلع هذا القارئ إلى الزاوية التي يقف فيها ويتساءل لم كان الصمت هنا يدل على عدم الرضا ؟ ومع الاقتراب من السياق الشعري يتضح عالم الشاعر وخصوصية التجربة للحزن الذي أصاب نفسه .

٧ القلعة والقلاع ص ٣٨ ، ٦٥

☆ « الحزن قد قهر القلاع جميعها وسبى الكنوز » ٣٨

« أنت في القلعة تغفين على فرش الحرير

وتذودين عن النفس السآمة

بالمرايا واللآلئ والعطورْ » ٦٥

☆☆ إنّ استخدام هذين اللفظين (القلعة ، والقلاع) يأخذ بعداً رمزياً ذلك أنها يحملان إيقاعاً أسطورياً تاريخياً يرتبط بالحكايات في ألف ليلة وليلة وتداخلها مع الموروث في السير الشعبية ، ومن ثمّ يحوَّل كثير من حقائق التاريخ ليغدو جزءاً من الروح الأسطورية وهالاتها المحيطة بها ونلحظ الفرق الشاسع بين الإشارة المحددة لموضع بعينه « قلعة القاهرة » مثلاً أو « قلعة دمشق » أو « قلعة حلب » ففي هذه الحالة يحتفظ التاريخ بإطاره لأنها مواقع وحصون معروفة فيها قدر من الواقعية أكبر مما نراه في الإطلاق المتجلي في سياقات كالتي أوردها الشاعر هھنا .

٨ برج النحس ٣٩

☆ « أو أن اسمينا ببرج النحس كانا ياصديق »

☆☆ تداول الدارسون في الفلك مصطلحي (البرج والبروج) للدلالة على توزّع الكواكب في الفلك وهي اثنا عشر برجاً : الحمل ، والثور ، والجوزاء ،

والسَّرطـان ، والأسـد ، والسنبلـة ، والميزان ، والعقرب ، والقـوس ، والجـدي ، والدلو ، والحوت ، وقد رَبَط قوم بين هـذه البروج وكواكبهـا وحظوظ تكون لهـا وللمواليد الذين يصادف ميلادهم ظهور كواكب برج من البروج وهو أمر ليس من العلم في شيء ويُطْلَق على المتعاملين بـه (المنجّمون) وقـد طـال الحـديث عنـه في القصص الشعبية والحكايات الأسطوريـة (ألف ليلـة وليلـة) ودرج على الألسنـة كلام عن برج السعد وبرج النحس للتميز بين السعـادة وحل المشكلات ، والنكـد والبؤس وضنـك العيش . [من المصـادر القـديـمـة : مفـاتيـح العلـوم للخـوارزمي الكاتب ص ١٢٠ ، ١٣٣] .

٩ المنصور ٤١

☆ « تلد الصباحَ أنابه (المنصور) في رأس الكتيبة »

☆☆ « هو أبو جعفر عبد الله بن محمد بن علي بن عبـد الله بن العبـاس . أخو السفاح بويع بالخلافة (العباسية) بعد وفـاة أخيـه ١٣٦ هـ ، وقـد ولـد سنـة ٩٥ بأرض الشام وتوفي ١٥٨ وهو في طريقـه إلى الحج . وأرسى المنصور دعـائم الـدولـة العبـاسيـة وكان المؤسس الحقيقي لهـا وإنْ يكن الخليفـة الثـاني وكان رجـلاً عرف بالصرامة والحنكة والذكاء ، وتغلب على مكائد ودسائس من أبرزها ما كان من أمر أبي مسلم الخراساني[1] .

١٠ ذوو الذقون البيض ٤١

☆ « الطفل يفجؤني بأسئلة محيّرة عميقة

---

(١) مختصر التـاريخ للكازروني ١١٤ ، والطبري ٤٧٩/٧ ، وانظر تـاريخ الإسـلام السيـاسي والـديني والثقافي والاجتماعي ٨٥/٢ـ ٩٠ ، د. حسن إبراهيم حسن .

وذوو الذقون البيض يزدحمون في الغرف العتيقة
ويفتشون عن الطريقة »

☆☆ يتنـاول الرمز مجموعة متميّزة من الصوفية لها تقاليد ورسوم خاصة [معجم مصطلحات الصوفية ص ٢٦٤] ، ويحاول أن يضيء بحث الإنسان عن الأسرار والتطلع إلى الحقيقة ، فهؤلاء يسعون إلى بلوغ (**طريقة**) فيها حلّ ما يعانون منه ولكنهم لا يزالون في دأبهم ، وهو يجد الإشكال في أسئلة محيّرة يضعها بين يديه هذا الولد الصغير . وقد يكون التلاقي السياقي مضيئاً وظيفة الرمز . فالفطرة تومئ إلى الأسرار ، والصوفيّ يرنو إلى كشفها .

١١ جامٌ وإبريق وصومعة ٤٤

☆☆ هذه الألفاظ الثلاثة تعبّر عن أجواء الصوفيّة ، وما يحيط بهؤلاء الذي استعاروا آلات الخمرة لتغدو رمزاً للعشق الإلهي والشاعر يورد هذه الرموز في سياق يحمل عنوان (رحلة) وهي تجوال في عالم الرؤى والتأمّلات .

١٢ مجْمر غريب ٤٦

نحـو قصر من الرمـالْ — وقـلاع من الـزبـدْ
بينهـا يرقـد الحبيبْ — في سرير من الـدخـان
فـوق مجمر غريب — وظـلالٌ من القيـان »

☆☆ « المِجْمر : ما يوضع فيه الجَمْر مع البَخور ، وهو العُوْدُ يتبخر به ج مجامر » [الوسيط] والشاعر حمل هذا الرمز من الحكايات الشعبية ، ومن الأجواء الخيالية التي يتردد صداها حتى أيّامنا هذه في تحضير البخور ودخانها ومن ثمّ ترتبط بقدرات على إحضار الغرائب وغير المألوف .

١٣ الوَجْد ٤٨

☆ « ومشينا مرّة في الليل ، والوجدُ طلاسِمْ
فنشقنا ثوره العطرِ ، وقبّلْنا الكمائِمْ »
« أترى رِحْتَ أم الوجدُ الذي ضاعَ بعيني »

☆☆ يقول السيد الشريف الجرجاني « الوجد ما يصادف القلبَ ويرد عليه بلا تكلّف وتصنع ، وقيل هو بروق تلمع ثم تخمد سريعاً » [التعريفات] .

وفي معجم الصوفية « الوَجْد : خشوع الروح عند مطالعة سرّ الحقّ وعجز الخلق من احتمال غلبة الشوق عند وجود حلاوة الذكر » [معجم مصطلحات الصوفية ص ٢٦٤] فالرمز عند صلاح عبد الصبور صوفيٌّ وسياق القصيدة يتناسب وهذا الارتباط .

١٤ الحَيْرة ٤٨

☆ « ثمَّ أصبحت إلهي تمنعُ الخطوَةَ عنّي
وأناديك فأعيا ، ويسدُّ الصمتُ أذني
وأناجيك على الحيرةِ في ظِلّ التمنّي »

☆☆ الحيرة : الرمزية هنا صوفية تعني « البديهة التي ترد على قلوب العارفين عند تأمّلهم ، وحضورهم ، وتفكّرهم تحجبهم عن التأمّل والفكرة » [معجم الصوفية ص ٨٤] .

١٥ الأطلال ٥٠ ، ٥١ ، ٥٢ ، ٥٣

☆ « أطلالٌ ... أطلالٌ
يمشي بها النسيانْ

في كفِّهِ أكفانْ »
...أطلالٌ .. أطلالٌ
هذه هي الأطلال
نهاية الآمالْ
أسعى وراء الشمسْ
والشمس في ظهري ... »

☆☆ يستحضر الشاعر هذا الرمز الأدبي العربي ، ويريد أن يدل به على الدمار الذي أحاط بالعالم من حوله فالخرائب تملؤه ، ولا يرى ظلاً للحياة أو الأمل . فكأنما وضع نهاية للدنيا إذ حلّ بها الموت حتى بلغ الطيور والأزهار . وقد وسّع الشاعر دلالة (الأطلال) بعد أن كانت لدى شعراء العربية منذ الجاهلية دالة على رحيل الأحبة مثيرة لأيّام الصفاء القديمة ، ولكنها تظل جزءاً من عالم الشعراء ولئن خلت الديار لقد نرى هنا أو هناك في قصائد لهم الظباء والعين وخضرة تغطي الكثبان الندية ، فالمستقبل لا يموت لأن الذكرى جزء من الألق الذي يبحث عنه الإنسان ـ الشاعر . فالرمز كما نرى عند عبد الصبور أخذ بعداً تشاؤمياً واتسعت مساحته لتغطي الآفاق جميعها . وتبدو النظرة متأثّرة بالروح الرومانسية وإن تكن المعاناة المعاصرة بكل تعقيدها وراء ذلك .

١٦ الجنّ ٥١

« أطلالٌ ... أطلالٌ
والجنّ فيها سودْ
لهم فحيح السودْ
يثبون في الأسحار »

☆☆ يرجع هذا الرمز (الجنّ) إلى ثقافة الشاعر الدينية ، والنتاج الأدبي

العربي القديم حافلٌ بذكر (الجنّ ، والجِنَّة) ، وكان قد ربط كـذلـك بعبقر حيث يقيم جنٌّ ممن يبثون الشعر في عوالم الشعراء .

لكننا نجد الشاعر عبد الصبور قد اختار زاوية محددة للجنّ ، فأخذ الجـانب الشرير [مع أنّ الجنّ منهم الأخيار ومنهم الأشرار : الكليـات للكفوي ١٧٠/٣] ، وههنا نذكر الآيات الكريمة التي ربطت الجنّ الأشرار بالنـار ، وإن تكن الصيغـة الصرفية بلفظ (الجانّ) ، ففي سورة الحِجْر ﴿ وَالْجَـانَّ خَلَقْنَـاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَـارِ السَّمُومِ ﴾ [الحجر ١٥ /٢٧] ويقـول الـزمخشري في الكشـاف : الجـانّ للجنّ كآدم للنـاس ، وقيـل هـو إبليس . [الكشـاف (٢ / ٣٩٠] ، وتحمـل كلمـة : جـانٌّ الدلالة على الأفعى كما وردت في سورة النمل ﴿ وأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَـا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِراً وَلَمْ يُعَقِّبْ ﴾ [النمل ٢٧ / ١٠] .

وجـاء في تفسير الشـوكاني (٤ / ١٢٣) : « قـال الـزجـاج : صـارت العصـا تتحرك كما يتحرك الجانّ ، وإنما شبهها بالجان في خفة حركتها ، وشبهها في موضع آخر بالثعبان لعظمها ، وجمع الجان جنان وهي الحيّة الخفيفة الصغيرة الجسم » .

وعبد الصبور لا يسلك في هذا السياق مسلك الشعراء القدماء في إعطاء إيحاء المبالغة فحسب عند استخدام رمز (الجن) ، كما فعل من قبل النابغة الـذبيـاني في قوله :

سهكين من صـدأ الحـديـد كأنَّهم   تحت السنـوَّر جِنّـةُ البقّـار[١]

أوكقول أبي الجويرية العبدي :

إنسٌ إذا أمنـوا جنّ إذا فـزعـوا   مرزَّؤون بهـا ليـلٌ إذا حشـدوا[٢]

---

(١) السهكة : الرائحة الكريهة للعرق . السنوَّر : الدروع . البقار : اسم موضع

(٢) البهاليل ج بهلول وهو السيد الجامع لصفات الخير ، الجان ٣٢ ـ ٣٣

وكذلك كما قال المقنّع الكندي في مبالغة وصف جمال المرأة وخداعها :

وفي الظعائن والأحداج أحسنُ من حَلٍّ العراقَ وحلَّ الشام واليمنا
جنيّةٌ من نساء الإنس أحسنُ مِنْ شمسِ النهار وبدرِ الليل لو قُرِنا

على هذا فإننا نرى الشاعر عبد الصبور قد حمل من الرمز القديم جانباً يأتلف مع تجربته وسياقه .

١٧ حوريّة

☆ « وقد يحلمون بقَصْرٍ مشيدْ
وباب حديد
وحورية في جوار السريرْ
ومائدة فوقها ألف صحن »

☆☆ لو تتبعنا أصل كلمة (حوريّة) لوجدنا أنها دلّت في الأصل على البياض وبروزه سواء في العين فيقرن بسوادها ومنه قول جرير :

إنَّ العيون التي في طرفها حَوَرٌ قتلننا ثمّ لم يحيين قتلانا

أو للدلالة على جمال المرأة المرفهة الناعمة « فالأعراب تسمي نساء الأمصار **حَوَاريّات** لبياضهن ،وتباعدهن عن قشف الأعراب [اللسان مادة ح و ر] لذا فنحن نسمع بالحوراء صفة للعين وللمرأة .

وقد توثقت سمة الجمال الفائق بالبياض عند العرب ، وأُكّد هذا ذكر الحور في حديث الجنّة في القرآن الكريم . ومن ثمّ حفلت القصص بعد ذلك بالحوريات استمداداً من المثل الذي فيه اكتمال الخصائص الجمالية ، وأحاطت المخيّلة الشعبية (الحوريّة) بجوّ أسطوري فتخيلها الناس أمرأة بارعة تخرج من البحر أو الأنهار الكبرى ، وهناك من جعلها بنصف آدمي وآخر على شكل سمكة .

ويعتقد أن هذه الصيغة (حوريّة) مطوّرة عن حواريّة التي ذكرناها وقد يكون للثقافة الأجنبية دور في اتساع استعمالها ذلك أن كلمة (nymph) تشرح في معجم معاصر بأنها الحوريّة وهي إلاهة ثانوية من إلاهات الطبيعة التي كانت الميثولوجيا اليونانية والميثولوجيا الرومانية تمثّلها على صورة عذارى فاتنات يقمن في الأنهار والبحار والجبال والغابات والأشجار والمروج ، ويرافقن بعض الإلاهات الرئيسية في كثير من الأحيان» [موسوعة المورد ، منير البعلبكي (٧ / ١٥٠) ، وينظر : « Dic de lang . Franc , V . 6 , P . 839 , Nymphe »

ومن الشعراء الأوروبيين الذين استخدموا هذا الرمز : ت . س . إليوت في قصيدته (الأرض الخراب) ، وقد مزج فيها الصورة الأسطورية بواقعية العصر الذي نحياه بكل جوانبه الحسيّة وأشيائه الخالية مما يكون في الحلم :

« قد اقتلعت الخيمة ، والأوراق الأخيرة المتشابكة
قد تداعت وسقطت على الشاطئ المبلّل .
ومرّت الرياح في غير جلبة عبر الأرض ذات اللون البني
وحوريات البحر قد هجرن المكان .
ترفّق بنا أيها النهر (التيمز) إلى أن أنتهي من أغنيتي .
لقد خلا البحر من الزجاجات الفارغة ، وأغلفة الأطعمة
والمناديل الحريرية ، والصناديق المصنوعة من الورق المقوّى ، وأعقاب السكائر وغير ذلك من آثار الصيف وأمسياته .
وحوريات البحر قد هجرن المكان » [إليوت ١١٨ د . فائق متى] .

١٨ الغُول ٦٠

☆ « وبالموت حين يدكّ الحياة
وبالغول في قصره المارد

فأصرخ رعباً ..
وتهتف أمي باسم النبي »

☆☆ يأتلف رمز (الغول) من اجتماع الآثار الأدبية واستفادتها من صورة الغول في مخيّلة الشعراء والكتاب القدماء ، والآثار الأسطورية في الحكايات الشعبية .

يقول الكفوي في الكليات الغولُ : كل مااغتال الإنسان فأهلكه فهو غول والعرب تسمّي كل داهية غولاً على التهويل والتعظيم ، كالعنقاء . وقال بعضهم الغول نوع من الجن كان يغتال الناس بغتة بحيث لا يعرف له مكان حتى يُطْلب [الكليات ٣ / ٢٩٥] .

ويقول في الجمان « والشياطينْ ، غيلان الجنّ ،والغول اسم للذكر والإنثى والغول في كلامهم : الداهية ، وكذلك الحرب على التشبيه .. وقد ذكرت العرب في أشعارها ماتعانيه في مجهول الأرضين من تلوّن الغيلان ، وتسمعه من أصوات عزيف الجِنّان في التعرض للمسالك قال عبيد بن أيوب العنبري .

لله دَرُّ الغـولِ أيُّ رفيقـةٍ ... لصاحب قفرٍ خائفٍ يتسترُ
أرنّت بلحن بعد لحن وأوقدت ... حوالي نيراناً تبوح وتزهَرُ

[الجمان ٢٨ ـ ٢٩]

١٩ السندباد ٦٠

☆ « وفي الليل كنت أنام على حجر أمّي
وأحلم في غفوتي بالبَشَر
وعسفِ القدر
وبالموت حين يدكُ الحياة

وبالسندباد وبالعاصفة
وبالغول في قصرهِ الماردِ
فأصرخ رعباً ...
وتهتف أمي باسم النبي » ٥٩ ـ ٦٠

☆☆ تروي ألف ليلة وليلة حكاية السندباد الذي يمثّل رجلاً يركب المخاطر وتحاصره الأهوال في أسفاره التي تعلّق بها ثم تنفرج كُربُه فيعود ـ بعد هدأة في قصره والنعم التي يرفل بها ـ إلى رحلاته البالغة سبعاً .

إن شخصية السندباد تمثل ذلك الجزء الكامن في أعماق الإنسان الباحث عن الاستمرار في التقدم في سبل الحياة ، فإنها كالماء إن سكن ركَدَ ، فلئن بدأ السندباد رحلته الأولى بحثاً عن الرزق ليحيا لقد سافر في تجواله بين البحار وعواصفها سعياً وراء كمال يندفع إليه بنداء من داخله .

وقد اقترنت هذه الشخصية الرمزية في الأذهان بالمغامرة والعجائب والخطر ، لا ينجو منه الإنسان إلا بما يقارب المستحيل .

رَوَتْ شهرزاد قصص (السندباد) بداية من الليلة السابعة والثلاثين بعد الخمس مئة إلى الليلة السادسة والستين بعد الخمس مئة ، واستمر تجواله في رحلاته السبع سبعاً وعشرين سنة [ألف ليلة وليلة ط . بولاق ٢ / ٢ ـ ٣٧] وأرى أن نتابع شطراً من تلك الليالي التي تصوّر الرمز (السندباد) ففي الليلة السادسة والخمسين بعد الخمس مئة تقول شهرزاد :

بلغني أيها الملك السعيد أن السندباد البحري ابتدأ بالكلام فيما جرى له وما وقع له في الحكاية الخامسة فقال : اعلموا ياإخوتي أني لما رجعت من السفرة الرابعة وقد غرقت في اللهو والطرب والانشراح وقد نسيت جميع ما كنت لقيته وما جرى لي وما قاسيته من شدّة فرحي بالمكسب والربح والفوائد ، فحدثتني نفسي

بالسفر والتفرج في بلاد النـاس وفي الجزائر ؛ فقمت وهممت في ذلـك ، واشتريت بضاعة نفيسة تناسب البحر ، وحزمت الحمول وسرت من مـدينـة بغـداد وتوجهت إلى مدينـة البصرة ، ومشيت على جـانب السـاحل ، فرأيت مركبـاً كبيرة عـاليـة مليحة ، فأعجبتني فاشتريتها وكانت عدّتها جديدة واكتريت لها ريساً وبحريـة ، ونظرت عليها عبيدي وغلماني وأنزلت فيهـا حمولي ، وجـاءني جمـاعـة من التجـار فنزلوا حمولهم فيها ودفعوا إلي الأجرة ، وسرنا ونحن في غـايـة الفرح والسرور وقـد استبشرنا بالسلامـة والكسب ، ولم نزل مسـافرين من جزيرة إلى جزيرة ومن بحر إلى بحر ونحن نتفرج في الجزائر والبلدان ونطلع إليهـا نبيع فيهـا ونشتري ، ولم نزل على هذه الحالة إلى أن وصلنا يوماً من الأيام إلى جزيرة كبيرة خاليـة من السكان وليس فيهـا أحـد ، وهي خراب قفراء وفيهـا قبـة عظيمـة بيضـاء كبيرة الحجم ، فطلعنا نتفرج عليها وإذا هي بيضة رخ كبيرة ، فلما طلع التجـار إليهـا وتفرجوا عليها ولم يعلموا أنها بيضة رخ ضربوها بـالحجـارة ، فكسرت ونزل منهـا مـاء كثير وقد بان منها فرخ الرخ فسحبوه منهـا وطلعوه من تلـك البيضـة وذبحوه وأخـذوا منه لحماً كثيراً ، وأنا في المركب ولم أعلم ولم يطلعوني على مافعلوه ، فعند ذلك قال لي واحد من الركاب ياسيدي قم تفرج على هذه البيضة التي نحسبهـا قبـة ، فقمت لأتفرج عليها فوجدت التجار يضربون البيضة فصحت عليهم لاتفعلوا هـذا الفعل فيطلع طير الرخ ويكسر مركبنا ويهلكنا ، فلم يسمعوا كلامي . فبينما هم على هذه الحالة وإذا بالشمس قد غابت عنا والنهار أظلم وصار فوقنا غمامة أظلم الجو منهـا ، فرفعنا رؤوسنا ننظر ماالذي حال بيننـا وبين الشمس ، فرأينـا أجنحـة الرخ هي التي حجبت عنـا ضوء الشمس حتى أظلم الجو وذلـك لـما جـاء الرخ ورأى البيضة انكسرت صاح علينا فجاءت رفيقته وصـارا حـائمين على المركب يصرخـان علينـا بصـوت أشـد من الرعـد ، فصحت أنـا على الريس والبحريـة وقلت لهم ادفعـوا المركب واطلبوا السلامة قبل ماتهلك ، فأسرع الريس وطلع التجار وحل المركب وسرنا في تلك الجزيرة ، فلما رآنا الرخ سرنا في البحر غاب عنا ساعـة من الزمـان

وقد سرنا وأسرعنا في السير بالمركب نريد الخلاص منهما والخروج من أرضهما ، وإذا بهما قد تبعانا وأقبلا علينا وفي رجلي كل واحد منهما صخرة عظيمة من الجبل ، فألقى الصخرة التي كانت معه علينا ،فجذب الريس المركب وقد أخطأها نزول الصخرة بشيء قليل ، فنزلت في البحر تحت المركب ، فقامت بنا المركب وقعدت من عظم وقوعها في البحر ، وقد رأينا قرار البحر من شدّة عزمها ، ثم إن رفيقة الرخ ألقت علينا الصخرة التي معها وهي أصغر من الأولى ، فنزلت بالأمر المقدّر على مؤخر المركب فكسرته وطيرت الدفة عشرين قطعة ،وقد غرق جميع ما كان في المركب في البحر ، فصرت أحاول النجاة لحلاوة الروح ، فقدر الله تعالى لي لوحاً من ألواح المركب فشبطت فيه وركبته وصرت أقدف عليه برجلي والريح والموج يساعداني على السير ، وكانت المركب غرقت بالقرب من جزيرة في وسط البحر ، فرمتني المقادير بإذن الله تعالى إلى تلك الجزيرة ، فطلعت عليها وأنا على آخر نفس ، وفي حالة الموتى من شدة ما قاسيته من التعب والمشقة والجوع والعطش ،ثم إني انطرحت على شاطئ البحر ساعة من الزمان حتى ارتاحت نفسي واطمأن قلبي ، ثم مشيت في تلك الجزيرة فرأيتها كأنها روضة من رياض الجنة أشجارها يانعة وأنهارها دافقة وطيورها مغردة تسبّح من له العزة والبقاء ، وفي تلك الجزيرة شيء كثير من الأشجار والفواكه وأنواع الأزهار ، فعند ذلك أكلت من الفواكه حتى شبعت ، وشربت من تلك الأنهار حتى رويت ، وحمدت الله تعالى على ذلك وأثنيت عليه . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

٢٠ سَبْعٌ ٦٤

☆ « بيننا يا جارتي سبع صحارَى
وأنا لم أبرح القرية مذ كنت صبياً »

☆☆ يحمل العدد سبعة إيحاءات ودلالات دينيّة وتاريخية وفنية ، ويحيط

بالحياة الاجتماعية فأيّام الأسبوع سبعة ، والقرآن الكريم ذكر هذا العدد في مواضع عدة منها قوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا في الأرْضِ جَميعاً ، ثُمَّ اسْتَوَى إلى السَّماءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة ٢/٢٩] ، ومنها قوله تعالى : ﴿ مَثَلُ الذينَ يُنْفِقُون أَمْوالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِئَةُ حَبَّةٍ وَاللهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة ٢/٢٦١] .

ويتردد هذا العدد في جوانب فنية عدّةٍ ، منها رحلات السندباد السبع .

☆☆ يستفيد الشاعر من إيقاع هذا العدد وصداه في النفوس ، وقد حَفِل بصور كثيرة يجتمع لها القداسة ، والإحساس بخيوطها تنسج مع النور يتسع لعديد مما حولنا .

٢١ الملك لك ٥٧ ـ ٦٣

☆ « تموتُ الظلالُ ويحيا الوهج

الملك لك

الملك لك

الملك لك » ٦٢

☆☆ أصل هذا الرمز ديني وهو يتردد في آيات عديدة ، منها قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ لَهُ مُلْكُ السَّمواتِ والأَرْضِ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ ويَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِير ﴾ [المائدة ٥/٤٠] .

ومما يلفت النظر أن شاعراً أجنبياً ذكر عبارة تترجم بـ (الملك لك) في قصيدة أثّرت في عدد من الشعراء العرب المعاصرين ، وهي [الرجال الجوف] لـ : (ت . س . إليوت) ، وقد يكون استخدام هذا الشاعر أيقظ العبارة الأصلية التي عرفها عبد الصبور في أجوائه ، فإليوت يذكر في هذه القصيدة :

« بين الفكرة / والحقيقة / وبين الحركة / والحدث / يسقط الظل / لأن لك الملك / وبين التصور / والخلق / وبين الانفعال / والاستجابة / يسقط الظل / ماأطول هذه الحياة / وبين الرغبة / والنشوة / وبين النفوذ / والوجود / وبين الجوهر / والحلول / يسقط الظل / لأن لك الملك / » . [إليوت ، ١٥٤ ـ ١٥٥ د . فائق متى]

٢٢ المضحك الممراح ٦٥

☆ « جارتي .. لست أميراً
لا ، ولستُ المضحكَ المراحَ في قصر الأميرِ
سأريك العجبَ المعجبَ في شمس النهار
أنا لاأملك ما يملأ كَفَّيَّ طعاما
وبخدّيك من النعمة تفاحٌ وسكر »

☆☆ يمتد ظل هذا الرمز (المضحك المراح) إلى العصر العباسي الذي شهدت قصوره كثيراً من هؤلاء الذين ينثرون مافي جعبتهم من فكاهة وتسلية ليرضى السلطان أو الأمير وحاشيته من حوله ، ولنا في أبي دلامة مثل نورده على هذا الرمز الأدبي عند الشاعر صلاح عبد الصبور :

فأبو دلامة هو زَنْد بن الجون (ت ١٦١ هـ) شاعر عرفته المحافل العباسية واتصل بالخلفاء مادحاً بشعره ، ومطرفاً بدعاباته يروي صاحب الأغاني [(٢٥٨/١٠) دار الكتب] أنه : « دخَلَ على المهدي وعنده إسماعيل بن محمد ، وعيسى بن موسى ، والعباس بن محمد ، ومحمد بن إبراهيم الإمام وجماعة من بني هاشم [وهم وجوه القوم آنئذٍ] فقال له : أنا أعطي اللهَ عهداً لئن لم تهجُ واحداً ممن في البيت لأقطعنّ لسانك ـ ويقال إنه قال : لأضربنّ عنقك ـ فنظر إليه القوم ، فكلّما نظر إلى واحد منهم غمزه بأنّ عليه رضاه . قال أبو دلامة : فعلمتُ أني قد

وقعتُ وأنها عزمة من عزماته لابد منها . فلم أرَ أحداً أحقَّ بالهجاء مني ، ولا أَدْعَى إلى السلامة من هجاء نفسي فقلت :

ألا أبلغ إليك أبا دُلاَمَهْ   فليس من الكرام ولا كرامَهْ
جمعتَ دمامةً وجمعت لؤماً   كذاك اللؤم تتبعه الدمامَهْ
فإن تك قد أصبت نعيم دُنيا   فلا تفرح فقد دنت القيامَهْ

فضحك القوم ولم يبقَ منهم أحد إلا أجازه » .

☆☆ وقد يكون لثقافة الشاعر عبد الصبور أثرٌ في جلب خيال مضحك شكسبير الذي يوزّع الابتسامة المرّة لأنها تخفي الحقائق وراء ظاهر السخرية أو المرح كما يظهر في مواقف من (هاملت) و (الملك لير) مثلاً ، ففي مشهد من الملك لير نختار هذا المقطع ويسمي المترجم شخصية المضحك بـ (بُهْلول)[1] :

بُهْلُول : لو كان مخُّ الإنسان في كعبه ألم يكن مهدّداً بالتورم والتشقق ؟

لير (الملك) : صحيح ياغلام .

بهلول : فلتفرح إذن ، لأنك لن يحتاج مُخُّك إلى لبس خفّ أبداً !

لير : ها . ها . ها ..

بهلول : سترى أن ابنتك الأخرى ستحسن معاملتك . فهي وإن كانت تشبه هذه ـ الابنة الأولى ـ كما تشبه التفاحة أختها إلا أني أرى ماأرى .

لير : وماذا ترى ياغلام ؟

بهلول : سيكون مذاقها كمذاق هذه تماماً مثلما يتشابه طعم التفاحتين .

---

(١) تشير المعاجم العربية إلى دلالتين لكلمة بهلول : الأولى : العزيز الجامع لكل خير ، والأخرى الضحّاك [اللسان ، ب هـ ل] .

أتستطيع أن تقول لي لِمَ كان أنف المرء وسط وجهه ؟!

لير : لا .

بهلول : أنا أقول لك : لكي تكون له عين على كل ناحية من الأنف فما يعجز عن شمّه يستطيع أن يراه .

لير : لقد ظلمتها .

بهلول : أتعرف كيف يصنع المحار صدفَةً ؟

لير : لا .

بهلول : ولا أنا ! ولكني أعرف لماذا كان للحلزون قوقعة .

لير : لماذا ؟

بهلول : ليضع رأسه فيها لا ليعطيها لبناته ويبقى بلا غطاء ! » .

[الملك لير ٨٣ ـ ٨٥]

٥ ـ الرمز الخاص

☆ الليل ، الدجى ، ليلة ، العتمة

☆ ص / ٣٤ ، ٤٠ ، ٤٠ ، ٤٠ ، ٤١ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٨ ، ٤٨ ، ٤٨ ، ٥٢ ، ٥٤ ، ٥٦ ، ٥٧ ، ٥٧ ، ٥٩ ، ٦٠ ، ٦٣ ، ٦٥ ، ٦٦ ، ٦٦ .

عدد المرات : ٢١

☆☆ نستطيع أن نرصد ثلاثة اتجاهات أساسيّة لاستعمال الشاعر (الليل) رمزاً في قصائده :

(١) صورة الليل الذي يحمل الراحة من عناء النهار وما يشتجر من مشكلات وعناء فيه .

« ياليل ياراحي ومصباحي وأفراحي وكنّي » ٤٠

« ياوحدتي ! الليلُ راح لابد من خوض الصباح » ٤٠

« وشهدنا في انتصاف الليل ميلاد النسائمْ » ٤٨

(٢) صورة الليل برهبته وخوف يلفّ الناس بظلمته :

« أطلال ... أطلال
لاشيءَ غير الويلْ
وغير قلب الليلْ
وموكب الإعصارْ » ٥٢

« ذات مساء مظلم كأنَّه سردابُ
أطلَّ من كُوى الجدار وجهةُ المرتابُ » ٥٤

(٣) صورة الليـل التي لا تعطي دلالـة مبـاشرة إلا أنها تكتسب من سيـاقها وموقعيّتها اللون النفسي :

« وفي الليل كنتُ أنام على حجر أمّي
وأحلمَ في غفوتي بالبشَر » ٥٩

« وفي ليلة عادَ من حقله
وقد قطّبَتْ وجهَه علّته
ومات ! » ٦٠

☆ المســـــاء

☆ ص / ٣٤ ، ٣٧ ، ٣٧ ، ٣٧ ، ٤٠ ، ٤١ ، ٤٥ ، ٥٤ ، ٥٦ ، ٥٧ ، ٦١ ، ٦١ ، ٦٣ ، ٦٥ . (عدد المرّات ١٥) .

☆☆ يضاف هذا الرمز إلى (الليل) ، وما دار في فلكه

(١) ونستعرض بعضاً من المواقف للمساء الذي يبعث البهجة والسعادة :
« أواحدتي ... المساء السعيد
وطيفك يبهجني بالحياة » ٦١

« أواحدتي ، قبلما نلتقي
بذاك المساء السعيد البعيدْ » ٥٧

(٢) ومن المساء الذي يكتسب دلالته مما حوله في السياق :

« وأتى المساء / في غرفتي دَلَف المساء » ٣٧

☆ **الحزن ، الكئيب ، ماابتسمت ، العذاب**

☆ ص / ٣٣ ، ٣٦ ، ٣٦ ، ٣٧ ، ٣٧ ، ٣٧ ، ٣٧ ، ٣٧ ، ٣٨ ، ٣٨ ، ٣٨ ، ٣٨ ، ٣٩ ، ٣٩ ، ٣٩ ، ٤١ ، ٦٤ (عدد المرات ١٧) .

☆☆ يمور شعر عبد الصبور بالحزن وإن يكن رصدنا لمجموعة قليلة من شعره ـ ههنا ـ

وتبدو لنا مؤشرات في شعره إلى وجهات يقصد إليها هذا الرمز منها :

(١) الحزن المقترن بالفكر والجديّة في تأمل الحياة من حول الإنسان المعاصر :

« متعذبين كآلهة
بالكتْب والأفكارِ والدُخّانِ والزَمَنِ المقيت » ٣٤

(٢) الحزن الذي يصدر عن معاناة الذات وتجربتها :

« ياصاحبي إني حزين
طلع الصباح ، فما ابتسمتُ ، ولم يُنِر وجهي الصباح
وخرجتُ من جوف المدينة أطلب الرزق المتاح » ٣٦

(٣) الحزن الذي تعطيه المدينة الحديثة :

« حزنٌ تمدَّدَ في المدينهْ
كاللص في جوف السكينه
كالأفعوان بلا فحيح » ٣٧

☆☆☆ وهناك صور أخرى للحزن عند الشاعر (خوفاً من الموت ص ٦٠) أو (نتيجة طغيان الحضارة المعاصرة ومظاهرها المادية ص ٣٨) .

☆ **الموت ، قبر**

☆ ص / ٣٣ ، ٣٣ ، ٣٤ ، ٣٥ ، ٣٥ ، ٣٧ ، ٤١ ، ٤١ ، ٤٣ ، ٥٤ ، ٥٦ ، ٥٦ ، ٥٦ ، ٦٠ ، ٦٠ ، ٦١ ، ٦٢ . (عدد المرّات ١٧) .

☆☆ (١) يشير عبد الصبور إلى الموت على أنه الحقيقة التي يقف أمامها الإنسان مدركاً لإنسانيته الفانية :

« وكانت خطاهُ خطى العنفوانْ
وفي عينيه ومضة الكبرياء
وفي ليلة عاد من حقله
وقد قطّبت وجهه علّته
ومات » ٦٠

(٢) ثم نجد إشارة إلى الموت الذي يعطي الحياة للآخرين وهو عطاء الشهيد :

« وماتَ ياسيدتي الحسناءَ ميتةَ الشهيدْ » ٥٦

(٣) وهناك ذكر للموت مرتبطاً بالظلم الذي يصبّه الإنسان على أخيه الإنسان :

« ويظلُّ يَسْعُلُ . والحياةُ تموتُ في عينيه ، إنسانٌ يموت
... لكَ ، ولي ، لمنْ واسوه في درب الزحامْ
ألقى السـلام » ٣٣

(٤) وثمة استعمال للرمز للدلالة على الصحوة التي يخلّفها :

« ومن موته انبثقت صحوتي
وأدركت يافتنتي أننا
كبارٌ على الأرض ، لا تحتها ، كهذا الرجل » ٦١

☆ **السأم ، سأمان :**

☆ ص / ٤٠ ، ٤٢ ، ٤٤ ، ٤٨ ، (عدد المرات ٤) .

☆☆ يعطي هذا الرمز إطاراً عصرياً لتجارب الشاعر وهموم الإنسان الذي يراه في هذه الحياة وعلاقاتها ، من ذلك قوله :

« ويا فتنتي ، سأمي رحلتي وغربتنا المرفأ المنتظرُ » ٤٢

☆ **النور ، الفجر ، الصبح ، الصباح**

☆ ٣٤ ، ٣٦ ، ٣٩ ، ٣٩ ، ٣٩ ، ٤٠ ، ٤٠ ، ٤٠ ، ٤١ ، ٤١ ، ٤١ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ٤٤ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٨ ، ٥١ ، ٥٤ ، ٥٨ ، ٦٠ ، ٦٣ ، ٦٦ ، ٦٦ ، (عدد المرّات ٢٤) .

☆☆ (١) يغلب على هذه الرموز التشاؤم أو الخوف والحذر من النور الذي يكشف ما كان مخفيّاً في إهاب الليل ، فمع بزوغ الفجر تبدأ رحلة الإنسان في عالمه العجيب :

« طلع الصباحَ ، فما ابتسمتُ ، ولم ينر وجهي الصباح » ٣٦

« لا بدّ من خوضِ الصباح إلى الجراحِ ، إلى النواح

ماذا بوسع النازلينَ إلى الصباحِ ، بلا سلاح

يا وحدتي الليل راح » ٤١ .

(٢) وهناك بصيص من التفاؤل في بعض المواقف : « والنور والسعداء من حولي ، وقافلة البيوت » ٣٤

☆ **الجدار**

☆ ص / ٣٣ ، ٣٤ ، ٥٤ ، ٥٥ ، ٥٦ . (عدد المرّات ٥)

☆☆ إن المدينة الحديثة تهين على الإنسان المعاصر وتحاصره جدرانها ، فهذا

الرمز معبّر عن إحساس مميّز بقهر المدينة وضآلة هذا الكائن الاجتماعي فيها :

« إني انهزمتُ ، ولم أُصِبْ من وسعها إلاّ الجدار
...وهناك في ظل الجدار يظلُ إنسانٌ يموتْ » ٣٣ ـ ٣٤ .

☆ الصديق ، عصبة ، رفاقي ، صاحبي

☆ ص / ٣٤ ، ٣٦ ، ٣٦ ، ٣٧ ، ٣٨ ، ٣٩ ، ٣٩ ، ٤٣ ، ٥٨ ، ٥٨ ، ٦٦ (عـــدد المرّات ١١) .

☆☆ (١) يظهر الصديق عند عبد الصبور ضمن جماعة أتعبت فكرها بحثـاً عن المستقبل الأفضل ،وحملت هموم العالم الذي تحيا بين ظهرانيه :

... وعلى كاهلهم عبءٌ كبيرٌ وفريد
عبءُ أن يولد في العتمةِ مصباحٌ وحيد .. » ٦٦

(٢) وقد يكون الصديق مشاركاً في البؤس والأحلام »

« حنيني غريب ... / إلى صحبتي / إلى أخوتي
إلى حفنةِ الأشقياء الظهورِ ينامونَ ظهراً على المصطبة وقد يحلمونَ بقصر مشيد وبابٍ حديد » ٥٨

☆☆ وهناك ظلالٌ أخرى تضم الأصدقاء كلٌّ له قامة تميزه .

☆ فتنتي

ص / ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٣ ، ٥٧ ، ٦١ ، ٦٣ ، ٦٣ ، ٦٥ (عدد المرّات ٨)

☆☆ ينشر هذا الرمز ضوءه لينير الجانب الآخر من الإنسان في اكتماله النفسي أي أنـه يُظْهر المرأة إلى جـانب الرجـل في حركتـه وسعيـه في دروب الحيـــاة ، أو يلمحها في طرف بعيد لاختلاف وجهـة النظر بينهما فهي تراه قريبـاً ، وهو يحسّ بفوارق تبعدها عن طريقه الذي اشتقّه .

ولا تُشْغَلي إننـــــا ذاهبـــــانِ إلى قريـــة لم يطـــأهـــا البَشَرْ
ويـــــافتنتي ســـــأمي رحلتي وغربتنـــا المرفـــأ المنتظر »

٤٢ ـ ٤٣

☆ **الولادة**

٣٧ ، ٣٨ ، ٤٧ ، ٤١ ، ٤١ ، ٦٦ ، ٦٦ (عدد المرّات ٧)

☆☆ يستخدم هذا الرمز لرسم حالة جديـدة ، وليكون جزءاً في صورة فنيـة لموقف من المواقف :

« الكأس في كفّي نجيبهْ تلد الخرافات العجيبة
تلد المساء غوانينا يغفين في الحلل القشيبه
تلد الصباحَ أنا به (المنصور) في رأس الكتيبة » ٤١

وهناك رموز يشترك فيها عبد الصبور مع الشعراء المحدثين منها :

☆ الانكسار (٣٣ ، ٣٣ ، ٥٥ ، ٥٥ ، ٤٦ ، ٥٤) .

☆ المدينة (٣٦ ، ٣٧ ، ٥٤) .

☆ الزحام (٤٠ ، ٤٣) .

☆ الصليب (٤١ ، ٤١) .

☆ مرفئي (٤٢ ، ٤٦) .

☆ غرفتي (٣٧ ، ٤٠ ، ٥٤ ، ٦٣) ،

☆ نجمة (٣٣ ، ٤٤) .

المصادر العربية

الآمدي (أبو القاسم الحسن بن بشر)

الموازنة بي شعر أبي تمام والبحتري ، تحقيق السيد أحمد صقر .

دار المعارف بمصر ، القاهرة ١٩٦٥ م .

ابن الأنباري (أبو بكر محمد بن القاسم)

شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات ، تحقيق عبد السلام هارون ، دار المعارف بمصر ، القاهرة ١٩٦٩ م .

ابن جني (أبو الفتح عثمان)

تفسير أرجوزة أبي نواس في تقريظ الفضل بين الربيع ، تحقيق محمد بهجة الأثري ، مجمع اللغة العربية بدمشق ١٣٨٦ هـ / ١٩٦٦ م .

التمام في تفسير أشعار هذيل (مما أغفله أبو سعيد السكري) ، تحقيق : أحمد ناجي القيسي ، خديجة الحديثي ، أحمد مطلوب ، مطبعة العاني ، بغداد ١٣٨١ هـ / ١٩٦٢ م .

الخصائص (ثلاثة أجراء) تحقيق محمد علي النجار ، دار الكتب المصرية ، القاهرة ١٩٥٢ - ١٩٥٧ م .

الفتح الوهبي على مشكلات المتنبي ، تحقيق محسن عياض بغداد ، ١٩٧٣ م .

الفسر الكبير (شرح ديوان أبي الطيب المتنبي) تحقيق ، صفاء خلوصي ، (الجزء الأول) بغداد ١٩٧٠ م .

الفسر الصغير (شرح ديوان المتنبي) مخطوط بدار الكتب المصرية (أدب رقم ٢٣) .

ابن خلدون (عبد الرحمن بن خلدون)

المقدمة (لكتابه العبر) ، ط المكتبة الأدبية ، بيروت (١٩٠٠ م) / ط . دار الشعب بالقاهرة .

ابن دريد (محمد بن الحسن أبو بكر)
جمهرة اللغة . ط . دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن ١٣٤٥ هـ .

ابن السكيت (يعقوب بن اسحاق)
إصلاح المنطق ، تحقيق أحمد شاكر ، عبد السلام هارون ، دار المعارف بمصر ، القاهرة ط ٣ ١٩٧٠ م .

ابن سلام (محمد بن سلام الجمحي)
طبقات فحول الشعراء ، تحقيق محمود شاكر ، دار المعارف بمصر ، القاهرة ط ١ .

ابن سينا (أبو علي الحسين بن عبد الله)
الشفاء : (المدخل) تحقيق جورج قنواتي ، محمود الخضيري أحمد فؤاد الأهواني ، وزارة المعارف . القاهرة ١٩٥٢ م .
الشفاء (البرهان) تحقيق عبد الرحمن بدوي ، دار النهضة العربية ، القاهرة ١٩٦٦ م .
الشفاء (الخطابة) تحقيق محمد سليم سالم ، وزارة المعارف القاهرة ١٩٥٤ م .
الشفاء (كتاب الشعر) تحقيق عبد الرحمن بدوي (ضمن مجلد فن الشعر لأرسطو) ، دار النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٥٣ م .
الشفاء (الجدل) تحقيق د . أحمد فؤاد الأهواني . ط . الهيئة المصرية العامة القاهرة ١٩٦٥ م .
الشفاء (العبارة) تحقيق محمود الخضيري ط . الهيئة المصرية العامة ، القاهرة ، ١٣٩٠ هـ ١٩٧٠ م .
النجاة ، ط . محيي الدين الكردي ، القاهرة ١٩٣٨ م .

ابن طباطبا (أبو الحسن محمد بن أحمد)
عيار الشعر ، تحقيق محمد زغلول سلام ، طه الحاجري ، المكتبة التجارية بالقاهرة ١٩٥٦ م .

ابن قتيبة (أبو محمد عبد الله بن مسلم)
الشعر والشعراء ، تحقيق أحمد شاكر ، دار المعارف بمصر ، القاهرة ١٩٦٦ م .
عيون الأخبار ، دار الكتب المصرية ، القاهرة (مصورة ١٩٧٣ م) .

ابن المعتز (عبد الله بن المعتز)
البديع . ط كراتشقوفسكي (مصورة بدمشق د . ت) .
ابن منظور (محمد بن مكرم أبو الفضل جمال الدين)
لسان العرب ، ط . دار صادر بيروت .
ابن ناقيا البغدادي (عبد الله بن محمد بن الحسين)
الجمان في تشبيهات القرآن . تحقيق د . محمد رضوان الداية ود . عدنان زرزور ، ط . وزارة الأوقاف بالكويت ١٣٨٧ هـ ١٩٦٨ م .
ابن النحاس (أبو جعفر أحمد بن محمد)
شرح القصائد التسع المشهورات ، تحقيق أحمد خطاب ، بغداد ١٩٧٣ م .
ابن وهب (إسحاق بن إبراهيم بن سليمان بن وهب الكاتب)
البرهان في وجوه البيان ، تحقيق أحمد مطلوب ، خديجة الحديثي بغداد ١٩٦٧ م .
أحمد بن فارس ـ الصاحبي في فقه اللغة ، تحقيق مصطفى الشويمي ، مؤسسة بدران للطباعة والنشر ، بيروت ١٩٦٤ م .
متخير الألفاظ ، تحقيق هلال ناجي ، مطبعة المعارف ، بغداد ١٩٧٠ م .
مقاييس اللغة ، تحقيق عبد السلام هارون ، دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة ١٣٦٦ ـ ١٣٧١ هـ (ستة أجزاء) .
أرسطو
الخطابة (الترجمة العربية القديمة) تحقيق عبد الرحمن بدوي ، دار النهضة العربية ، القاهرة ١٩٥٩ م .
فن الشعر : ١ ـ ترجمة عبد الرحمن بدوي ، دار النهضة المصرية القاهرة ١٩٥٣ م .
٢ ـ ترجمة شكري عياد ، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر القاهرة ١٩٦٧ م .
الأزهري (أبو منصور محمد بن أحمد الهروي)
تهذيب اللغة : الجزء الثالث ، تحقيق عبد الحليم النجار ، الجزء العاشر تحقيق علي حسن الهلالي ، الجزء الرابع عشر تحقيق يعقوب عبد النبي ، الدار المصرية العامة للتأليف والترجمة ، القاهرة ١٩٦٤ م .
الأصفهاني (أبو القاسم عبد الله بن عبد الرحمن)

الواضح في مشكلات المتنبي ، تحقيق محمد الطاهر بن عاشور ، الدار التونسية ، تونس ، ١٩٦٨ م .

الباقلاني (أبو بكر محمد بن الطيب)

إعجاز القرآن ، تحقيق السيد أحمد صقر ، دار المعارف بمصر ، القاهرة ١٩٧١ م .

البغدادي (عبد القادر بن عمر البغدادي)

خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب ، تحقيق عبد السلام هارون ، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر ، القاهرة ١٣٨٧ هـ - ١٩٦٧ م .

الثعالبي (أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل)

فقه الله وسر العربية ، تحقيق مصطفى السقا ، إبراهيم الأبياري عبد الحفيظ شلبي ، مصطفى البابي الحلبي ، القاهرة ١٩٧٤ م .

ثعلب (أبو العباس أحمد بن يحيى)

قواعد الشعر ، تحقيق محمد عبد المنعم خفاجي ، مصطفى البابي الحلبي ، القاهرة ١٩٤٨ م .

الجاحظ (عمرو بن بحر)

البيان والتبيين ، تحقيق عبد السلام هارون ، مكتبة الخانجي القاهرة ط ٣ / ١٩٦٨ م .

الجرجاني (السيد الشريف) ، التعريفات ط . مصطفى البابي الحلبي القاهرة ١٣٥٧ هـ - ١٩٣٨ م .

الجرجاني (علي بن عبد العزيز)

الوساطة بين المتنبي وخصومه ، تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم ، علي البجاوي ، مكتبة عيسى البابي الحلبي القاهرة ١٩٦٧ م .

الجوهري (أبو نصر إسماعيل بن حماد)

الصحاح ، تحقيق أحمد عبد الغفور العطار (ستة أجراء) القاهرة ١٩٥٦ م .

الحاتمي (أبو علي محمد بن الحسن)

للرسالة الموضحة ، تحقيق محمد يوسف نجم ، دار صادر - دار بيروت ، لبنان بيروت ١٩٦٥ م .

الرسالة الحاتمية ضمن مجلد : الإبانة عن سرقات المتنبي للعميدي ، تحقيق إبراهيم الدسوقي البساطي ، دار المعارف بمصر ، القاهرة ١٩٦٩ م .

الحريري (القاسم بن علي)

درّة الغواص في أوهام الخواص ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار نهضة مصر ، القاهرة ١٩٧٥ م .

الخطابي (أحمد بن محمد بن إبراهيم)

بيان إعجاز القرآن (ضمن مجلد ثلاث رسائل في إعجاز القرآن) ، تحقيق محمد خلف الله أحمد ، محمد زغلول سلام : دار المعارف بمصر ط ٣ ، ١٩٧٦ م .

الخوارزمي (محمد بن أحمد بن يوسف)

مفاتيح العلوم ، ط . إدارة الطباعة المنيرية ، القاهرة ١٣٤٢ هـ .

الرازي (أحمد بن حمدان أبو حاتم)

الزينة ، تحقيق حسين فيض الله الهمداني ، دار الكتاب العربي ، القاهرة ١٩٥٧ م .

الرماني (علي بن عيسى)

النكت في إعجاز القرآن (ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن) ، تحقيق خلف الله ، سلام ، دار المعارف ١٩٨٦ م .

الزمخشري (محمود بن عمر)

أساس البلاغة ، ط . دار الكتب الوطنية ، القاهرة ١٩٧٢ م .

الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل (مصورة دار المعرفة بيروت) .

سيبويه (عمرو بن عثمان بن قنبر أبو بشر)

الكتاب ، نشر مكتبة الأعلمي ، بيروت ١٣٧٦ م .

السيوطي (جلال الدين عبد الرحمن)

الاقتراح في علم أصول النحو ، تحقيق أحمد محمد قاسم ، القاهرة ١٩٧٦ م .

المزهر في علوم العربية وأنواعها ، تحقيق : محمد أحمد جاد المولى ، علي البجاوي ، محمد أبي الفضل إبراهيم ، دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة د . ت .

الشهرستاني (محمد بن عبد الكريم)

الملل والنحل (جزآن) ، تحقيق محمد فتح الله بدران ، القاهرة ١٩٤٧ م .

الصاحب بن عباد (أبو القاسم إسماعيل بن عباد)
الكشف عن مساوئ المتنبي (ضمن مجلد الإبانة عن سرقات المتنبي للعميدي) تحقيق إبراهيم الدسوقي البساطي ، دار المعارف بمصر ، القاهرة ١٩٦٩ م .
صلاح عبد الصبور
ديوان صلاح عبد الصبور ، ط . دار العودة بيروت ١٩٧٢ م .
عبد القاهر الجرجاني
دلائل الإعجاز ، تحقيق د. رضوان الداية ود. فايز الداية ، دمشق ١٩٨٢ م .
أسرار البلاغة ، رشيد رضا ، المنار ، القاهرة ١٣٦٧ هـ / ١٩٤٧ م .
العسكري (أبو هلال الحسن بن عبد الله)
كتاب الصناعتين : الكتابة والشعر ، تحقيق علي البجاوي ، محمد أبي الفضل إبراهيم ، عيسي البابي الحلبي ، القاهرة ١٩٧١ م .
الفروق اللغوية ، ط . مكتبة القدسي بمصر ، القاهرة ١٣٥٣ هـ .
الغزالي (محمد بن محمد أبو حامد)
المستصفى في علم الأصول ، المطبعة الأميرية ، القاهرة ١٣٢٤ هـ .
معيار العلم ، تحقيق د . سليمان دنيا ، دار المعارف بمصر ١٩٦٩ م .
المنخول ، تحقيق د . حسين هيتو ، دار الفكر بدمشق ١٤٠٠ هـ / ١٩٨٠ م .
الفارابي (أبو نصر محمد بن محمد بن طرخان)
إحصاء العلوم ، تحقيق عثمان أمين ، الأنجلو المصرية ط ٣ / ١٩٦٨ م .
العبارة (كتاب في المنطق) ، تحقيق محمد سليم سالم ، الهيئة المصرية العامة للكتاب العرب ١٩٧٦ م .
الخطابة ، تحقيق محمد سليم سالم ، دار الكتب المصرية ، القاهرة ١٩٧٦ م .
جوامع الشعر (ضمن مجلد تلخيص كتاب الشعر لأرسطو طاليس صنعة ابن رشد) تحقيق سليم سالم المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ، القاهرة ١٩٧١ م / ١٣٩١ هـ .
رسالة (مقالة) في قوانين صناعة الشعراء ، تحقيق عبد الرحمن بدوي (ضمن مجلد فن الشعر لأرسطو) ، دار النهضة المصرية القاهرة ١٩٥٣ م .

الفيروز آبادي (مجد الدين محمد بن يعقوب)

القاموس المحيط ، نشر مؤسسة الحلبي بالقاهرة .

الفيومي (أحمد بن محمد بن علي المقري)

المصباح المنير ، تحقيق مصطفى السقا ، مكتبة مصطفى البابي الحلبي القاهرة ١٩٥٠ م .

القالي (أبو علي إسماعيل بن القاسم)

الأمالي ، دار الكتب المصرية بالقاهرة (مصورة ١٩٧٥ م) .

قدامة بن جعفر

نقد الشعر ، مطبعة الجوائب ، القسطنطينية ١٣٠٢ هـ .

المرزباني (أبو عبيد الله محمد بن عمران)

الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء في عدة أنواع من صناعة الشعر ، تحقيق علي البجاوي ، دار نهضة مصر ، القاهرة ١٩٦٥ م .

الهمذاني (عبد الرحمن بن عيسى)

الألفاظ الكتابية ، نشر لويس شيخو اليسوعي ، بيروت ١٩١١ م .

المراجع العربية والكتب المترجمة

إبراهيم أنيس

من أسرار اللغة ، الأنجلو المصرية ، القاهرة ١٩٧٥ م .

اللهجات العربية ، الأنجلو المصرية ، القاهرة ١٩٧٢ م .

إبراهيم السامرائي

الفارابي وعلم اللغة (بحث ضمن مجلد : الفارابي والحضارة) بغداد ١٩٧٦ م .

إبراهيم مدكور

مقدمة (مدخل الشفاء لابن سينا) ، وزارة المعارف ، القاهرة ١٩٥٢ م .

مقدمة (العبارة من الشفاء) الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ، القاهرة ١٩٧٠ م .

في اللغة والأدب ، دار المعارف بمصر (اقرأ) القاهرة ١٩٧١ م .

ابن الأنباري (أبو البركات)

الإنصاف في مسائل الخلاف ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد القاهرة ١٩٤٥ م .

ابن الجراح (أبو عبد الله بن داود)

الورقة ، تحقيق عبد الوهاب عزام ، عبد الستار أحمد فراج ، دار المعارف بمصر د .ت . ط ٢ .

ابن هشام الأنصاري (أبو محمد عبد الله جمال الدين)

شرح شذور الذهب ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، المكتبة التجارية بالقاهرة د . ت .

أبو حيان التوحيدي (علي بن محمد بن العباس التوحيدي)

الإمتاع والمؤانسة ، تحقيق أحمد أمين ، وأحمد الزين ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ١٩٥٣ م .

إحسان عباس

تاريخ النقد الأدبي عند العرب (نقد الشعر من القرن الثاني وحتى القرن الثامن الهجري) . دار الرسالة ـ دار الأمانة ، بيروت ١٩٧١ م .

الأشناندانى (أبو عثمان سعيد بن هارون)

معاني الشعر ، تحقيق عز الدين التنوخي ، وزارة الثقافة ، دمشق ط ٢ ، ١٩٦٩ م .

الأصفهاني (أبو الفرج)

الأغاني ، ط . دار الكتب المصرية بالقاهرة .

ألف ليلة وليلة

الطبعة البولاقية بعناية الشيخ محمد قطة العدوي ، القاهرة ، ١٢٥٢ هـ (مصوّرة مكتبة المتنبي ببغداد) .

أمجد الطرابلسي

حركة التأليف عند العرب ، دار الفتح ط ٤ ، دمشق ١٩٦٩ م .

أنيس فريحة

ملاحم وأساطير من أوغاريت ، مطبوعات الجامعة الأمريكية بيروت ، ١٩٦٦ م .

أولمان (ستيفن)

دور الكلمة في اللغة ، ترجمة كمال بشر ، دار الشباب ، القاهرة ١٩٧٥ م .

أوليري (ديلاسي)

مسالك الثقافة الإغريقية إلى العرب . ترجمة تمام حسان الأنجلو المصرية ، القاهرة ١٩٥٩ م .

الفكر العربي ومكانه في التاريخ ، ترجمة تمام حسان ، عالم الكتب .

بروكس (كلينث)

المبدأ الدلالي : عنوان جزء من كتاب (النقد الأدبي) الذي صنفه مع ويليام ويمزات ، وقد نشر بترجمة محي الدين صبحي .

تمام حسان

اللغة بين المعيارية والوصفية ، الأنجلو المصرية ، القاهرة ١٩٥٨ م .

جرجي زيدان

الفلسفة اللغوية والألفاظ العربية ، دار الهلال القاهرة ١٩٦٩ م (بعناية مراد كامل) .

جيمسون (مايكل هـ .)

أساطير العالم القديم (أساطير اليونان القديمة) ترجمة د . أحمد عبد الحميد يوسف ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٧٤ م .

حسن إبراهيم حسن

تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي ، ط المكتبة التجارية ، القاهرة ط ٣ ، ١٩٥٣ م .

الدمرداش (د . عادل)

الإدمان مظاهره وعلاجه ، عالم المعرفة ، الكويت ١٩٨٢ م .

دي بور (ت . ج . دي بور)

تاريخ الفلسفة في الإسلام ، ترجمة عبد الهادي أبي ريدة ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ١٩٥٤ م .

ديتشس (ديفيد)

مناهج النقد الأدبي بين النظرية والتطبيق ، ترجمة محمد يوسف نجم ، دار صادر ، بيروت ١٩٦٧ م .

رمضان عبد التواب

فصول في فقه اللغة ، دار التراث ، القاهرة ١٩٧٣ م .

لحن العامة . دار المعارف بمصر ، القاهرة ، ١٩٦٧ م .

روز (هـ ، ج)

الديانة اليونانية القديمة ، ترجمة رمزي جرجس ، دار نهضة مصر القاهرة ١٩٦٥ م .

ريتشاردز (أ . أ .)

مبادئ النقد الأدبي ، ترجمة محمد مصطفى بدوي ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر ، القاهرة ١٩٦٣ م .

ريمون طحان
الألسنية العربية ، العدد رقم ١ ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ١٩٧٢ م .
زاكية محمد رشدي
السريانية نحوها وصرفها ، دار الثقافة للطباعة والنشر ، القاهرة ١٩٧٨ م .
زكريا إبراهيم
مشكلة البنية ، مكتبة مصر ، القاهرة ١٩٧٦ م .
السرخسي (شمس الدين محمد بن أبي سهل)
المبسوط ط . ساسي مط . السعادة بمصر ، القاهرة ١٣٢٤ هـ .
سعيد الأفغاني
في أصول النحو ، جامعة دمشق ط ١٩٦٣ م .
السكاكي (أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر بن علي السكاكي)
مفتاح العلوم ، المطبعة الأدبية ، القاهرة ١٣٦٧ هـ .
سليمان دنيا
مقدمة (معيار العلم للغزالي) ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٦١ م .
السيوطي (جلال الدين)
بغية الوعاة في أخبار اللغويين والنحاة ، تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم ، مكتبة عيسى البابي الحلبي ، القاهرة ١٩٦٥ م .
شكري محمد عياد
كتاب أرسطو طاليس في الشعر ، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر ، القاهرة ١٩٦٧ م .
شكسبير (ويليام)
(هملت) ، ترجمة جبرا إبراهيم جبرا (دار الهلال) ، القاهرة ١٩٧٠ م .
الملك لير ، ترجمة د . محمد مصطفى بدوي ، المسرح العالمي الكويت ١٩٧٦ م .
الشوكاني (محمد بن علي بن محمد)
فتح القدير (تفسير للقرآن الكريم) ، ط . مصطفى البابي الحلبي ، القاهرة ١٣٤٩ هـ .
طاش كبري زاده (أحمد بن مصطفى)

مفتـاح السعـادة ، تحقيق كامل كامـل بكري ، عبـد الـوهـاب أبـو النـور ، دار الكتـاب الحديث ، القاهرة .

العاملي (أحمد رضا)

ردّ العامي إلى الفصيح ، بيروت .

عبد الرحمن بدوي

أرسطو ، دار النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٤٤ م .

المنطق الصوري والرياضي ، دار النهضة المصرية ، القاهرة ط ٣ ، ١٩٦٧ م .

مناهج البحث العلمي ، النهضة المصرية ، القاهرة ط ١ ، ١٩٦١ م .

عبد العزيز الأهواني

الزجل في الأندلس ، معهد الدراسات العربية ، القاهرة ١٩٥٧ م .

عبد العزيز مطر

لحن العـامـة (في ضـوء الـدراسـات اللغـويـة الحـديثـة) ، دار الكاتب العربي للطبـاعـة والنشر ، القاهرة ١٩٦٧ م .

علي سامي النشار

المنطق الصوري ، منشأة المعارف ، الاسكندرية ط ٢ ، ١٩٦٣ م .

مناهج البحث عند مفكري الإسلام ، دار المعارف بمصر : القاهرة ط ٢ ، ١٩٦٧ م .

فائق متى .

إليوت ، نوابغ الفكر الغربي ، دار المعارف بمصر ، القاهرة ١٩٦٦ م . .

فُكْ (يوهان)

العربية ، ترجمة عبد الصبور شاهين ، الكاثوليكية ، بيروت ، ١٩٦٥ م .

فليش (هنري) .

العربية الفصحى ، ترجمة عبد الصبور شاهين ، الكاثوليكية ، بيروت ١٩٦٥ م .

فندريس (جوزيف)

اللغة ، ترجمة عبد الحميد الدواخلي ، ومحمد القصاص ، الأنجلو القاهرة ١٩٥١ م .

القزويني (جلال الدين محمد بن عبد الرحمن)

الإيضاح في علوم البلاغة ، مكتبة صبيح بالقاهرة د . ت .

الكازروني (علي بن محمد البغدادي ظهير الدين)
مختصر التاريخ من أول الزمان إلى منتهى دولة بني العباس تحقيق د . مصطفى جواد ، مديرية الثقافة ، بغداد ١٩٧٠ م .
الكفوي (أبو البقاء) ط . د . عدنان درويش ومحمد المصري ، وزارة الثقافة بدمشق ١٩٧٢ م .
كندراتوف (أ .)
الأصوات والإشارات ، ترجمة شوقي جلال ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٧٢ م .
كوستاز (لويس)
قاموس سرياني ، عربي ، الكاثوليكية ، بيروت ١٩٦٣ م .
كونتنو (ج .)
الحضارة الفينيقية ، ترجمة عبد الهادي شعيرة ، مركز كتب الشرق الأوسط ، د . ت .
مايّه (أنطوان)
منهج البحث في اللغة (في مجلد واحد مع منهج البحث في الأدب للانسون) ترجمة محمد مندور ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ١٩٤٦ م .
مجمع اللغة العربية بالقاهرة
المعجم الفلسفي ١٩٧٩ م .
المعجم الوسيط ط ٢ ، ١٩٧٣ م .
معجم ألفاظ القرآن الكريم ١٩٧٣ م .
محمد بدر
الكنز في قواعد اللغة العبرية
مكتبة الهلال ، القاهرة ١٩٢٦ م .
محمد سليم سالم
مقدمة المجموع (أو الحكمة العروضية لابن سينا) ، مركز تحقيق التراث ، القاهرة ، ١٩٦٩ م .

محمد عبد الجواد الأصمعي

مقدمة الأمالي للقالي ، دار الكتب المصرية بالقاهرة (مصورة ١٩٧٥ م) .

محمد عيد

أصول النحو العربي ، عالم الكتب ، القاهرة ١٩٧٣ م .

مستوى الصواب والخطأ . رسالة دكتوراه بدار العلوم ، القاهرة .

محمد مندور

النقد المنهجي عند العرب ، دار نهضة مصر ، القاهرة ١٩٧٢ م .

محمود فهمي حجازي

علم اللغة العربية ، وكالة المطبوعات ، الكويت ١٩٧٣ م .

منير البعلبكي

موسوعة المورد ، دار العلم للملايين ، بيروت .

مونان (جورج)

تاريخ علم اللغة ، ترجمة بدر الدين القاسم ، وزارة التعليم العالي ، دمشق ١٩٧٢ م .

نوري جعفر

اللغة والفكر ، مكتبة التومي ، الرباط ١٩٧١ م .

نيدا (يوجين أ .)

نحو علم للترجمة ، ترجمة ماجد النجار ، بغداد ١٩٧٦ م .

هُو (غراهام)

مقالة في النقد ، ترجمة محي الدين صبحي ، المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب ، دمشق ١٩٧٣ م .

هوميروس

الإلياذة ، ترجمة أمين سلامة ، مطبوعات كتابي ، القاهرة د . ت .

هيمن (ستانلي)

النقد الأدبي ومدارسه الحديثة ، ترجمة د . إحسان عباس و د . محمد يوسف نجم ط . دار الثقافة ، بيروت ١٩٦٠ م .

وارين - ويليك

نظرية الأدب ، ترجمة محي الدين صبحي ، المجلس الأعلى لرعاية الفنون ، دمشق ١٩٧٢ م .

ويمزات (ويليام)

النقد الأدبي (بالمشاركة مع كلينث بروكس) ترجمة حسام الخطيب ، محي الدين صبحي ، المجلس الأعلى لرعاية الفنون ، دمشق ١٩٧٣ م .

يوسف كرم

تاريخ الفلسفة اليونانية ، لجنة التأليف والترجمة ، القاهرة ط ٥ ، ١٩٧١ م .

المراجع الأجنبية

Auzias (J. M.)

.Le Structuralisme, Seghers (Clefs Pour), Paris 3e édition 1975.

Dauzat (A.), **Dubois** (J.), **Mitterand** (H.),

Nouveau dictionnaire etymologique et historique, Larousse, Paris 1968.

Dubois (J.), **Giacomo** (M.), **Guespin** (L.), **Marcellesi** (J.B.), **Mevel** (J.P.).

Dictionnaire de linguistique, Larousse, Paris 1973.

Georgin (R.),

Guide de langue française, édition André Bonne, Paris 1976.

Guiraud (P.)

La sémantique, Que sais - je? presses universitaires de France 8e édition, Paris 1975.

La stylistique, Que sais - je? presses universitaires de France, 8e édition Paris 1975.

Lyons (J.)

Linguistique gènerale (traduit par françoise Dubois - Charlier et David Robinson, Larousse Langue et langage) Paris 1970.

Eléments de Séantique, Larousse, Paris 1978.

Matoré (G.),

Histoire des dictionnaires français, sarousse, Paris 1968.

Mounin (G.)

La linguistique, Seghers (Clefs pour) Paris 1971.

La semantique, Seghers (clefs pour) Paris 1973.

Robert (Paul),

Dictionnaire alphabetique et analogique de la langue française, société du nouveau littré, Paris 1960.

Saussure (F.),

Cours de linguistique général, Payot, Paris 1975.

الفهرس التحليلي

ملحق

المعجم الدلالي (☆)

(☆) رأيت أن أجمع الألفاظ التي دُرِست دلالياً في الكتاب على نسق معجمي يسهل معه الرجوع إليها ، ومتابعة تحليلها الموجز أو المفصّل ، ومعرفة أبعادها الدلالية التطورية ، وأدرجتُ في هذا النسق كلمات معرّبة أو دخيلة .

من أعمال الدكتور فايز الداية

١ ـ الجوانب الدلالية في نقد الشعر في القرن الرابع الهجري/دار الملاّح دمشق ١٩٧٨ م .

٢ ـ علم الدلالة العربي (النظرية والتطبيق)/دار الفكر دمشق ١٩٨٥ م .

٣ ـ تحرير التنبيه للإمام النووي (معجم لغوي) تحقيق بالمشاركة مع د . محمد رضوان الداية/دار الفكر دمشق ١٩٩٠ م .

٤ ـ جماليات الأسلوب (١) الصورة الفنية في الأدب العربي/دار الفكر دمشق ١٩٩٠ م .

٥ ـ جماليات الأسلوب (٢) دراسة تحليلية للتركيب اللغوي/جامعة حلب ط ١ ١٩٨٢ م.

٦ ـ البلاغة العربية/جامعة حلب ١٩٨٥ م .

٧ ـ دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني تحقيق بالمشاركة مع د . محمد رضوان الداية ، ط ١ ١٩٨٣ . ط ٢ مكتبة سعد الدين دمشق ١٩٨٧ م .

٨ ـ معجم المصطلحات العلمية العربية للكندي والفارابي والخوارزمي وابن سينا والغزالي/دار الفكر ـ دمشق ١٩٩٠ م .

قيد الطبع :

معجم التطور الدلالي في لسان العرب لابن منظور .

معجم التطور الدلالي في أساس البلاغة للزمخشري .



علم الدلالة العربي

تلتقي في فصول هذا الكتاب معالم أصيلة للدلالة العربية في: ماهية الدلالة، والمنهج المعياري، والتطور التاريخي للدلالة، والمجاز، إضافة إلى الجمع بين تناول التراث والتوظيف النقدي الحديث في المعجم الشعري ودراسته التطبيقية.

إن البحوث الدلالية العربية تمتد من القرن الثالث الهجري إلى سائر القرون التالية مع أعمال اللغويين والفلاسفة والأصوليين والفقهاء والنقاد والأدباء، وهذا التأريخ المبكر إنما يعني نضجاً أحرزته العربية، وأصله الباحثون في جوانبها.

إن غاية هذا التناول التأصيلي للدرس الدلالي هي أن نشكل علم الدلالة علماً عربياً له شخصيته ليعطي تطبيقات حديثة لدى اللغويين والنقاد.

Arabic Semantics
'Ilm al-Dilālah al-'Arabī
By: Dr. Fāyez al-Dāyah

E-Mail: Info@Fikr.com
http://www.Fikr.com/

ISBN 1-57547-307-0
9 781575 473079